مذكرات عبده ريال
من القاهرة إلى الدوحة

رواية

محمد غزلان



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب : مذكرات عبده ريال

من القاهرة إلى الدوحة

المـــــــــؤلف : محمد غزلان

الطبعة الأولى 2012



إهداء

إلى أصدقاء الغربة القصيرة خارج الوطن والطويلة داخله.. إلى من تعاملوا والتقوا وتعاطفوا وتأثروا بعبده ريال .. إلى من رأوا عبده ريال شحما ولحما .. وإلى الذين تعاملوا مع نماذج من أمثال عبده ريال وعبده دينار وعبده دولار .. إلى أصدقائى ..

الأساتذة :

- ❖ عادل البرى طنطا
- ❖ عبد الله محمد على السيد بنها
- ❖ حسني غريب الجيزة
- ❖ المهندس خالد عوض غزلان مدينة نصر
- ❖ العزب الطيب الطاهر القرنة .. الأقصر
- ❖ سيد أحمد محمد العطواني .. أسوان

شكر واجب

جهد الإبداع لا يقارن بجهود الجمع والتصحيح والمراجعة .. ولذا وجب شكر الأستاذة الكبيرة نرجس صموئيل والأصدقاء الأساتذة عياد بركات ومحمود غراب وأسامة عبد المطلب على ما بذلوه من جهد لتكون هذه الرواية بهذا الشكل بين أيدى القراء .

مذكرات عبده ريال

(يوميات مصري يعمل بالخليج)

تؤرخ هذه الرواية فنياً لتجربة مر بها كثيرون من المصريين في الثلث الأخير من القرن العشرين ، وهي تجربة ما أطلق عليه الرحلة إلى الشرق أو إلى الخليج ، عبر عنها أكثر من أديب مصري ، مقابل الرحلة إلى الغرب التي عبر عنها أدباء الجيل الأسبق وهما رحلتان تثير المقارنة بينهما موضوعاً ثرياً وجديراً بالمناقشة أدبياً و حضارياً .

و مبدعنا محمد غزلان يقدم لنا تجربة بطله ابتداء من اسمه عبد الحميد محمد سعد فكه – مشوبة بالسخرية – ابتداء من اختياره هذا اللقب له فهو (« عبده ريال ... عبده فكه ... كلها فلوس ») . وهي سخرية تكشف عن نفسها بدءاً من الإهداء (إلى الذين تعاملوا مع نماذج من أمثال عبده ريال و عبده دينار و عبده دولار).

و تتميز الرواية بقدرة مبدعها على إثارة عنصر التشويق رغم طولها النسبي ، و تطعيمها من حين لآخر إما بالأمثال المصرية الشعبية أو بلفظ عامي أو غير عربي – قد يكون إنجليزياً أو خليجياً أو ينتمي إلى إحدى لغات الهند – تجسيداً لشخصية المتحدث أو لاستحضار المذاق المحلي . كذلك مما تتسم به الرواية الحرص على إيراد تفاصيل دقيقة لها دلالاتها و موظفة في خدمة الشخصيات .

وربما كانت شخصية صاحب البيجاما الكستور نموذجا مضخماً لكثيرين من الشخصيات المصرية العاملة بالخليج في الثلث الأخير من القرن العشرين « سبعة عشر عاماً قضاها وحده يدخر الفلس على الفلس .. جمع ما جمع من مال ، ربما يكون قد اشترى أرضاً في بلده ،

وقد يكون بنى منزلاً مثل الذي بنيته ، و قضى حياته بعيداً عن أسرته ، كان يظن و يعتقد و من المؤكد إنه كان يخطط للاستمتاع بماله .. و مات » .

إن محمد غزلان استطاع أن يقدم لنا عن طريق بطله عبد الحميد محمد سعد فكه – عملاً فنياً متفوقاً ، عاش تجربته في هزائمها و انتصاراتها ، و قدم لنا من خلاله نموذجاً لآلاف المصريين الذين عاشوا تجربة الغربة نحو الشرق بحلوها و مرها .

و بينما كانت لرحلة الأسلاف إلى الغرب إيجابياتها ، فإن رواياتنا تعلن أن رحلة الأبناء إلى الشرق كان لها انعكاساتها المادية ، أما انعكاساتها الحضارية كانت سلبية .

يوسف الشاروني

أكتوبر 2007

1

خرج « الميكروباص » من القاهرة المكتظة بناسها والمزدحمة بشوارعها الخانقة بفضل مهارة السائق الذى يبدو أنه تعلم قيادة السيارات فى السيرك القومى .. وبمجرد خروج السيارة وعبورها آخر نقطة مرورية فى العاصمة ، هممت أمد يدى لفتح النافذة بعد استئذان السيدة الجالسة بجوارى ، لم ترفض ولم توافق لكنها أمعنت النظر فى ملامحى .. وعلى شفتها نصف ابتسامة مما ظننته موافقة ضمنية .. يشق الميكروباص طريقه إلى قريتى .. الزراعات تغطى جانبى الطريق باستثناء بعض المبانى العشوائية المتناثرة فى الحقول مثل البثور .. أبنية لم تكتمل وأعمدة خرسانية يختلف أطوالها .. نمت بين أعواد الذرة لتشوه أفق الخضرة التى كانت مترامية ، هجوم تتار القاهرة إلى القرى القريبة منها وضمها عنوة إلى مدينتهم الخانقة المخيفة أضاع سكينة الريف وهدوءه .. لم تسلم قرية من الغزو ، القاهرة لم تمارس وحدها هذا النوع من الزحف اللا إنسانى بل سارت على حذوها بقية المدن ، تقطم كل يوم وليلة جزءا من قرية مجاورة تضمها إليها فى البداية بحنان وبعد فترة تلتهمها ، تبتلعها ، تهضمها وتذوب القرية الوادعة فى جوف المتوحشة .

الطريق يضيق ويتسع طبقا لعشوائية البناء ، إلا أنك لا تستطيع أن تشم رائحة بحرى إلا بعد عبور مدينة القناطر .. الجو بالفعل مختلف والتلوث الذى كنا لا نعرف حتى اسمه يصبح أقل والسماء صحو وتشعر أن الشمس أعلى ارتفاعا عن شمس القاهرة التى تصر على الالتصاق برؤوس الناس وأكتافهم ، الهواء يدخل رئتى مباشرة ، أشعر

أن صدرى يتسع لاستقباله بعد حرمان أربع ساعات أو يزيد قليلا قضيتها في هواء القاهرة المحمل بالغبار وروائح عوادم السيارات ، لم يستمر استمتاعى بهواء الريف طويلا .. بسبب المرأة التى بجانبى ، طلبت أو قل أمرت بإغلاق النافذة كلية أو إغلاقها جزئيا وأن نتبادل المقاعد وأجلس أنا بجوار النافذة مباشرة ، فهى لا تستطيع تحمل هذا الهواء الذى وصفته بالبارد !.

امتثلت للأمر ، أغلقت النافذة جزئيا وجلست بجوار النافذة ، الناس فى الريف غير ناس القاهرة خاصة فى المواصلات ، الكل يحنو على الكل ، الركاب جميعهم أقرب إلى الأهل من قرى مجاورة ، يعرف أغلبهم البعض من السحنة ، إلا أننى تعجبت من جارتى تلك وتملكتنى الدهشة عندما ذكرت قريتى واسم أمى وترحمت على والدى .. ولا أعرف كيف وصلتها قصة أخى الأكبر عطية ، تحركت للاستعداد للنزول فى قرية سمان وحملتنى السلام إلى أمى وإلى نبوية الداية أم فاطمة .. ولم تنس أن تذكر اسمها مقرونا بوظيفتها « أم شاهين الداية » وألقت السلام على ركاب الميكروباص ، وقبل أن يتوقف السائق وبختـه على رعونته وسرعته ، ونصحته بالمحافظة على أرواح من معه من البشر إذا كان لا يهمه المحافظة على السيارة .

ريَّاح شبين على يمين الطريق ، يحف ضفتيه أشجار الكافور الضخمة ويلامس ماءه أوراق شجر « شعر النبت » ، يحمل النسيم أطرافه ليغسلها فى مياه الرياح ليزيد اخضرار أوراقه خضرة تتلألأ فى ضوء الشمس .. النهار لم ينتصف بعد وآذان الظهر أمامه ساعة على الأقل ، مما جعلنى أفكر أن أعرج على صديق لى فى منتصف الطريق أبلغه أننى أنجزت المهمة التى خرجت من أجلها بعد صلاة الفجر مباشرة وها أنا قد عدت .. تركت كفر الخضرة ، وفضلت النزول فى « بير شمس » .. لم يستغرق الأمر وقتا ، بمجرد رؤيته لى وفى يدى الحقيبة الصغيرة ، علم أننى وفقت فى رحلتى ، أخبرته على عجل أننى حصلت على تأشيرة الحج لأمى وأحضرت تذكرة السفر وقمت بتغيير مبلغ من المال إلى ريالات سعودية ، وكل ما أخشاه إذا دخلت على أمى وحدى أن تنفجر فى البكاء .. كانت تحلم بأن تحج إلى بيت الله فى صحبة أبى إلا أنه تركنا .. حضوره معى ورؤية أمى له قد يؤجل بكائها أو ينسيها موضوع البكاء ، فهى تعرفه منذ زمن ، عندما كان يأتى لمنزلنا لاستذكار الدروس أو أذهب أنا إليه .

من « بير شمس » إلى قريتى أقل من نصف ساعة سيرا على الأقدام ، قد تطول المدة قليلا فى الصيف .. إلا أنها تقصر عادة فى الشتاء كما كان يقول أبى .. قبل دخول القرية لا أعلم لماذا توقفت أمام اليافطة « الصاج » التى كانت تحمل اسم قريتى .. لا يظهر من اسم القرية حرف واحد ، والسبب لا يعلمه إلا أنا وصديقى وبعض أهالى القرية وصبيانها .. كنا ونحن صغار عند العودة من المدرسة نلقى على اليافطة بكور من الطين.. كور الطين الجافة غطت اليافطة وأخفت تحتها حروفها .. توقفت تحتها .. بحثت عن قطعة خشب أزيل بها كورات الطين الجافة .. تعجب صديقى مما أفعل وذكرنى بأننى كنت من أشد الصبية الصغار إدمانا لإلقاء كورات الطين على هذه اليافطة .. تركته يتحدث عن شقاوة الطفولة وأزلت كل بقع الطين .. وظهر اسم القرية واضحا بعض الشىء ليراها كل قادم إلى الطريق .. الاسم أصبح أكثر وضوحا .. « تلوانة » .. لقد تحول الاسم إلى جزء من حياتى وجزء من لحمى عندما قرأته أول وآخر مرة فى بطن ساعد أبى عندما وضع الأطباء المحاليل فى أوردته قرأت اسمه .. واسم بلدتى .. مكتوباً على لحم بطن ساعده الذى ضمر وأوردته التى جفت .. « محمد سعد فكه » وتحتها « تلوانة ـ الباجور ـ منوفية » .. عُرف أهل الريف قديما ، كانوا « يدقون » الأسماء والقرى التى يتبعونها على بطون سواعدهم .

القرية يلفها هدوء غريب .. لا تسمع إلا صوت طلمبات المياه .. تغرف من ماء الترعة ، مازال الفلاحون فى حقولهم ، والتلاميذ فى مدارسهم ، والنساء يغسلن أوانى الطهى فى الترعة الصغيرة سبب البلاوى الكبيرة والأمراض غير القابلة للشفاء .. يعلمن ذلك ولا يبالين .. الحقول فى جانب والبيوت فى الجانب الآخر يفصل بينهما الترعة التى كرهها أبى فى أيامه الأخيرة كراهية التحريم .. حوارى القرية .. خمسة على شكل كف بأصابعه المختلفة ، إلا أنها كلها مسدودة ومنفذ الخروج من حارة إلى أخرى .. ممرات بين بعض المنازل التى تطل على حارتين ، فى الحارة الوسطى يقع محل صلاح عجوره ، وهو ليس محلاً بالمعنى المعروف ، لكنها غرفة من داره حولها إلى محل لمراقبة القرية كلها .

بمجرد رؤيته لى بصحبة صديقى ، خرج ليرحب بنا ويبارك لحجة أمى ويخبرنا أن هناك مشاجرة أمام دارنا مع « الواد المبيض » الذى جاء لدهان واجهة المنزل ونقش بعض الرسوم .. الواد المبيض يرفض كتابة اسم أمى على الحائط بكنيتها « أم عطية » ويصر على أنه لن يكتب اسم عطية أبدا وعلى أمى أن تختار أن تكتب « أم عبد الحميد » أو اسمها مسبوقاً بلقب الحاجة .. حاول صلاح عجوره أن يحكى ويحكى إلا أننى صحبت صديقى عبد الله إلى الدار فى الحارة المجاورة والتى كان يطلق عليها أبى اسم حارة « الإبهام » .

واجهة المنزل أصبحت فى بياض زهرة القطن ، جير أبيض غطى قوالب الطوب اللبن .. وصورة لباخرة وطائرة وجمل عليه هودج بألوان مختلفة حمراء وخضراء وزرقاء وجملة تقليدية مكتوبة بحروف مائلة بلون أحمر قانى « حج مبرور وذنب مغفور » وجملة لم تكتمل مبروك ياحاجة ... وهنا فيما يبدو اختلف الواد المبيض على كتابة اسم « أم عطية» لرفضه أن تخط ريشته الغالية اسم أخى الأكبر .. الواد المبيض له مبرراته لعدم كتابة الاسم والنساء اجتمعن حوله ، يؤنبنه بأنه لا دخل له فى المشاكل الأسرية والعائلية ، فهو مجرد مبيض ، ضرب الحائط فرشة ورسم عدة نقوش وكتب جملة أو أكثر وفى النهاية سيتقاضى أجره وعليه أن يفعل ما يؤمر به .. قالوا له : اكتب أم عطية أم قرد لا دخل لك البتة ، بل دفعته امرأة فى صدره وأضرب عن العمل منتظرا حضورى وها أنا قد جئت .

عطية ترك البلد ولم يتزوج من بناتها ، وأبوه مات وهو غاضب منه .. هذه أمور تخصنا نحن .. نعم .. لقد ترك عطية تلوانة وتزوج من فلسطينية فى الكويت حيث يعمل ويقيم إلا أن أبى لم يمت وهو غاضب منه .. كما أطلق هذه الشائعة صلاح عجورة وجعل أهل القرية يصدقونها ويتناقلونها ويزيدون فيها ويعيدون .. عطية أخى الأكبر ليس ابنا عاقا ، فهو حنون محب لأسرته ، أوصانى أبى قبل وفاته بمداومة مراسلته وعدم الانقطاع عن زيارته عندما يأتى فى أجازته السنوية ويقيم فى شقته التى اشتراها فى مدينة نصر . . رفضت الانصياع لأوامر الواد المبيض وأعطيته أجرته وتركته يرحل وبقيت الجملة كما هى دون استكمال « مبروك يا حاجة ...» خرجت أمى من الدار عندما سمعت صوتى وعندما رأتنى ورأت الحقيبة فى يدى ، ارتمت على تحتضننى .. أخبرتها أن جواز السفر والتذكرة معى ودعوت لها بحج مبرور وغفران الذنوب

، لم تمنعها رؤية صديقى من الانفجار فى البكاء .. أخذتها أختى هناء والنساء إلى داخل الدار .لعن الله صلاح عجورة الذى جعل سيرتنا على كل لسان .. استغل موقع منزله ومحله ليس فقط فى مراقبة أهل القرية ، ولكن فى بث سمومه بين أبنائها ولولا وصية أبى بأن نعامل الناس على قدر عقولهم ، لكنت قطعت لسانه وأغلقت محله بما لدى من معارف وزملاء و أصدقاء فى إدارتى التموين والصحة بالباجور .. اكتفى صديقى بشرب الشاى ورفض تناول الغداء معنا ، مؤجلا المناسبة لعودة أمى من الحج ، واعدا بأنه سيأتى لزيارتنا بصحبة أمه وأسر لى برغبته فى خطبة أختى هناء .. فرحتى كانت لا توصف ، فقد أوصانى أبى بالبلدة .. وبأمى وبأخى عطية وشد على يدى بقوة لم أعهدها .. قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة عندما جاء اسم هناء .

الأمور تسير فى الاتجاه الصحيح ، وكان أبى قبل وفاته .. كان يقرأ الطالع من كتاب مفتوح ، جزم بأن أخى لن يعود للبلد مرة أخرى .. إلا إذا قهرته الظروف خاصة أنه رشح له أكثر من عروس من تلوانة ومن البلدان المجاورة ، إلا أنه كان يتحجج بأن الوقت ما زال أمامه .. « و يُكوّن نفسه » .. هذا التعبير الذى أصبح على ألسنة المغتربين فى الخليج وانتقل إلى مصر، وعندما حاول أبى أن يستثمر بعض مدخرات عطية فى شراء بعض القراريط التى كانت معروضة للبيع فى زمام البلدة ، كان دائم التهرب ، رافضا فكرة الاستثمار فى الأراضى الزراعية وعندما عرض أبى عليه فكرة شراء منزل أو قطعة أرض فى الباجور لإقامة منزل عليها ، كان يسهب فى الحديث على أن الباجور تلك لا تناسب طموحه .

فى عامه الرابع بالكويت ، ظهرت عليه علامات الانسلاخ والرحيل وظواهر الاقتلاع من الجذور ، كان أبى يرغب فى تزويجه من « عب » أو خط الباجور وأمامه البنات كثيرات .. متعلمات مثله من سنجلف وبىّ العرب والفرعونية حتى سنتريس والنعناية ، إلا أن حديثه الدائم عن مجتمع الغربة فى الكويت جعل أبى على يقين أنه رافض العودة إلى طين الأرض .. كان أبى يقول إن عطية منذ صغره ، كان يتطلع ببصره إلى الطريق الصاعد إلى الباجور أو النازل إلى القاهرة وعندما يقف على الزراعية لا ينظر أبدا إلى البلدة، بل كان اسم تلوانة نفسه لا يعجبه وعندما كبر بعض الشىء أدرك أن ذلك قد يغضب أبى ، فوضع سره فى قلبه وأغلق عليه وعندما ذهب للدراسة في القاهرة ، اختلف مع زملائه من أهل القرى المجاورة .. كان يكره كلمة فلاح ..

وكان يفضل قضاء الإجازات فى الشقة التى استأجرها أبى لنا فى القاهرة .. كان لا يقضى الخميس والجمعة مثل بقية الشباب فى القرية وكان أبى يهبط عليه فجأة .. عمليات مداهمة ليتقصى أحواله وليتأكد أن الشقة لا يدخلها بنات أو نسوان من القاهرة حتى لا يفسدن أخلاقه !.

ليس صحيحا ما يشيعه صلاح عجورة عن أخى بأنه عاق وأن أبى مات وهو غاضب عليه .. كان عطية يحدث والده أسبوعيا من الكويت على تليفون العمدة .. التليفون الوحيد فى البلدة ثم على تليفون المنزل الذى أدخله بعد ذلك ودفع جميع تكاليفه .. اشترى لنا كل غال فى الكويت ، أهدى أمه أربع غوايش وكرداناً فى زيارته الأولى وأحضر لأبى عباءتين .. إحداهما بُنيَّة اللون والأخرى سوداء من أفخر الأصواف الإنجليزية .. كانت البلدة كلها تتحدث عنهما. البنية « أمبريال » والثانية الثلاث خمسات ، كانت العباءة البنى بالذات تثير حقد العمدة ولا أحد يعلم السبب .

أهدى عطية لأختى هناء فى أجازته الثانية أربع غوايش وحلقاً وعدة فساتين .. وترك لى حقيبة ملابس كاملة ما زلت أرتدى منها حتى الآن ، الأجهزة الكهربائية التى فى المنزل جميعها جاء بها من الكويت .. كان يصر على دخول القرية قبل المغرب فى سيارة بيجو كبيرة سبعة راكب .. محملة بأشياء وكراتين تفتح شهية أهل القرية لتخمين ما بها ، ظلوا يتحدثون شهورا عن البوتاجاز الضخم الذى أحضره معه والذى يستوعب فرنه خروفا كاملا .

أخى عطية ليس بعاق .. قد تكون الظروف قهرته أو الحب جذبه أو الطموح الزائد ركبه إلا أنه ليس بعاق .. وحتى صلاح عجورة نفسه مروج الإشاعات ضد أخى كان ينال جزءا من هداياه وكان يراسله سرا ويطلب منه إرسال أدوية ومقويات جنسية يبيعها لأهل القرية ، كما أن البالطو الذى يرتديه شتاء أحد عطاياه .. وهو البالطو الذى جعله يسخر من بقية أهل القرية ويسألهم متعجبا : كيف يقضون الشتاء بجلاليبهم تلك ولا يحتمون ببالطو مثل الذى يرتديه والذى أطلق عليه « قاهر الزمهرير » ؟ .. الشىء الوحيد الذى يفخر به من ملابسه أحد عطايا أخى عطية إلا أن فمه لا يغلق ولسانه لا يغفو وقلبه لا ينبض إلا بكراهية الناس ومما يهزمنى أن أبى أوصانى بعدم إظهار عداوتى له ومحاولة مجاراته عملا بمثل شعبى تداوله الناس للتعامل مع أمثال صلاح عجورة « اصبر على جارك السو « السوء» .. لتجيله داهية .. ليرحل » ! .

2

لعن الله صلاح عجورة الذي شغلني عن أمي ، انصرف الجمع من أمام الدار ، دخلت عليها في الحجرة الكبيرة ، حجرة الضيوف والتي تتوسطها ثلاجة عطية الكبيرة والمعلقة فيها صورة أبى والتي كبرها عطية ، وصنع لها إطارا مذهبا .. في أركان الحجرة بعض المقاعد المنخفضة وثلاث كنبات ضخمة وستارة كبيرة على نافذتها الوحيدة .. الستارة .. أيضا أحضرها عطية من الكويت وعندما علقت لأول مرة كانت حديث نساء القرية ، يأتين لزيارة أمي ويتحسسن الستارة وفشلن في تحديد نوعية قماشها وهل مصنوعة من القطيفة أو الستان أو الكتان أو من المواد الثلاث معا ؟ .

أمي ما زالت تبكى .. حيرتنا ببكائها منذ رحيل أبى ، إذا فرحت بكت .. وإذا حزنت بكت وإذا تبسمت أو ضحكت ، أنهت البسمة بدمعة تمسحها بظهر يدها وتأخذ استراحة قصيرة .. وتدخل في نوبة بكاء جديدة .. مكان أمي المفضل على الكنبة المواجهة لباب الحجرة تحت صورة أبى مباشرة ، وليست أمامها .. لا تجلس أبدا فى مواجهة الصورة الضخمة والتي فيما يبدو التقطت لوالدي وهو في الثلاثينيات من العمر .. حركت مقعدا منخفضا جلست عليه حاولت أن أخرج أم عطية من حالة الحزن المزمن وعيوني على صورة أبى وملامحه .. عيونه لها بريق غريب .. بها ذكاء فطرى .. شاربه عريض وليس كثاً مثل شوارب أهل المنوفية ، فكل محافظة لها سمات حتى في شكل الشارب .. فكرت ماذا أبدأ فى الحديث مع أمي .. هل أحدثها عن صديقى الذى طلب للتو يد هناء ، أو أحدثها عن أبى واشتياقنا له

واحتياجنا لعطفه وحنانه لو حدثتها عن أبى لانفجرت الأحزان بركاناً .. حدثتها عن قرب زيارتها للمسجد النبوى ، وملامستها لأستار الكعبة ، وتقبيلها للحجر الأسود وحذرتها من الاندفاع وسط طوفان البشر .. مسحت دموعها بظهر يدها كما تفعل ، وأشارت بإصبعها إلى أعلى .. فوق رأسها .. إلى صورة أبى .. كانت تتمنى أن يكون معها فقد وعدها عطية بأن يرسل لهما تذاكر السفر ومصاريف الحج وعندما أرسل مبلغا من المال العام الماضى ، أنفقه الوالد كله على الأطباء ومصاريف العلاج ولم يتبق منه شىء ورحل أبو عطية .. تحدثنى عن أبى وترفع إبهامها فى حركة رأسية متتالية إشارة إلى الصورة .. تلك الصورة التى تجلس دائما تحتها وليس أمامها !.

هل العشرة أو الحب أو الاثنان معا قد دفعا أمى إلى هذه الحالة .. لم أسمعه أبدا يناديها باسمها مجردا .. كان لا يدعوها إلا باسم أم عطية وهى .. لم تناده أبدا باسمه .. كان لفظ أبو عطية يخرج من بين شفتيها بشىء من الاحترام والتفخيم ، كانت هى صاحبة القرار فى البيت .. كلنا نعلم ذلك ، إلا أنها تحاول أن توهم القرية كلها بأن صاحب القرار هو أبو عطية .. عندما يعرض عليها شىء ، تؤجل البت فيه علنا أمام الناس متعللة بضرورة عرضه على أبو عطية .. وكان أبو عطية يتظاهر بالتفكير ويطلب فسحة من الوقت وتعلن أم عطية أن أبو عطية لم يتخذ قراره بعد رغم أنها صاحبة القرار داخل المنزل وهو صاحبه أمام الناس خارج الدار .

أبو عطية قصة .. قصة ريف مصر .. المنوفية الضيقة بأهلها .. الرغبة فى الخروج منها والعودة إليها ، البلهارسيا التى تنهش أكباد الفلاحين ، الشقاء والرضا ، القناعة والغيرة.. لو حدثتها عن أبو عطية لقضينا اليوم كله فى بكاء .. الحى أبقى من الميت .. هناء جاء لها عريس ، عدلت من جلستها .. تربعت على الكنبة .. بقايا الدمع فى عينيها تحول إلى بريق فرح ، حثتنى على المضى فى الحديث ، سألتنى إن كان العريس صديقى « بتاع بير شمس » .. وأومأت لها برأسى ، أعطيت لها بعض التفاصيل الجديدة عنه .. يعمل فى بنك التسليف فى الباجور .. استأجر هناك شقة من ثلاث حجرات بجوار المحكمة .. طلب يدها اليوم وسيأتى لزيارتنا بصحبة أمه بعد عودة أم عطية من الحج .. هناء لن تمانع ، قد تطير فرحا خاصة بعدما فسخت خطبتها العام قبل الماضى قبل وفاة أبى عندما أعاد لمحمود ابن صلاح عجورة هداياه وأخبره أن الفاتحة التى قرئت يعتبرها فاتحة على أمواتنا وأموات المسلمين وانتهى الأمر ، نادت أمى على هناء .. هرولت إليها .. سألتها عن رأيها فى صديقى ، الحياء أجبرها على خفض رأسها أخبرتها أنه طلبها وأن ربنا سيعوض صبرها خيرا ، وأنه أفضل ألف مرة من الصايع ابن صلاح عجورة .. انسابت الدموع من عيون هناء ، العريس موظف

محترم .. محاسب .. دخل الجامعة وتخرج ويعمل بالباجور ولديه شقة .. محمود بن صلاح عجورة .. ولد صايع . . معاه دبلوم .. ليس له مستقبل إلا فى دكان أبيه وعندما عاد من القاهرة بعد أداء الخدمة العسكرية تغير تماما وعندما اصطحبه أبوه لخطوبتها .. جاء الاثنان طمعا .. الأب يرغب فى تزويج ابنه دون أن يكلف نفسه شيئا والابن يرغب فى السفر للكويت مع عطية .. وعندما فشل عطية فى توفير الحصول على عقد عمل له « ساق العوج » حتى قرر أبو عطية فسخ الخطبة ويذهب كل منهما إلى حاله .. عريس بير شمس هادئ ومحترم ، لا مقارنة بينه وبين محمود بن صلاح عجورة .. وهناء تسمع ولا تعلق ، إلا أنها راضية .. مقتنعة بالقسمة والنصيب .. رفعت عينيها إلى صورة أبيها مثل أمها .. كانت فى حيرة .. نعم .. نحن فى أشد الحاجة إليه ، إلا أنه كان يعلم أنه سيتركنا .. كانت نصائحه الأخيرة لنا تدور كلها حول الجلد والصبر وسبل شق الحياة وتقبل صعوبتها والتعامل مع الشدائد .. كان أبو عطية قصة !.

المرض لم يهزم أبو عطية ، والظلم لم يكسر أبو عطية ، والشقاء لم يسحق أبو عطية .. عندما أنظر إلى صورته ، أتذكر اليوم الأول لذهابى إلى المدرسة وعودتى منها باكيا ، سخر تلاميذ الفصل من القرى المجاورة .. من اسمى ، عندما نادى علىّ المدرس ، بمجرد أن قال عبد الحميد محمد سعد فكة .. انفجر التلاميذ فى الضحك .. فكه .. فكه .. فكه !.. أنظر إليهم ولا أعلم لماذا يضحكون وإذ بالمدرس يأمرهم بالكف عن الضحك وعدت إلى دارنا حزينا لا أرغب فى الذهاب إلى المدرسة مرة أخرى ، لقد علمت حقيقة اسمى .. فكه يعنى قروش وملاليم .. فكه يعنى عشرين خرده ونصف فرنك وعشرين تعريفة وعندما عدت استقبلنى أبى .. فتح يديه واسعة لاحتضانى .. تساءل بخوف عن سبب بكائى .. أخبرته بأن التلاميذ سخروا منى ومن اسمى وكان درسه الأول الذى لن أنساه .. يحكى ويضحك .. اسمك فكه واسمى فكه واسم جدك فكه ماذا يضير هؤلاء الصبية ؟ .. احمد ربك أنك لست جحشا ولا حيوانا ولا قطا ولا معزة .. عرفت أن هناك الكثير من الأسماء قد تكون أسوأ من فكه وأصبح اسمى مصدر اعتزاز وفخر وعندما كان يسألنى بعض الصبية عن اسمى ،

كنت اختصره وأصبح عبد الحميد فكه .. كان أبى رغم خروجه من المدرسة قبل إتمام المرحلة الإبتدائية ، واسع المعرفة ، يحترم التعليم ، يرى أن الدنيا بها طريقان لا ثالث لهما .. إما التعليم أو الغيط .. التعليم يعنى بالنسبة له الدنيا الواسعة والغيط زرع وقلع ورى وحصد ودفع أبناءه الثلاثة للتعليم .. عطية خريج تجارة جامعة القاهرة وهى نفس الكلية التى التحقت بها على أمل أن يصحبنى معه إلى الكويت المليئة بالبنوك والشركات .. وأختى هناء دبلوم تجارة ، فقد كان على قناعة بأن دنيا البنت بيتها ، زوجها ، أولادها .

هذه الصورة تطل علينا التى تشع قوة وحيوية وشبابا حتى المرض لم يهزمها ، تعامل مع المرض بقوة وإيمان ، كان على علم بتطورات مرضه ، يعرف تاريخه ونموه .. وفى المراحل النهائية تعامل بصلابة .. كان يتعاطى الأدوية فى موعدها وهو يعلم أنها لن تؤخر موعده .. كان يدخل الإغماءة ، ويفيق منها ويطمئن من حوله وعندما فاق من الإغماءة قبل الأخيرة ، طلب مرآة صغيرة ليطالع صورته ، طلب منى أن أحضر له الحلاق فى الدار ليقص له شعره ، ويهذب له شاربه الذى كان يعتز به . وعندما كان يفشل الطبيب فى العثور على وريد لم يجف لوضع المحلول .. كان يلوم الطبيب ، لا المرض ، وكان يكثر من حمد الله .. ويضغط الآخر على ذراعه ليبرز وريدا مختفيا . وعندما يشعر بتحسن ، يطلب الخروج من المنزل إلى الغيط .

ستة قراريط نصيبه من إرث .. يطيل النظر إليها .. يتأمل شجرات الجازورين الثلاثة وشجرة البأس الوحيدة وشجرة الزانزلخت الهزيلة والنخلات الأربع التى اشتراها وغرسها لأبناء عطية ، لقد أوصاه عطية بغرس نخلة لكل طفل من أبنائه ، فقد أخبرته زوجته الفلسطينية أن أهلها فى نابلس يزرعون شجرة زيتون باسم كل مولود وأوصى والده بزرع نخلة بدلاً من أشجار الزيتون ، وقبيل موعد رحيله ، طلب من أم عطية وهناء عدم العويل أو الصراخ ومضى فى هدوء .. كنت جانبه وأم عطية على رأسه وهناء على باب الحجرة وكان أخوه وأخته اللذان ظلماه وأحبهما قد جاءا سريعا بعد أن طلبهما .

كانت عيناى مركزتين على انسياب المحلول فى وريده .. توقفت طويلا ، صورة ثابتة ظلت فى مخيلتى حتى الآن ، وستظل نقاط المحلول تنساب ببطء فى وريده وبطن ساعده المكتوب عليه بحروف كانت أكثر وضوحا عما رأيتها من قبل .. محمد سعد فكه وتحتها تلوانة ـ الباجور ـ منوفية .

لم يشتك طوال حياته .. كان يسمع عندما بلغ القرية أن أحد أبنائها تبوأ منصبا رفيعا فى الحكومة ، ذهبوا إليه فرادى وجماعات ، الكل يطلب وظيفة ، إلا أن المسئول ابن القرية كان حاسما ، لن يعين أحدا فى وظيفة أيا كانت ما لم يكن يعلم القراءة والكتابة .. عينه حارس أمن فى مصنع غزل شبين .. خفير .. شهر يعمل فى وردية الصباح وشهر فى وردية الظهيرة وشهراً كاملاً يقضى لياليه فى المصنع ويعود ليعمل فى الحقل .. الراتب جنيهات قليلة لم يعرفها طوال حياته وعندما صرف المعاش لأمى وأختى كان المبلغ تسعين جنيها شهريا .

راتبه القليل هذا أثر سلبا على نصيبه الشرعى فى الميراث ، فقد اتفقت عمتى مع عمى الآخر عليه وتركوا له ستة قراريط فقط والدار التى نسكنها .. الحجة أنه موظف يتقاضى راتبا .. وعياله ثلاثة بينما عمى لديه من الأطفال ستة وعمتى التى لم تنجب انحازت لأخيها الأكبر .. عندما رفض القسمة فى البداية لأنها ضد الشرع والدين حاولوا إدخال أطراف أخرى من القرية ، كان منهم صلاح عجورة .. رفض تدخل الغرباء ورضى بالقسمة الظالمة وأحب ظالميه وأوصانا بحب عمى وأولاده وعمتى وزوجها ولم يشتك .. كان على قناعة أن عطية وأنا وهناء سيعوضونه خيرا وأننا سنصبح أسياد البلد وأثرياءها كان يرفض المثل القائل « غير ولا تحسد » ويؤكد أن الغيرة والحسد صنوان .. الكراهية تحركهما ، كان يؤمن بالسعى ولكل امرئ ما سعى وعندما « طار » عطية كما كان يفضل أن يقول ، شعر بغُصة فى الحلق وغزة فى القلب ، خاصة عندما تزوج من الفلسطينية فى أرض الكويت .

أمى نسيت الحج وتذكرة السفر وريالات السعودية التى أحضرتها لها ، وبدأت تفكر فى الإعداد لزواج هناء ، واستبقت الأحداث واشترطت أن يتم عقد القران ليدخل صديقى ويخرج من الدار وقتما يشاء وطلبت أن لا أخبر أحدا فى القرية بأن هناء جاءها عريس من بير شمس ، حتى لا نثير غيظ صلاح عجورة أو ولده محمود ، وحتى لا يطلق شائعاته وقصصه مما قد يثير مخاوف العريس ، مفضلة أن أخبره مقدما عن ظروف خطبتها السابقة وأسباب فسخ الخطوبة وعندما طمأنتها بأنه يعلم كافة التفاصيل .. أشارت بأصبعها إلى أعلى .. إلى صورة أبى والقصص التى كان يحكيها عن صلاح عجورة .. هذا الفاسد المفسد الذى يغتال بلسانه كل أهل القرية ، لا يفرق بين غريب وقريب . ورغم ذلك كله يخشاه أهل القرية بمن فيهم العمدة .

صلاح عجورة حول دكانه الكئيب إلى مركز للإشاعات المدمرة ، فقد فرق بين رجل وزوجته بإشاعة أطلقها .. كل من يدخل القرية أو يخرج منها لابد أن يمر عليه .. فى العصارى يجلس شبان القرية ورجالها على مصطبتين .. بجوار الدكان .. المحل ليس فيه من البضائع سوى بعض قطع الصابون وعدد قليل من زجاجات زيت الطعام وزنك حلاوة طحينية يبيع منه بالشهور .. ونصف برميل مدفون فى الأرض .. ملئ بالجاز ، وراديو عتيق يضعه على أحد الأرفف يراه المارة ويسمعه بوضوح الجالسون على المصطبة . وعندما يأتى من لا يرغب فى جلوسه ، يغلق المذياع وأحيانا ، يطلب منهم مغادرة المكان لغلق المحل ليستريح بعض الشىء داخل الدار .

لا أحد يعلم ، متى جاء أبو صلاح عجورة إلى البلدة ، إلا أنه صنع لنفسه تاريخا مزورا .. يحكيه باستمرار وتحول مع مرور السنوات إلى حقيقة ، ورغم أنه بلغ من العمر ما يقرب من سبعين عاما أو يزيد ، إلا أن حديثه عن الجنس والإيماءات الجنسية تثير أحيانا بعض المترددين على مصطبته .. إذا اشترت منه امرأة قطعة صابون .. فهى تستعد للاستحمام ولديها جلسة عمل طويلة ، وإذا اشترت امرأة بقرش صاغ حلاوة طحينية ، فإنها تعدها لزوجها وستخفيها عن أطفالها ، فالحلاوة الطحينية لها مفعول السحر كما يقول فى الجنس ، وإذا اشترت امرأة لتر جاز .. ستشعل القنديل وليلها طويل .. لا أحد يعلم إذا كان صلاح عجورة قد تعلم فى الكتاتيب أو المدارس لمرحلة ما أو لا ، إلا أنه يصر على قراءة جريدة صباحية يوميا وتبقى الجريدة فى المحل يقرأها من يعرف القراءة فى البلدة لمدة أسبوع أو ما يزيد ، إلا أنه كان خبيرا فى خلق الشائعات لديه قدرة على حبك القصص والروايات .. ويشغل القرية كلها لدرجة أن أحدا لا يشغل نفسه بأصول عجورة أو حقيقة نسبته إلى هذه البلدة .

لقد طلَّق على ماضى مؤذن مسجد القرية ومأذونها الشرعى زوجته بسبب عجورة وعندما حاول ردها ، رفضت بشدة لأنه صدق هذا الكلب وأصرت على ترك منزل الزوجية وذهبت إلى أهلها فى بىّ العرب المجاورة وعندما جاء أقارب لها للتحقق من الرواية المثارة حولها ، قابلهم صلاح عجورة وحكى لهم قصة مغايرة وأفهمهم أن زوج ابنتهم على ماضى قارئ القرآن وحافظه قد زاغت عيناه على امرأة أخرى .. عزبة .. مات عنها زوجها ، وقرر تطليق ابنتهم لإصرار المرأة الأخرى على عدم الاقتران برجل متزوج ، ولهذا السبب طلق ابنتهم والتى لا تشوب سمعتها شىء ! .

صلاح عجورة حاول الاستظراف معها ذات مرة وخرج عن حدود الأدب واللياقة ، صفعته على وجهه وصفعها هو بطريقته .. كل من يدخل البلد أو يخرج منها من الأطفال والشباب والرجال وحتى النساء يسألهم إذا كانوا يعرفون سبب تواجد زوجة علي ماضي فى الباجور .. الكل لا يعلم ، إلا أنهم يسألون بعضهم البعض عن سبب ذهابها للباجور ، القصة نسجها ظهرا مدعيا أنه عاد لتوه من الباجور وشاهد انشراح .. إلا أنها عندما رأته أخفت وجهها بالطرحة .. وهو لا يعلم لماذا كانت فى الباجور .. ويريد معرفة السبب لعله يكون خيرا . البلدة كلها تتحدث عن زوجة الشيخ التى كانت فى الباجور وأخفت وجهها عن صلاح عجورة عندما شاهدها .. الخبر وصل زوجها .. سألها إذا كانت ذهبت إلى الباجور .. نفت ، سألها أكثر من مرة .. انفعلت عليه .. سألها إذا كانت شاهدت صلاح عجورة وأخفت نفسها عنه .. تشاجرت معه .. ضيق عليها الخناق .. بدأ يراقبها .. يخرج ويدعى أنه قد يعود متأخرا .. ثم يقتحم المنزل فجأة .. ضاقت من تصرفه ، غادرت المنزل والشائعة تدور .. ظلت فى بيت أهلها .. حاول ردها أبلغت أهلها بما يشيعه عجورة .. تأزم الموقف ، طلقها واكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان .

أمى لا ترغب فى أن يصل شىء إلى مسامع صلاح عجورة بخصوص هناء إلا يوم عقد القران . وقد أصرت على قراء ة الفاتحة وعقد القران فى يوم واحد وقبل سفرها إلى الحجاز .. انتقلت من مكانها تحت صورة أبى إلى الكنبة الأخرى فى مواجهة الصورة تماما بجانبى ، ووضعت على عجل كل خطوط الزواج العريضة وكل شروطها .. تتحدث ، وأن ضاعت من رأسها الفكرة ، نظرت إلى صورة أبى تستلهم بقية الحديث من عيونه وكأنه جالس معنا .. كنت مثلها ، أنظر من وقت لآخر إلى صورة أبو عطية ، ولا أعلم لماذا أشعر أنه أكبر من الإطار .. أكتافه العريضة أشعر وكأنها تغطى الحائط بأكمله .. يداه الخشنتان وكأنهما بجانبه خارج الإطار .. تلك اليدين اللتان كانتا تؤكدان حب الله ورسوله ، فهما يزرعان ولم يستخدما إلا فى الخير أو إماطة أذى ، فضلت أن نؤجل الحديث فى ترتيبات الزواج بعد عودتها من السعودية ، إلا أنها أصرت .. إما أن يحدث أو أنها ستصرف نظراً عن موضوع الحج حتى وإن ضاع عليها ثمن التذكرة ورسوم التأشيرة ، تحولت أمى من المرأة الباكية طوال الوقت بعد وفاة أبى إلى امرأة أشد حزما .

. جفت الدموع فى عينيها وما تبقى منها زادت عينيها لمعانا وإصرارا وبلغة حازمة كما كانت تفعل مع أبى داخل الدار ، تعاملت معى .. أوامر غير قابلة للنقاش .

عليّ الذهاب إلى بير شمس بعد هذه الجلسة وزيارة صديقى وإبلاغه بموافقة هناء على الزواج منه ومباركة أمى لهذه الزيجة والاتصال تليفونيا من الباجور لإخبار عطية بالأمر مع إخفاء الموضوع عن أهل القرية وصلاح عجورة وابنه محمود وعدم إبلاغ عمى أو عمتى وليفاجأ الكل قبل موعد سفرها بأن صديقى عبد الله بتاع بير شمس سيعقد قرانه على أختى .. وأنه جاء بصحبة أمه وأهله وذويه لتهنئة أمى بالسفر إلى الحجاز وأنهم استغلوا المناسبة لقراءة الفاتحة وعقد القران دون ترتيبات مسبقة .. وأن الفرح سيتم ليلة الزفاف .. خشية أمى من صلاح عجورة وابنه تظهر على ملامحها من وقت لآخر .. وتشدد على الحديث النبوي الذى كان يردده أبو عطية بالاستعانة بقضاء الحوائج بالكتمان .

صلاح عجورة .. هذا البلاء الذى ابتليت به القرية لا راد له ولا رادع .. كان صلاح لوحده بلوى انضم إليه ابنه محمود والذى تحول إلى بلطجى بعد عودته من القاهرة وانضمامه لأحد مرشحى الانتخابات وأصبح يده اليمنى .. كان أبى عنده كل الحق عندما فسخ خطوبته على أختى هناء ، لقد أخبره باستحالة سفره إلى الكويت وأن أخى عطية لن يستطيع خدمته ولن يستطيع أن يحصل له على عقد عمل أو ما يسمى بعدم ممانعة لدخوله الكويت وإذا كان يرغب فى الزواج من أختى دون موضوع السفر ، فأهلا به وسهلا وإذا كان يربط الزواج بالسفر ، فألف سلامه له والفاتحة التى قرئت معه يعتبرونها فاتحة على أرواح أمواتهم ونجح أبى فى فسخ الخطبة بهدوء بعدما اكتشف أن محمود عجورة أسوأ من أبيه وأن القراريط التى قد يرثها من أبيه بالإضافة إلى الدار والدكان ستكون بئس الإرث ، خاصة بعدما جرفه تيار الانتخابات « والصياعة » وأصبح أسوأ عنوان لقريتنا .. تلوانة .. الباجور منوفية .

كان أبى من القوة والحزم التى تمنع صلاح عجورة أو ولده محمود من ممارسة أى شكل من أشكال « الصياعة » أو البلطجة .. وأخذ محمود عجورة هداياه وانصرف واشتعل الحزن حينا فى جوانب الدار وصدر هناء إلا أنها بمساعدة أمى اجتازت تلك المرحلة بسلام ومضى كل منهما فى طريقه .. أدركت هناء مع مرور الأيام أن أبى كان على حق وأن محمود عجورة غير مناسب لها على الإطلاق وأن النصيب لم يأت بعد وأن الله سيعوضها خيرا وها هو عبد الله بتاع بير شمس قد طلب يدها وهو أفضل حالا من جميع الأوجه إذا قورن بمحمود عجورة .

3

ماذا يقول صديقى عبد الله عندما أعود إليه فى نفس اليوم .. لأزف له خبر الموافقة على طلبه .. وأنقل إليه ترتيبات عقد القران ، كما خططت لها أمى ، وهل سيوافق عليها أم لا ؟ .. كيف أخرج الآن من القرية ونحن قبل الغروب والجلسة قد نصبت أمام دكان صلاح عجورة وقد يسألون إلى أين سأذهب الآن ، كيف أرتب أفكارى أو أفكار أمى لعرضها على صديقى وأسرته وماذا لو طلبوا تأجيل عقد القران لحين عودة أمى من الحجاز .. لقد كانت فرحة أمى بطلب عبد الله ليد هناء لا توصف .. فرحة أنستها الحجاز ووفاة أبى وسفر عطية وزواجه من الفلسطينية .. ماذا يحدث لو فشلت خططها أو تأجلت أحلامها .. احتضنتنى وبكت وتمنت ألا تموت إلا بعد زواجى ومشاهدة أبنائى وأبنائهم .. خرجت من الحجرة .. جلست أمام شجرة التوت المواجهة للباب الرئيسى .. شجرة توت ذكر ، كان أبى يفضل الجلوس تحتها ، مؤكدا أن وجودها أمام الدار من فضل الله ، فهى تفرش ظلها على أكثر من نصف الدار .. كما أن عدم إثمارها جعل أمام الدار نظيفا ، فثمار التوت تتساقط بصفة مستمرة تحت أقدام الأشجار وتجمع الذباب وتدهس بالأقدام .. شجرة التوت الدكر لا تثمر .. تفيد ولا تضر ، ومن يرغب فى أكل التوت ، هناك شجر كثير مثمر غير بعيد !.

أحضرت أمى لى كوبا من الشاى ، وجلست بجوارى على الحصيرة تستكمل الحديث وتؤكد ضرورة إخفاء الأمر .. مرارا وتكرارا عن صلاح عجورة وابنه .. كان وجهها غير الذى شاهدته منذ سنوات ،

أبيض مشرباً بحمرة .. بياض أهل المنوفية الأصلاء .. لا اصفرار ولا هزال ، فأسرتها لم تتركها تنزل حقلا أو ترعة ، لم تضربها بلهارسيا أو أنكلوستوما ، شعرها أسود فاحم ، أزالت غطاء الرأس ، فنحن فى الحارة .. أمام دارنا .. لا غرباء يمرون ، ضحكت وأضحكتها عندما شاهدت خصلة شعر أنزلتها على جبهتها وكأننى أراها أول مرة .. « قُصة شادية » فنانة نهاية الخمسينيات وبداية ستينيات القرن الماضى .. كانت مثال الأنوثة الطاغية .. سألتنى لماذا أتطلع فى وجهها ؟. خجلت أن أجيبها ، أهدابها طويلة جدا وحواجبها كثيفة للغاية ، ارتشف الشاى واستكمل حديثى .. أنظر اليها وأنصت لها .. أخشى عليها من الفرحة ، فعندما كنا نفرح أو نضحك أو نتصايح ، كان أبى يختم الجلسة بعبارة تقليدية « اللهم اجعله خيرا ».

كان أبى يفخر دائما أن بلدتنا ليس فيها شيخ أو ولي أوعبيط يتجمع حوله الناس والصبية ، إلا أن عجورة وولده ، أصبح لهما مزار ودكانهما أصبح له رواد وتحول محمود عجورة بعد مجيئه من القاهرة وقضاء الخدمة العسكرية إلى عبيط وفتوة وبلطجى بعدما انخرط فى الانتخابات ، وخصص عضو مجلس الشعب راتبا شهريا له مقابل أن يأتى له بأخبار البلدة .. ومن معه ومن ضده وماذا يقولون عنه وعن أسرته ، وهل يتحدثون عن ثرائه وفساده والرشاوى التى يجمعها والإتاوات التى يفرضها مقابل كل خدمة يؤديها لأبناء دائرته .

تحول محمود عجورة إلى عبيط يردد عبارات العبطاء ، يعاكس الفتيات والنسوة دون خجل .. بعبارة فظة « يا زبدة سايحة !» . ويتندر عليه الفتيات والنسوة ، وبلا سبب وبدون مناسبة .. يقف ليقول فى الجمع أمام الدكان 048 منوفية .. فرز أول عيال نقاوة ومطقطقة .. وانتقلت العبارة على أفواه الشبان والأطفال الصغيرة .. 048 ، أصبح نداء محمود عجورة المفضل وأصبح أضحوكة البلد ، إلا أنها لم تسلم من لسانه ولسان أبيه.. المشكلة أن من كان يعرف أسرارهم قد مات ، ومن يخشونه قد انتهى ، وأصبح دكان عجورة أقوى تأثيرا من دوار العمدة ، خاصة بعد عودة محمود من القاهرة وارتباطه بعضو مجلس الشعب ، كان العمدة يخشى منهما أكثر من غيره ، فهو مزواج ولو طالته ألسنة عجورة وولده لخربا بيته .

المرور على دكان عجورة شر لابد منه لدخول البلدة أو الخروج منهـا ، قـررت النهـوض والاستعاذة من الشيطان الرجيم ومن عجورة والذهاب إلى بير شمس ولو سألنى أحد عـن وجهتى لأخبرته بمقصدى دون الدخول فى تفاصيل ، فهم يعلمون أن لدى أصدقاء فى بيـر شمس وبىّ العرب .. أصدقاء قدامى وزملاء دراسة سواء فى الباجور أو القاهرة .. مـررت على دكان عجورة .. ألقيت السلام .. لم يسألنى أحد عن وجهتى وكأنهم يعلمون أننـى لـن أخبرهم .. نصف ساعة أو أقل ، كنت فى دار صديقى عبد الله أخبرته بموافقـة هنـاء وأمـى وموافقتى وموافقة عطية رغم أننى لم أتصل به ، وأبلغته برغبة الحاجة فى عقـد القـران قبـل ذهابها إلى الحج ، حملت أمه لنا الشاى ، وانضمت للمجلس ، وأطلقت زغـرودة ، ودخلنـا فى التفاصيل .

« خير البر عاجله » .. الترتيبات لن تحتاج الى الكثير مـن المـال ، الشـبكة لـن تزيـد عـن دبلتين فقط وهناء لديها أربع غوايش وحلق ، كان عطية قد أحضرهم لها من الكويت ، من الممكن استبدال الغوايش الأربعة بغوايش جديدة ولن يكون الفرق فى السعر كبيـرا ، كمـا أن أمى ستقدم لها « الكردان » هدية ومن الممكن أن يزيد عبد الله بعض الشـىء إذا رغـب وأراد ، عـلى أن تقـدم الشـبكة عـلى صـينية كبـرى .. يشـاهدها كـل النـاس ، فهـذا هـو « سلو » أهل البلد المعروف منذ أزمان .. تقليد قديم .. تدور أم العروس على منازل القرية بالشبكة التى ستقدم لابنتها بعد أن تقوم أم العريس بنفس التقليد ، لم يمـانع عبـد الله ، بـل سيقوم بشراء خاتم وسلسلة ذهبيـة فى حـدود مائـة وخمسـين جنيهـا وسـتهدى أم عبـد الله العروس أسورة بعد أن يتم تليمعها فى محل الصائغ .

ترتيبات الشبكة حازت على الموافقة كما خططت لها أم عطية .. نأتى للعفش .. إذا كان يرغب عبد الله فى دفع مهر ، ويقومون هم بتجهيز البنت فلا مانع .. فمكافأة نهاية خدمة أبى تدخرها أمى كاملة ، لم يطالبها أحد بميراث فيها ، خاصة وأنها قررت أن تكون المكافأة لتجهيز هناء وإذا كان عبد الله لا يرغب فى تقديم مهر والمشاركة فى تأثيث عش الزوجية ، فهم لا يمانعون وستهدى الحاجة لهناء البوتاجاز الكبير الذى أحضره عطية من الكويت .. اتفقوا على جميع النقاط وقراءة الفاتحة فى منزل العريس لا تجوز ، إلا أن الأمر سيتم فى هدوء .. الشبكة يشتريها عبد الله وأمه ولا داعى لخروج هناء معهما .. والحاجة ستسافر يوم السبت .. وعقد القران سيتم الخميس وستعلق الأنوار فى تلوانة وسيتم الاستعداد للفرح من باكر وسيظن صلاح عجورة وولده محمود أن الاستعداد بمناسبة سفر أم عطية إلى الحجاز .. ولا داعى لدعوة أحد من القرى المجاورة .. فالفرح الحقيقى سيكون ليلة الزفاف ، على أن يكون عش الزوجية فى شقة عبد الله فى الباجور ولهما مطلق الحرية فى الانتقال للإقامة من بير شمس أو تلوانة .. نقلت لهم تعليمات أمى وشروطها وقبلوها دون تعديل واحتضنت صديقى عبد الله وشددت على يد أمه .. لقد أصبحنا أقارب « وليتم الله بالخير» والزفاف فى أجازة الصيف .. عندما يعود عطية .

فرحتى لا توصف بعد الشروع فى تنفيذ أول وصايا أبى .. كانت وصيته لنا .. هناء .. ثم استعادة أخى عطية .. ثم البلدة وتوفير كل مليم لشراء كل ما يعرض فيها للبيع .. سواء كانت أرضاً أو بيوتاً أو حتى ماشية وخرافاً .. وصاياه ثقيلة .. ماذا ستفعل فيها وحدك يا عبد الحميد .. يا فكة .. من بير شمس للباجور .. إلى السنترال .. مكالمة للكويت .. شخصية ثلاث دقائق فقط .. 617468/ 00965عطية محمد سعد فكه .. أخبرته بكل التفاصيل أبلغنا أنه سيقضى أجازته معنا .. هو وزوجته وأبناؤه الأربعة .. وسيحضر حفل الزفاف وسيشترى لهناء فستان زفاف لم تر البلده .. مثله من قبل .. وأن الحفل لابد من إقامته فى نادى بالباجور ، أخبرته بوصية أبى .. تلوانة .. تلوانة .. لم يمانع سيكون الحفل فخما وسيتولى هو كافة نفقاته وبعث بتحياته إلى هناء وأمى وإلى عبد الله وانتهت الدقائق الثلاثة .. وماذا عن بكاء أمى عندما أعود إليها !.

الحلقة منصوبة أمام محل صلاح عجورة .. ابنه محمود 048يجلس مع مجموعة شباب من القرى المجاورة .. يتحدث عن الانتخابات القادمة .. مذياع صلاح عجورة يصرخ بتعليق على إحدى مباريات الدورى العام لكرة القدم .. مجموعة من شباب القرية تمد أذنيها لالتقاط التعليق .. خرج صلاح عجورة من المحل يرحب بمجيئى .. وحمد الله على السلامه وانتظر برهة .. سألنى فجأة أين كنت .. هذا أسلوبه ويبدو أنه طريقة أهل تلوانة أجمعين .. كان أبى يقول « سهى اللئيم واسأله » .. اسأله فجاءة حتى لا يفكر فى الهروب من الإجابة .. كنت فى الباجور .. اتصلت بعطية فى الكويت .. أبلغته بسفر الحاجة إلى الحجاز يوم السبت القادم .. المعلومات كلها وصلت صلاح عجورة ، أما محمود والذى كان يسمعنا ، فقد طلب الا ستئذان منى للذهاب إلى الدار والسلام على أمى قبل سفرها .. لم أمانع .. وليذهب فى أى وقت يشاء وأنا فى قرارة نفسى لا أرغب أن أكون متواجدا فى المنزل حتى لا تطول جلسته وحتى لا يحاول فتح موضوعات قديمة قد أغلقت .. وحتى لا يتطرق إلى موضوع هناء أو تسقطنى زلة لسان وأخبره بأنها خطبت لصديقى عبد الله ، وأنهى محمود حديثه معى بالجملة العبيطة التى أحضرها معه من القاهرة 048 المنوفية .. فرز أول عيال نقاوة ومطقطقة !.

لا تبكِ بعد هذا اليوم .. دخلت بهذه الجملة على أمى حتى لا تبدأ « موشح العويل » .. لقد تم الاتفاق على كل شىء .. اتصلت بعطية فى الكويت .. سيعود فى الصيف ويحضر حفل الزفاف هو وأسرته وقد يحضر معه حماه .. سيشترى لهناء كل احتياجات الزواج .. لم تبك هذه المرة على هناء .. بدأت البكاء على عطية الذى « طار » كما كان يقول أبوه .. عطية الذى خطفه الرجل الفلسطينى وزوجّه ابنته ، كلامها عن الفلسطينى يكشف عن عدواة حقيقية وصراع مرير أشد ضراوة من الصراع العربى الإسرائيلي حيث دخلت تلوانة بؤرة المشكلة دون أن تدرى ، أخذت تحكى وتحكى عن عطية .. طفولته .. شغفه فى الحياة بالقاهرة .. سفره إلى الكويت .. الشباك التى نصبها الفلسطينى حوله .. ذكرت اسم الرجل .. عبد الله أبو عودة .. أخذ الولد عطية وطار إليه بلا عودة إلى وطنه وأرضه وتلوانة .

القصص كلها سمعتها من أبى قبل رحيله ، وسمعت جزءا من أخى عطية والذى ذهب للكويت عام 1976 بعد قضاء الخدمة العسكرية وحصوله على بكالوريوس التجارة قبلى بعامين ، حصل على عقد عمل فى شركة تأمينات كان رئيسه عبد الله أبو عودة .. اكتشف فيه الجدية والصلابة وخشية الله والتزامه ، كان عطية يتحدث عن المشاكل مع بقية الرؤساء باستثناء أبو عودة الذى كان يعامله كابن له ، ينصحه بالاستمرار والبقاء فى الكويت قدر استطاعته وأن يدخر ما يستطيع ادخاره وأن يستثمر هذه المدخرات فى أشياء جديدة غير الأرض والزراعة ، حبّبَه فى الفلسطينيين .. حكى له عن النكبة ودير ياسين وفظائع اليهود .. كان يستضيفه فى منزله كل خميس لتناول الغداء معه بين الدوامين .. عشق الطعام الفلسطينى .. كان يحدث أمه عن « المقلوبة » وكيفية طبخها وأنها خليط من الأرز والباذنجان واللحم وحمص الشام والزبادى .. أدمن مثل الفلسطينيين زيت الزيتون ، وعرف كيف يفرق بين الزيت النابلسى والغزاوى .. عرف الزعتر والمرمرية .. وأصبح فلسطينى المزاج والهوى ، رغم أصله المنوفى .. كسر المثل القائل بأن « المنوفى لا يلوف ولو أكلته لحم الكتوف » وتقرب من الفلسطينيين وتقربوا له بفضل أبوعودة الذى كان يشكر فيه دوما وفى أخلاقه .

تحكى أمى كيف « دحلب » أبو عودة الماكر عطية لتزويجه من ابنته ، ودخل عليه « بالحنجل والمنجل » وأفهمه أن الله خلق الناس شعوبا و قبائل ليتعارفوا ويتحابوا ويتزوجوا من بعضهم البعض ، ودخل عليه من المنطق الفلاحى والمثل المصرى « اخطب لبنتك وما تخطبش لابنك » قال له بحزم أنه سيزوجه فلسطينية من بنات عائلته ، إما ابنته البكر رضوى أو إحدى بنات أخته التى تقيم معهم بالكويت .. حسب تعبير أمى .. الولد « لان واستكان » قبل العرض .. وإذا بأبو عودة يعرض عليه ابنته الكبرى رضوى ويقبل عطية ويزف الخبر إلى أبيه فى خطاب مطول ، كانت صدمة لأبو عطية الذى رغب فى تزويجه من « عب الباجور » لتعميق الجذور وبسط شجرة العائلة على ربوع تلوانة وماحولها !.

تزوج عطية وأنجب أربعة أبناء ذكور ورضى أبى بالأمر الواقع وتقبله ، وحضر أخى عطية وابنه الأول وزوجته وأسرتها .. أمها وأبوها .. وأدرك أبى أن عطية « عرف يناسب » .. حموه عبد الله أبو عودة « رجل فهمان » فى كل شىء .. يحب زوج ابنته حبا شديدا ، تحدثا على مدار أسبوع كامل لم يذهب أبى خلاله للعمل فى مصنع غزل شبين .. تحدث مع أبو عودة فى أشياء كثيرة ، وأوصاه أبو عودة وعطية بزرع نخلة مع مجىء كل طفل من أبنائه ، مشكلة أمى أن حتى أسماء أبناء عطية أسماء فلسطينية : مازن وجهاد وعرفات وعودة .. لم يسم أحدا من أبنائه على اسم جده محمد سعد أو حتى فكة ، كما أنها لم تر فى زوجته رضوى جمالا ، طويلة ورفيعة وجامدة من بلد اسمها نابلس .. يعرفها أهل القرية من نوع من الصابون صنع بزيت الزيتون .. اسمه « نابلسى شاهين » ورغم الهدايا التى أحضرتها رضوى لأمى ولأختى فى زيارتها الأولى لتلوانة ، إلا أنها لم تخفف من موقف أمى والتى ترى أن رضوى وأباها خطفا ابنها عطية ! .. وأنها بـ « ضب صفراوية » .

أمى يبدو أنها تبحث عن البكاء بأى طريقة .. إن لم تبك على أبى ، بكت على هناء .. وإن لم تبك على هناء تذكرت عطية لتبكيه ، ذكرتها بأهمية أن أبلغ عمى بموضوع خطبة هناء وأن أذهب إلى منزل عمى وعمتى وأدعوهما لحضور عقد القران .. يوم الخميس قبل سفرها للحجاز وأن أشدد عليهما بعدم إخبار أحد إلا قبل الموعد بيوم واحد على الأقل ، حتى لا يثار عجورة وابنه وحتى فى حالة إخبارهما ، فأنهما سيكونان سندا فى حالة تهور الواد محمود ابن عجورة ، فعمى لديه من الأبناء ستة .. لم يفلح أحد منهم فى التعليم .. عملوا بالفلاحة ، باستثناء ابن عمى الأكبر الذى يعمل سائق سيارة ميكروباص على خط الباجور- القاهرة .. وهذا وحده كفيل للوقوف أمام عجورة وابنه فى حالة الشر ، أما عدم إبلاغهم بالموضوع ، فقد تتحول السرية إلى عزلة لنا ، سواء من أهل القرية أو من أسرتنا .

مسحت أمى دموعها التى يبدو أنها تجلبها من الرّيّاح الشبينى .. دموع لا تنضب كما تقول هناء .. تنهمر عندما تطلب منها الانهمار وتتوقف وتجف فجأة عندما تأمرها بالتوقف ، لم تمانع فى ذهابى إلى دار عمى ودار عمتى وطلبت منى أن أعرض عليهما الأمر وكأننى أستاذنهما .. « مكر فلاحين » وأننى فى انتظار موافقتهما حتى لا يشعران بأن الأمر « تحصيل حاصل » وأننا « طبخنا » الزيجة من وراء ظهريهما ، تفكير غاب عن ذهنى بالفعل .. كيف أذهب إلى عمى وأقول له اتفقنا وحددنا موعدا وعليك الحضور يجب أن أبدو أننى أعرض عليه الأمر وأنتظر بالفعل موافقته ، فقد كان أبو عطية يفعل نفس الشىء ، ولم تشتر أمى ذلك من بره ، كان يتظاهر فى كثير من الأحيان باستشاره كبار أسرته ، إلا أن القرار يتخذه قبل الذهاب .. علىّ أن أقنع عمى بالعريس وأن أحكى عن ظروفه الجيدة وأخلاقه ووظيفته ووضعه الاجتماعى والأسرى وأنه ليس مجرد موظف ، بل تمتلك أسرته عدة فدادين فى بير شمس ، وربما يكون قد سمع هو عن عائلته ، كما أننى يجب أن أشير له أنه زميل دراسة قديم من الإبتدائية حتى الجامعة حتى لا تأخذه النخوة ويسأل بغضب أين رأى هناء وكيف عرفها وغير ذلك من الأسئلة غير المجدية ، وعلى أيضا أن أذكره بسبب فسخ خطوبتها السابقة على محمود ابن عجورة وموقف أبى منه ومن أبيه ، ويجب ألا أنسى أن أبوح له بمخاوف أمى من رد فعل صلاح عجورة وابنه !.

وصية أبى أن نحافظ على علاقة القربى .. مع عمى وعمتى ، رغم أنهما « أكلوه فى الميراث » .. شعرت بقيمة الوصية عندما دخلت دار عمى ، كان أبى يبعدنا عن المشاكل وينصحنا بحب أهالينا ويحدثنا عن أهمية الترابط حتى ولو كان ظاهريا ، فرحة عمى بخبر خطبة هناء لا توصف وعندما أخبرته بأننى ذاهب إلى عمتى ، أمرنى بالجلوس وأرسل إليها من يطلبها .. تحدث طويلا عن حب أبى لهناء .. ترحم عليه ، عرفت قيمة التغاضى عن الأشياء الصغيرة .. عدة قراريط التهمها من ميراثنا .. لا يهم .. الأهم أن يكون هناك ترابط عاطفي وأن يتناسى الناس الأشياء الصغيرة مقابل الاهتمام بالأشياء الأهم .. بارك الزواج .. وأعلن أمام عمتى عن رغبته فى المشاركة فى تكاليف الزواج وعندما جاء ذكر صلاح عجورة وابنه ، أكد أن كل شىء انتهى والزواج قسمة ونصيب ،

وما رفضه أبو عطية فى حياته لا نستطيع قبوله بعد مماته ، أما الخوف من البلطجى ابن صلاح عجورة ، فهو مجرد « تهويش » لا أساس له وأنه فى حالة « جر الشر يا عورة » ، فإنه سيتصدى لصلاح عجورة وولده .. طمأننى أننى لست وحيدا فى تلوانة ، وأن لنا من أولاد الأعمام ستة « يسدون عين الشمس » .. وفى حالة تعرض عجورة أو ابنه لنا أو العريس ، فسيدفع الثمن غاليا ، فالقرية كلها .. نساؤها قبل شبابها ورجالها يتمنون الانتقام منه وطلب منى أن أعلق الزينات على المنزل من الآن .. وأن أذهب إلى الباجور وأحضر « عودين » أو ثلاثة من لمبات الكهرباء ، وأن أعلن للناس أن عبد الله صديقى تقدم لخطبة أختى ، هناء وأن العائلة قد وافقت وقامت عمتى لتطلق زغرودة أفزعتنى .. وعندما عدت للدار ، وأبلغت أمى أطلقت الزغاريد ، وتجمعت النسوة والفتيات ، وعلمن أن هناء قد خطبت وأن عقد قرانها الخميس المقبل على عبد الله بتاع بير شمس .. المحاسب فى بنك التسليف الزراعى بالباجور.

4

يوم جميل وصباح مشرق .. من الدار إلى الزراعية لم يصدمنى وجه صلاح عجورة أو ابنه .. لم يفتح المحل بعد .. الهواء النقى يملأ صدرى وإن كانت الزراعات بها بعض روائح « الكيماوى » .. الغيطان فيها بعض الناس الذين بدأوا الرى بعد صلاة الفجر ، البعض منهم يلتقط بعض الأعشاب من حواف الأحواض ، ويقوى جسور بعض القنايات .. لوحة أبدعها الخالق .. شرائط من الأرض مروية ، وأخرى نبتت فيها بعض الزراعات ، أحواض من البرسيم على مرمى الشوف وكأن مصر كلها تحولت لزراعته .. نسيم الصباح يداعب أوراق الشجر ويمسح بيده الحانية على النباتات الصغيرة وكأن النسيم يمشط شعور الفتيات .. عندما يتجه النسيم غربا ، تنحنى سيقان النبات للغرب وعندما يتجه بحرى للشمال ، تميل الأوراق والسيقان شمالا .

موجات مثل موجات البحر لكنها خضراء .. بكل درجات الخضرة .. كل شىء فى البلد كما كان منذ مئات السنين لم يتغير شىء سوى اختفاء مجموعات « أبو قردان » والذى وصفوه لنا ونحن صغار بأنه صديق الفلاح ، كانت العلاقة بالفعل بين الطائر والفلاح علاقة صداقة .. يسير أبو قردان غير خائف .. يقف بجوار الفلاح وهو « يعزق » الأرض أو يرويها .. يخوض فى ماء الرى والطين.. طائر نحيف يبدو أن ما يجمعه بالفلاح أكثر من الأرض والطين ، وتكشف نحافته أن البلهارسيا ضربته مثلما تضرب الفلاحين .

***

الطريق يبدو طويلا وضيقا لا يزيد عرضه عن مترين على حافته « قناية » تحمل المياه إلى القرية بطولها ، ورغم جمال الصباح لا أعلم لماذا هاجمتنى صورة جنازة أبى .. خرجت من نفس الطريق ورجال القرية ونساؤها وشبابها وأطفالها يسيرون خلفها .. كانت الخطوات بطيئة وكنا فى ساعة عصارى ، أرجع البعض بطء سير الجنازة إلى ثقل « الخشبة » التى تحمل جثمان أبى .. قالوا إنه يرفض أن يغادر الدنيا ويترك هناء .. الطريق ينتهى بالزراعية ـ الطريق السريع ـ الصاعد والهابط إلى ومن القاهرة ..الباجور وعلى اليمين المقابر .. مقابرنا .. مقابر فراعنة على « وش » الأرض .. خطوط الزراعة .. وخط القناية .. ذكرنا بأوردة أبى .. ذكرنا باللحظات الأخيرة وعيناي مركزتان على الأنبوب البلاستيك المنتهى بإبرة غرست فى وريد فى بطن ساعده .. واسمه المكتوب واسم البلدة .. محمد سعد فكه .. تلوانة .. الباجور منوفية .. الطريق خال من البشر ، إلا أن صورة الناس الذين يتدافعون لحمل جثمان أبى وتسليم النعش لبعضهم البعض ، جعلنى أتوقف برهة .. أفرك عينى ، فإذا بمحمود عجورة أمامى ! .

أفسح بين رجليه وأوقفنى بطريقة غير لائقة ، لم يلق تحية الصباح ، لكنه أشار لى بخرزانة يمسكها بيده .. متسائلا عن وجهتى فى هذا الوقت المبكر .. تحدث عن فضل أبى وأخى على أهل القرية جميعا وكيف قضى فترة التجنيد بالقاهرة فى شقتنا بالخلفاوى بشبرا مصر « كلام لا يودى ولا يجيب » ونط على موضوع هناء وكيف تم فسخ الخطبة وأن أبى ترك الباب مفتوحا ، عندما قال فى نهاية الجلسة « مصير الحى يتلاقى » ظن أن مثل هذه الجملة قد تمكنه من استئناف العودة إلى هناء .. أفهمته أن كل شىء راح وانتهى ، وأن الزواج قسمة ونصيب .. بدأ يزمجر ويلوح بالخرزانة فى الهواء .. لم أره بهذا الشكل .. ضخم .. عروقه نافرة ، عيونه تشع غيظا .. علا صوته .. تجمع بعض الفلاحين المتواجدين فى غيطانهم .. انشقت الأرض عن عمتى التى هاجمته بيديها الاثنتين .. ضربته عدة ضربات فى صدره .. امرأة قوية فى بداية الأربعينيات من عمرها .. لم يهدها حمل أو ولادة .. لعنته ولعنت أباه .. لا أحد يعرف سبب العراك ، إلا أنها استمرت فى صراخها وتهليلها تتهمه بقلة الأدب وعدم التربية والأصل الواطى وهددته إن لم يترك القرية هذا اليوم ، ستشعل النار فى دار أبيه ومحله .. أمرتنى أن أذهب إلى حال سبيلى وأن أتركه لها .. مسكت « بقبة جلبابه » مزقتها وتجمع المزيد من الخلق وبدأت تحثنى لمغادرة المكان ، معلنة أنها كفيلة به وأبيه وأهله .

كيف تحول الصباح الجميل .. هذا الصباح الذى يتغزل فيه المصريون دون غيرهم من شعوب الدنيا .. صباح الخير .. صباح الورد .. صباح الفل .. صباح اللبن الحليب .. صباح القشطة .. كيف تحول إلى صباح شر .. انتهى الطريق ، ورميت نفسى فى أول ميكروباص إلى الباجور .. إلى مقر عملى فى إدارة التموين .. مر اليوم بتثاقل غريب .. دعوت زملائى لحضور عقد قران أختى .. رجعت إلى بلدتى .. مررت بدار عمتى قبل أن أذهب إلى دارنا سألتها .. لماذا فعلت ذلك ؟ .. قابلتنى وكأن شيئا لم يحدث ، حدثتنى أنها سمعت الواد محمود يتحدث إلى أبيه ويهدد ويتوعد بإفشال زيجة هناء .. قررت أن تبدأ هى .. لا هو ! .. عندما رأته معى افتعلت مشاجرة .. استثمرت بقية اليوم .. اتهمته بأنه تعرض لها .. قال كلاما خارجا .. هددته وهددت أباه .. ما لم يغادر القرية ستذهب إلى الشرطة .. ستقدم بلاغا ضده .. ستتهمه بأنه حاول الاعتداء عليها فى الغيطان .. نعم هى عمتى لكنها امرأة لا تعرف الخجل ولا الكسوف وتعلم أن أى شيء تقوله على الواد ابن صلاح عجورة ستصدقه البلد كلها .. أمره أبوه بمغادرة القرية حتى تهدأ الأمور .. وأخبرتنى أن عقد قران هناء سيتم بهدوء ! .

عفريته .. فهى التى حرضت عمى ضد أبى وساعدته على التهام بضعة قراريط زيادة عن حصته فى الميراث بدعوى أنه صاحب عيال وكلهم لم يفلحوا فى التعليم بينما نحن .. أنا وعطية وهناء قد حصلنا على شهادات وأبو عطية يعمل ويتقاضى راتبا من شركة غزل شبين .. السفاهة أحيانا مطلوبة .. لا خير فى أمة ليس بينهم سفيه ، والخير فى عائلتنا طالما لى مثل هذه العمة والتى أنهت المشكلة برمتها بضربة واحدة .. ولم يستطع محمودعجورة أن ينفى اتهاما واحدا مما وجهته له ، فهو معروف بمعاكسته للفتيات والسيدات منذ عودته من القاهرة ، وحتى وإن لم يعاكس وأطلق صيحته 048 منوفية فرز أول .. عيال نقاوة .. ومطقطقة ، تظن النساء أن كلامه هذا .. أباحة ! .

الدار خلية نحل .. هناء وصديقاتها وأمى وجيرانها وأهلها .. الكل يجهز ليوم الخميس .. يوم عقد القران .. وإعداد بعض الأطعمة .. أفراحنا مثل أتراحنا .. قائمة طعام موحدة ، خبز ولحم وفاصوليا بيضاء وأرز بشعرية وأحيانا كفتة .. يضاف إليه فى الأفراح أحيانا « كسكسى » بالسكر أو الشوربة ليس لى علاقة بالطبخ والطبيخ .. مهمتى تنحصر فى إحضار المأذون ، وإقناع عمى بأن يكون وكيل العروس ودعوة الشباب لحضور الحفل الضيق ، ودفع تكاليف زينات الفرح التى أحضرتها من الباجور .. القرية لا تتحدث الآن إلا فى أمرين .. علقة محمود بن صلاح عجورة على يد عمتى وقرارها بإبعاده عن البلده ، وفرح هناء وعقد قرانها يوم الخميس .. واختفت بقية الأخبار .. بلدتنا للأمانة لا تتحمل نشرة طويلة من الأخبار .. كل ما تحتاجه خبرا واحدا .. تظل تلوكه وتضيف إليه وتعيده إلى أن يظهر خبر جديد .. خبر معركة عمتى وقران هناء غطى على خبر ترك زوجة المأذون ومؤذن المسجد الشيخ على ماضى لدارها .. وذهابها إلى أهلها .. وتطليق على لها بعدما أشاع صلاح عجورة ترددها على الباجور وأنها أخفت وجهها عنه مما زرع الشك فى قلب زوجها وانتهى الأمر واختفى الخبر من نشرة القرية اليوم .. الآن نحن فى حاجة للشيخ على ماضى لعقد قران هناء وعبد الله .

قريتنا مثل غيرها من القرى وسلوك الفلاحين واحد وأنا منهم رغم الشهادة الجامعية التى أحملها ، المشاوير تقضى كلها .. مشوار بعد مشوار وإذا دخلت الدار لا أخرج منه إلا فى اليوم التالى وأمامى مشوار الشيخ على ماضى صديق أخى عطية وحبيبه .. الاتفاق واجب قبل عقد القران .. ضريبة ورسوم الدمغة الحكومية على قيمة الصداق مقدمه ومؤخره بالإضافة إلى أتعابه ، سأصلى العصر وراءه فى المسجد ثم أحدثه فى الموضوع .

ثلاثة صفوف فقط من المصلين ، أغلبهم من كبار السن .. أنهى الصلاة وسلم ودخلنا فى الموضوع ، أقسم بالطلاق رغم طلاقه لزوجته بأنه لن يتقاضى مليما واحدا كأتعاب ، فخيرنا عليه .. خير المرحوم والدى .. وخير عطية و « شوًح » فى وجهى بمعصمه الذى تزينه ساعة عطية التى أحضرها له من الكويت .. ساعة أورينت مذهبة كان قد طلب من عطية « حتة رادو » .. عقد القران بعد عصر يوم الخميس ..

سأحضر له البطاقات الشخصية للعروس والعريس وبطاقات الشهود ولـن يسـتغرق الأمـر وقتا طويلا ، لقد اعتاد المشايخ ملء استمارات عقد القران الثلاثة مسبقا .. ويظهـر الـدفتر أمام الحضور .. يوقع العريس ووكيل العروس والشاهدان ، وتنطلـق الزغاريـد ، وتـوزع أكواب الشربات ويتناول الضيوف طعامهم وتنتهى الليلة .

كراسى خرجت من جميع منازل القرية ، وحضر من الضيوف والمهنئين ما لا أتوقعـه .. زمـلاء أبى وأصدقاؤه من غزل شبين ، معارفه من القرى المجاورة .. تقدم عمى ـ وكيـل العـروس ـ واعلن موافقتها ، ووضع يده فى يـد عبـد الله وانطلقـت الزغاريـد ، وشـاهد الحضـور الصـينية الاستيل الكبيرة التى وضعوا عليها شبكة هناء ، ووقع الشهود وانتهت المراسم .. لم يتغيب عـن الحفل من القرية كلها سوى صلاح عجورة والذى أغلق محله منذ الصباح الباكر معلنا أن لديـه مشوارا هاما فى مصر .. انتهى كل شيء كما خططت أمى له وكما وضعت عمتى بصماتها عليـه وكما أراد عمى وأصبحت هناء فى عصمة رجل ، وسافرت أمى للحجاز !.

لم تبك أمى ولم تدمع عيونها ليلة عقد القران .. ولم تنظر إلى صورة أبى المعلقة على الحائط.. ولم يشغلها الماضى وذكرياته .. حياة جديدة لهناء ووصية أخرى من وصايا أبو عطيـة يـتم تنفيـذها كما أراد وكأنه على قيد الحياة .. فرح جميل وبسيط .. الفرحة غطت القرية بأسرها .. نمـت ليلـة هادئة .. أفكر فى بقية الوصايا وأتمنى تحقيق كل الأحلام دفعة واحدة .. أحلم بالسفر والـزواج وإنجاب ستة من الأطفال مثل أولاد عمى ، إلا أننى سـأعلمهم جميعـا .. سـيدخلون المـدارس والجامعات ويتخرجون ويصبح لعبد الحميد محمد سعد فكه عزوة ، تلـك العـزوة التـى كـان يحلم بها أبى ، عزوة فى البلد وليس خارجها .. سأزرع لكل طفل يرزقنـى الله بـه نخلـة بجانـب نخيل أبناء أخى عطية .. سنزرع صفا من النخيل حتى ولو امتلأت القراريط القليلة نخلا ، نمت واستيقظت .. وجدت الدار لأول مرة فى حياتى خالية من أمى .

لم يشغلنى سوى انتظار الحاجة أم عطية وقدومها من الحجاز .. عبد الله يأتى معى كل خميس نتناول الغداء سويا وتجلس معنا هناء على استحياء بعض الوقت ويغادر دارنا قبل المغرب .. أتمشى معه حتى بداية الطريق الزراعى ثم أعود لأصلى المغرب وراء الشيخ على ماضى .. مرت الأيام فى بدايتها بطيئة .. تشكو هناء من اشتياقها لرؤية أمى ، تقضى بقية اليوم بعد انتهاء عمل المنزل بجوار التليفون الذى وضعناه على منضدة مقابلة لصورة أبى .. هذا التليفون هو الثانى فى القرية كلها بعد تليفون العمدة قام عطية بدفع مصاريف تركيبه بعد أن كاد صلاح عجورة أن يقنعه بتقديم خدمة للبلد وأن يقوم بتركيبه له فى المحل ويدفع له رسومه ويتحول إلى صدقة جارية يطمئن فيها أهل تلوانة عن أبنائهم الذين يدرسون فى القاهرة .. أو الذين يؤدون الخدمة العسكرية .. أو المسافرين .. وكل « نفر » سيطمئن على ابنه أو أخيه، ستوضع الكثير من الحسنات فى كفة أخى عطية .. وعده .. وقبل التنفيذ وصل الخبر إلى مسامع عمتى .. أتت إلى الدار .. اتهمت أخى عطية بالغباء والطيبة والعبط .. مرادفات متداخلة فى بعضها .. وإذا كان يرغب حقا فى التصدق وعمل شيء لله وتحويله إلى صدقة جارية يجب ألا يمر من « ناحية » بيت أو دكان صلاح عجورة ، فلا حسنات تأتى من جواره ولا صدقات تمر بجوار داره أو محله .. السيئات فقط تعشش فى داره ، وهو يريد التليفون لسماع أسرار الناس والاطلاع على شئونهم ليحكى ويتحاكى بها طوال الليل مع أقران السوء أمثاله .

حذرته من صلاح عجورة ونهرته وأمرته بألا يدفع له مليما للتليفون ، وإذا رغب هو فى أن يكون لمحله تليفون فليدفع من ماله وإذا أراد التسلى بأسرار الناس ، فعليه أن يدفع أيضا .. « اللى يروح السيما بيشترى تذكرة » وفى النهاية اقتنع عطية وأثنى أبى على رأيها وتم تركيب التليفون فى الدار ليصبح بالفعل صدقة جارية للاطمئنان على أهل تلوانة ، الا أن أمى جعلته لاستقبال المكالمات فقط وترسل إلى أهل الطالب أختى هناء ولم تسمح لأحد حتى أقاربها من الاتصال بالتليفون بدعوى أنه يستقبل المكالمات ولا يرسلها وأن عطية « عمل فيه حاجة » قبل سفره .. وصدق الناس وأخذ صلاح عجورة يتندر ببخل أم عطية والتى تمنع الناس من الاتصال من تليفونها بالرغم من نصيحة ابنها عطية الذى أوقفه صدقة جارية !.

ننتظر مكالمة .. رن التليفون .. أمى على الخط .. ستأتى الساعة الثامنة مساء .. أبلغت عمى وعمتى ، أصرت عمتى على الحضور معنا إلى المطار في استقبال أم عطية .. أخبرتها بنيتنا فى الذهاب إلى شقة الخلفاوى بشبرا مصر عصر الخميس لقضاء ليلة الخميس والجمعة وقد نعود بأمى إلى الخلفاوى لأنها قد لا تخرج من المطار قبل الواحدة ليلا ثم تستأجر سيارة بيجو صباح الأحد للعودة لتلوانة .. وافقت ، منتهزة الفرصة لتزور رئيسة الديوان السيدة زينب وتتبارك بمقام سيدنا الحسين فى يوم واحد واليوم التالى ستخصصه لزيارة السيدة نفيسة والسيدة عائشة وبعض الأضرحة الأخرى ، أفهمتها أن الرحلة لن تكون سهلة ، إلا أنها أصرت لرؤية المطار والطائرات .. أخبرتها أننا ضغطا للنفقات سنذهب إلى القاهرة بالمواصلات .. ميكروباص إلى المؤسسة فى شبرا الخيمة ومنها بأتوبيس إلى الخلفاوى شبرا مصر ، ثم سنذهب للمطار بالأتوبيس ثم العودة بأمى إلى شبرا مصر بتاكسى .. ثم نستأجر سيارة بيجو من شبرا مصر إلى تلوانة .. لم تمانع وتركت خبرا لزوجها واتجهنا إلى القاهرة .

بمجرد ضرب المفتاح فى شقة الخلفاوى ، ترحمت على أخيها أبو عطية الذى استأجر هذه الشقة فى « زمن الرخص » إيجارها ثلاث جنيهات فقط واختياره لشبرا لقربها من سكة الباجور ساعة ويطل على عطية ثم يعود . ظل عطية بها سنوات الدراسة الأربع ثم ذهبت بعده بعامين وأصبحت الشقة بالفعل مركزا لجميع أهل تلوانة .. أطلق عليها شباب القرية الذاهب للجيش اسم « منطقة تجنيد شبرا » حيث كانوا يحضرون إليها يبيتون ليلتهم قبل ذهابهم إلى القومسيون الطبى فى الزيتون وتحولت الشقة إلى استراحة .. من يأتى لزيارة مريض يعرج عليها .. وإذا أتى أهل البلد لزيارة أحد من سكان القاهرة ، باتوا فيها ليلة على الأقل وأطلق شباب الجامعة عليها اسم « مطار تلوانة » تيمنا بمطار المنوفية فى الخازندارة فى وسط شبرا الموقف الرسمى لجميع الاتوبيسات القادمة من كل مراكز المنوفية وما حولها .

انطلقت عمتى إلى أضرحة القاهرة ، وذهبت أنا للبحث عن بعض الأصدقاء القدامى بعدما اشتريت من الأطعمة ما يكفى لثلاثة أيام .. تركنا هناء بالشقة فهى لا تحب زحام مصر ولا تميل أصلا لسكان مصر .. اكتفت بمشاهدة التليفزيون العتيق الذى اشتراه أبى قبل تخرج عطية من الجامعة بعام .. تليفزيون قال عنه أنه « لقطة » وجد رجلا يعرضه للبيع .. اشتراه بعد فصال طويل .. دفع فيه خمسة وثلاثين جنيها .. لم يحمله إلى تلوانة وقرر تركه فى الخلفاوى .. ليقول إن له فى القاهرة شقة كاملة متكاملة .. بوتاجاز وثلاجة وتليفزيون ! كان أبو عطية بالفعل أوسع أهل تلوانة أفقا .. استأجر الشقة بثلاثة جنيهات بدلا من أن يقيم عطية فى المدينة الجامعية بالرغم من مصاريفها كانت تقترب من إيجار الشقة أو تزيد قليلا ، الشقة إيجار .. إلا أنه طوال السنوات الماضية كان يرفع قيمة الإيجار طواعية ثلاث أو أربع جنيهات فى المرة الواحدة ، حفاظا على علاقته بمالك العقار من ناحية ودرءا لطمعه فى الحصول على الشقة من ناحية أخرى .. لقد وصل ايجارها الآن إلى خمس وعشرين جنيها يدفعها أخى عطية بحوالة بنكية يرسلها من الكويت كل عشرة شهور ونجح أبو عطية بالفعل فى تجنب أية مشكلة مع مالك العقار ـ رحمك الله يا أبو عطية ـ وصدقت عمتى عندما وصفته بـ « أنصح ولاد تلوانة » ! .

عصر السبت .. تحركنا من الخلفاوى إلى المظلات سيرا على الأقدام ضغطا للنفقات ، تذكرة الاتوبيس إلى العباسية قيمتها قرش صاغ واحد .. مائة شخص يستطيعون ركوب الاتوبيس من المظلات إلى العباسية بجنيه واحد ومن العباسية إلى المطار .. التذكرة بخمسة قروش فى أتوبيس وصفوه بالسياحى .. أفواج من البشر فى طريقهم للمطار بانتظار وصول الحجيج .. سيارات ميكروباص مليئة بالبشر تلوح بأعلام بيضاء .. طائرة الساعة الثامنة تأخرت ساعتين .. لا أحد يجيب على استفسارات المستقبلين ، الأخبار تنتقل بينهم بالتتابع .. رجلا شرطة خلعا أحزمتهما ، يلوحون بها فى الهواء لإبعاد المستقبلين عن طريق خروج الحجاج ، حقائب ضخمة أضخم من حقائب عطية التى يحضرها معه من الكويت .. حجاج يحملون سجاجيد ومراوح كهربائية ،

والرحلة والحج والسفر جعلهم أضعف من أن يدفعوا العربات الصغيرة المحملة .. المحملة بماذا ؟ يقولون هدايا ، خرجت أمى .. تلقفتها هناء .. ارتمت فى أحضانها .. شاركتها عمتى .. لم تستطع الوقوف على قدميها .. خرجت من صالة المطار لتجلس على الرصيف المقابل .. معها حقيبة واحدة .. الإعياء بادى عليها .. أوضحت أنها فى مطار السعودية منذ السابعة صباحا والساعة الآن تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل .. جلست على الرصيف المقابل ، طلبت أن تنتظر بعض الوقت .. أخرجت هناء « جركن » بلاستيك مليئا بالماء كانت قد أحضرته معها .. بحثت عن سيارة أجرة تحملنا إلى الخلفاوى فى شبرا .. أصر السائق على خمسة عشرة جنيها .. ركبنا .. وصلنا شبرا فى ثلثى ساعة .. حمد الله على السلامة يا حاجة .. لم تنطق الحاجة .. أعدت هناء عشاء سريعا .. بيض مقلى وجبنة بيضاء وخبز .. تناولت الحاجة أم عطية كسرة خبز وتجرعت كوبا كبيرا من الماء وطلبت تركها لتنام .. بصوت واهن .. عاوزة أنام .. اتركونى أنام ! .

لم تستيقظ إلا عصر اليوم التالى .. وخوفا فى الدخول فى النوم مرة ثانية ، قررنا السفر إلى تلوانة .. لا نستطيع الدخول إلى البلدة ومعنا الحاجة فى المواصلات العامة لابد من سيارة أجرة من أمام الباب .. وبعد مساومة ، وافق السائق على الذهاب إلى تلوانة استفسر واستظرف عن سبب هذا الإسم .. خمسة عشرة جنيها كاملة .. ساعة ونصف كنا فى قلب تلوانة .. زحمة وناس وزينات معلقة ورجال غرباء عن البلدة ، ظنت عمتى فى بدايةالأمر أن الزينة لأم عطية .. تجمع حولنا بعض الصبية يتقافزون حول السيارة .. يرددون 048 هيتزوج .. 048 هيتزوج ! نظروا فى السيارة .. وجدوا أم عطية .. حمد الله على السلامة يا حاجة .. حمد الله على السلامة يا حاجة .

النهاردة فرح محمود بن صلاح عجورة .. نزل سهم الله على هناء .. أنزلنا الحقيبة الواحدة ، دخلنا الدار لم يشعر بنا أحد .. تلوانة كلها مشغولة فى فرح ابن عجورة ، جاءت بعض النسوة لتهنئة أمى .. سألتهم ابن عجورة هيتجوز مين ؟ .. خطب له أبوه من سبك الضحاك .. بنت من عائلة كبيرة .. أخوالها من أسطنها وباقى عائلتها ينتشرون فى أم القرين والبيضة وجروان والباجور .. قرر صلاح عجورة أن يكون عقد القران والزفاف فى ليلة واحدة .. واستأجر ماكينة كهرباء من الباجور ، ودعا كبار القوم والعمدة والمشايخ ، والزينات معلقة من ليلة الجمعة .. صلاح عجورة لن يترك ابنه دون زواج ، خاصة بعد عقد قران هناء على عبد الله بتاع بير شمس ! .

5

كل تفكير الأسرة يدور حول ، موعد حضور عطية من الكويت لإتمام زواج هناء ، كل خميس وبعد العصارى تحضر مجموعة من الفتيات صديقات هناء يزغردن ويدقن الطبول استعدادا ليوم الفرح ، كان حضورهن الأسبوعى بمثابة كيد لصلاح عجورة وولده محمود الذى تزوج من خارج القرية وكانت أمى تبالغ بالاحتفال بهن وربما لنفس الغرض وتعرض عليهن بعض ملابس وأشياء هناء التى أرسلها لها أخوها وزوجته من الكويت وتوقفت الحاجة عن البكاء ، بدأت تتجاهل صورة أبو عطية المعلقة على الحائط ، بل لاحظت أن جزءا من الستارة أصبح يغطى أكثر من نصف الصورة .. أم عطية بعد الحج أصبحت أمراة أخرى ، تكثر من الاستغفار ، وغطت طرف رأسها وأخفت القرط المتدلى من أذنيها ، قرط مخرطة كبير ، قالت أنها سمعت فى السعودية أن المرأة المسلمة يجب أن تخفى زينتها .. والقرط زينة ! .

ذابت الشوائب المترسبة فى علاقاتها مع عمتى والتى أكثرت من زيارتها لدارنا وتبسطت أمى معها . . كانت تطلب منها من وقت لآخر أن تسامحها إذا كانت قد أساءت اليها .. عمتى تتظاهر بأنها لا تضمر لها فى قلبها شيئا رغم خلافات السنين والغيرة الغريبة التى نمت بينهما ، عمتى عاقر لم تلد وأمى أنجبت ثلاثة ، أمى أصلا من خارج القرية من بين العرب المجاورة وكانت تتعالى على عمتى بأن قريتهم هى التى علمت قرى المنوفية كلها ، فمدرسة المعلمين كانت فى قريتها ومنها تخرج المدرسون .. كانت مدرسة كبيرة على مساحة ساشعة من الأرض تقبل الطلبة والطالبات بعد المرحلة الإعدادية ، يدرسون فيها لمدة خمس سنوات ثم ينصرفون فى قرى المنوفية ينشرون العلم ، بينما تلوانة نفسها لم يكن بها مدرسة ابتدائية واحدة.

بعد عودة الحاجة من السعودية ، تغير كـل شـىء وعـادت الميـاة إلى مجاريهـا .. عمتـى تزورنا باستمرار وزوجة عمى أيضا ، إلا أننى شخصيا كنت لا أشعر بارتيـاح مـن زيـارات عمتى المتكررة ، خاصة وأنها تعاملنى وكأننى طفل صغير ، توجه لى العديد من النصائح « البايخة » التى لا تخلو من الهمز واللمز وتتوقع أن أفعل ما فعله أخى وأن أتزوج من خارج البلدة ، إلا أن أمى كانت تؤكد لها أن عبد الحميد بالذات لن يتزوج إلا من تلوانة .. وكـان هذا التصريح الدافع الوحيد لعدم خلو دارنا من فتيات القرية مـن صـديقات هنـاء اللاتـى تفانين فى خدمة أمى وإظهار الاحترام لها .

كل نصائح عمتى قد لا تكون ذات أهميـة باسـتثناء نصـيحة واحـدة وهـى الـتخلص مـن الاستكانة حتى لا أكون مثل أبى ، وذكرت ذات مرة معركتها مع الواد محمود بـن صـلاح عجورة فى الغيط وأنها هى التى خلصتنى من أنيابه ولعنت التعليم الذى جعل الشباب مثـل البنات .. كانت نصيحتها غالية ،ما لم تأخذ حقك بيدك ..لن يحضـره أحـد لـك .. النـاس بتخاف من « المستبيع » وعليك أن تستبيع عند البحث عن حقوقك .. الناس تقـول فـلان مؤدب إلا أن الأدب لا يحمى حقا .

كانت دائمة المقارنة بينى وبين أبى وهى لا تريـد أن تقـول أن أدب أبيـك أضـاع حقـه فى الميـراث وأن اسـتكانته أطمعـت أخـاه فيـه وأن ضـياع حقنـا فى الميـراث سـببه الأدب والاستكانة ! .. « الأدب لا يحمى حقا » .. ولو كانت عمتى تعاملـت بـأدب مـع محمـود عجورة لاستمرت المشكلة إلى الآن .. هاجمته ومزقـت ثيابـه وثيابهـا وادعـت أنـه حـاول الاعتداء عليها ، مما دفعه هو وأبوه إلى الاختفاء حينا إلى أن تم عقد قران هناء بسلام ، لابد أن يدافع المرء بالفعل عن حقوقه بكل الطرق .. يجب أن تستميت فى الـدفاع دون مبـالاة بما يقال .. هناك معركة مؤجلة بالفعل مع عمى وعمتى ، وهى معركة القـراريط المنهوبـة منا ، والمعركة قد تحسم هذا الصيف بعد وصول عطية من الكويت و زواج هناء .

دون سابق إنذار ، هرع أطفال القرية لدرانا ، ليخبرونا أن سيارة كبيرة وصلت أول القريـة عليها زوجة عطية الفلسطينية وأولاده الأربعة ، السيارة شقت طريقها بصعوبة بـين أطفـال القرية ، وتوقفت أمام دارنا ، خرجت أمى وهناء وأنا لاستقبال رضوى زوجة أخى وأولاده ، بمجرد نزولها من السيارة احتضنتها أمى ، قبلتها أكثر من سـبع ثمـان قـبلات وبـدأت فى البكاء .. قبلت الأولاد ، بللت وجوهم بالدموع .. دخلت رضوى وأمى وهنـاء إلى سـاحة الدار وساعدت سائق السيارة فى إنزال الحقائب .

الناس الموجودون فى القرية أثناء وصول السيارة تجمعوا كلهم أمام دارنا بحجة ، قول حمد الله على السلامة ، والغرض متابعة إنزال الحقائب وعددها لتصبح فيما بعد حديث القرية ، أن لم يفعل أهلنا ذلك ، فهذه ليست تلوانة ـ الباجور ـ منوفية .. لم يتحرك الناس إلا بعد إنزال الحقائب جميعها ، عادت رضوى إلى باب الدار للتأكد من نزول كل الحقائب ، وقبل أن تسأل .. أخبرتها جارة لنا حضرت المشهد منذ بدايته ، أنه تم إنزال ثمان حقائب وصندوق كبير وعجلة صغيرة للمحروس ابنها ! .

لم ينصرف الحشد المتواجد أمام الباب وإن كان أغلبهم من الصبية والنساء ، إلا أنهم جاءوا ليشاهدوا الفلسطينية امرأة عطية وماذا أحضرت معها وعدد الحقائب وتركوا لأنفسهم العنان لتخيل ما بداخل هذه الحقائب ، جاءت عمتى وزوجة عمى على عجل ليرحبوا بزوجة ابنهم .. قبلات .. ورتب على الظهور والاعناق ورضوى تتفاعل مع مشاعرهم بود خالص وتجلسها أمى بجوارها على الكنبة المواجهة لصورة أبى .. قامت لتزيح الستارة عن الصورة وأجهشت فى البكاء .. كان أبو عطية يطل على الأسرة بزهو ، عيناه اللامعتان تقولان الكثير والكثير .. عيناه تذكرنا بالوصايا .. تحقق جزء منها و اجتمع شمل الأسرة .. ها هى تجلس أمامك يا محمد سعد فكه .. عمتى .. وزوجة عمى وزوجة عطية وأبناؤه الأربعة .. ها هى هناء وقد تم عقد قرانها .. وأمامها أسابيع وستزف إلى زوجها .. لم يعد إلا أنا يا محمد يا سعد فكة ، ما تبقى من وصاياك على أن أنفذه ، الهواء حرك الستارة بعض الشىء ، غطى على ما يقرب من ثلث الصورة .. أخفت الستارة عيون محمد سعد فكه النافذة .. رحمتنى من نظراته القاسية حينا والحانية أحيانا .. ترحمت عليه وعلى أمواتنا وأموات المسلمين .

لم أعرف سر الحنان والمحبة المفاجئة التى هطلت على أمى الحاجة أم عطية ، تقوم من وقت لآخر لتقبل رضوى الفلسطينية ، تسألها عن عطية وأخباره ومتى سيصل ، تسألها عن أهلها فى الكويت ، أما أهلها فى فلسطين ، فهى تعرف أخبارهم من التليفزيون .. أصرت على أن تنام رضوى وأبناؤها الأربعة فى حجرتها الكبيرة ، تلك الحجرة التى كان ممنوع الاقتراب منها ونحن صغار وظلت الحجرة التي لا نعرف ما بها حتى عندما صرنا كبارا .

كل ما نعرفه أن بها سريرا ضخما عاليا من النحاس الأصفر وثلاث كنبات كبار وصندوقا ضخما تحت السرير .. وناموسية تلف السرير بأكمله وسجادة صوف من دمنهور على الأرضية وبعض اللوحات الغريبة التى كان أبى « يستلقطها » معلقة على الجدران ولوحة عليها آية الكرسى .. ولم تضف إليها أمي من الأثاث منذ اقترانها من أبى سوى دولاب خشبى ضلفتين اشتراه أبو عطية بالتقسيط بعد التحاقه بشركة غزل شبين ، حملت حقائب رضوى بمساعدة هناء لإدخالها إلى حجرتها ، وكان هذا التحرك إيذانا للضيوف بترك رضوى وأولادها للاستراحة من مشقة السفر .. خرج الضيوف والمهنئون بسلامة الوصول من الدار وأغلق الباب على أسرة محمد سعد فكة وأحفاده .

لا حديث للقرية ، إلا عن الفلسطينية التى جاءت لوحدها من الكويت إلى تلوانة .. ركبت طائرة .. ثم ركبت سيارة ودون أن يدلها أحد وصلت إلى القرية التى زارتها مرة واحدة .. ومن الصباح الباكر ، أرسلت أمى بعد أن فتحت الحقائب الهدايا التى أرسلها عطية إلى كل شخص باسمه ، شال حرير أسود لعمتى .. عباية صوف امبريال لعمى ، جلباب مطرز بالقصب المذهب لزوجة عمى ، قطعة قماش صوف للشيخ على ماضى ، واحتفظت بجلباب لنفسها كان عطية قد أرسله إلى زوجة على ماضى التى طلقت .

وعند الظهيرة ، عادت النسوة والفتيات مرة أخرى إلى دار محمد سعد فكة .. لتخرج لهن أم عطية فستان الزفاف التى قامت رضوى بنفسها بتطريزه لهناء .. الفلاحون لا يعرفون نوعية الأقمشة الحريمى ، معرفتهم لا تزيد عن الستان والحرير والقطيفة لملابس الخروج ، وعرفوا مؤخرا الديولين والداكرون .. ولملابس المنزل نوعية أخرى من الأقمشة لا تخرج عن رمش العين والكستور والدبلان .. الفستان ليس من هذه النوعيات على الإطلاق .. رفعته أمى بيدها إلى أعلى وكأنه فستان عروسة المولد .. يقف متماسكا .. أبيض شاهق البياض به فصوص ، بعض النسوة قالوا أنه لا يمكن أن تكون فصوص الماس .. وانطلقت الزغاريد .

قالت إن عطية أرسل أيضا لأخته بطاطين وشوكا وسكاكين .. فرشت الأرضية بالأشياء التى أحضرتها رضوى معها وقالت أن هناك أشياء أخرى سيحضرها عطية معه !.. حديثها إعلان كيدى ترغب فى أن يصل إلى مسامع صلاح عجورة وابنه محمود وبالرغم أن كل شىء « راح وانتهى » .. إلا أنها تلوانة ـ الباجور ـ المنوفية .. والتى اعتادت أن تخفى عداوتها حينا وتظهرها أحيانا فى رسائل متبادلة لا يفهمها إلا الغرماء ! .

أهل البلد أيضا نالهم من هدايا عطية نصيب ، فقد أرسل جلاليب وسجاجيد صلاة وولاعات إلى بعض الناس بأسمائهم ، كما اختص صلاح عجورة بساعة جيب بسلسلة طويلة كان قد طلبها منه قبل سفره الأخير وحاولت أمى مصادرتها وألا ترسلها له وأمام إصرارى على أنها أمانات ويجب أن تؤدى لأصحابها ، أعطتنى إياها لأسلمها لصلاح عجورة ، هذه الهدية الغامضة ماذا يهدف أخى عطية من ورائها ؟ .. فهل هى نصيحة أبو عطية أو أنه يرغب أن يقول لصلاح عجورة أننا أهل وجيران قبل محاولة النسب وبعد فشل خطوبة هناء ؟ .. هل يهدف إلى إسكاته أو أن التزامه يؤكد طيب منبته ؟ .. مشكلة عطية الحقيقية ، أنه لا يكشف نواياه لأحد وهذا ما كان أبى يردده بصفة دائمة عندما كان يقول « محدش يعرف إيه فى دماغه !» .

اليوم الخميس ، مر على عبد الله فى المكتب ، وذهبنا إلى دارنا كالعادة منذ أن عقد قرانه على هناء .. يتغدى معنا وأرد أنا له الزيارة أو أمى وأختى فى منتصف الأسبوع ، الحارة تغيرت ، أضاف لها أولاد عطية جوا جديدا .. صبية فى مثل أعمارهم تجمعوا للعب معهم .. فريق يلعب كرة القدم وفريق آخر ينتظر كل منهم دورهم فى ركوب دراجة مازن التى أحضرتها له أمه من الكويت ، نهرت صبيا ينادى عليه بلقب « الفلسطينى » إنه مصرى .. ابن مصرى .. من تلوانة ـ باجور ـ منوفية ، خجل الصبى واعتذر .. الحارة مليئة بصبية صغار جاءوا من الحوارى المجاورة ليلعبوا مع أبناء عطية .. طعام الغداء جاهز ويبدو أن أمى فشلت فى اقناع رضوى وهناء أن يتناولا الغداء معا وأتناول غدائى مع صديقى عبد الله كما تعودنا وحدنا .. « طبلية » كبيرة كانت اختفت من الدار .. عادت للظهور عائلة كبيرة أيضا تجلس حولها .. أمى بحوارها رضوى وهناء والصبية الأربعة وأنا بجوار صديقى .

حديث رضوى زوجة أخى لذيذ وظريف ، جلست بيننا وقد غطت رأسها بشال كبير .. مفردات لغتها ليست غريبة على الإطلاق .. كانت تنادى أمى من حين لأخر بـ « ماما » وهناء بـ « أختى » كانت تكثر فقط من كلمتين .. عفوا .. ولطفا .. قالت: إن عطية أرسلها هى والأبناء وسيصل بمشيئة الله بعد ثلاث أسابيع وسيتصل تليفونيا لتحديد موعد الزفاف ، فهو لا يريد أن يقضى أجازته فى الإعداد للحفل ، على عطية وعبد الله أن يفعلا كل شىء وسيأتى قبل الموعد بيومين و« لسنت » عن سبب عزوفى عن الزواج وسألت عبد الله إذا كان لديه إحدى القريبات التى تناسبنى وهنا تدخلت أم عطية مصرة على أن زواجى سيكون من بنات تلوانة ورشحت العروسة .. فاطمة الحلوة بنت نبوية الداية ! .

الترشيح مفاجأة لى .. لم تتحرك اللقمة فى فمى ولم أستطع ابتلاعها .. أنوى بالفعل أن أفاتح أمى فى خطبتى بعد الانتهاء من زفاف هناء .. فى قريتنا هناك فاطمتان .. فاطمة شفتورة وفاطمة الحلوة .. الأولى لها شفاه غليظة جعلت الصبية يطلقون عليها اسم شفتورة وعندما تشاجرت أمها مع الصبية وأهاليهم بسبب هذا الاسم امتنع الصبية عن ذكر كلمة شفتورة وميزوا فاطمة الثانية بفاطمة الحلوة .. لم أنطق ولم أعلق على ترشيح أمى وربما كانت تتابع عن بعد شغفى بفاطمة الحلوة وربما تكون أمها قد فاتحت أمى ، إلا أن رضوى تساءلت عن سبب المسمى وهل هى فعلا حلوة وعن رأيى.. رمقنى عبد الله بنظرة ، أما هناء فالضحك يكاد يخنقها ولم تستطع الكلام !.

عندما قلت « موافق يا أمى » .. خرجت الحاجة عن وقارها وأطلقت زغرودة ، أصابت أولاد عطية بالفزع وحمدت أختى الله وأنهت أكلها وقامت فيما يبدو لبث الخبر .. وكانت لأمى أسبابها فى اختيار فاطمة الحلوة دون غيرها من فتيات القرية ، ميزة رضوى زوجة أخى أنها تسمع أمى بكيانها كله وتجيد الإنصات ، لقد تحولت إلى جزء من أخى عطية ، حتى ضحكته انتقلت إليها ، فاطمة فى رأى أمى الأنسب ، فهى دبلوم تجارة ولا تعمل ونبوية الداية شديدة ، قامت بتربيتها « صح » .. كما أنها لم تنزل غيط ولم تغوط فى قناية ولم تخرج مع الفتيات فى جمع لطع دودة القطن ، ولم « يفعّص » فيها مقاول أنفار .. كما أن لها من الأخوة أربع .. كلهم تعلموا وذهبوا للعمل فى القاهرة وشبين .

يسيطر على أمى مفهوم أهمية « العزوة » الذى ورثته عن أبى وعادت إلى « كهن » الفلاحين ، عندما سألتها رضوى عن معنى « يفعص » ، تجاهلتها تماما .. لم توضح لكنها ركزت على تربيتها الجيدة .. وأنها ست بيت منذ صغرها وأن عدم نزولها « الغيطان » والترع والقنايات يعنى صحة بدنها وأن البلهارسيا لم تعرف طريقها إليها واقترحت أن يكون الفرح .. فرحين . . زفاف هناء وعقد قرانى حتى لا نكلف عطية وأولاده النزول مرة أخرى .. نادت على هناء لتجلسها معنا مرة أخرى وانتزعت منى موافقة صريحة واضحة على مفاتحة أم نبوية الداية فى خطبة ابنتها فاطمة وقررت أن تزورها فى بيتها بصحبة رضوى هذا المساء .. قرارات أمى فورية .. ومنذ رحيل أبى وسفر عطية ، تحولت إلى رجل البيت ، إلا أنها تراجعت بعض الشىء وأجلت الذهاب إلى بيت نبوية الداية إلى أن يتم إخبار عمى وعمتى .. فقد ورثت أيضا من أبى المحافظة على « الشكليات » .. وترى أنها مهمة ، كما أن تسريب الخبر بالتدريج ، سيوضح الكثير من الأمور ويكشف مدى ترحيب أم نبوية الداية وأولادها بفكرة الخطوبة والزواج .

تسير الأمور كما خطط لها المولى .. ووصية أخرى من وصايا محمد سعد فكة فى طريقها للتنفيذ .. هناك مشكلتان .. رغبتى فى السفر مثل عطية ، وكيفية استرداد باقى نصيبنا من الإرث والذى « داس » عليه عمى وعمتى طمعا فى طيبة أبى .. عبد الله صديقى له رأى فى السفر ، لا أوافقه عليه وهو أن الغربة لها ثمن وأن البعد عن الوطن له مردوده النفسى والاجتماعى السلبى .. ربما .. كل شىء له مقابل .. ثمن الغربة قد أدفعه أنا ، أما أرباحها فقد يجنيها أولادى فى المستقبل والأحلام الكبيرة تضيق بها تلوانة والباجور كلها .

لابد من الخروج وادخار المال ثم العودة ، الحديث عن الغربة وثمنها .. والبعد عن الأهل والخلان والغلاء الذى هناك وما يقال أن كيلو الطماطم هناك بأربعة جنيهات وأن الجو هناك لا يطاق .. أحاديث مكررة مملة لم تمنع أحدا من الحلم بالسفر إلى الخليج ولم تدفع أحدا يهجر الخليج والعودة لمصر .. هذه الأحاديث يروجها من يعمل هناك وكأنه لا يرغب فى أن يزاحمه أحد .. ميزة عبد الله أنه لا يجادل .. يكتفى بطرح الفكرة وينصت لدحضها ! .

انشغلت أمى بالدار وأولاد عطية وأحاديث زوجته رضوى ، كانت تحاول أن تمارس دور الحماة أحيانا .. وهو الدور الذى حرمت منه بزواج عطية .. بعيدا فى الكويت تحاول إشراك رضوى فى أعمال الدار من عجن وخبز وطبخ .. ورضوى لا تكل ولا تمل من العمل فى الدار إلا أن مشكلتها الحقيقية مع أبناء عطية الأربعة فهم « فوق رؤوس بعضهم » أكبرهم فى السادسة من عمره وبين كل واحد تسعة شهور بالتمام والكمال ولا تعرف أسماءهم .. تنادى كل واحد منهم باسم عرفات .. روح يا عرفات .. تعال ياعرفات وربما لصق بذهنها هذا الاسم دون غيره بسبب ياسر عرفات ، إلا أن الأولاد أضربوا عن طعام الجدة ، فهم لا يرغبون فى هذا الطعام .. جبنة وبيض أو طبيخ وفطير وجبنة قديمة .. فهم يريدون شطائر بالزعتر وزيت الزيتون ويرغبون فى أكل الحمص بدلا من الفول ويشتاقون لطبخ أمهم وليس جدتهم فقد مضى أكثر من عشرة أيام ولم يتناولوا « المقلوبة » .. وحسمت أم عطية الأمر وتركت لرضوى أن تطبخ لهم ما يشاؤون .. وظلت مشكلة الأسماء تؤرقها وتؤرقهم .. أنا مازن وليس عرفات .. كانت تصرخ فيهم باسم موحد يا ولاد عطية وكان كبيرهم يمازح أخاه الأصغر مناديا عليه باسم ابن عطية .

دفء الأسرة الحقيقى حلق على الدار .. أحبت هناء رضوى ، وتقبلت أم عطية زوجة ابنها ، كانت من فترة لأخرى تدقق فى ملامحها واكتشفت أن أسنانها الأمامية البارزة تضيف إليها جمالا وأن بياضها يختلف بعض الشىء عن بياض بشرة أهل المنوفية إلا أنه ليس اصفرارا كما كانت تصفها بالصفراوية ، بدأت أم عطية تزور الجيران بصحبة رضوى ولم يعد لنساء القرية وفتياتها حديث إلا عن رضوى الفلسطينية ، لا تخرج رضوى من دار أم عطية لزيارة أحد ، إلا بعد أن تخبز بعض الشطائر بالجبن والزعتر .. تترك بعضها لأولادها والباقى تهديها لمن تزورهن .

ذهبت مع أم عطية إلى دار نبوية الداية .. استقبلتهم فاطمة الحلوة ورحبت بهم نبوية ، لقد وصلها الخبر ولن تجد فاطمة وأخواتها أفضل من عبد الحميد وأن أخوات فاطمة يحضرن كل خميس لقضاء ليلة الخميس والجمعة فى البلد وأنهم سيوافقن ، بل سيرحبن ، إلا أن هناك شرطا واحدا ، لقد تقدم لفاطمة كثيرون من البلدة وخارجها وأصر أخواتها على أن يكون لها دار لوحدها أوعلى الأقل شقة فى الباجور ، أما بخصوص الشبكة والمهر ، فكلها أمور بسيطة يمكن تسويتها .

الزيارة ونتائجها لم تأت على هوى أم عطية وخاصة الشرط الذى وضعته نبوية .. فهى « داية » وماشطة ووشها مكشوف ، ولم تراع رضوى الضيفة والتى تدخلت فى الحديث معلنة أن عبد الحميد ينوى السفر إلى الكويت مع أخيه والدار المستقل أو الشقة ستأتى فيما بعد وبعد زواج هناء ، ستصبح الدار خالية له ولزوجته ، إلا أنها أصرت أن هذا الشرط ، فرضه أخوات فاطمة وهو غير قابل للنقاش وإذا أتوا يوم الخميس ومعهم العريس عليهم قبل مجيئهم اتخاذ قرارهم بشأن الدار المستقلة أو الشقة .

لم تنطق أم عطية بكلمة واحدة فى الطريق من دار نبوية إلى دارها ولم تحاول رضوى إثارتها فى أحاديث ، اكتفت بالقول إن القرار فى النهاية لعبد الحميد ، جلسة عمل أخرى .. أم عطية وعبد الحميد وعمه ورضوى التى أصبحت عضوا كامل الأهلية فى الأسرة ، اقترحت أم عطية اسم فتاة أخرى واقترح العم أن يبحث له عن عروس من خارج تلوانة فالغرور قد أصاب فتيات القرية وأصبحن مثل بنات مصر يشترطن ويطالبن بأشياء جديدة لم تعرفها القرية من قبل .

هونت من الأزمة مصرا على الاستمرار فى موضوع فاطمة ، فالدار ليست بمشكلة ، فهناك خلف دارنا مساحة تقترب من ثلثى قيراط ، حوالى مائة وعشرين مترا من الممكن إقامة منزل عليها ، وعندما يتم الحفر ووضع الأساس ، أكون قد وفقت فى الحصول على عقد عمل ، ومن الممكن أن أكلف عبد الله صديقي للإشراف على البناء ، المشكلة أن نبوية تضع شروطا وهى التى كانت تظنها أم عطية ستطير من الفرحة عندما تتقدم لخطبة ابنتها لعبد الحميد .. اتفق العم ورضوى وعبد الحميد على أنها ليست مشكلة ، إلا أن أم عطية خشيت من أن يكون هذا الشرط مدخلا لشروط أخرى يجب رفضها منذ البداية حتى لا تستمرئ نبوية الوضع ! .

عبد الله صديقي يجهز شقة الزوجية على قدم وساق .. يحضر بعض الأثاث من الباجور وبدلا من إرساله إلى شقته مباشرة .. يحضره عندنا فى الدار ثم ينقله مرة أخرى إلى الباجور ـ شغل فلاحين ـ حتى تراه القرية كلها ، أمه أكثرت من زيارتها لنا وتجلس طويلا مع هناء برفقة أمي ورضوى .. لم تتطرق أم عطية مع حماة ابنتها بشأن خطبة عبد الحميد والشرط الذى وضعته نبوية الداية وإن كاد هذا الشرط يطير بعقلها ويخرج من فمها عبارات غريبة من قبيل ـ عاوزة دار مستقل !.. بنت الماشطة !.. رفضت أن تقوم بزيارة دار نبوية مرة أخرى ونصحتنى بأن أذهب فى صحبة عمى وأن أتحدث مع أخواتها على أن نؤجل موضوع الدار المستقلة أو الشقة فى الباجور إلى أن يتم عقد القران .

المقابلة على خير ما يرام .. أجمع أخواتها أنه ليس هناك أفضل منى ليكون زوجا لأختهم وأنه فى حالة دفع مهر سيجهزونها بضعف ما أدفع وهم ليسوا مع ضرورة إيجاد شقة فى الباجور ، فهم على علم بوصية أبى بعدم مغادرة تلوانة ومن الممكن أن أقيم دارا صغيرة خلف دارنا وهم من الممكن أن يساعدونى فى بنائها ، خاصة وأن أخاهم الأكبر الذى لم يحضر الجلسة يعمل مقاولا فى شبين ، وهم لا يريدون فترة خطوبة طويلة ، فالأفضل عقد القران مباشرة ثم الزفاف .. والمهم أن أبدأ فى مشروع الدار الخلفية « وتخلص براحتها » ومن الممكن أن نتزوج فى دار أبى مؤقتا .. الشبكة والمهر وخلافه أمور بسيطة .. قرأنا الفاتحة وانطلقت الزغاريد وعدت إلى دارنا لأجد أمى تجلس أمام صورة أبى وتبكى من جديد !. أشرت لها بيدى أعلمها أن الفاتحة قرئت وتم الاتفاق ، أطلقت هناء زغرودة وحاولت رضوى أن تقلدها بصوت أقرب إلى الصفير .

6

اعتاد المسافرون فى بلدتنا أن يعودوا إليها عصرا وقبل الغروب حتى يشاهدهم كل الناس ويروا ما حملوا معهم مقابل سنة غربة أو ما يزيد .. دخل عطية تلوانة عصرا .. أطفال يجرون وراء سيارة بيضاء مرسيدس تحمل أرقام جمرك صفراء .. تقف أمام الدار .. ضرب أبواقها مرتين ليخرج له أولاده مثل القرود يتسلقونها ويدفعون صبيان القرية بعيدا عنها، ينزل عطية من السيارة ليندفع فى أحضان أمى والتى تحاول أن تستحوذ عليه بما لا يسمح المجال لأن تعانقه رضوى زوجته .. الصبية ما زالوا يهللون حول السيارة وأولاد عطية يحاولون أن يبعدوهم ويمنعوهم من لمس السيارة أو النظر فى مرآتها الجانبية ، انحنى عطية ليحتضن أبناءه .. شياطين صغار منهم من تسلق كتفه ومنهم من تعلق برقبته فرحا بوصوله بالسلامة ، أنزلهم برفق وإذ بهم ينشدون وبصوت جماعى أشبه بالكورال « 048 فرز أول .. عيال نقاوة .. آخر طقطقة » ويخبطون على صدورهم بعنف ، تبسم وتساءل عن هذا النشيد ، فهو يعلم أن 048 هو مفتاح المكالمات الهاتفية لمحافظة المنوفية .. أفهمته أمه أنه نشيد « اللى ما يتسماش » محمود بن صلاح عجورة .

تقافز الأولاد الأربعة إلى سطح السيارة ، بدأوا يساعدون أباهم فى فك الأربطة والحبال .. نهرهم وأمرهم بالابتعاد ، إلا أنهم أصروا على المساعدة .. أنزل عطية بنفسه كل الحقائب ، ساعدته أمه ورضوى وأنا فى إدخالها إلى الدار .. ما زال الصبية وبعض الفتيات يرقبون المشهد دعتهم أم عطية لدخول الدار .. دخل منهم من دخل وانصرف الباقى ، وخرج مازن بدراجته يدفعه صبى من الخلف .

الفرحة تعم الدار .. رائحة الخبيز والطبيخ تضيف للمكان حيوية وتشع بهجة فى وجوه الحاضرين .. دخل عطية للاغتسال من عناء السفر وأم عطية أصدرت أوامرها بإعداد طبلية الطعام على باب البيت تحت شجرة التوت كما كان يفعل أبو عطية فى عصارى الصيف .. هناء ورضوى أعدتا الطبلية ، خرجت أم عطية للحارة تنادى على أولاد عطية ، ارتدى عطية جلبابا أبيض وأخذ مكان أبيه ظهره على جذع شجرة التوت .. سنوات الغربة زادته لحما وشحما .. لم يجد عليه سوى نظارة طبية بإطار مذهب وشاربه احتل مساحة أكبر وأصبحت شعيراته أكثر خشونة ، لقد صار أخى مثل « الخلايجة » تماما ، لا ينقصه سوى ما يضعه رجالهم على رءوسهم ، حديثه دخلت عليه مفردات جديدة .

سألته رضوى عن الطريق اشتكى من جمارك الأردن وجمارك مصر وأنه قضى ليلتين فى انتظار العبَّارة التى حملته من العقبة إلى نويبع .. ليلتان قضاهما على مقعد السيارة .. أم عطية « تفسخ » بيدها .. وزة أو بطة وتضع لكل نصيبه أمامه وفجأة أنهمرت أنهار البكاء .. فى البداية بلا صوت .. دموع حارة تنساب على وجنتيها .. ثم علا نحيبها .. تذكرت أبو عطية وجلسته تلك .. نفس جلسة عطية وطريقة أكله ورفع يديه بالشكر والحمد عند انتهاء الطعام ، حاولت رضوى أن تخرجها من حالتها ، حكت أن هناء أمامها يومين أو ثلاثة وتزف إلى عبد الله وأن فاتحة عبد الحميد قرئت على فاطمة الحلوة .. ينصت عطية باهتمام دون إبداء رأى ويهم للنهوض لغسل يديه .. عاد لجلسته .. ملامحه أصبحت جامدة لم يكترث لبكاء أمه .. ولم يزد عن كلمة « مبروك » قالها على جزأين .. جزء فى اتجاه هناء .. والآخر فى اتجاهى .

أمر زوجته أن تعد الشاى لنا جميعا وأن تفتح حقيبة سوداء صغيرة ، أحضرها معه وفيها شاى ومرمرية وبدأ يسأل عن تفاصيل حفل زفاف هناء وبنود الاتفاق الذى أبرمته مع إخوة فاطمة الحلوة .. لم يسأل عن أحد من البلدة كما كان يفعل ، سأل فقط عن الشيخ على ماضى وهل صحيح طلق زوجته لأسباب أخلاقية ؟ .. اطمأن على أن الهدايا التى أرسلها مع زوجته قد وصلت أصحابها وطلب منى أن أحجز لحفل زفاف هناء فى نادى المعلمين بالباجور ، فالمكان هناك متسع كما أن الدار غير مهيأة لاستقبال بعض المهنئين ، خاصة وأن بعض أصدقائه العاملين معه فى الكويت سوف يحضرون الحفل ، لغته أصبحت أكثر جفافا وحديثه يدور حول الأرقام ، طلب أن أسال عن تكلفة الحفل

، وسأل هناء عن العدد التقريبي لضيوف بير شمس ، قال بلغة لا تخلو من غطرسة أنه سيدفع كل تكاليف الفرح وما تبقى من أشياء صغيرة حتى تذهب هناء إلى بيت زوجها ، أم عطية لم تعلق .. هناء شكرته وجاءت رضوى بصينية واسعة عليها إبريق شاى كبير ومجموعة من الأكواب .

سيظل عطية معنا ما يقرب من شهر وبعد الانتهاء من فرح هناء سأفاتحه فى موضوع سفرى ومشروع زواجى وقضية الإرث المعلقة ، وخاصة وأن القراريط التى حكم بها عمى وعمتى كنصيب لنا ليست فى حوزتنا ، أبناؤه يركبون الأرض ويدفعون سنويا ما يجودون به وكأنه حسنة ، استأذنته فى الانصراف حتى يأخذ قسطا من الراحة ونعاود الحديث فى شئوننا وأحوالنا فى اليوم التالى ، إلا أنه قال بلغة آمرة ولكنة قريبة من لغة أبى المغلفة بالحزم والحنان انه يريد أن نجلس سويا بعد شرب الشاى لمراجعة بعض الأشياء ، كان كلامه موجها لى إلا أن عيونه تتجه إلى هناء ورضوى وأمى كدعوة مهذبة لهن بالانصراف ، رضوى أصبحت أقدر الناس على فهم عطية بعد أبى رحمه الله ، همت بالانصراف لتدخل الدار ، ووراءها أم عطية وهناء .

هدأ ضجيج الحارة بعدما دخل أبناء عطية الدار وأخذت أم عطية الدراجة لتضعها فى حجرتها ولا تخرجها إلا فى صباح اليوم التالى كعادتها منذ وصولهم .. آذان المغرب على وشك أن يرفع .. تحركنا لنجلس على الدكة القريبة من باب الدار .. نادى عطية على رضوى وأمرها بإعداد قرفة وجنزبيل .. وكل شىء فى الحقيبة السوداء ، أخرج من جيبه علبة سجائر ولم أكن أعرف أنه من المدخنين .. سأل عن تفاصيل الاتفاق مع أخوة فاطمة الحلوة مرة أخرى .

هذه القضية ليست ما تشغلنى ، أريد أن أسأله عن عقد العمل الذى وعدنى به أو ما يسمى بـ « عدم ممانعة » لدخول الكويت ، قرأ ما يدور بداخلى .. بادرنى قائلا بأن موضوع السفر يجب ألا يقلقنى ، فإن لم أسافر إلى الكويت سأذهب إلى بلد خليجى آخر ، فهناك عقود كثيرة لا تزيد تكلفتها عن أربعمائة جنيه أى ما يساوى أربعين دينارا ، أعرب عن فرحته « باللمة » العزوة ، كنا خمسة فى الدار قبل وفاة أبو عطية ، الآن أصبحنا تسعة ، يبدو أن فكر المرحوم لم يغب عنه ! .. شكر فى فاطمة الحلوة وأخلاقها وأخلاق أخواتها وعاد للسؤال عن التفاصيل ، وعندما علم أن هناك شرطا بإقامة دار مستقلة أو شقة فى الباجور ، لم يمتعض مثل أم عطية ، وأبدى موافقتة على هذا الطلب والذى رفض أن يسميه شرطا ، شارحا أنه من الممكن بناء قطعة الأرض الخلفية وجعلها منزلا من ثلاثة أو أربعة أدوار .. كل دور شقة وتصبح لفاطمة الحلوة شقة مستقلة وأن الفكرة تحتاج بعض التعديل وعندما يزورهم معى سيخبرهم بالتفاصيل .

الأرض .. الأرض هى المشكلة وهو لن ينام الليلة ، إلا بعد أن يفاتح عمى بشأنها ، أخبرنى أنه كان يراسل الشيخ على ماضى باستمرار وأن الإرث كان موضوع رسائلهم وأن الشيخ على نصحه فى الخطابات بما يرضى الله والرسول ، وأنه قد يكون وسيط خير وأردف قائلا ، أن مشكلة عمى وعمتى أنهما لا يفهمان إلا منطق الخطف .. لقد كان أبوك مسالما ..كلما يحدثنا عن أبينا .. يقول أبوك .. لم يذكر مرة واحدة كلمة أبو عطية أو أبونا وكأنه أبى وحدى ، وبلغة حاسمة ، قرر أن هذه الاجازة لن تمر ، إلا وأرضنا فى حوزتنا ، مضيفا بعض تعبيرات المحامين .. ستعود أرضنا لنا قضاء أو رضاء ! .

عندما رفع آذان المغرب ، أشار لى بعدم النهوض ونادى على أولاده بإحضار سجادة صلاة كبيرة وأمرهم بالوضوء للصلاة جماعة أمام المنزل ، عادت الجلبة مرة أخرى بحركة الأطفال ، وصلى بى والأطفال إماما ، قارئا قصار الصور بصوت جميل خاشع وهو الذى كان يتهرب من الذهاب للمسجد ونحن صغار حتى فى صلاة الجمعة ويبدو أن ما فشل فيه أبو عطية نجح فيه حموه أبو عودة .

طلب من هناء هذه المرة أن تعد له شايا وأن تضع فى طبق كبير بعض المكسرات التى أحضرها معه فى الحقيبة السوداء ، فقد يأتى بعد صلاة المغرب عمه وعمته والشيخ على ماضى وقد كان .. حضروا ومعهم زوجة عمهم .. تبادلوا العناق والقبلات ودخلت النساء الدار وأخرجوا كرسيين إضافين وامتدت الجلسة .

الشيخ على ماضى شكره على هديته وأثنى على صداقته وظل يتحدث وكأنه فى ليلة مآتم .. يهز رأسه ويحركها أفقيا ورأسيا متخيلا أنه أمام ميكروفون ويخفض من صوته ويرفعه وعمى لم ينطق أكثر من حمد الله على السلامة ، الجلسة فيما يبدو مدبرة والشيخ على كان على علم بموعد وصول أخى وقد مر على عمى وجاء به فى يده بعدما كان ينوى المرور على دار أبو عطية فى الغد .. وعمى ينصت وعيناه لم تتحركا من على السيارة البيضاء الرابضة أمام الدار والتى جاء بها عطية من الكويت .

عندما تحدث عمى أسهب فى الحديث عن مشاكل الزراعة وارتفاع اسعار التقاوى والكيماوى وأن الارض لم تعد « تجيب همها » وأن العديد من شباب القرية يفكرون فى السفر إلى فرنسا أو الخليج وأن « الزنقة » جعلت بعض الناس يوافقون على « تجريف » أرضهم ، خاصة وأن أصحاب قمائن الطوب الأحمر يدفعون « الشيء الفلانى فى تجريف شبر أو شبرين » من الأرض فى القيراط الواحد ، وأنه كان ينوى أن يفعل ذلك للخروج من أزمته إلا أنه أجل الموضوع إلى عودة عطية .

عطية يستمع ولا ينطق .. قدم لعمى سيجارة وأخرى للشيخ على ماضى والذى سأل عن نوع هذا الدخان ، عطية لم يشعل سيجارة احتراما لعمى ، إلا أن الشيخ على ماضى طلب منه الاستئذان .. ماذا حدث لعطية ، لقد تغير تماما ، بمجرد أن نطق عمى كلمة « وماله » كان عطية قد أشعل سيجارته ، ونظر عمه لم يغب عن الولاعة المذهبة والتى أصر عطية على إهدائها له مقسما بالله العظيم أنها لن تدخل جيبه مرة أخرى ، وحتى لا تغيب الأمور ، عاود الشيخ على ماضى الحديث عن موضوع الزراعة والأرض ، مما أكد لى أن هناك اتفاقا ما بين أخى عطية والشيخ ، شعر عمى بالفخ المنصوب للحديث عن الإرث والقراريط .. سأل الشيخ على ماضى عن المدة التى سيقضيها عطية فى تلوانة هذا الصيف واستأذن لإقامة صلاة العشاء فى المسجد .

عطية شخص آخر غير أخى الذى أعرفه الذى كان يتجنب المواجهة ، ويهرب من أبى عند كل نقاش ، مهما كان للغربة من مردود سلبى كما يقول صديقى عبد الله فإنها فيما يبدو تقوى ، تربى ، تنمى الشخصية تجعل الفرد يتخلص مرغما من عادات ويكتسب غيرها ، يصبح أكثر قدرة على المواجهة أو المناورة ، يسقط من رأسه الكثير من الأوهام ويحل محلها العديد من الأحلام .

عطية أراه وكأننى أراه لأول مرة ، جلس مع عمى دون خوف أو أجلسه معه ، تركه يتحدث دون أن يقاطعه ، عرف كل ما فى « بطنه » ، لقد كانت الجلسة أقرب إلى « جس النبض » وأظن أنه خطط طويلا لإعادة حقوقنا ، اطرقت رأسى أفكر فى الخطوة القادمة التى سيتخذها عطية مع عمنا والذى كان والدى يخشاه أو يخشى القرية بأسرها حتى لايقال إنه اختلف مع أخيه .. تنازل طوعا أو كرها عن حقه رافعا مثلا يحتمى وراءه .. لا أستطيع أن أقول ذلك عن أبى ، الا أنه مثل شعبى جبان إن « جالك الغصب إعمله بجميلة » لقد أضاع « الغصب » حقوقنا لسنوات وها هو قد جاء يشكو أن الزراعة « مش جايبة همها !» .. قطع عطية تفكيرى .. ردد على بعض أقوال أبى وكنت أظن أنه لا يسمعه ولا يفهمه .. أبونا كان يقول إن الحقوق ستضيع فى هذه البلدة وأن القوة ستصبح فوق الحق وأن القوة لا تدوم .. والصوت العالى والعضلات لن يصبح لهما تأثير فيما بعد .. المال والنفوذ سيرفع الأصوات ويحرك العضلات .. « المال هيشغل كل دول خدم » !.

هذه ليست أفكار أبى وحده ، بل يشاركه فيه كبار السن فى هذه البلدة ، كان عطية عندما يجلس عند دكان صلاح عجورة فى اجازاته السابقة ، يستمع إليه كل الناس وينصتون ، كان محمود عجورة بخبثه ومكره يقول لما الدنانير تتكلم .. الشلنات والبرايز تسكت « ويبدو أن عطية أخى بالفعل يتحدث بلغة الدنانير .. الدنانير ربما أخافت عمى وجعلته ينسحب من القعدة ، كلما اطرق برأسى يخرجنى عطية من التفكير .. « الحرب عدة معارك » ، أفهمنى أنه لن يذهب إلى عمى بل سيأتيه مرة أخرى وبصحبة عمتى وأن الجلسة القادمة ستكون حاسمة ، ولا بد أن يفوز بعدة معارك صغيرة قبل أن يكسب الحرب .. أين تعلَّم عطية ذلك ؟ .. هل من حميه الفلسطينى أبو عودة .. وإذا كان الفلسطينيون يفكرون هكذا ؟ .. لماذا لم يكسبوا معركتهم مع إسرائيل؟ دخلنا الدار .. صلينا العشاء .. ذهب كل منا إلى مرقده .

لم يغمض لى جفن ، هذا التحول فى سلوك عطية أعجبنى وأفزعنى ، لقد كان أبى يقول عنه أن « لا أحد يعرف ما فى دماغه » فماذا ينوى ؟ .. هل يريد الانتقام من عمى وعمتى الـذين أوصانا أبى بهما خيرا أو أنه لن يتمادى ويحصل فقـط منهمـا عـلى حقوقنـا التـى انتزعاهـا طوال هذه السنوات وفى حياة أبى ؟ .. إذا كان عطية اكتسب كل ذلك من السفر فيكون مـا اكتسبه أهم من الدنانير التى يتحدث عنها عجورة ، وإذا كانت الدنانير هى سـبب التحـول من المهادنة إلى المواجهة ، فلا بأس بها ، أصبحت الآن رغبتى فى السفر أقوى من أى وقت مضى ، خاصة وأن صورة محمود عجورة الذى أوقفنى فى الزراعية لا تفارق مخيلتـى ، لم أقدر على مواجهته وأنقذتنى منه عمتى .. كان صـوتها العـالى وقوتهـا هـى الفيصـل .. هـل سينتهى هذا الصوت والقوة أمام الدنانير ؟ .. يجب أن أفاتح عطية فى موضوع السفر ، فهو أهم لدى الآن من زواج فاطمة الحلوة أوغيرهـا .. اتقلـب فى الفـراش ، أحـاول اصـطياد لحظة نوم .. غفوت .. استيقظت على ضجيج أبناء عطية .. النهار لم يـأت بعـد .. وصـوت الشيخ على ماضى مؤذنا للفجر لم يصح بعد .. رائحة قهوة تنساب من شـقوق بـاب حجـرة عطية ، يبدو أنه أحضر قهوة أيضا معه فى الحقيبة السوداء ، أسمع صوته يوقظ أبناءه للوضوء وصلاة الفجر ، رضوى بالفعل خرجت من الحجرة .. عطية ورضوى والأولاد كل يأخـذ دوره فى الاغتسال والوضوء .. نادى علىّ للاستيقاظ لأصلى معهم الفجر حاضرا .. ياله من تغيير ! .

عرفت رضوى كل تفاصيل الدار .. دخلت حجرة الفرن التى بها البوتاجاز لتصنع شطائر بالزعتر وزيت الزيتون لأولادها وزوجها .. أيقظت كل من فى الدار .. صينية كبيرة للإفطار .. نصفها فلاحى مصرى والنصف الآخر فلسطينى .. شطائر وحمص وبيض وجبن .. يـوم جديد ومعركة جديدة قد يشنها عطية ، طلب مـن أولاده أن يرتـدوا ملابسـهم وأن أخـرج معهم قبل ذهابى إلى المكتب فى الباجور .. كل كلامه أصبح أشبه بـالأوامر .. سـتخرجون إلى الغيط سترون النخلات الأربع التى زرعها لكم جدكم محمد سعد فكه .. سيتعرف كل واحد منكم على نخلته ، ماذا حدث ؟ .. هل أحب عطية فجأة تلوانة التى كان يكرهها ؟ .. أو أن حديث أبو عودة عن فلسطين ونابلس وحكاوى رضوى عن مدينتها بـاعتزاز وحـب وهى المدينة التى لم تولد بها .. ولم تعش فى دروبها .. ولم تلعب فى حواريها جعل عطية أشد اعتزازا بقريته ! .

أنا وعطية فى المقدمة والأولاد الأربعة وراءنا .. أهل البلد يرحبون بقدوم عطية ويحمدون الله على سلامته .. فلاحون فى الحقول وأبو قردان يفرش الأرض لا يتحرك فى جماعات ، يتناول إفطاره من دود الحقول بشكل فردى .. وقف عطية على رأس الغيط .. ووقف أولاده وراءه .. أشار لهم أن هناك أربع نخلات زرعوا عند مولد كل واحد فيهم.. هذه نخلة عرفات وتلك نخلة مازن .

توقف الفلاحون عن العمل ينظرون ماذا يفعل عبد الحميد فكه وأخوه عطية والأولاد .. الطفل الصغير جرى فى الغيط .. تمرغ فى حوض البرسيم .. أخوته يقهقهون.. الأولاد الصغار لن يفهموا ، إلا أن الصورة تبقى محفورة فى أذهان الصغار .. يفتح ذراعيه إلى نهايتها وكأنه يحاول احتضان الشريط الأخضر الطويل يقول لهم هذه أرضكم .. أرض جدكم محمد سعد فكه وعمكم عبد الحميد وعمتكم هناء وجدتكم أم عطية .. انتهى طابور الصباح .. خرج عطية وأولاده لتوصيلى إلى أول الطريق .. أوقفتهم عند اليافطة الصاج .. أشرت لهم بأصبعى إلى الحروف المكتوبة .. تلوانة ..! ذكرت لهم أن اسم هذه البلدة كان محفورا فى بطن ساعد جدهم .. شمرت ساعدى مشيرا إلى ذراعى .. كان مكتوبا اسمه هنا .. محمد سعد فكه وتحته تلوانة ـ الباجور ـ منوفية .

7

لا حديث للقرية ، إلا عن فرح هناء .. وماكينة الكهرباء التى استأجرناها من الباجور وظلت تعمل لمدة ثلاث ليالى لتضىء اللمبات الحمراء والزرقاء والصفراء فى حوارى القرية الخمس .. والميكروباصات التى نقلت أهل القرية جميعهم من تلوانة إلى الباجور .. إلى نادى المعلمين حيث أقيم الفرح ـ حديث الناس ـ الرجال منهم والنساء ، يصل أمى ومنها ينقل إلى رضوى ثم إلينا أنا وعطية .. نشط مركز صلاح عجورة مرة أخرى فى بث الأخبار والشائعات .. تحدث البعض عن علب الطعام التى وزعت فى الفرح ، لم يكن هناك كفتة وأرز وكسكسى .. كانت علب كرتونية صغيرة .. كل علبة بها ساندوتشات وعلبة عصير وقطعة جاتوه وبرتقالة وصباعين موز ، الساندوتشات كان بها لحوم .

هناك من يقول: إن واحدا منها به صدور ديوك رومية ، إلا أن محمود عجورة يؤكد أنها لم تكن أكثر من صدور فراخ جمعية بيضاء لا طعم لها ولا رائحة ويؤكد أخرون أنهم عثروا فى علبهم على ساندوتش بسطرمة بالبيض .. هناك من يقول إن الكراتين جاء بها عطية من مصر ، بينما يزعم صلاح عجورة أن السندوتشات أعدت فى الباجور ، فهناك بقال وراء المحكمة معروف بصناعة هذه الساندوتشات .. الغريب فى الأمر أن الناس أكلت فى الفرح وأخذوا معهم كراتين أخرى وكان كل من يطلب المزيد يعطونه ، البعض يشير إلى أفراح حضرها فى مصرمن قبل فى نواد مثل نادى المعلمين فى الباجور وكانت تقدم للضيوف مثل هذه الكراتين الصغيرة وأن هذه الطريقة هى المتبعة حاليا فى الأفراح

بدلا من الأطباق والطبيخ بينما يرى صلاح عجورة أن ذلك ليس تطورا ، ولكنه اقتصاد فى النفقات وبخل ، فالناس عندما تزيد أموالهم ، يتفننون فى كيفية الاقتصاد فى إنفاقها « فهى لا تهون إلا على الغلبان » ! .

كل القرية حضرت الفرح ، فالنادى كان مكتظا بالناس بعضهم جلوس وآخرون وقوف ورغم أنهم شاهدوا كل شيء بأعينهم ، إلا أنهم ظلوا يتحاكون ليالي وأسابيع عن الراقصة التى جاءت من مصر وكيف كانت تهز ردفيها وتميل بصدرها وتغمز بعينها لرجال القرية وشبابها .. الأحاديث لا تنتهى ، وإن كان الشيخ على ماضى كان نجم الحفل وأصابه الجزء الأعظم من حواديت صلاح عجورة ومجلسه المنعقد بصفة دائمة منذ فرح هناء .. صلاح عجورة لم يعجبه فى الشيخ على أنه جاء إلى حفل الزفاف متنكرا .. مرتديا بدلة أفرنجى ورباط عنق وجلس على المائدة التى كان يجلس عليها عطية وأصدقاؤه الذين يعملون معه فى الكويت .. الشيخ على ماضى لم يجلس مع رجال القرية ، وإن كان يقوم من وقت لآخر للترحيب بالضيوف ويشكر قدومهم لتشريف الفرح .

صلاح عجورة دون غيره ، يعلم سبب جلوس الشيخ على ماضى على طاولة عطية وأصدقائه وسبب ارتدائه البدلة الأفرنجى وسر هذه البدلة ، فهو يرغب فى السفر إلى الكويت مثل عطية وفى حالة سفره فإن البلد ستقع فى مشكلة .. ليست لأنها ستصبح بلدا بلا مأذون شرعى ، فمن الممكن الاستعاضة عنه بأى مأذون من بلد مجاورة ، لكن المشكلة التى يجب أن يناقشوها هى من سيقيم الصلاة ويرفع الآذان فى مسجد القرية ولابد من حسم القضية قبل أن يفاجئهم الشيخ على ماضى بالسفر إلى الكويت مع عطية ، وعليهم من الآن البحث عن مؤذن للقرية ورشح ابنه محمود عجورة 048 ليصبح مؤذن القرية ! .

الجالسون عند دكان صلاح عجورة يسمعونه وينصتون له ويجاملونه إلا أنهم بمجرد مغادرة المصطبة التى أمام المحل وعند انصرافهم فرادى أو جماعات يبدأون فى نهش عجورة وعظامه .. محمود عجورة 048 ، أبوه يرشحه محل الشيخ على ماضى .. محمود عجورة الذى يطارد النساء والفتيات قد يصبح مؤذن المسجد ! .. بل قد يتطور الأمر ليصبح إماما .. المجتمعون عند دكان عجورة اجتمعوا على أن الرجل بدأ « يخرف » .. وهو يحاول أن يجد لابنه منصبا ووظيفة دائمة بدلا من السير فى الانتخابات كل ثلاث أو أربع سنوات ، عجورة يريد تحويل ابنه من بلطجى إلى إمام المسجد .. نقلت إلينا عمتى هذا الخبر عندما جاءت لزيارتنا ، فضربت أمى على صدرها ، إلا أنها خشيت أن تنقل عمتى هذا الموقف إلى أهل عجورة ، فتراجعت قائلة بصوت خفيض « وماله يا اختى !» .

قنوات القرية الإخبارية مفتوحة كلها على بعض ، وما يقال عند عجورة ينقل إلينا وما قد يقال عندنا قد ينقل إلى عجورة ، إما بطرق النقل المباشر أو بغيرها ، تلوانة يبدو أنها عرفت طريق الأوانى المستطرقة قبل أن يكتشفها صاحبها .. الخبر أو الإشاعة تصب فى أنبوب ، فتوزع على بقية الأنابيب بالتساوى ، عمتى جاءت لتنقل لنا غضب النساء فى القرية ، لأن أم عطية لم تذهب إلى ابنتها هناء « يوم الصبحية » مثل عادة أهل البلدة ، وأنها تركت ابنتها فى الباجور وعادت إلى تلوانة مثل بقية المعازيم ، حاولت أمى إفهامها أنها أعدت للعروسين بالاشتراك مع أم عبد الله أطعمة ومأكولات تكفيهم لما يزيد عن شهر وقد تم وضع ذلك كله فى الثلاجة قبل الزفاف بيوم أو اثنين ، إلا أن ذلك كله لم يقنع عمتى التى ترغب فى الذهاب إلى هناء مع بعض نساء القرية ! .. أمى تعلم السبب .. عمتى ترغب فى مشاهدة ومعاينة وتفقد شقة هناء وأثاثها ، ولا ترغب فى الاطمئنان عليها ، فهى لم تزرنا منذ وفاة أبى ومنذ عدة سنوات إلا ثلاث مرات .. منها مرتين هذا الصيف وحده عندما جاء عطية من الكويت .

القرية تحدثت عن كل شىء فى الفرح ، إلا شيئين اثنين .. عقد قراني وزواجي من فاطمة الحلوة وسفري للخليج ..هذه القضية نوقشت على المائدة التي لم يجلس عليها سوى أقارب عبد الله وثلاث من إخوة فاطمة والشيخ على ماضى وصديق لعطية من ميت شهالة ـ الشهداء المنوفية ـ وأنا .. قال إنه سيبنى منزلا فى قطعة الأرض الفضاء خلف الدار ، وستكون لفاطمة شقة مستقلة ، كما أننى سأحصل على عقد عمل وأسافر وقد يتم الزواج سريعا ، بلا فرح كبير « فالفرحة فى القلوب » .. ومن الممكن أن نقضى شهر العسل فى شقته بالإسكندرية ـ وعلمت لأول مرة أن له شقة هناك ـ وتظل فاطمة فى دارنا أو دارها حتى يتم بناء الدور الأول على الأقل والانتقال لشقتنا التى سيتم تأثيثها بالطبع بما يليق بفاطمة وعبد الحميد وقد وافق إخوة فاطمة على الفور وقدّم لهم صديقه « بتاع ميت شهالة » وعدا بانه سيخلص كل إجراءات السفر والحصول على عقد عمل لي خلال أسابيع قليلة ، وقد استقر الرأى على تسفيري إلى قطر ! .

صدقت يا محمد .. يا سعد .. يا فكه « محدش يعرف إيه فى دماغ عطية ! » لم يبق نظريا إلا موضوع الإرث .. انتزع عطية عمتى من جلسة أمى لنخرج ونجلس أمام الدار .. وبلا مواربة وبدون تمهيد فتح عطية « الخراج » وضغط عليه بقوة وتحدث عن الموضوع الذى ذكره عمى من قبل وأن الزراعة « مش جايبة همها » وأنه كان ينوى السماح بتجريف الأرض بسبب ضيق اليد وأنه أجل الموضوع إلى أن يأتى عطية من السفر .. وتوقف عن الحديث عندما جاءت رضوى بأكواب الشاى ، فوضعته وانصرفت ! .

قدرة عطية على الكلام تتفوق على قدرة أبى وعمى وعمتى مجتمعين .. وما تعلمه من الغربة لو ظل هنا بقية حياته ما كان اكتسب شجاعة المواجهة والوصول السريع إلى هدفه .. أنظر إلى عينيه .. أحاول أن أتغلغل إلى قلبه .. أن أتنبأ بما سيقوله .. لمعان عينيه مثل لمعان عينى أبى تماما والنظارة الطبية تعكس ضوء العين التى تبدو أكثر جحوظا عما كانت من قبل .. ظننت أنه سيقول لعمتى .. « وماله يجرف الأرض » أو أن يعرض تقديم سلفة لمساعدته على مروره بضائقته المالية ، إلا أنه « رمى على بعيد » موضحا أن عمى لا يستطيع تجريف الأرض دون العودة إلينا ، فالأرض ليست ملكه وحده .. يجب أن يعود إليها أولا .. ثم يعود لورثة محمد سعد فكة ثانيا .. فالأرض ملكيتها مشاع ومساحتها الإجمالية ـ فدانين وقيراط وتسعة أسهم ـ لأول مرة أعرف مساحة الأرض التى تركها لنا جدنا سعد فكه بالفدان والقيراط والسهم .

لم أسمع أبى من قبل يذكر مساحة الأرض الحقيقية ويبدو أنه كان متعمدا حتى لا ندخل فى معركة بعد وفاته مع عمى أو عمتى .. ولكن من أين عرف عطية بالمساحة الكلية وبالتحديد .. ربما يكون قد أطلع على الحيازة فى الجمعية الزراعية ، وربما تكون أمى قد أخبرته بها ، وربما يكون صلاح عجورة نفسه قد أبلغه بالمساحة الحقيقية ليشاهد اقتتالنا ويستمتع به وينسج منه وحوله قصصا وروايات وإشاعات ! .

عمتى تقلب عيونها فى وجهى حينا وفى وجه عطية وتتطلع إلى أغصان التوتة المدلاة وتنظر للحارة التى اختفى منها حتى الأطفال والدواجن .. تستمع دون أن تتلفظ بكلمة قد تؤخذ فيما بعد عليها وهى التى جاءت إلى أمى تنقل إليها غضب نساء القرية عن تقاعسها للذهاب إلى هناء « فى الصبحية » .. فإذا بها تسقط فى فخ عطية وعيونه وتنعكس صورتها الكسيفة على عدستى نظارته اللامعة المتوهجة ، عطية لا يبغى منها ردا ولا يرغب فى أن يسمع منها رأيا ، يحاول فيما يبدو أن يجعلها أنبوبا لتوصيل ما قاله لها ، لتنقله بدورها إلى عمى .

تململت عمتى فى جلستها ترغب فى الفكاك من المصيدة ، إلا أن عطية يعاملها مثل القط « الشبعان » والذى لا يلتهم الفأر مرة واحدة أو يقتله بضربة واحدة .. يترك لها فرصة يظنها تمكنه من الهرب وعندما يحاول يعيد تثبيته .. يضع يده عليه .. يتشاغل عنه .. يتركه يفر .. يجعله يظن أنه نجا .. ثم يقفز عليه مرة أخرى .. ويمرر عليه شاربه ، يقتله بالسكتة القلبية أو الدماغية قبل أن يمزقه ويتلذذ بأكله .. هذه القسوة هل اكتسبها عطية من الخليج أو كانت معه من زمن وتطورت بفضل الإحساس بالظلم ؟ .. هذا الظلم الذى كان يستطيبه أبى وتحكمه تقاليد قروية عتيقة تجعل الناس ينافقون بعضهم البعض .. يتظاهرون بالحب والمودة و صدورهم يخنقها دخان الغيظ والغل .

لم يطلب عطية من عمتى أن تبدى رأيا ، إلا أنه أخبرها إذا كانت الضائقة المالية التى يمر بها عمى لا تنفرج إلا بتجريف الأرض وبيع الطمى المجرف ، فعليه أن يفعل ذلك .. أنفرجت أسارير عمتى .. ضاع بعض الضيق المعقود على جبهتها وقبل أن تنطق ، أوضح أن « من حكم فى ماله فما ظلم » وأن عمى لديه كل الحق فى أن يفعل ما يراه صالحا لنفسه وأسرته وأن يتصرف فى الأرض كيف يشاء ، ولكن ذلك بعد تقسيم الأرض بـ « الحد المعروف » وأن مساحة الأرض يجب أن تقسم كما ذكر الله وأمر ، وأن رفع القضايا فى المحاكم يجب ألا يغضب أحدا ، فالشرع حدده الله ويأمر بتنفيذه وأنه كان يرغب منذ وصوله أن يسألها الرأى والمشورة فى إقامة دعوى قضائية تسمى « فرز وتجنيب » يأخذ عمى حقه كاملا وتأخذ هى حقها بالتمام والكمال ونأخذ نحن حقنا ولا يضام أحد ويمكن بعد ذلك أن يجرف عمى أرضه إذا أراد .. شبرا او شبرين أو مترا كاملا .. لم تقو عمتى على الوقوف ، استندت بيدها على جذع التوتة .. وهمت واقفة تمتمت قائلة « أنتم ولاد العزيز الغالى .. أخويا المرحوم .. ماذا تقول تلوانة عندما نذهب للمحكمة .. وماذا يحكى عنا صلاح عجورة بعد ذلك ؟ » .

نادى عطية على زوجته .. طلب منها إحضار قطعة القماش القطيفة السوداء التى أحضرها لعمته من الكويت والتى وضعها فى كيس بلاستيكى أصفر داخل الحقيبة الكبرى .. ثوان كأنها دهر لم ينطق منا أحد بكلمة .. جاءت رضوى بالكيس البلاستيك .. أخذته عمتى وشكرت عطية وسارت بجوار المنازل الطينية .. بمحاذاتها تماما .. تكاد تلتصق بها وهى التى كانت لا تسير إلا وسط الحارة .. ظلت عيونى تتابعها إلى أن أنهت الحارة .. واختفت
.

منذ أن كنا صغارا .. لا يبرر عطية أفعاله ولا يختلق أعذارا وتعلم ألا يعتذر لأحد . . كان وهو صبي لا يواجه ، يهرب .. يخفض رأسه ويخفى عينيه .. أتذكر أبى عندما كان يؤنبه أو يحدثه .. ويطلب منه أن ينظر إليه .. أن يريه وجهه .. ألا يخفى عينيه .. نظرت إليه فى عينيه مباشرة .. وقد رق قلبى لحال عمتى وانكسا رها .. وهى التى كانت دوما جسوره ، غير هيابة لا تخشى نسوة أو رجالا .. تذكرت معركتها مع محمود بن صلاح عجورة وقوتها فى التعامل معه وتمزيقها لثوبه ولعنها لأبيه وأمه وأهله .. وصوتها العالى الذى شق الغيطان وأفزع ابو قردان وجعل الفلاحين يخرجون ليروا ماذا يحدث .. خشيتهم من عمتى جعلتهم لا يتدخلون .

تركوا لها محمود بن صلاح عجورة فى يدها تمزقه إربا .. بأظافرها ، تمزق وجهه ورقبته .. وهى التى أنقذتنا بالفعل من مشاكله .. وأراها الآن كسيرة ولا أعلم بسبب قسوة عطية أو لإحساسها بالمشاركة فى ظلم وقع علينا لعدة سنوات أو أنها صانعة هذا الظلم منذ البداية والمخططة له والقائمة على تنفيذه وحمايته طوال تلك السنوات الماضية سواء ، فى حياة أبى أو بعد مماته .

أشعل عطية سيجارة .. ولم تبد عليه مظاهر الانتصار أو الزهو وتحدث بهدوء شديد عن عمى وكيف سيقضى ليلته وأن عمتى لن تذهب إلى دارها ، بل ستذهب إليه مباشرة لتضعه أمام أمرين لا ثالث لهما .. إما إعطاءنا حقنا كاملا غيرمنقوص ، أو الذهاب إلى المحكمة وقد تطلب منه أن يسلك الطريق الأول بدلا من أن نصبح مضغة فى الأفواه .. اعتدل عطية فى جلسته ، موضحا أنه يريد الأرض كاملة ثمانية عشر قيراطا وليس تسعة وسيقتسم الأسهم أيضا ، لن يترك لهم خردلا وإذا رغب عمى وأولاده استزراع الأرض كما كانو يفعلون خلال السنوات الماضية ، عليه أن يرضى بعرض من العرضين ، إما أن يعملوا بالأجر أو المشاركة وقد أعد العقود لهذا العرض أو ذاك !.. لم أعلق .. ولم أنطق .. اكتفيت بهز رأسى تجاوبا .

هل هذه هى المعارك الصغيرة التى يهدف عطية أن يكسب بها المعركة ؟ .. وماذا لو ركب عمى رأسه ورفض تسليمنا الأرض ؟ .. وهل هذا هو المدخل الصحيح ؟ .. فى كلية التجارة ملؤوا رؤوسنا بمذكرات وكتب ومحاضرات عن التفاوض والتحكيم .. أساتذة حصلوا على شهادات طازجة من بريطانيا وأمريكا .. يحكون لنا و يدرسون لنا أن التفاوض هو السبيل الوحيد للحصول على الحقوق .. بعض الحقوق وإن لم تكن كلها .. وعندما يفشل التفاوض ، فالقوة واستخدامها لا يحل مشكلة بل يزيدها تفاقما ويأتى التحكيم واللجوء إليه كملاذ أخير .. ما درسوه لنا .. وما كتبوه فى كتبهم ومذكراتهم كان أبى يقوله بلغة أخرى .. لغة فلاحى بسيطة مغموسة بطين الأرض ..

كان يؤمن أن التفاوض لا يأتى لك بحق ، مجرد قبول الفكرة .. والجلوس فى « جلسة عرب » .. أى الجلوس على الطاولة يعنى قبول أشياء قد تفرض عليك .. وهى تفرض عليك بالقوة .. الجلوس يعنى التنازل عن أشياء والاستعداد لقبول بدائل .. التفاوض يعنى قبول ما يعرض عليك حتى لا تخرج صفر اليدين ، إما اللجوء إلى التحكيم فهو نوع آخر من الضجر عن استرداد الحقوق .

كان محمد سعد فكه يرفض التفاوض لعلمه بنتائجه ويرفض مبدأ التحكيم حتى لا يتهم بالعجز ، كان مبدأه القريب « إن جالك الغضب اعمله بجميلة » وترك ما يقرب من نصف حقه فى الأرض فى يدى عمى .. أما عطية والذى درس مثل هذا الكلام أيضا فى كلية التجارة وسمع مثل هذا الكلام أيضا من والدى ، سلك مسلكا آخر ، قد يأتى بنتيجة أو قد لا يأتى وهو الضغط بكل الأساليب وبكل القوة ، قبل التفاوض وقبل اللجوء للتحكيم وهى الرسائل التى حملها لعمتى وإصراره على عدم الذهاب إلى منزل عمى للحديث فى موضوع الأرض ، بل إجباره أن ياتى هو إليه رغم أنه ذهب إليه فى داره لدعوته لحضور حفل زفاف هناء ويوكله بدعوة من يريد حضوره .

لقد جاءه بالفعل عمى بعد صلاة العشاء بصحبة الشيخ على ماضى وصلاح عجورة وعمتى .. والتى دخلت الدار للجلوس مع أمى ورضوى وهناء .. انسحابها من الجلسة وهى مكشوفة الوجه يؤكد خروجها من المعركة لتتركها لأخيها ولأخى عطية يديرانها بالشكل الذى يبغيانه ، كانت فرحة عطية غامرة بحضور عمى وصحبته ، فالرسالة وصلته .. وها هو قد جاء طواعية ، خطا بقدمه إلى مائدة التفاوض مما يعنى تنازله عن أشياء ، تلك الأشياء ليست حقا له ، لكنه استمرأ الوضع وأصبح أمرا واقعا والحديث فيه يعتبر اعتداء على حقوقه ، لقد تجاهل عطية تماما سبب الزيارة وطلب من رضوى وأمى إعداد عشاء للضيوف .. وأصر « الجودة من الموجودة » .. وبدأ بالشاى بالمرمرية الذى طلبه الشيخ على ماضى .

فتح شهية .. الشاى عندنا .. فاتح شهية للحديث ، وقد أحضر عمى معه صلاح عجورة على أمل أن يختشى عطية من فتح تفاصيل أحاديث عائلية ، إلا أنه رحب بعجورة وسأله عن آخر أحاديث دكانه ، وإذا كان البعض ما زال يتحدث عن بدلة الشيخ على ماضى الذى حضر بها فرح هناء .. ضحكات وقهقهات مجاملة ، ليدخل عجورة مباشرة فى الحديث عن الأرض والزراعة والمشاكل التى بدأت تنشب فى القرية من جراء تقسيم الإرث ـ سواء بين الإخوة أو الأسر بعضها بعضا ، إلا أن عطية يحاول أن يبعد دفة الحديث مؤقتا عن الزراعة والإرث حتى ينسيهم ما حفظوه وما جاءوا لتلاوته ، داعب عطية الشيخ على ماضى حول حديث البلدة عن عزمه السفر للخارج وضرورة أن يبحث عن شاب من أبناء القرية لتدريبه على رفع الأذان وإمامة الناس ، فإذ بعجورة يتحول لون وجهه إلى الزرقة ويحاول إلصاق التهم بأهل القرية الذين يغتابون الناس ولا تخلو جلساتهم من الغيبة والنميمة كأنه لا يجالس إلا الملائكة ! .

بمجرد أن وضعت صينية طعام العشاء وامتدت الأيدى إلى الطعام ، فإذا بعطية يقول ما يرغب فى قوله قبل أن ترتفع الأيدى بأول لقمة ، الغيبة والنميمة فى رأيه سببها ضياع الحقوق بين الناس ، ومن لا يستطيع الحصول على حقه ولا يقوى على رفع شومة أو سكين فى وجه خصمه ، يمزقه بالكلام ، خاصة وأن مشاكل الإرث وقضاياه بدأت تستشرى فى القرية ، ووجه حديثه إلى عمى بأنه أبلغ عمتى بكل ما يريده فى موضوع الأرض وهى بالطبع قد نقلت الحديث إليه .. عجورة كادت اللقمة أن تنحشر فى حلقومه ، فهو لم يسمع التفاصيل ولم يعرف ما دار ، إلا أن عمى همهم مبديا موافقته .. « نصيبنا فى الأرض ثمانية عشر قيراطا » .. والزراعة مشاركة أو العمل بالأجر ولم يرفض عمى .. وقبل أن آتى بإبريق المياه لأصب لهم لغسل أيديهم بعد انتهاء العشاء ، أوضح عطية الجزء الأخير من معركته بأن العقود جاهزة للتوقيع لدى مكتب محام صديق له فى الباجور .

8

الباجور .. يوم عمل جديد .. ودفاتر واستمارات جديدة بعدما صدرت التعليمات من الوزارة بالقاهرة بضرورة مراجعة البطاقات التموينية بعد القرارات الأخيرة بإلغاء الدعم عن بعض السلع .. القرار .. مراجعة البطاقات وتقسيمها إلى فئتين .. دعم كلى .. بطاقة خضراء لموظفى الدولة والمعاشات ودعم جزئى .. بطاقة حمراء لغير الموظفين والتجار وأصحاب المحلات والحيازات الزراعية الكبيرة .. أكثر من ثلاثة فدادين .. المكتب امتلأ بالمواطنين .. عمل اليوم يتلخص فقط فى توزيع الاستمارات .. وكتابة كلى أو جزئى فى أعلى الاستمارة .. مع فترة سماح شهر باسترجاع الاستمارة مختومة بختم النسر .. ثم تسلم البطاقات ، من الصعب أن « أزوغ » هذا اليوم أو أطلب إذنا للخروج مبكرا ، بالرغم أننى أحضرت معى جواز السفر وصورة من مؤهلي لأسلمها لصديق عطية « بتاع » ميت شهالة ـ الشهداء .. بعد أنتهاء اليوم من الباجور إلى شبين ومنها إلى الشهداء .

لا تختلف ميت شهالة كثيرا عن بلدتنا تلوانة ، إلا أنها تبدو أكثر هدوءا وسكانها أقل عددا وأكثر نظافة ، فلا رائحة روث بهائم تشمها فى طرقات وحوارى القرية ، وقلة عدد ماكينات الرى جعل ضجيجها أقل من ضجيج تلوانة .. مياه ترعتها تبدو نظيفة .. المياه فيها أكثر جريانا من مياه ترعتنا ، أسراب من البط والأوز تسبح على سطحها .. المنازل كلها عمودية على الترعة .

بمجرد السؤال عن دار الأستاذ عبد النبى .. أشار لى أحد الفلاحين إلى عمارة طويلة خلف المنازل .. سبعة أدوار بالأعمدة المسلحة ..

أربعة منها تبدو « مشطبة » والأدوار الباقية لم ينته بناؤها بعد .. عندما اقتربت منها وجدتها عمارة ضخمة تشبه عمارات القاهرة ، يبدو أن الدور الواحد يضم أكثر من شقة .. تساءلت بينى وبين نفسى ماذا حدث للفلاحين ، صمت وابتلعت تساؤلى .. ففاطمة الحلوة تبغى دارا لوحدها أو شقة مستقلة وأخى عطية قد عقد العزم لبناء منزل خلف دارنا .. قال فى البداية إنه سيكون من ثلاثة أو أربعة طوابق ، وربما يرفعه أيضا إلى سبعة مثل هذه العمارة الضخمة وقفت أتأمل العمارة وبعض النسوة اللاتي اصطففن على حافة الترعة بغسالاتهن الكهربائية الموصلة بأسلاك طويلة حتى منازلهن .. لم أر ريفا آخر غير ريفنا لأقارن ما يحدث ! .. صبية صغيرة أرشدتنى إلى شقة الأستاذ عبد النبى ، فالغرباء لا يأتون لهذه القرية إلا للأستاذ .. البنت مثل بناتنا .. أمسكت بيدى حتى الشقة.. هنا الأستاذ عبد النبى .

الباب مفتوح .. خرج الأستاذ يرحب بى .. أدخلنى صالة كبيرة .. تتدلى من منتصفها نجفة ضخمة .. صالون مذهب .. وأركان وفوتيهات وطاولات صغيرة وكبيرة بعضها عليه زجاج أو رخام .. السجادة خشيت أن أدوسها بحذائى .. سجادة يبدو أنها ليست من المفترض فرشها على الأرض ، ولكن تعليقها على الحائط .. عليها رسومات وزهور.. يغلب عليها اللون الأحمر الداكن والأزرق .. فى أركان الصالة ، أجهزة قاتل الناموس والحشرات الطائرة ، كنت أظنها نيون لأول مرة ، وعندما رأيت شبكات السلك عليها أدركت حقيقتها .. أظن أن الأستاذ عبد النبى لو لم يكن قد سافر ، ما كان قد أنشأ مثل هذه العمارة أو أدخل هذا الأثاث الفخم ميت شهالة .. كل ما أرفع عينى ، تقع على شىء لم أره من قبل ، خاصة بعدما ترك الأستاذ عبد النبى الشقة واستأذن لعدة دقائق ، عاد ليأخذ بيدى وينزلنى إلى الدور الأرضى .

هذا موعد غداء .. طاولة سفرة لا تقل عدد المقاعد التى حولها عن عشرة وأصر عبد النبى على تناول الطعام قبل الحديث فى أى شىء ، فهذه أول مرة أزور فيها بلدتهم وقد جاءه هنا عطية أكثر من مرة وأرسل إليه أكثر من شخص ، ووفقه الله فى إنهاء إجراءات سفرهم والحصول لهم على عقود عمل ، فهو لديه من المعارف الكثير من البلدان الخليجية وليبيا والبلد الوحيد الذى لم يتعامل معه المملكة العربية السعودية ، إلا أنه سيفتح فيها باباً عما قريب بإذن الله ، بالرغم من المشاكل السياسية والتوترات التى حدثت فى الشهور القليلة الماضية .

الأستاذ عبد النبى يبدو أكبر قليلا من أخى عطية ، تخرج فى نفس الكلية وتعارف عليه فى الكويت ، إلا أنه لم يقض فيها أكثر من عام .. ثم انتقل إلى البحرين وقطر وكان قد بدأ السفر برحلة طويلة بعض الشىء امتدت ثلاث سنوات فى ليبيا وأدرك أن العمل فى مصر أفضل كثيرا بعدما صدق ما قيل عن الانفتاح الاقتصادى والخير الكثير الذى يعم مصر ، لم يتوقف عن الكلام فى السياسة .. فى التجارة .. فى الاقتصاد .. فى تجارة العملة .. فى تسفير العمالة إلى الخارج ، إلا أنه اشتكى من الكساد هذه الأيام ، خاصة بعد مظاهرات 18 و 19 يناير والتى مضى عليها ما يقرب من سبعة شهور ، حكى أن هناك بعض التأشيرات المعلقة بسبب خلافات الرئيس السادات مع زعماء الخليج وتناوله لهم بالتجريح فى خطبه وأن الذى يدفع الثمن المواطن البسيط الذى يدفع أربعمائة أو خمسمائة جنيه مقابل تأشيرة السفر .

علمت المبلغ المطلوب .. ولا أعرف إذا كان عطية قد دفعه له أو أننى مطالب بدفعه ، قدمت له جواز السفر وصورة شهادة الجامعة ، الفرصة متاحة أمامه الآن فى قطر .. فيزا حرة .. تأشيرة حرة .. بلا عقد عمل وعلى أن أبحث أنا على عمل هناك وأن له هناك أصدقاء يساعدوننى فى الحصول على عمل مناسب ، إلا أن الأمر قد يستغرق من شهرين إلى ثلاثة شهور بسبب الأزمات الحالية ، وإذا انتظرت للصيف القادم قد تكون الفرص أفضل ، خاصة وأن السفارات العربية تطلب أعدادا كبيرة من المدرسين ومن الممكن أن يحصل لى على عقد عمل فى إحدى المدارس الثانوية التجارية فى البحرين أو قطر .

. فهناك لجان تعاقد تصل إلى القاهرة فى شهري يونيو ويوليو من كل عام وهـو يستضـيف هذه اللجان هنا فى ميت شهالة ويقضى بعض أفرادها معه عدة أيام ولا يرفضـون لـه طلبـا وقد ساعد اكثر من شخص للسفر إلى البحرين للعمل بالتدريس رغم عدم انطباق الشروط عليهم ! .

لا أستطيع الانتظار إلى الصيف المقبل ، فأنا على استعداد للسفر إلى قطـر .. سـواء كانـت التأشيرة حرة أو غير حرة .. المهم أن أسافر ، وهناك العديد قد وفقوا فى العمل كمـا يقـول الأستاذ عبد النبى .. طلبت منه الاتكـال عـلى الله والنظـر فى موضـوع قطـر .. طلـب منـى المرور عليه بعد أسبوع . إلى أن يحصل لى على التأشيرة ثم أتوكل عـلى الله وأحجـز تـذكرة وأسافر ، حديثه مطمئن .. وثقته عالية .. سواء فى الحصول على التأشيرة أو سرعة حصـولى على عمل بمجرد أن تطأ قدماى أرض الخليج .. سألنى عن موعد سفر عطية لأنه يرغب فى أن يرسل معه خطابات وأشياء ليسلمها لصديق له فى الكويت .

لم أصدق عينى عندما عدت لتلوانة ، لأجد عطية يقف مع مجموعة عمال وقد بـدأ إعـداد قطعة الأرض الخلفية للبناء ومعه أخو فاطمة والذى يعمل مقاولا فى شبين .. ميزة عطيـة ، أنه ينفذ بهدوء ما يخطط له ، أبلغته بذهابى إلى الأستاذ عبـد النبـى وترحيبـه بـى وتسـليمه الجواز وصورة من شهادة التخرج وأحاديثه فى السياسة والتجارة .. وكلامه عن مظاهرات يناير وإصراره على أنها انتفاضة شعبية بعد أن رفعت الحكومة أسعار السلع بعد أسابيع من طمأنة الشعب خلال الجرائد بأنه لامساس بالأسعار .. ما أقوله يبدو أن عطيـة قـد سـمعه مرارا من الأستاذ عبد النبى ، عن الفترة التى حددها الأسـتاذ لإنهـاء إجـراءات سـفرى .. أخبرته .. لم يبال بسماع الرد ، كان شغله الشاغل أين يكون مدخل المنـزل الجديـد وهـل سيكون منفصلا أم امتدادا للدار القديم .

وجدنا محمود عجورة على رأسنا ، يسأل عن خروفه الذى قطع « السلبة » من أمام المحل « وسرح » وهل وصل إلى هنا أو شق طريقه إلى حـارة أخـرى ؟ .. الخـروف رأيتـه بعينـى مربوطا أمام المحل منذ ثوان ، ولكن حركة العمال ووصول نسـيبى ، جعلـه يـأتى ليتفقـد الأمر ويسأل ماذا سنفعل فى هذه القطعة من الأرض والتى كانت قديما جرنـا وزريبـة .. لم يجاوبه أحد ، مسح المكان بعينيه واسـتأذن للبحـث عـن الخـروف فى حـارة أخـرى مـن حوارى القرية الخمس !.

يبدو أن عطية يرغب فى وضع أساس المنزل الجديد قبل انتهاء إجازته وهذا ما فهمته من حديثه . وتركنا العمال فى مواقعهم لنجلس كعادتنا أمام الدار .. فهمت أن نسيبى يستعجله فى إنهاء البناء لأن « النهارده أرخص من بكره » والأسعار فى زيادة كل يوم و طن الأسمنت والحديد أصبح بالشىء الفلانى ومن الممكن استكمال المنزل وهو فى الكويت على أن يرسل ما يستطيع أن يوفره بصفة دورية حتى لا تتوقف أعمال البناء .

استقر رأى نسيبى على أن يكون مدخل المنزل الجديد من خلال الدار القديمة ، على أن يتم فيما بعد هدم الدار وإلحاقها بالمنزل الجديد وتحدث فى أمور فنية فى البناء وضرورة نقل الطمى وإحلال التربة برمل وزلط ثم دكهما وغمر الأرض بالمياه وصب خرسانة عادية ثم إقامة القواعد .. هذه المراحل مجتمعة قد لا تستغرق أكثر من شهرين ثم يتم رفع أعمدة الدور الأرضى وباقى الأدوار ستكون متكررة ، انتقلنا للجلوس أمام مدخل الدار واستأذن عطية وخرج ومعه رزمة من أوراق البنكنوت سلمها لنسيبي وأوصاه بالالتزام والسرعة والدقة فى البناء فى آن واحد .

جاءت عمتى « تطل » على أمى ورضوى .. جاءت فيما يبدو وراء خروف صلاح عجورة ! .. وكأنها فوجئت بنا أمام الدار ، رحبت بأخو فاطمة الحلوة محاولة أن تستكشف سبب وجوده ساعة عصرية وهو ليس وقت استضافة عندنا فى تلوانة .. عجورة أخبرها بالطبع أن هناك عمالا يحفرون خلف دار أخيها المرحوم ، إلا أنها وجدت الفرصة غير سانحة للالتفاف حول الدار .. فدخلت إلى أم عطية مباشرة وعند خروجها أخبرتنا أن أخاها .. عمنا .. قد ذهب إلى المحامى فى الباجور ووقع على كل العقود .. وكل واحد « لازم يأخذ حقه » .. و « رمت » جملة أدارت رأس عطية فابتسم ابتسامة صبيانية بلهاء عندما عجز عن إيجاد الرد السريع ، أم فاطمة الحلوة أخبرتها بتفاصيل الاتفاق وموافقتنا على أن يكون لفاطمة دار مستقلة أو شقة وأننا سنشرع فى بناء منزل جديد على موقع الزريبة القديمة والجرن وطلبت من عطية أن يحسم بقية الأمور مع عمه قبل سفره للكويت ، خاصة وأن الدار التى نقيم فيها والمساحة الفضاء يشاركوننا فى ملكيتها ، فهى ورث أيضا على المشاع ولابد من تقسيمه مثلما قسمنا الأرض ! .. وطلبت من عطية أن يفرغ نفسه يوما لاصطحابها إلى مصر فى سيارته لزيارة أولياء الله الصالحين .. لم يسعفه لسانه إلا بكلمة « وماله» ! .

عندنا فى تلوانة كلمة « وماله» تعنى «أوكى » أو « ماشى » التى يرددها القاهريون ، إلا أنها أوسع فى دلالاتها ومعانيها .. ترغب فى زيارة أولياء الله الصالحين كما ترغب فى تعطيل أحلامنا .. ومشروعاتنا .. وآمالنا ـ شريرة إلا أنها عمتنا ـ كان أبى يقول عنها دائما إنها تلف وتدور وتزن ثم تلدغ مثل الدبور .. وها هى من جديد وراء المعركة القادمة .. المعارك الصغيرة التى قتلنى عطية بالحديث عنها ويبدو أن الاسرة كلها قد شربت من « زير » واحد .. نعم لديها حق فى الميراث وأن هذا الدار كان ملك جدى سعد فكة وقد تركته بعد الزواج وانتقل عمى إلى دار جديدة بعد إنجاب ابنه الرابع وتركوه لنا .. ولم يتحدث أحد عنه ، إلا أنه بعد تقسيم الأرض وتوقيع عمى على العقود ، أصبح من حقهم أن ينالوا نصيبهم من الدار أيضا .. لكن كيف ! .. هل سيطالب عمى وعمتى بقطعة الأرض الفضاء خلف الدار مقابل أن يتركا لنا المنزل أو سيطلبان مالا بعد تقييم الدار بالطريقة التى خططا لها ! .

لم يعلق عطية وكأنه لم يسمع .. استمر فى إشعال سيجارة من سيجارة .. نادى على زوجته وأولاده وأمى وأمهلهم عشر دقائق لارتداء ملابسهم للخروج بجولة بالسيارة فى الباجور ثم العروج على بى العرب لزيارة أخوالنا وتحجج بعدم قدرته على السماح لى بالذهاب معهم لضيق السيارة .. أقل من خمس دقائق .. كان أولاده الأربعة فى أماكنهم بالسيارة فى المقعد الخلفى بجانبهم أمهم وترك المقعد الأمامى لأمى وخرجت السيارة من الحارة يجرى وراءها وأمامها الأطفال وعطية يطلق بوقها لإجبار الأطفال على الابتعاد عنها .

لم اتعود أن أجلس وحدى فى الدار .. دقائق ويرفع أذان المغرب ، لماذا لا أذهب إلى المسجد أصلى وراء الشيخ على ماضى وأجلس أو أتمشى معه إلى أن يحين موعد صلاة العشاء .. إلى أن يعود عطية من الباجور وبىّ العرب ؟ .. هرعت إلى المسجد .. الخروج من الحارة لابد أن يمر من خلال نقطة مراقبة صلاح عجورة ودكانه .. ضربت بطرف عينى .. أمام الدكان ثلاث أو أربع « دكات » جديدة .. يبدو أنه حوّل الدكان إلى مقهى .. نعم مقهى .. محمود ابنه أقام « نصبة » شاى بجوار المحل ..

وهناك « شيش » وجوز فى أيدى الجالسين .. ألقيت التحية .. سمعنى صلاح عجـورة .. هرع ورائى .. الأفضل أن « يخطف » صلاة المغـرب فى المسـجد .. كـل شـىء فى حياتـه خطفا حتى الصلاة .. طلب منى أن أهدئ الخطا ، فما زال أمام الأذان وقت .. كنت أسرع متعمدا .. حتى لا يسألنى ولا أجيبه وعندما ندخل المسجد قد يمتنع عن الكلام .. كأنى لم أسمعه .. أخذت الخطوتين فى خطوة وأكاد اسمع لهاثه ودقات قلبه .

ثلاثة صفوف من المصلين .. لا يزيدون إلا أحيانا فى صلاة العشاء .. بعد أن أقـام الشـيخ على ماضى الصلاة ، أخذت خطوة للأمام حتى لا أقف بجوار صـلاح عجـورة ، ولا أمـد يدى له بعد الانتهاء من الصلاة لأدعو له الله بتقبل صلاته .. بعد انتهاء الصلاة ، قام صلاح عجورة للسلام على الشيخ على ماضى وخرج مسرعا بحجة أن لا أحد فى الدكان .. لم يمـد يده لى بالسلام أو التحية بعدما أدرك استحالة مهمته فى أن يخرج من فمى مـا لا أرغـب فى ذكره .. قمت لأجلس بجانب الشيخ على بجوار القبلة المحفورة عـلى الحـائط ، عرضـت عليه رغبتى فى « التمشية » بعض الوقت إلى أن يحين موعد صلاة العشاء .. نهض .. الـتقط حذاءه .. خرجنا من المسجد .. أخبرته بما ذكرته عمتى عن حقها فى الدار التى نقيم بهـا .. « حقها وحلال .. « الورث أحلى من لبن البز » شرع الله .. لا نختلف عليـه .. المشـكلة فى التقسيم أو عرض شراء نصيب عمى وعمتى والشروط التى قد يضعونها لبيـع نصـيبهما .. هز رأسه وابتسم وحسم الأمر حتى لا أشغل نفسى به ، موضحا أن القضية .. قضية عطيـة وهو « لا يعدم الحيلة !» .

سألنى فى أمورى .. ومشروع زواجى وكيف يسير وموضوع ميـت شـهالة وتأشـيرة السـفر ، متمنيا ألا أسافر إلا بعد أن أحضر عقد قرانه ، فقد نوى الزواج بعدما فشل فى إقناع مطلقتـه فى العودة إليه مرة أخرى.. العروس .. فاطمة ، خجلت أن أقول له فاطمة شفتورة ! .. قالهـا هـو وعلق أن « الوحشة تحرس نفسها » .. وهو يريد زوجة قادرة بالفعل عـلى حراسـة نفسـها ولا تقترب منها الألسن وقد رحبت أسرة فاطمة به ، إلا أن التفاصـيل لم توضـع بعـد .. فى بلـدتنا تلوانة المناسبات السعيدة وغير السعيدة لا تأتى فرادى .. المـآتم تـأتى وراء بعضـها الـبعض والزيجات أيضا وحتى المواليد الجدد يأتون جماعة .

اشتكى من صلاح عجورة وولده محمود واللذين حولا الدكان الصغير إلى مقهى ولم تعد الفتيات أو النساء يذهبن إليه لشراء احتياجاتهن ، خاصة بعدما أصبحت مجموعة من الغرباء .. من خارج القرية ضيوفا دائمين على مقهى عجورة .. وأنهم يدخنون الحشيش .. والعمدة وشيخ البلد « عاملين ودن من طين وودن من عجين » .. خاصة وأن الواد محمود عجورة مسنود من عضو مجلس الشعب ، المقهى « تتنصب » مع المغرب وحتى أنصاف الليالى وبعض المترددين عليها من الأشقياء فى القرى المجاورة والحشيش يبيعه لهم محمود عجورة نفسه « وأبوه عامل مش عارف » .. « وتلوانة ما بقتش تلوانة » .. الشيخ على ماضى يحكى بحزن عميق .. يسأل نفسه ويسألنى فى الوقت نفسه ، ماذا نفعل فى البلاوى التى هبطت فجأة على هذه البلدة ؟ .. الحديث أخذنا .. أنهينا الزراعية .. وجدنا أنفسنا على الطريق الرئيسى .. نظرت إلى اليافطة الصاج المكتوب عليها « تلوانة » .. عدنا للقرية .. وكأن تلك اليافطة هى علامة البداية .. وعلامة النهاية لأفراحنا وأحزاننا .. لأحلامنا .. وآمالنا ! .

9

الكل فى تلوانة يراقب الكل .. أشخاص بعينهم اختاروا أشخاصا أخرين لمراقبتهم لأهداف فى طور النمو ، لم تتبلور بعد ، وآخرون يراقبون الناس بلا هدف وكأن المراقبة أصبحت متعة فى حد ذاتها .. الأخبار تتنقل وتتطاير وهناك من يكمن لاصطياد خبر قد ينفعه أو ينقله لغيره لينتفع به .. الناس بدأت تتحدث عن دكان صلاح عجورة والذى لم يعد يبيع أو يشترى وأصبح « خرابة » لا تجد فيه قطعة صابون أو حتى لتر جاز .. يغلقه طوال النهار وعند العصرية يفرش ابنه الدكك ويكنس أمام الدكان ويرش ماء وينتظر الزبائن الذين يهلون عليه بعد صلاة المغرب .. لقد تحول الدكان إلى مقهى ، وأصبح بعض الناس يجدون صعوبة فى شراء احتياجاتهم البسيطة حتى فى حالة وجود هذه البضائع فى الدكان ، فلا تستطيع النسوة أو الفتيات الاقتراب .. هذه المرة ليست خشية من محمود 048 الذى كان يعاكسهن لكن بسبب زبائن القهوة الغرباء .

الأخبار المتطايرة جعلت عمى يفكر فى إنشاء دكان بديل لدكان صلاح عجورة بعد أن انصرف عنه الزبائن ، فداره تقع على ناصية الحارة الأخيرة وهو مكان متميز وبعد فترة لترديده مقولة إن « الزراعة مش جايبة همها » قام بتوسيع النافذة المطلة على الواجهة وجاء بالواد المبيض أعطى الدار « داير ما يدور » وش جير أبيض وبعض الزخارف وكانت تلوانة كلها ترقب تحركاته وتراقبه ، وأعلن عمى فجأة بعد صلاة المغرب فى المسجد أنه سيفتح محلا ، سيجد فيه أهل تلوانة ، كل ما يرغبون فيه وما تشتهى الأنفس

والمحل لن يقتصر على بيع أنـواع البقالـة المعروفـة بـل سـيأتى ببضـائع مستوردة من مدينة بور سعيد التـى تحولـت إلى مدينـة حـرة .. سـيكون فى المحل «صابون بريحة » محلى ومستورد كمـا سـيأتى بمعلبـات لم تعرفهـا القرية من قبل وملابس رجالى وحريمى وسيبيع نقدا وبالتقسـيط والمحـل سيفتح من « صبحية ربنـا » إلى أن ينـام أهـل تلوانـة .. سـتقف صـباحا فى المحل عمتى ، وهو سيباشر شئون الزراعة « اللى مش جايبة همها » .. ومن المغرب حتى آخر الليل سيتناوب أولاده الوقوف فى المحل .

قبل أن ينصرف المصلون من المسجد ، تطاير الخبـر إلى دكـان صـلاح عجـورة ووضـع لمسات لسانه عليه ، قال لمن يجلسون حوله أن فكه الكبير أخذ « قرشين » من ابـن أخيـه عطية وسيفتح دكانا لبيع قطع غيار السيارات ، هزأ الجمع من الفكـرة ، فالقريـة لـيس بهـا سيارات ولم تدخلها سوى سيارة عطية القادمة من الكويت والتى سيعود بها أيضا إليها ! .. نشط مركز عجورة فى بث الإشاعات والحكاوى إلا أن عمى لم يبال وافتـتح محلـه وسـط ضجيج إعلانى لم تشهده تلوانة .

علق لمبات كهربائية وأحضر مسجلا كبيرا ، بدأه بتشغيل شريط قرآن ، ثم « هات يا طبـل وزمر وغناء » .. المحل لم يكن سوى حجرة اقتطعها من منزلـه والتعامـل مـع النـاس مـن النافذة .. إلا أنه ملأه بالأرفف التى وضع عليها معلبات مختلفة .. فواكـه لا يعرفهـا أهـل تلوانة مثل الكريز .. علب لانشون وبولوبيف .. صـابون أحجـام مختلفـة وعلـب شـامبو مختلفة الألوان وأعلى المحل .. علق مجموعة من « البلاطى » وإيشاربات النساء وبعـض ملابس الأطفال وكوفيات رجالى وطواقى من الصوف .. وعلى جانـب مـن النافـذة وضـع برطمانات بها أنواع من الحلوى كما وضع فى رف قريب من متناول يده مجموعة من علب السجائر المستوردة وعلب البسكويت والشيكولاته .

سحب فكة الكبير البساط بالفعل من تحت أقدام صلاح عجورة ، زيارات الأطفال والنساء إلى محله لا تنقطع ، بعضهم جاء للشراء وأخرون دفعهم الفضول لرؤية ماذا يبيع فكه الكبير وأخته ، وقد تفتق ذهنه بأن يبيع على « النوتة » بل أحيانا بالمقايضة وجعل البيض عملة قابلة للتداول .. باكو البسكويت بخمس بيضات ، زجاجة الشامبو بعشرين بيضة واللانشون والبولوبيف بنفس السعر ، أما الملابس بالتقسيط المريح .. ادفع ما معك وقسط الباقى .. جن جنون عجورة واشتعل الغيظ فى قلبه ، خاصة وأن فكة الكبير قد علق ضمن ما علق على واجهة المحل بالطو شبيها لما يرتديه عجورة والذى كان أحضره له عطية هدية من الكويت ! .. البالطو عند فكة الكبير لا يزيد ثمنه عن خمسة وعشرين جنيها .. ادفع ما معك والباقى بالتقسيط والبس بالطو قبل هجوم الشتاء .. أصبح البالطو زيا شبه رسمي يرتديه العديد من كبار السن فى البلدة وأصبح كل من فى القرية يمتلك « قاهر الزمهرير » وليس صلاح عجورة وحده ! .. وعجورة أصبح « مسخرة » ! .

عجورة لم ييأس ويبدو أنه يعلم مثلما أعلم أنا وأخى عطية أن « الحرب عدة معارك » .. وبدأ يشن حربه الشعواء على ملابس فكة الكبير المستوردة من بور سعيد ، لم يطلق صواريخه على بضائعه الأخرى من صابون وشامبو وبسكويت وخلافه لكنه اختار الملابس هدفا ثابتا وأصبح حديث مقهى ابنه أن هذه الملابس تجلب الأمراض الجلدية والجرب ، فهى قديمة تم غسلها والبلاطى المعلقة على واجهة المحل منها لا يزيد ثمن الواحد منها عن عشرة جنيهات ، وأن هذه البلاطى تأتى فى كراتين ضخمة من أوربا وهى فى « الغالب الأعم » بلاطى موتى لقوا حتفهم فى حوادث الطرق والسكك الحديدية هناك وأن هناك من اشترى بالطو « ولا داعى لذكر اسمه » اكتشف فيه بقعة دم كبيرة من الداخل وأعاده إلى فكة الكبير الذى رفض إعطاءه مقدم الثمن الذى دفعه ، ورغم حواديته كن الإقبال على البلاطى يفوق غيرها من البضائع ، وكانت البلدة كلها تتحدى عجورة .

اختفت كل الحواديت وظلت حدوتة فكة الكبير هى الخبر الرئيسى فى كل جلسة واستمر الناس فى مراقبة بعضهم بعض ، واكتفيت أنا بالانتظار ومراقبة الأيام ومرورها .. أنتظر تأشيرة السفر وأنتظر إكمال أخى عطية لأساسات المنزل الجديد ،

وأنتظر تحديد موعد عقد قرانى على فاطمة .. الأيام تمر وإجازة عطية تكـاد أن تنتهـى ولم يحسم شىء ، حتى موضوع قطعة الأرض الفضاء خلف دارنا ، طلب منى عطية ألا أشغل نفسى بها ، فعمى سيأتى ، وهو الآن أصبح فى أشد الاحتياج للمال بعد افتتاح محله وشرائه العديد من البضائع بعضها بالطبع بالتقسيط ، وعندما يأتى ، سيأخذ حقه كـاملا بالتقسـيط أيضا .. « محدش عارف فى دماغ عطية إيه ! » .. وأمى قد عاودها البكاء مرة أخرى ، عندما علمت أننى على وشك السفر وستظل وحدها فى الدار ، طلبت من عطية ورضوى أن يتركا لها الولدين الصغيرين ويصطحبا معهما الولدين الكبيرين « عشان المدارس هناك » وترك عطية الأمر معلقا ، خاصة وأن رضوى لا تقدر على فراق أطفالها مهما كانـت المبـررات ، الأمور تبدو فى غاية التعقيد ، إلا أن عطية يرى غير ذلك ويرى أن « كل مشكلة ولها حـل » .

أبرق عطية للكويت يطلب مد إجازته لمدة أسبوعين لظروف طارئة تمكـن خلالهـا مـن إنجاز العديد من الأشياء .. أساس المنزل الجديد ارتفع ، عقد قرانى على فاطمة الحلوة تم .. وبقى الزفاف وتأشيرة السفر والتى تفرغ لها عطية .. كان يذهب يوميـا إلى الأسـتاذ عبـد النبى فى ميت شهالة ولا يخبرنى بما تم ، إلى أن جاء يوم حمل معـه جـواز سـفرى وتأشـيرة السفر وتذكرة سفر إلى الدوحة حجزها من القاهرة .. ووضع داخل الجواز خمسمائة ريـال قطرى خمس ورقات وأعلن أن زفافى قد يؤجل بعض الشىء .. المدة لا تزيد عن عام وقـد اتفق على ذلك مع أخو فاطمة ، على أن أسافر وفى الإجازة القادمة يكون البناء قـد اكتمـل ، وأن موعد سفرى قبل سفره بثلاثة أيام ، يحاول خلالها تهدئة أمى التـى عـادت للجلـوس أمام صورة محمد سعد فكة .. تبكى وتشتكى بصوت مسموع من أن الكل هجرها .. ولـو كان بقى معها ما كانت قد ذرفت دمعا .

فكرة تأجيل الزواج كانت تراودنى ، إلا أننى لم أستطع البوح بها حتـى لا أغضـب فاطمـة وأهلها .. كنت أسأل نفسى كيف أتزوج لمدة أسبوعين أو شهر وأتـرك زوجتـى وأسـافر ، وها هو عطية قد نجح فى إقناع كل الأطراف حتى أمى والتـى عرضـت أن أتـزوج وأسـافر وأترك لها زوجتى تؤنسها .. الوقت ضيق ، إلا أننى لا أحتاج منه متسعا ،

فكل ما أحتاجه حاليا التقدم بإجازة بدون مرتب والحصول على البطاقة الصفراء التى بمقتضاها يسمح للموظفين بمغادرة المطار ثم شهادة التعبئة والحصول على إذن عمل ، ترك عطية المنزل والعمال والبناء وفرغ نفسه لإنهاء أوراقى وكانت ليلة السفر فى دارنا أشبه بالليلة التى توفى فيها أبى .. بكاء وعويل من أمى .. هناء جاءت مع زوجها عبد الله تنتحب هى أيضا ، فاطمة الحلوة تجلس بجوار أمها نبوية حماتى وهى كسيرة لا تعلم ماذا تقول وإلى من تنظر .. عمى وعمتى جاءا ، الشيخ على ماضى لا تفوته مثل هذه الظروف ، أنهى ليلة مأتم فى بى العرب وعاد سريعا إلى تلوانة ليكون فى وداعى .. صلاح عجورة جاء مهنئا بالسفر ، داعيا بالعودة « سالم غانم » .. أبناء عطية يسالون أين قطر وهل هى بعيدة عن الكويت وصورة محمد سعد فكه تطل علينا جميعا من إطارها .. أتخيله وكأنه يتلو وصاياه وقشعريرة تدب فى أطرافى رغم أننا فى أواسط نوفمبر ولم يهجم الشتاء .. سيصحبنى عطية وعبد الله صديقى ولن يأتى معنا أحد من النساء .. سنبيت ليلتنا فى شقة الخلفاوى بشبرا ونتجه صباحا للمطار ، الإقلاع الساعة الثامنة ويجب أن أكون قبلها بساعتين على الأقل فى المطار .

لحظة فراق .. لا أعلم كيف أتعامل معها ، مع من أبدأ بالسلام والوداع ومن أتركه للنهاية .. احتضنت أختى هناء .. قبلتها فى وجنتيها .. قبلتنى حماتى نبوية مدت هناء يدها بسلام الوادع .. أهدابها مبللة بالدموع ويدها باردة أخذتنى فى حضنها .. أشعر باهتزازها .. أوصت بأن « أخلى بالى من نفسى » .. تحركت معى خطوات إلى باب الدار وهى ما زالت فى وضعها هذا ويكاد تأثرها باللحظة يبكينى ، سبقنى عطية إلى السيارة .. أدار المحرك وجلست بجانبه ووضعت حقيبة سفر صغيرة وحيدة فى المقعد الخلفى بجوار عبد الله .

الطريق من تلوانة إلى ما قبل القناطر مظلم .. مقبض عندما يضىء عطية أنوار سيارته العالية ، تتحول الأشجار على جانبى الطريق إلى أشباح ضخمة .. أشعر أن الطريق يضيق فجأة ويتسع فجأة وينحرف فجأة .. وعطية يحكى أنها بداية مرحلة جديدة .. أضع قدمى على أعتابها .. وأن الكل الآن يتسابق على السفر ، فظروف مصر القادمة تبدو صعبة .. ويقدم النصائح والوصايا .. لقد خنقتنى الوصايا وأشعر بقبضة أبى على عنقى .

. لم يتوقف عن الحديث طوال الطريق ـ وهو قليل الكلام ـ وكأنه يرغب فى إبراء ذمته بعد تقديم نصائحه .. قال إنه معه ورقة بها اسم وعنوان وتليفون صديق من أصدقاء عبد النبى فى الدوحة سيسهل لى الأمور هناك وأن المطلوب منى فى الفترة الأولى أن أبحث عن أى عمل وأرضى بأى عمل ما لم يمس الكرامة ، وألا أرفع شهادتى الجامعية فى وجه أحد ولا أذكر بكالوريس التجارة ، إلا عند التقدم لوظيفة تطلب هذا المؤهل .. ونصحنى بعدم الاختلاط كثيرا بالناس وألا أخاف أو أشعر بالملل وحتى وإن طال بحثى عن عمل ونفد ما معى من نقود ، أتصل به فى الكويت ويرسل لى ما أطلبه ..

واختتم حديثه قبل الدخول إلى المؤسسة فى شبرا الخيمة ، بأن أمامنا فى تلوانة مهمة شاقة ومهما كانت مشقة السفر والغربة ، فإن وصايا محمد سعد فكه لابد من تنفيذها إذا كنا نرغب فى أن نعيش فى تلوانة مرفوعى الرأس . قضينا ليلتنا فى شقة شبرا .. أعطانى الورقة التى بها اسم صديق الأستاذ عبد النبى فى الدوحة ورقم تليفونه .. سعد عبد الفتاح .. الوكرة .. خلف المطار وخلفها اسم كفيلى ـ صاحب المؤسسة العربية للصناعات المتوسطة والصغيرة ـ أوصى بضرورة تسليمه جواز سفرى فى مدة أقصاها أسبوع .. من شبرا إلى المطار .. فضلت أن أجلس فى المقعد الخلفى .

لم أر طريقا أو شوارع أو سيارات .. صورة ثابتة معلقة أمام عينى لمحمد سعد فكة .. عيناه اللامعتان .. أكتافه العريضة .. شاربه .. تضمحل صورته تدخل بدلا منها صورة أمى وبكاؤها ونحيبها وعيونها الواسعة .. وتأتى وتذهب صورة فاطمة ضبابية لا أتبين ملامحها .. الصورة الواضحة فى ذهنى عندما كانت صبية صغيرة .. وصورتها الآن لا أعرف ملامحها على وجه التحديد .. فالفترة كانت قصيرة للغاية وكان وجودها الدائم مع حماتى نبوية يمنعنى من تفحص وجهها أو البحث فيه عن علامة مميزة .. كاونتر الجوازات .. الضابط يتفحص جواز السفر .. البطاقة الصفراء .. إذن العمل .. ورقة التعبئة .. يبحث عن خطأ ليمنعنى من السفر .. الطابور ورائى طويل وهو لا يبالى .. ختم الجواز بعدم اكتراث وأعطاه لى .

أخى عطية وعبد الله زوج أختى ما زالا واقفين وراء السور الحديدى الفاصل بين الجوازت وصالة الدخول .. أشرت لهما بيدى وداعا من خلف الحاجز الزجاجى .. دخلت .. سمعت النداء .. المسافرون إلى الدوحة .. التوجه للبوابة رقم 9 .. عيناى على أرقام البوابات .. مجموعة من الكراسى البلاستيك .. يجلس عليها مجموعة من المسافرين العرب والمصريين .. توجهت للبوابة .. طلب منى المسئول أن أنتظر مع المنتظرين الى أن يتم تكرار النداء .. لوحة كبيرة سوداء عليها أسماء الطائرات وأرقام الرحلات وميعاد الإقلاع والجهة .. لم يتحرك أحد ولم نسمع نداء .. الحركة فى اللوحة .. أرقام رحلات تصعد وأخرى تهبط .. وتذمر بين المنتظرين ، تأخر إقلاع طائرة الدوحة ثلاث ساعات ! .. كيف تقضى الساعات الثلاث تلك ؟ .. لا أحد يجاوب أحد ! .. جلست مع المنتظرين المتوجهين للدوحة حتى لا أضيع منهم أو يضيعوا منى .. غفوت على مقعدى . . صحوت على ضجة وجلبة .. المسافرون يعبرون البوابة ليقلهم أتوبيس متجه إلى الطائرة الرابضة فى الممر .

مضيفة على سلم الطائرة « زى الفل » .. أسوأ ما فيها ابتسامتها العريضة جدا .. تفحص التذكرة .. تنظر فى جواز السفر .. تشير بيدها للمسافر فى اتجاه أحد مجموعات صفوف كراسى الطائرة الثلاثة .. المجهول يخيفينى ماذا يحدث إن لم أوفق ولم أحصل على عمل ؟ .. هل سأعود ؟ .. ربطت الحزام وغفوت .. صحوت على مضيفة أخرى تتأكد من ربطة الحزام .. نحن الآن نقترب من مطار الدوحة .

نزلت .. أسير وراء افراد الطابور الذين وقفت معهم فى مطار القاهرة .. ظهرت حقيبتى على « السير » التقطتها .. وقفت فى طابور الجوازت .. ثوان قليلة .. ختم المسئول الجواز .. خرجت وراء الخارجين .. الجو لطيف ليس كما يقولون « نار » .. لا ضجيج على الإطلاق أمام المطار ، مجموعة من سيارات الأجرة اصطفت لنقل القادمين ، سألت عن تليفون .. أشاروا إلى عدة تليفونات معلقة على الجدران .. تليفونات تدار بالعملات المعدنية الصغيرة .. أخرجت ورقة من فئة المائة ريال ، بحثت عن عملات صغيرة .. أعطانى أحد المواطنين مجموعة من العملات المعدنية دون مقابل وأنصرف التليفون .. لا يرد .. دخل الليل .. ولم أر من الدوحة سوى ميدان كبير .. ومجموعة من أعمدة الإنارة .. ولا أجد أمام المطار سوى سائقى سيارات الأجرة وأغلبهم فيما يبدو من الهنود .

ذكر لى عطية أن الوكرة تلك التى يسكن فيها سعد عبد الفتاح .. حى صـغير وراء المطـار مباشرة وإذا سألت عنه هناك ، سيدلنى ألف شخص .. هكذا أفهمه الأسـتاذ عبـد النبـى .. إلا أن قطر كلها ليس بها ألف شخص .. سألنى سائق تاكسى عن وجهتى .. لغته العربيـة « مكسرة » بمجرد أن نطقت كلمة « الوكرة » .. حمل حقيبتى ليضعها فـوق شـبكة سـيارته .. ركبت بجواره .. وانطلق .

10

قطر زينة .. أرباب مو زين .. نمبر مال تاكسى ألف ريال .. كفيل طمع « مئتين ريال .. مميش .. جوِّد .. روح سجن إبعاد .. وينظر لى فى مرآة السيارة لا أفهم ما يقول ، إلا أنه فيما يبدو يتحدث عن قضية لا أعلمها .. عشر دقائق ونحن نسير فى طريق واحد لا تقطعه إشارات مرور .. يقطع كل مسافة أقواس تشبه أقواس النصر .. عليها سيوف متداخلة فى بعضها .. مر السائق فى ميدان أكثر من مرة ، فى وسطه تمثال لأبريق شاى ضخم .. « الوكرة » خلف المطار ، هكذا قال لى عطية .. إلى أين يذهب هذا السائق .. هل عدت إلى القاهرة وألاعيب سائقى التاكسيات .. الوكرة .. الوكرة .. ارتفع صوتى فجأة ! .. سألنى بلغة إنجليزية أسوأ من لغته العربية إذا كنت أتحدث أنجليزى .. اسم الحى أو المنطقة لا يحتاج ترجمة .. الوكرة يا أسطى .. عاد ليلف من ميدان إبريق الشاى ودخل فى طريق أكثر اتساعا .. على جانبيه محلات مضاءة بطريقة مبالغ فيها ومطاعم وكميات من البشر كأن سد من السدود انفجر .

موجات من الناس تسير جماعات ، أغلبهم فيما يبدو هنود .. رائحة الطعام والتوابل دخلت معدتى .. لا أنفى .. وأنا لم أتناول منذ الصباح سوى وجبة لا تشبع من جوع فى الطائرة .. أعدت على مسامعه كلمة الوكرة ثلاث مرات .. إنه يعود بى مرة أخرى فى الاتجاه المعاكس .. فى الطريق مرة أخرى إلى المطار .. لف دورة كاملة حول المطار .. استغرق الأمر ما يقرب من نصف ساعة وإذا به يدخل منطقة كلها قصور وفيلات .. شوراعها أضيق من الشوارع التى مررنا بها ..

أشجار على جانبى الطريق .. نخل قصير لم أشاهده عندنا فى تلوانة ومثقل بسباطات البلح .. يلمع عندما يضىء أنوار سيارته .. وكرة هنا .. لا بشر .. أمام كل فيلا أو قصر حارس أو اثنان .. بعضهم يحمل سلاحا آليا .. لا يمكن أن يكون سعد عبد الفتاح يسكن أو يقيم هنا .. المنطقة تبدو لكبار القوم .. توقف عند أحد القصور .. سألت الحارس من النافذة عن سعد عبد الفتاح .. مصرى هنا مميش .. عرفت أول كلمة قطرى أوهندى .. مميش .. يعنى مافيش .. مش موجود .

الشارع ملىء بمطبات صناعية وإشارات تحذيرية حتى يبطئ السائقون من سرعتهم .. السائق الهندى .. يسير عشرة أو عشرين مترا ويتوقف ليسأل حارسا آخر لفيلا أخرى .. حفظ الاسم .. سعد عبد الفتاح والإجابة واحدة .. مصرى مميش .. وقف السائق على جانب الطريق وأوقف محرك السيارة .. وأعاد جملة مصرى مميش وكأنه « غلب حماره » ! .. وين تروح ؟ .. كلمة أخرى تعلمتها .. وين .. إلى أين ؟ .. كلمتان ربما تكلفانى خمسين ريالا أجرة توصيلة وهمية وفسحة عبثية وفهلوة سائق هندى .. إلى أين أذهب الآن والساعة تقترب من التاسعة ليلا .. فى بلد لا أعرف فيها أحدا سوى اسم سعد عبد الفتاح .. اوتل .. نو .. اوتل .. الليلة فى الفندق قد تساوى مائة ريال .. قرأ السائق الهندى حيرتى وقلة حيلتى !.

أدار محرك السيارة وانطلق .. مصرى أعرف .. ربما يعنى أنه يعرف مصريا فى الدوحة قد يوصلنى له لمساعدتى .. عاد مرة أخرى إلى ميدان إبريق الشاى الضخم واتجه إلى اليسار .. بدأ يسلينى بأسماء الشوارع .. لم ألتقط اسما واحدا .. نصف ساعة أخرى فسحة فى شوارع الدوحة .. توقف أمام منزل ضخم من طابقين .. طابق أرضى ويعلوه طابق آخر .. واجهة مقسمة قسمين مطعم تنبعث منه رائحة شواء .. ليس لحما أو دجاجا أو حتى سمكا .. والقسم الآخر بواجهة زجاجية وتعلوه يا فطة « قهوة الريان » .

. هنا مصرى وطلب عشرين ريالا ، حاولت قدر استطاعتى أن أخفض المبلغ إلى عشـرة، مستخدما أصابع كفى ولغة الإشارة ، إلا أنه يصر على عشـرين ريـال .. بالإنجليزيـة حينـا وبلغة أخرى حينا آخر .. تن .. لن أدفع إلا تن .. هز رأسه مرارا رافضا المبلـغ المعـروض .. أشرت بيدى أننى سأدفع تن ونصف لا غير ، خرج شخص من المقهى .. لمحـه سـائق التاكسى وافق على خمسة عشرة ريالا وأنزل حقيبتى وأنطلق .

أعرف مصرى .. هندى عفريت .. المقهـى كـل مـن فيـه مصـريون .. دخلـت وفى يـدى حقيبتى أعلن بها للجالسين أننى قادم للتو واللحظة من مصـر .. سـألنى شـخص إذ كنـت جئت فى الطائرة التى تأخرت عن موعدها وإذا كان معى جرائـد مصـرية .. عنـدما لم يجـد بغيته ، عاد للجلوس مع زملائه .. مسحت أركان المكان .. المقهى .. أكبر مساحة من أى مقهى شاهدته سواء فى القاهرة أو الباجور .. ما يقرب من عشرين مترا طول وخمسة عشـرة مترا عرضا .. الطاولات فيه قليلة ، إلا أن المقاعد والدكك لم أستطع حصرها ، مجموعات تجلس .. كل مجموعة بعيدة بعض الشيء عن الأخرى ، الغالبية مـن المصـريين .. إلا أن هناك فى كل جلسة فيما يبدو قطرى بجلبابه وغترته .. مجموعـات عمـال .. ومجموعـات أفندية موظفين ملابسهم وهيئاتهم توحى بذلك .. وتليفزيـون ضـخم أكبـر مـن ثلاثـين او أربعين بوصة . على طاولة ضخمة مرتفعة .. لم يهتم أحد بدخولى أو جلوسى سـوى الـذى سألنى عن الجرائد المصرية .. الأحاديث متداخلة .. والصوت عال والشوشرة لا تجعلك تبين الأحاديث ، جاءنى الجرسون .. مصرى أيضا يرتدى جلبابا مثـل جلاليـب أهالينـا .. سألنى ما أرغب أن أشرب وأتى لى بإبريق شاى وكوب صغير وآخر كبيـر فيـه مـاء ، تبـرق الأشياء من نظافتها ! .

تحركت الجماعات الجالسة واعتدل بعضهم فى جلساتهم ، ووجـوهم تجـاه التليفزيـون يبدو أنها نشرة الساعة العاشرة .. قالوا لى: إنها الحادية عشرة ، فهناك فرق توقيت سـاعة .. طلبوا رفع صوت التليفزيون .. الرئيس السادات يهبط من طائرة ومعـه بعـض المسـئولين المصريين .. وطابور من حراس الشرف يصطفون فى اسـتقباله .. وعلـم إسـرائيل بنجمـة داوود يملأ الشاشـة وتقريـر إخبـارى عـن وصـول رئـيس وزراء إسـرائيل يفـتح ذراعيـه لاستقبال السادات واحتضانه وتسمرت عيناى على المشـهد وهيـاج فى المقهـى ، الـبعض يؤيد الزيارة والبعض الآخر يصرخ قائلا « الخائن » ..

وعراك بين الناس وإذا بصاحب المقهى أو مديرها .. يخرج من وراء مكتبه يصرخ فى الحاضرين ويطلب منهم السكوت والاحترام ويتوجه إلى التليفزيون ليغلقه ، وبلغة لا تعرف منها إذا كان صاحبها شرقاويا أو صعيديا ، يحسم الأمر ويرحب بمن يجلس على مقهاه بأدب أو يغادر المكان على الفور .. وإذا بمجموعات تخرج بالفعل وآخرون يعودون إلى جلساتهم بأدب وصمت كما أمرهم صاحب المقهى .

بدأ الرواد يغادرون المقهى ليعود إليها الهدوء ، وإذا بشخص يدخل من باب جانبى .. مصرى فى الغالب يرتدى بيجامة مقلمة بنية اللون مثل التى كانت تصرف على بطاقات الكساء الشعبى ، يجلس على كرسى بجوار الباب مباشرة .. اتجه إليه الجرسون حاملا شيشة .. جربها له وأعطاه المبسم ووضع أمامه كوبا من الشاى واندمج فى تدخينه .. حجرين معسل لا أكثر .. غادر المكان كما دخل .. دون تحية أو إلقاء سلام أو حتى دفع الحساب لم يبق فى المقهى سواى .. اقترب منى الجرسون .. أخرجت الورقة ذات المائة ريال .. سألنى إذ كنت أبحث عن شخص أو سكن دائم أو مكان أبيت فيه .. أننى أبحث عن الثلاثة .. سعد عبد الفتاح .. مكان أبيت فيه ليلتى .. وسكن دائم فيما بعد .

قبل أن يجاوب على أى سؤال ، سألنى عن اسم بلدتى واسم كفيلى ونوعية التأشيرة ووضح النقطة الأخيرة .. فيزا عمل أو زيارة أو فيزا حرة .. أجبته بالترتيب .. تلوانة .. الباجور .. منوفية .. الكفيل ، المؤسسة العربية للصناعات المتوسطة والصغيرة ، وأخرجت الورقة التى فى جيبى لأقرأ له اسم الكفيل وعنوانه .. غيث الكوارى .. شارع عبد الله بن ثان .. بعد دوار العثمان والفيزا حرة .. أفهمنى أن دوار هنا لا تعنى بيت عمدة ولكنها ميدان واسع .. وأن مبيت الليلة ليس بمشكلة والوصول إلى سعد عبد الفتاح ليس بمعضلة والوصول إلى الكفيل لتسليمه جواز السفر ضروريا خلال أسبوع على الأكثر ليقوم باستخراج الإقامة لى .. ألقى صاحب المقهى التحية وغادر المكان وتبعه العمال واحدا بعد الآخر .. وقام الجرسون لتخفيض إضاءة المقهى وإطفاء بعض الأنوار ، موضحا أن هنا قانون .. المقاهى تغلق فى الثانية عشرة تماما ، ومن لا يلتزم تسحب الرخصة ويغلق المقهى ويدفع غرامة كبيرة .

نصف الدور الثانى فوق المبنى يطلق عليه استراحة للمصريين القادمين والنصف الثانى حجرات تؤجر بالشهر ، الدفع فى الاستراحة بالليلة أو الشهر .. الليلة بخمسة ريالات والشهر بتسعين ريالا .. ومن الممكن أن أدفع ليلة بليلة إلى أن يتم العثور على سعد عبد الفتاح ، أحاديث الجرسون مطمئنة .. لن يمر أسبوع بإذن الله والا سأحصل على عمل .. سألنى إذا كنت مؤهلات .. أحمل مؤهلا وطالبنى مثل عطية بعدم الحديث عنه إطلاقا ، فهناك الكثير من الأعمال التى لا تتطلب مؤهلات .. والباحث عن عمل يرغب فى الحصول على أى عمل مهما صغر شأنه ، فهو يعمل صبى مقهى وهو يحمل دبلوم تجارة ، وسألنى إذا كنت اتفقت مع الكفيل فى القاهرة على المبلغ الذى سأدفعه له شهريا ، أعلمته أننى لم أر الكفيل ولا أعرفه ولا أعرف قصة المبلغ المطلوب دفعه شهريا .. نظام الفيزا الحرة هنا ـ كما قال ـ يطلق الكفيل ـ العامل القادم ـ فى السوق يعمل فى أى حرفة أو مهنة .. ثم يخبره بالأجر الشهرى ليحصل على عشرة فى المائة منه ، ولا يقل ما يتقاضاه عن ورقة بمائة ريال .. مقابل الإقامة وتجديدها سنويا ويجب إخباره بحقيقة الراتب ، لأنه يسأل وكلهم يعملون مع بعضهم ويحافظون على مصالح بعضهم البعض .

تحدث عما يظنه المصريون « فهلوة » .. ولا يدفعون ما اتفقوا عليه ، ويبلغ عنهم الكفيل بأنهم هربوا من العمل لديه وذهبوا يعملون لدى الغير .. تقبض الشرطة عليهم .. يرحلونهم إلى سجن الإبعاد .. ثم يتم ترحيلهم إلى مصر ولا يسمح لهم بالعودة مرة أخرى إلى قطر ، فهمت فحوى حديث سائق التاكسى من هذا التوضيح .. سجن إبعاد .. كفيل طمع .. سألنى عما فى حقيبتى وإذا كان فيها شىء مهم أو غال وإذا سكنت لديهم من الممكن حفظه فى الأمانات لدى معلم المقهى ، وهو رجل شرقاوى وكريم وهو يعمل أيضا لدى كفيل ولم يغير كفيله منذ أن جاء إلى قطر منذ حوالى سبع سنوات وشرح وأوضح أنه فى حالة الرغبة فى تغيير الكفيل والعمل لدى كفيل آخر ، لابد من دفع مبلغ من المال يتفق عليه قبل نقله الكفالة .

الحقيبة ليس بها إلا بيجامة واحدة وجلباب وشبشب وفوطة وعدة حلاقة وعدد من أظرف الخطابات وأجندة لهذا العام الذى قارب على الانتهاء .. وقبل أن نصعد إلى الاستراحة ، قدم نصيحته الأخيرة « حذر ولا تخون » .. الاستراحة مجرد عنبر ضخم بمساحة المقهى .. به عدة تكييفات تعمل صيفا فقط .. مراتب على الأرض .. بالطول والعرض .. المسافة بين كل مرتبة لا تزيد عن نصف متر .. ما لايقل عن مائة مرتبة .. الناس نيام .. تغط فى نوم عميق ، أصوات الشخير متنوعة .. يبدو أن هناك تقسيمة جغرافية للنوم .. حمل منى الحقيبة .. ومر فوق ناس ينامون .. وفى الركن البعيد أشار أن هنا مجموعة من المنوفية .. أعطانى بطانتين وتركنى .. بمجرد أن وضعت رأسى لم أرفعها .. إلا بعد أن ضربتها أشعة الشمس التى اخترقت الشباك الذى جاء مكانى تحته ! .

الشمس تبدو أنها تشرق هنا ليلا .. الساعة لم تصل السادسة صباحا وأشعتها أنارت العنبر كله .. الحركة بدأت تدب .. مجموعة من الحمامات تفصل بين العنبر وصفوف الحجرات المتلاصقة ، لا داعى للدخول الآن .. بعدما يذهب العمال الى أعمالهم من الممكن أن استحم .. لم يبال أحد منهم برؤية شخص جديد .. لم يسألنى أحد متى أتيت أو من أين .. الكل يرتدى ملابسه بسرعة عجيبة وينادون على بعضهم البعض .. فى أقل من ربع ساعة .. غادر أغلبهم الاستراحة .. لم يبق فيها سوى ثلاثة وأنا رابعهم .. سألنى أحدهم متى أتيت واستفسر عن اسمى وبلدتى .. أحدهم أخرج سخانا كهربائيا ووضع عليه إبريق شاى .. آخر حذره من استخدام السخان ، خاصة وأن صاحب المقهى احيانا يقوم بالتفتيش على الممنوعات ويصادرها .. أنها ليست استراحة .. تبدو أنها عنبر سجن ! .

الثلاثة جاءوا من محافظات مختلفة .. وصلوا هذا الأسبوع ويبحثون عن عمل أيضا .. نفس التأشيرة .. فيزا حرة .. يخرجون صباحا يجوبون الدوحة سيرا على الأقدام بحثا عن فرصة عمل ولا يعودون إلا بعد العشاء ويستيقظون فى اليوم التالى لأداء نفس المهمة ويعودون بنفس النتيجة ، سألتهم إذا كان أحدهم قد خرج بعيدا عن العاصمة ، نفى الثلاثة فهم ما زالوا لا يعرفون قطر وإذا كان هناك مدن أخرى أو لا ، كما أن الخروج خارج الدوحة قد يكلفهم مصاريف مواصلات وما معهم من نقود يكاد أن ينفد .. خاصة وأنهم قبل مجيئهم من مصر ، الكل أخبرهم أن فرص العمل فى انتظارهم ، كما أنهم صرفوا ما معهم من نقود بالإضافة إلى الديون مقابل التأشيرة وتذكرة السفر .. دفع كل منهم مائتى وخمسين جنيها فى التأشيرة .. مائتان وخمسون والأستاذ عبد النبى ذكر أن تكلفة التأشيرة وحدها من أربعمائة إلى خمسمائة جنيه .. ضاعف المبلغ .. الله يسامحه ! .

الثلاثة يخرجون فرادى .. كل منهم يتجه إلى جهة وفى اليوم الثانى يتبادلون الجهات ، ماذا يحدث لو أصبحت رابعهم .. أخرج معهم هذا الصباح لعل وعسى أعثر على عمل .. سألتهم عن خبراتهم أو مؤهلاتهم .. الثلاثة أنفار زراعة إلا أنهم على استعداد لحمل الزلط والعمل فى المعمار أو أى شىء .. سألتهم عن اسم الشارع حتى أستطيع العودة بعد مهمة البحث .. أخذت الجهة الرابعة .. شارع طويل كله .. محلات .. مطاعم .. محلات أجهزة كهربائية .. محلات ملابس .. لا يوجد فى أى محل سوى عامل واحد أو اثنان من الهنود .. ولا صاحب محل من القطريين متواجد فى محله .. أسأل إذا كان هناك فرصة عمل .. مميش ! .

بالطبع إذا كان هناك فرصة حقيقية سيأتى العامل الهندى بصديق له أو احد معارفه وقد لا يدل مصريا مثلى .. إلا أن عاملا هنديا فى أحد المحلات ، أشار إلى الشارع الخلفى ، ويبدو أن هناك فرص عمل هناك .. محلات أخرى مشابهة .. نفس الأشياء المعروضة ونفس الأجهزة ونفس المطاعم .. فى منتصف الشارع عمارة ضخمة تحت الإنشاء .. اقتربت منها .. سألت إذا كان فيها فرصة عمل .. مصريون وهنود ويبدو فليبينيون يتحركون فى همة ونشاط .. ظهر مصرى .. سألنى عما أريد .. أخبرته عن بحثى عن عمل .

طلب أن أجلس بعض الوقت لحين وصول المهندس وهو فى نفس الوقت مقاول البناية وهو مصرى .. يشغل المصريين باليومية .. انتظرته .. مر نصف اليوم وكلما أهم بالانصراف ، يؤكد لى المصرى أن المهندس على وشك الوصول .. وعلى بالصبر والانتظار .. جاء بالفعل فى سيارة مرسيدس نفس طراز سيارة عطية أخى .. سأل عن سبب تواجدى فى الموقع .. أخبرته .. نظر فى وجهى وملابسى ثوان .. وهى مؤهلات غير مطلوبة ..وكأن البكالوريس مطبوع على وجهى .. أدرك أنه يتعامل بجفاء وأن المصرى يجب ألا يقابل أخاه بهذا الشكل .. أوضح بأدب أنه يقوم بتشغيل مصريين بالفعل باليومية .. أنفار .. ومنظرى وهيئتى غير مناسبة للعمل المتوافر ، وأنه بالفعل فى حاجة إلى ثلاثة أربعة أنفار .. قد يعملون طوال أكثر من شهر فى تشطيب هذه البناية ونقل الردم والأتربة .. قبلت العمل إلا أنه رفض وأدار لى ظهره .. فانصرفت .

فرصة .. لماذا لا أبلغ الرفاق الثلاثة عن هذه البناية وأرشدهم إليها .. سألت عن اسم الشارع .. حفظته .. على ناصيته محل ملابس اسمه « المحترم » .. وعلى مقربة منه مسجد كبير .. الظهر على وشك أن يرفع أذانه .. لماذا لا أدخل أتوضا وأصلى .. عندما أقام المؤذن الصلاة ، لم يكن وراءه أكثر من ثلاثة صفوف مثل بلدنا تماما .. صليت وراءه .. أنهيت صلاتى .. سندت ظهرى على أحد الاعمدة ، لأستريح بعض الشىء ولأستكمل اليوم وأبحث عن عنوان الكفيل لعل وعسى أن أعثر على فرصة عمل .. وأنا فى الطريق سألت عن شارع عبد الله بن ثان ودوار العثمان .. لا تجد أحدا يسير على قدميه لتسأله ، الكل فى سيارات ولابد من سؤال العمال فى المحلات .. السؤال أصبح سؤالين .. البحث عن فرصة عمل .. ثم السؤال عن الشارع والدوار .. أكثر من ساعتين سيرا على الاقدام ، أتفقد المعروض فى فاترينات المحلات ثم أسأل .. شارع عبد الله بن ثان .. ثانى شارع يسارا .

يافطة معلقة على بداية الشارع تؤكد أنه المطلوب .. دوار العثمان .. خمس دقائق فقط من بداية الشارع .. ميدان ليس بكبير مثل أول ميدان شاهدته .. ميدان إبريق الشاى .. على الناصية مسجد عتيق ، مأذنته ليست عالية .. متآكلة وليس على قمتها هلال ، صفان من المبانى .. الصف الأيمن كله من طابق واحد وكله دكاكين ومحلات .. الصف الأيسر منازل من طابقين أو ثلاثة .. هل أبدأ بالصف الأيسر أو الأيمن لأسال عن الشركة العربية للصناعات المتوسطة والصغيرة .. ماذا يحدث لو مررت فى الشارع مرتين .. مرة على اليمين والأخرى على اليسار أنظر للافتات دون سؤال .. فالشركة لابد أن يكون لها لافتة كبيرة تجذب الأنظار .. كما أننى لم أكره أكثر من كلمة « مميش » التى سمعتها اليوم فقط أكثر من ثلاثين أربعين مرة .

بجوار الجامع مباشرة .. ستة أو سبعة محلات ترزية .. خياطين .. بعضها رجالى والآخرى حريمى .. ثم محلين لبيع الأقمشة .. أقمشة ملونة ومزركشة وقطيفة ألوان مختلفة مثل التى يحضرها عطية معه من الكويت .. ثم مطعم عليه نقوش هندية ومحل ترزى آخر ومحل خردوات لبيع لوزام الخياطين من زراير وبكرات خيط وخلافه .. وعلى الناصية فى نهاية الصف الأيمن .. محل تنبعث منه رائحة ليست بالمنفرة .. رائحة زيت مغلى يبدو أنها شىء أقرب الشبه بالطعمية ، اقتربت من المحل .. حاجز زجاجى أرى خلفه شخصا يقوم بالفعل بقلى عجائن فى أشكال مثلثة ويرفع ما تم قليه إلى إناء آخر .. ابتسم لى .. رددت الابتسامة .. هندى آخر لكنه بشوش ، مد لى يده بواحدة مما يقلى .. حنان الفقراء .. أخذتها لم أرده .. تذوقتها بحذر .. نظرت بعد أول قطمة يبدو أنها رقاق .. محشو بالخضروات واللحم المفروم طعمها لذيذ وإن كانت حارة بفضل التوابل بعض الشىء .

لم يدخل معدتى شيء منذ الأمس .. وجبة الطائرة وكوب شاى المقهى .. سألت عن السعر .. أخرجت من جيبى بقية العشرة ريالات التى أعطانى إياها صاحب المقهى بعدما دفعت ثمن الشاى .. وضعت تسعين ريالا مع الأربعمائة الآخرين فى جيبى الأيسر وجعلت بقية العشرة ريال .. أخرجتهم .. تسعة ريالات ، عرضت عليه المبلغ .. أخذ ريالا واحدا وأعد لى كيسا به عشر قطع صغيرة أو ما يزيد وبدأ يردد اسم المنتج وكأنه يحفظنى إياه .. سمبوسة .. سمبوسة .. سمبوسة ! .. الصف الآخر من الشارع .. أتأمل محلاته وأتناول السمبوسة .. محل بقالة كبير بثلاثة أبواب .. بعده معرض أدوات صحية ضخمة .. يعرض حنفيات مذهبة وأحواضا وأشياء أخرى لا أعرفها .. وصيدلية ضخمة تحمل اسم « الباكر » على بابها يقف مصرى يبدو أنه من العاملين فيها .. سألته عن الشركة العربية للصناعات المتوسطة والصغيرة .. ابتسم وأشار إلى محل أمام الصيدلية مباشرة .. محل ترزى عليه اسم « أختار » .. وقبل أن أعود إليه ببصرى مرة أخرى ، طلب منى أن أتفضل وأدخل معه الاجزاخانة .. ابتسم مرة أخرى وكأنه يسخر من سذاجتى عندما ذكرت أن المحل الذى أشار إليه ترزي .. وأوضح أنه ليس هناك شركة أو عربية أو صناعات متوسطة أو صغيرة .. لكنها هذا المحل الذى أشار إليه .. وقد أجره صاحبه لترزى باكستانى ويأتى هذا المكان كل خميس عصرا لاستلام جوازات السفر أو يستلم الاتاوة الشهرية من العاملين وقبل أن أرد عليه أو استوضح المزيد من الأمور ذكر اسم غيث الكوارى .. نعم هو .. مضيفا أنه شاب طيب وأقل قسوة من الكفلاء الآخرين ! .

ثلاث ساعات أخرى سيرا على الأقدام حتى وصلت مرة أخرى إلى المقهى .. اشتريت كيسا آخر من السمبوسة بريال للعشاء .. تذكرت قبل أن أدخل الاستراحة أن الأكل ممنوع فيها وأن التدخين أيضا غير مسموح .. وقفت على الرصيف ، التهمت ما فى الكيس .. أبلغت رفاقى الثلاثة همسا أن هناك عملا ينتظرهم صباحا فى بناية ليست بعيدة .. اقترب ثلاثتهم منى حتى لا يسمعنا أحد وصفت لهم المكان .. وارتديت بيجامتى وشددت غطائى ودخلت الليلة الثانية فى الدوحة .

11

أصعب ليلة .. هى الليلة الأولى ويصبح الكل سواء .. صبى القهوة يتسلم منى كل ليلة خمسة ريالات قيمة المبيت ، وكلما يتناقص المبلغ الذى فى جيبى أشعر بفقدان عزيز .. فى اليوم السابع جاء الفرج .. لقد عثر صبى القهوة على عنوان سعد عبد الفتاح وهو يعمل فى التربية والتعليم ويسكن فى منطقة « وادى السيل » .. وهى ليست ببعيدة عن المقهى والاستراحة .. وصلت إليه دون مشقة أو عناء .. بمجرد أن عرف أننى من طرف الأستاذ عبد النبى ، استأذننى فى أن يتصل به تليفونيا ولحسن حظى وجده .. فزاد جرعة الترحيب بى ، سألنى عن نوع التأشيرة .. قطب حاجبيه .. طمأننى أننى سأجد عملا بإذن الله ، وكان من الممكن أن أصبر بعض الشىء على الأستاذ عبد النبى وأدفع له مائة جنيه أو مائتين زيادة ليحصل لى على عقد عمل مضمون .. عندما عرف أنه تقاضى أربعمائة جنيه ، قطب حاجبيه ثانيا . . معلش .. الإجازة القادمة سأمر على الأستاذ .. أفهمنى أن ما أدخره من ريالات أحوله قبل سفرى إلى دولارات وعندما أصل مصر ، أبيعها للاستاذ عبد النبى ، فهو يشترى الدولار أغلى قرش صاغ عن البنك .. والمبلغ يجمع .. آه ! .. الأستاذ عبد النبى تاجر عملة أيضا .. طلب منى أن أسلم جواز سفرى للكفيل خلال عشرة أيام من وصولى حتى يتمكن من استخراج الإقامة ، أخبرته أننى عرفت مكانه وسأذهب إليه الخميس المقبل .

الأستاذ سعد واضح وصريح .. أعلن أن ضيافتى عنده لمدة ثلاثة أيام فقط لا غير تنتهى الخميس وأنه سيرسلنى إلى صديق له خارج الدوحة .. فى المنطقة الصناعية ، وهناك سأجد أكثر من فرصة عمل .. بشرك الله بالخير ، أخبرته بمحل إقامتى فى استراحة الريان .. خرج

معى لإحضار حقيبتى من الاستراحة فقد أنتهت إقامتى بها من الآن .. خرجت معه ركبت سيارته .. قديمة لا تعرف لونها الحقيقى .. عرج على المقهى .. أخذت الحقيبة وأخبرت صبى المقهى أننى سأنتقل إلى منزل الأستاذ سعد .. طلب منى أن أحضر إلى المقهى مرة على الأقل كل أسبوع ، فهى المركز الرئيسى لمعرفة أخبار مصر ، كما يمكننى أن أرسل ما أريده مع بعض الرفاق المسافرين إلى القاهرة .. شكرته وودعنى بالأحضان .

إلى ميدان « إبريق الشاى » مرة أخرى .. وكأن ليس هناك ميدان آخر فى الدوحة ، أفهمنى الأستاذ سعد أنها دلة قهوة .. وليس إبريق شاى .. هذه الدلة من الممكن أن تجدها فى أماكن كثيرة لكنها بأحجام مختلفة .. الساعة لم تصل الخامسة بعد .. الشوارع مليئة بالناس من كل الجنسيات .. من يرتدى جلبابا فهو قطرى والمرأة المتدثرة برداء أسود فهى قطرية وغير ذلك أجانب .. توقف الأستاذ سعد بالسيارة فى باحة واسعة وطلب منى النزول .. نزلت .. عاد ونظر للسيارة من كل جوانبها .. دخل فيها مرة أخرى واعتدل بسيارته بين الخطوط البيضاء المرسومة على الأرض والتى لا يجب أن تخرج عنها السيارة .. النظام هنا نظام .. والشرطى لا يعرف « معلش عشان خاطرى » .. ولا يقبل رشوة .. الغرامة تدفع فى التو واللحظة .

طريق طويل صاعد يضيق مع الصعود وينحنى ويهبط ثم يعود للصعود مرة أخرى .. انتهى الطريق الأسفلتى ، دخلنا حارة ضيقة مرصوفة بالحجارة الصغيرة .. دكاكين على الجانبين لا يزيد مساحة الواحد منها عن مترين واجهة وثلاثة أمتار عمقا .. البضائع مفروشة على أرضية المحل والبائع يجلس أمام معروضاته ، .. بضائع من كل نوع ومن كل بلد .. شواكيش مفاتيح عدة مفكات يدوية .. مسامير محل آخر ، البائع يجلس نفس الجلسة وأمامه طواقى وكوفيات وقفازات .. محل آخر .. لا يجلس البائع فيه على الأرض ، بل جلس على مقعد خشبى وفى المقدمة منضدة صغيرة ، وضع عليها تين برشومى .. بلح أبريمى ، مكسرات مثل التى كان يأتينا بها أخى عطية .. فستق وبندق وعين جمل فى أجولة صغيرة تسند ظهورها على المنضدة .

كل المحلات تقريبا متشابهة وكل المعروضات تقريبا واحدة .. مثل محلات الملابس التى شاهدتها ناحية دوار العثمان وشارع عبد الله بن ثان ، دخلنا ممرا ضيقا .. مسقوفا .. المحلات على الجانبين أقرب إلى الأكشاك منها للمحلات .. أكشاك خشبية ، الممر ملئ بالناس .. نساء قطريات ورجال .. أسر كاملة معهم أطفالهم .. العطور تفوح من أرجاء الدكاكين الخشبية وروائح التوابل تخترق الأنف .. هذه رائحة « قرفة » وجنزبيل .. تلك رائحة بن فيما يبدو « محوج » .. عطور النساء وروائح التوابل والمكان المسقوف أدار راسى وحركة الناس البطيئة وتلفتى يمينا ويسارا والنظر داخل نفسى ورحلتى والبحث عن إجابة لماذا أتى بى إلى هنا الأستاذ سعد ؟ .. الأستاذ سعد اختفى عن نظرى وهو كان يسير بجانبى .. أبحث فى وجوه الناس .. أين ذهب الأستاذ ؟ .

الممر طويل وضيق .. حركة الناس فى الاتجاهين ذهابا وإيابا ومن الصعب أن أقف فى مكان ما لانتظاره ، ومن الصعب أن أنادى عليه بأعلى صوتى .. المكان الوحيد الممكن انتظاره فيه بداية الممر .. وماذا لو خرج من الطرف الآخر .. الأفضل انتظاره بجوار السيارة .. خرجت فى نهاية الممر .. مثل الطفل التائه .. هرعت إليه ، عندما وجد القلق على ملامح وجهى .. أفهمنى أن لا أحد يتوه فى الدوحة .. أمسك بيدى .. شققنا الممر حتى نهايته أخبرنى باسم السوق .. أنه « سوق واقف » وكل الباعة جلوس ! .. إنه أرخص أسواق الدوحة ، جاء بى هنا لشراء بعض احتياجات منزله وليشترى لى بعض المستلزمات الضرورية .. تساءلت فى نفسى ماذا أحتاج من هذا السوق ؟ .. لا شىء على الإطلاق ، إلا أنه ظل ممسكا بيدى حتى وصلنا إلى محل افترشت بضائعه الرصيف بأكمله .. البضائع عبارة عن مراتب إسفنجية ووسائد وبطاطين .. ابتاع لى بطانيتين وملاءة سرير ووسادة .. دخل فى جدال مع البائع الهندى وحاولت أن أضع يدى فى جيبى لاستخراج الريالات التى معى .. أصر وأقسم ألا يأخذ منى مليما واحدا إلا بعد العثور على عمل .. عدنا إلى السيارة ووصلنا إلى « وادى السيل » .

منزل الأستاذ سعد .. يبدو أنه بيت عربى ببوابة خشبية عتيقة .. يفتح على ساحة غير ترابية مبلطة ثم ثلاث أو أربع حجرات على اليمين وحجرة على الطرف الآخر فى اليسار .. فتح الحجرة .. سرير بمرتبة ينتظر الوسادة والبطانية .. يبدو أن هذه الحجرة هى « مضيفة » الأستاذ .. الأيام الثلاثة ستقضيها هنا تخرج معى صباحا للبحث عن عمل ولا تعود للمنزل ، إلا بعد عودتى .. أفضل ما فى الأستاذ سعد صراحته ووضوحه ، فالمنزل فيه زوجة وأولاد .. فرشنا السرير واستأذن لإحضار العشاء .. أول وجبة ساخنة تدخل معدتى منذ وصولى للدوحة .. فرخة وشوربة وأرز وسلاطة خضراء وخبز كأنه خرج لتوه من الفرن .. روائح الطعام غطت على عطور النساء وروائح التوابل التى علقت بأنفى ومخيلتى فى رحلتى الأولى لسوق واقف ، أشار إلى مكان الحمام وتركنى وحدى فى حجرتى .. حجرتى المؤقتة لمدة ثلاثة أيام فقط ! .

أحكمت غلق النافذة المطلة على ساحة المنزل وأغلقت الباب ، أخرجت بيجامتى ووضعت ملابسى على راس السرير .. أول مرة أنام على سرير منذ مجيئى للدوحة .. الهدوء فى «وادى السيل » ليلا .. قريب الشبه من هدوء تلوانة .. رأسى على الوسادة وعيونى ملتصقة بسقف الحجرة ووصايا محمد سعد فكة وأمى وأختى هناء .. خشيت أن أطفئ اللمبة المضاءة فى منتصف السقف والمدلاة بطريقة تساعدها على رسم أشكال هلامية وهندسية على السقف وأرضية الحجرة .. الأستاذ سعد له حق فى شراء بطانتين وليس بطانية واحدة ، فالبرد يتسرب إلى الحجرة من كل ثقب .. استخرجت من حقيبتى جوربا .. لعل وعسى أن اشعر ببعض الدفء .. يبدو أن شتاء الدوحة قارص وقد أتى مبكرا ، فالشتاء الحقيقى لدينا فى تلوانة فى شهر طوبة .. نهايات ديسمبر وفى يناير .. ونوفمبر هنا لم ينته بعد ، أحكمت الغطاء ولم أشعر إلا بطرقات الأستاذ سعد على باب الحجرة .. يوقظنى .. للخروج معه ويذكرنى بالبحث عن عمل والا أعود إلى البيت إلا بعد عودته وليس قبل الساعة الواحدة بعد الظهر .

أنزلنى فى طريقه فى وسط البلد بالقرب من شارع عبد الله بن ثان ودوار العثمان .. وأظن هذا المكان هو خط البداية والنهاية فى رحلتى تلك .. المحلات لم تفتح أبوابها بعد .. باستثناء محل واحد .. الساعة الآن تقترب من السادسة صباحا وهواء الصباح هنا يختلف عن هواء مصر .. أصابعى يكاد يقترب لونها من الزرقة بسبب البرد .. تحسست آخر زرار فى قميصى لسوء الحظ الزرار غير موجود .. هل سأقف فى الشارع لحين أن تفتح المحلات أبوابها .. اقتربت من المحل الوحيد المفتوح .. يافطة معلقة .. « مطعم بيروت » .. على الباب يقف رجل فى الخمسينيات من العمر .. يرتدى قميصا فقط وأنا أكاد أن أموت داخل البلوفر من البرد .. قميص دون بلوفر أو جاكت .. ثلاثة أزرار من قميصه مفتوحة .. عريض الصدر ، يبدو أنه خرج لاستنشاق برد الصباح عمدا .. على أكتافه « حمالات » تعلق ببنطلونه وقد شمر أحد رجليه وفوطة يلف بها وسطه .. رحب بى .. دخلت المطعم .. طاولات صغيرة .. فول بزيت الزيتون وبصل صغير وكاس شاى صغير أيضا .. تناولت إفطارى .. دفعت الحساب .. ثلاثة ريالات .. سألنى : مصرى ؟ .. سألته : لبنانى ؟ .. أخبرته أننى أبحث عن عمل .. اعتذر .. كل من يعمل فى المحل لبنانيون .. حتى من يقومون بغسل الأطباق والكؤوس من الشام .

هذا الجو لا ينفع معه إلا « قاهر الزمهرير» بالطو عجورة الذى أهداه له أخى عطية أو حتى بالطو من بلاطى فكه الكبير .. أغلب الناس هنا وحتى أهل البلد يغطون رؤوسهم ، فلماذا لا أشترى طاقية وكوفيه أو تلفيحه ؟ ، لقد رأيت مثل هذه البضائع معروضة فى « سوق واقف » .. هنود يخرجون جماعات وفرادى يبدو أنهم ذاهبون إلى أعمالهم .. اتوبيسات كبيرة تلتقط التلاميذ الصغار من على النواصى يبدو أنها تحملهم إلى مدراسهم .. سألت كيف الذهاب إلى سوق واقف ؟ .. عثرت على من يدلنى .. ذهبت .. كان الباعة فى بداية يوم عمل جديد .. يفرشون بضائعهم فى مقدمة أرضية المحلات .. اشتريت طاقية وكوفية .. البائع الهندى يصر على أنهما من الصوف الخالص وأعلم أنا أنهما ليسا كذلك .. كل شىء يخضع للفصال .. دفعت .. قبل أن أدفع ، ارتديت الطاقية ولفيت الكوفية حول عنقى .. أحسست بالدفء واقتنعت أنهما يستحقان العشرة ريالات التى طلبها البائع .

تجولت وحدى فى سوق واقف .. مشهد الصباح غير المساء .. أشعة الشمس تخترق الفجوات فى السقف الخشبى وترمى بخطوط ضوئية على أرضية الممر المبلطة بالحجارة الصغيرة .. أغلب رواد السوق صباحا من الرجال والسيدات كبار السن .. أدركت أن هذه المحلات لا تحتاج عمالا من أى نوع .. يكفى بائع واحد لكل محل .. روائح التوابل تعبق المكان .. لا وجود لرائحة عطور النساء .. وكأن نساء الدوحة يتعطرن عصرا أو مساء فقط ، على ناصية السوق مقهى .. مقاعد خشبية ورجال كبار السن جالسون يستمدون بعض الدفء والقوة من ضوء الشمس ، جلست .. إنتصف النهار .. شممت رائحة سمبوسة ، وقفت وتركت أنفى تقودنى إلى المحل .. دفعت ريالا واحدا وتسلمت كيسا مليئا بالسمبوسة الطازجة ، الكمية هنا أكبر من أى مكان آخر ، الساعة تقترب الآن من الثانية عشرة والمسافة من سوق واقف إلى وادى السيل قطعتها السيارة فيما يقرب من عشرين دقيقة وإذا توجهت الآن إلى منزل الأستاذ سعد على قدمى قد يستغرق الأمر ساعتين .. لا بأس .. أتمشى .. وأسأل عن فرصة عمل إلى أن أصل إلى وادى السيل .. استقبلنى الأستاذ سعد .. سألنى ماذا فعلت اليوم وأحضر لى صينية عليها طعام غدائى في حجرتى المؤقتة .

لم أر لسعد عبد الفتاح زوجة ولم أسمع لأولاده ضجيجا .. كل يوم أخرج معه صباحا ولا أعود إلا قبل العصر .. أعلن انتهاء ضيافة الأيام الثلاثة ، سيحملنى الآن في سيارته إلى الكفيل لأسلمه جواز سفرى ثم ينقلنى إلى صديق له فى المنطقة الصناعية خارج الدوحة حيث يتوقع هو أن أجد عملا ، وأتمنى أنا أن يستقر بى الحال واعرف« رأسى من قدمى » .. من وادى السيل إلى دوار العثمان إلى محل « اختار » الترزى ، المقر الوهمى « للشركة العربية للصناعات المتوسطة والصغيرة » والتى تقع أمام صيدلية « الباكر » .. سألنا عن غيث الكوارى .. اليوم خميس موعد حضوره إلى المحل .

رحب بنا الباكستانى .. كان إبريق الشاى على النار .. صب لى وللأستاذ سعد عبد الفتاح كأسين صغيرين وقدم لنا علبة صفيح صغيرة .. فتحها .. شكره الأستاذ سعد .. امسك « اختار» بسبابته وإبهامه بعض ما فى العلبة الصفيح وقذفها فى فمه وبدأ يلوكها .. يبدو أنها « مضغة » مثل التى كان يبيعها صلاح عجورة فى دكانه .. كان كبار السن من أهل القرية يشترون شيئين لا نحاول ونحن اطفال أن نقترب منهما أو تذوقهما .. المضغة والنشوق .. علمت هنا فيما بعد أن النشوق اسمه « سعوط » .. يتناوله الباكستانيون والهنود وبعض السودانيين .

ها هو قد جاء غيث الكوارى .. سيارة فارهة توقف بها أمام المحل .. نزل ، يعرف الأستاذ سعد وعلم بالحدس أننى الزبون الجديد .. رحب بى .. سألنى عن جواز السفر .. قدمته له .. سـألنى عن الأستاذ عبد النبى والأهل فى مصر .. غيث الكوارى لا أستطيع أن أطلـق عليـه أسـتاذ .. أو شيخ أو حاج ، فهو فى الأربعينيات من عمره .. دقيق الملامح جميل الوجه ، حلو اللسان يتحدث مصرى .. لحيته تكاد أن تكون مرسومة لا يزيد ارتفاع شعيراتها عن نصف سنتيمتر واحد .. بـدأ يحكى عن ذكرياته فى القاهرة ، فهو يذهب إليها ما لا يقل عن ثلاث أو أربع مرات فى السنة ، بعد أن قضى فيها سنوات الدراسة الجامعية الأربع .. ورغم أنـه جـاب العـالم .. ذهـب إلى تايلانـد والهند وأمريكا وباريس ، إلا أن مصر لها عنده موقع خاص ، مما جعله يشترى شقة فى الجيزة ، اشتراها له الأستاذ عبد النبى وقام بتسجيلها فى الشهر العقارى ودفع فيها خمسة وثلاثين ألف من الجنيهات .. تلاقت عيونى مع عيون الأستاذ سعد .. المبلغ يشترى منـزلا مـن ثلاثـة أو أربعـة أدوار .. الأستاذ عبد النبـى سمسـار عقـارات أيضـا .. ولا يعـرف الرحمـة ! .. تحـدث غيـث الكوارى واصفا نفسه بأنه أحسن كفيل فى الخليج للمصريين بصفة خاصة ، فهـو لا يمـانع مـن نقل الكفالة لأحد ، عنـدما يعثـر عـلى عمـل مناسـب وأن النسـبة التـى يتقاضـاها مـن العمـال المصريين ليست كبيرة .. عشرة فى المائة من المرتب على ألا تقل عن مائة ريال شهريا وهو يأتى عند « اختار » الترزى كل خميس .

ضحك واضحكنا .. يحكى غيث عن نـوادره فى القـاهرة والنصـابين الـذين قـابلهم وسـائقي التاكسى المراوغين وأنه علم بعد فترة أن الدشداشة والغترة تكلفه الكثير .. فقرر أن ينزل مصـر بقميص وبنطلون ويحكى عن الليالى التى قضاها مـع الأسـتاذ عبـد النبـى سـواء فى القـاهرة أو المنوفية وعن التأشيرات التى يرسلها إليه ويقوم هو بدوره ببيعها للمصريين وكل واحـد يأخـذ نصيبه .. تسلم الجواز وحذر من مغبة محاولات الفرار أو عدم دفع الرسوم الشـهرية ، وحكـى عن المصرى الذى هرب وتوصلت إليه الشرطة وألقت القبض عليه ثم وضعته فى سجن الإبعاد وقامت بترحيله إلى مصر ، فخسر « عنب الشـام وبلـح الـيمن » .. إلا أنـه أعطـانى مهلـة لـدفع الرسوم بعد أن أعثر على عمل ! .

قلب غيث الكوارى فى أوراق جواز السفر وعلم أننى وصلت منذ عشرة أيام . . ونصحنى بالخروج من الدوحة للبحث عن عمل .. وهنا تدخل الأستاذ سعد .. أخبره بأنه سيرسلنى إلى صديق له فى المنطقة الصناعية .. وطلب فى النهاية أن أخبره باسم الذى سأعمل عنده ، والراتب الذى سأتقضاه منه وأعطى جواز السفر لاختار الترزى طالبا منه أن يدون اسمى فى الكشوف التى لديه وأن يذهب بعد الغد إلى الجوازت لاستخراج الإقامة وأن أمر بعد أسبوع على محل اختار لاستلامها .. هناك تنظيم فى الشركة العربية للصناعات المتوسطة والصغيرة الوهمية !.. أخرج اختار دفترا كبيرا .. سجل اسمى واكتشفت أنه يستطيع الكتابة باللغة العربية .. الكشف مسطر خانات .. الاسم .. تاريخ الوصول .. رقم جواز السفر .. ثم خانة طلب توقيع اسمى فيها .. خرجنا نحن الثلاثة .. غيث الكوارى ركب سيارته وأنا والأستاذ سعد عبد الفتاح فى سيارته ، طلبت منه أن نعرج على قهوة الريان قبل ذهابى إلى المنطقة الصناعية .

المقهى كما هو .. نفس الرواد تقريبا .. هلل ورحب بنا صبى المقهى .. أحضر لنا الشاى وسألنى إن كنت عثرت على عمل أو لا وطلب منى ألا أنسى أن أمر عليه ولو مرة واحدة أسبوعيا .. المسافة من شارع الريان إلى المنطقة الصناعية تقترب من مسافة شبرا الخيمة إلى الباجور .. طريق واسع غير متعرج .. السيارات تسير بسرعة فائقة وصلنا للمكان قبل أذان المغرب .. عنبر كبير أشبه بالاستراحة المقامة فوق مقهى الريان ويبدو أنه كان ورشة وتحولت إلى استراحة .. المكان واسع للغاية .. مدخل .. ثم قاطع زجاجى ترى خلفه عشرات الأسرة والعديد من البشر من مختلف الجنسيات .. سأل الأستاذ سعد عن الحاج حسن عبد المتجلى .. طلب منه أحد المصريين الانتظار بعض الوقت لحين عودة الحاج من المسجد المجاور .

المنطقة كلها ورش .. أسقف من الصاج المعرج ومواقع مسورة .. ورش سيارات .. ونجارة .. مصانع صغيرة ، إلا أن هذا المكان ليس بورشة أو مصنع ، مجرد استراحة عمالية وبضائع مخزنة وثلاجات قديمة وأجهزة تكييف .. المكان مقسم بقواطع خشبية .. أسرة دور واحد وأسـرة مـن دورين مثل الموجودة فى معسكرات الجيش أو السجون .. ها هو الحـاج حسـن عبـد المـتجلى وصل .. يبدو أنه معرفة قديمة للأستاذ سعد عبد الفتاح أو أنهم كلهم شركاء فى عمليـات تصـدير وتوريد البشر ، قدمنى له .. لم تظهر على وجهـه علامـات الارتيـاح وهـو يتفحصـنى بنظراتـه .. تحدث مع الأستاذ سعد واعتذر عن عدم قبول أى شخص مؤهلات ويبدو أن المؤهـل مرسـوم على جبهتى .. أخبره الأستاذ سعد أننى على استعداد لقبول أى عمل ، إلا أن الحـاج حسـن كـان حازما ، فهو لا يقدم وظائف وليس لديه وظائف شاغرة وهو يعمل بالتجارة ومـؤمن بـأن تسـعة أعشار الرزق فى التجارة ، ومن الممكن أن يوفر لى الإقامة .. سرير مفرد بمائة وخمسـين ريـالا فى الشهر أو مكان على سرير مزدوج بمائة وعشرين ريالا .

الحاج حسن عبد المتجلى يعمل فى تجـارة الأجهـزة المسـتعملة .. تكييفـات .. أسـرة .. موبيليا وحتى السيارات القديمة ومن يعمل لديه لا يتقاضى مرتبا ولا يتقاضى أيضا عمولة على البيع بالمعنى المعروف ومن ينجح فيهم فى بيع قطعة من الأثاث او الأجهزة .. يأخذ « اللى فيه النصيب » .. ويحدد الحاج حسن وحده ومن يستطيع من العاملين معه أن « يخلـص بيعه » كبيرة كأثاث شقة مثلا يأخذ أيضا ما تجود به نفس الحاج حسن .

وافق الأستاذ عبد النبى ووافقت ووافق الحاج حسن على قبولى فى استراحته على مضض على أن أكون تحت الاختبار لفترة .. أخرج معى أحد عماله إلى سوق « الحراج » فى منطقة النجمة لعرض بعض الأشياء للبيع .. فترة تدريب .. ثم يقرر بعدها ـ هـو ـ إذا كنـت مـن الممكـن الاستمرار معه فى العمل أو الاستمرار فى السكن فقط .. وأكد على شعاره فى العمل والتجـارة .. السرية المطلقة .. فلا أخبر أحدا أيا كان ماذا دفع من مال فى بضاعة

ولا أخبر أحدا بماذا باع البضاعة .. فالتجارة أسرار .. خرج الأستاذ عبد النبى ليحضر حقيبتى والوسادة والبطانيتين وملاءة السرير من سيارته وأشار لى الحاج حسن إلى سرير مزدوج فى نهاية العنبر .. لاختار منه الدور السفلى ، أو العلوى وانصرف الأستاذ وتركنى مع الحاج والذى لم ينطق بكلمة بعد إشارته إلى السرير .. فرشت الملاءة والبطانيتين واستخرجت من حقيبتى الأجندة ذات الغلاف الأخضر .. دونت اليوم وتاريخ تسليم الجواز إلى غيث الكوارى وتاريخ وصولى للدوحة .. خرج الحاج حسن وأدار محرك سيارته نصف النقل وقضيت ليلتى وكأننى أنام ليلتى الأولى فى الدوحة من جديد .

12

بعد الفجر مباشرة .. دب النشاط في الورشة أو الاستراحة ووصل الحاج حسن .. احترام الناس له مبالغ فيه ، الهنود يطلقون عليه لقب « بابا » أو « أرباب » ، علمت أن معناها صاحب العمل وهو يتعامل مع الناس بجفاء وتعال شديدين وكأنه صاحب فندق هيلتون .. مجموعة من العمال تحركت إلى الجزء المخزن فيه الثلاجات القديمة ، يفكون أبوابها ويغسلون أرففها .. مجموعة أخرى تعاملت مع أجهزة التكييفات .. نزلت من على سريري .. ألقيت عليه تحية الصباح ، إلا أنه تجاهلنى متشاغلا بإعطاء تعليمات إلى عامل هندى .. ارتديت ملابسى وهممت بالخروج من الاستراحة ، أوقفنى الحاج حسن وطلب منى الانتظار بعض الوقت لحين الانتهاء من توزيع الأعمال .. نادى على عامل من الهنود ، حدثه بلغته .. ثم التفت إلى .. ستخرج مع العامل إلى سوق الحراج فى منطقة النجمة ..أنت اليوم مجرد صبى بائع .. ستراه كيف يتعامل مع الناس وماذا يبيع ، جاء العامل يحمل عددا من الصوانى المصنوعة من الألمونيوم مثل التى يقدم عليها الطعام عندنا فى مصر .. وضع العامل مجموعة الصوانى على سيارة الحاج حسن وركبنا بجوارها وانطلقت السيارة .. عند مدخل السوق أنزلنا الحاج حسن .

لم يدخل الهندى السوق بالصوانى بل وضعها فوق بعضها عند المدخل وأخذ ينادى على بضاعته بلغة لا أعرفها .. يقترب عدد الصوانى من عشرين واحدة ، رجال ونساء قطريات يقدمن على شراء أكثر من صينية .. الهندى لا يبيع بسعر موحد .. ثلاث صوانى قبض

فيها خمسة وعشرين ريالا وأربع باعها بخمسين .. يفاصل ويجادل ويهز رأسه وعندما يحاول المشترى تخفيض السعر ، يتمسكن ويقول كلمة واحدة .. فهمتها .. هندى مسكين .. فقير .. الجوع قرصنى وخاصة بعدما شممت رائحة السمبوسة ، تسللت من جانبه ، ذهبت إلى محل مجاور .. اشتريت بريال سمبوسة .. التهمته .. عدت لأقف بجواره مرة أخرى .. لم يبق أمامه سوى صينية واحدة .. أخذ ينادى « يك » .. « يك » علمت إنه « واحد » بلغتنا العربية .. أقدم عليه زبون .. باعها له بخمسة ريالات فقط ! .. أخذنى من يدى .. أجلسنى على مقهى .. فهمت من إشارته ألا أترك المكان إلى أن يعود .. لم يعد إلا بعد العصر ..أخذنى من يدى مرة أخرى .. استوقف سيارة نصف نقل .. نقلتنا إلى المنطقة الصناعية ، وجدنا الحاج حسن فى انتظارنا سلمه الهندى الريالات .. لا أعلم إذا كانت حصيلة البيع كاملة أو أنه اختلس بعض الشئ له .. عد الحاج حسن النقود وسلم الهندى خمس ريالات ولم يسلمنى شيئا .

تكررت الرحلة .. نفس السوق .. ونفس الصوانى ، إلا أن المبلغ المسلم يوميا للهندى كان مختلفا .. مرة خمسة عشر ريالا وهو أعلى مبلغ « والمرات الأخرى يترواح المبلغ من عشرة إلى ثلاثة عشر ريالا وهو « ما فيه النصيب » .. ولم يسألنى الحاج حسن أبدا عما حدث فى السوق .. فى اليوم الخامس أو السادس .. نادانى بعد أن تسلم حصيلة البيع من الهندى .. أعطانى عشرة ريالات أول عشرة ريالات اكتسبها فى الدوحة .. فى الليل دونت فى الأجندة الخضراء الرقم وتاريخه .. الرحلة تكررت والهندى رفيقى لم يسألنى حتى عن اسمى وعندما سألته قال لى « كومار » .. وسألته مرة أخرى بعدها بثلاثة أيام عن صحة نطق الاسم .. فذكر لى اسما مغايرا .. لا يهم إلا أنه رفيقى .. رفيق يعنى صاحب بالهندى .. نبيع الصوانى فى مدة لا تتجاوز ساعتين ويجلسنى الهندى على مقهى مجاور ثم لا يأتى إلا بعد أربع أو خمس ساعات .. عندما توثقت العلاقة بيننا .. علمت أنه يذهب إلى عدة محلات مجاورة .. يقوم بكنسها وتنظيفها مقابل أجر أسبوعى دون علم الحاج حسن عبد المتجلى .

ارتفعت عمولتى .. أو « ما فيه النصيب » إلى خمسة عشر ريالا فى اليوم .. إلا أن هذا المبلغ مطلوب أن أدفع منه مائة ريال شهريا إلى كفيلى غيث الكوارى .. فى أحسن حال سيصل دخلى إلى أربعمائة وخمسين ريالا فى الشهر يخصم منه مبلغ الكفيل .. رفيقى الهندى « يتحايل على المعايش » بالعمل فى محلات مجاورة فى السوق ، أما أنا فلا ، أعمل ولا دخل لى ، إلا ما يدفعه الحاج حسن عبد المتجلى والذى بدأ سياسة جديدة معى .. يخرجنى يوما مع « كومار » الهندى ويتركنى أياما بلا تكليف أو خروج إلى السوق . الأسرار كلها مع « كومار» ومن الممكن أن يدلنى إن وثق فى ، إلا أن اللغة تقف بينه وبينى حائلا ، فهو يتحدث بالهندى والإنجليزى وقليل من العربى ، بينما لا أعرف أنا من الإنجليزية سوى ما تعلمته فى المدرسة وهو لا ينفع لإقامة جسور أو حوار أو علاقات .

أنهينا عمل اليوم .. وتبقى لدينا أربع صوانى لم نجد لها مشتريا .. تركنى كومار كعادته على المقهى .. ذهب ثم عاد بعد خمس ساعات .. ثم أخذنى من يدى لمطعم هندى بسيط فقير ، استقبلوا فيه كومار بحفاوة ، تناولت معه الغداء الملئ بالتوابل الحارة .. أول مرة أجلس معه .. يحدثنى باللغة الإنجليزية .. لا أفهم إلا أقل القليل من حديثه .. أخرج محفظته .. فض ورقة مطبقة عدة طبقات .. قدمها لى .. شهادة جامعية عليها صورته .. كومار يحمل بكالوريس فى التجارة وإدارة الأعمال .. كومار مؤهلات مثلى .. بدأ يشتكى من الحاج حسن عبد المتجلى « طمع .. جشع » .. نفس العبارات التى سمعتها أول يوم وصلت فيه إلى الدوحة من سائق التاكسى وعرفت منه بصعوبة أنه لا يسلم كل حصيلة البيع إلى الحاج حسن .. يختلس منها بعض الشىء كل يوم ! .. فهو يسلمه عددا من الصوانى صبيحة كل يوم ويطلب منه أن يورد مبلغا معينا وهو لذلك لا يحدد سعرا .. يبيع حسب « التساهيل » خاصة وأن الحاج حسن لا يعطيه أكثر من خمسة عشر ريالا حتى وإن باع له بخمسمائة ريال ! .. دفع كومار حساب غدائه وغدائى وأوقف سيارة نصف نقل لتقلنا إلى المنطقة الصناعية .

حديث كومار جدير بالتفكير والتمعن .. فهل ما يقوم به سرقة أوأنه تجارة ؟ .. وما يربطنا بالحاج حسن عبد المتجلى علاقة عمل أو علاقة استغلال ، وما سر هذه الصوانى التى تباع ؟ .. ومن أين يأتى بها الحاج حسن ، ونحن الوحيدون الذين نقوم ببيعها فى السوق كله ، الأمر يحتاج لبعض الوقت وقليل من التفكير وكثير من الصبر ، أشعر بأن هذه الصوانى التى نقوم ببيعها وكلها مستعملة وليست جديدة تعود إلينا مرة أخرى ونعيد بيعها ثم تعود .. هذه الحلقة أين تبدأ وأين تنتهى ؟ .. فى الجزء المخزن فيه الأشياء المستعملة من الاستراحة وجدت أحد العمال الهنود يقوم بغسيل عدد من الصوانى ويستخدم الرمال والطفلة ليزيد لمعانها ولكن من أين تأتى هذه الصوانى للحاج حسن ؟! .

أكثر من شهرين وأنا أقوم بهذه المهمة وما يتبقى من دخلى يغطى تكاليف الطعام .. مائة ريال للكفيل ومائة وعشرين ريال ثمن الإقامة .. يتبقى من مائتين إلى مائتين وثلاثين ريالا .. أنفق منهم مائة وخمسين على الطعام الفقير الذى أتناوله . . سواء كان سمبوسة أو فى مطاعم هندية فقيرة أو ثمن المعلبات .. ما ادخرته خلال الشهرين ستين ريالا بعد إجراء مكالمتين إحداهما لأخى عطية فى الكويت والأخرى لأمى فى تلوانة .. يبدو أن السفر وهم وأن إحلام الثراء أكذوبة .. وأن وصايا محمد سعد فكة لن تتحقق أبدا ما لم أحصل على عقد ووظيفة محترمة .

كومار هنا منذ ثلاث سنوات ولم يحصل بعد على وظيفة محترمة .. يبيع مثلى صوانى ويكنس المحلات ويختلس بعض الريالات من الحاج حسن ، إلا أنه راض بما يكسب ويتحدث عن فرق العملة وأن ما يكسبه يحوله إلى الهند أسبوعيا وليس شهريا وأنه استطاع أن يشترى خلال السنوات الثلاث منزلا ولأبيه محلا حتى لا يعمل لدى الغير والمشكلة أنه لديه أخوات بنات .. لابد أن يدخر لهن المهر .. فعندهم هناك الزوجة وليس الزوج هو الذى يدفع المهر .. يبدو أن كومار قد جاء من تلوانة الهندية محملا بالهموم والآمال مثلى تماما .

أول يوم أنزل السوق وحدى دون كومار .. أوصلنى الحاج حسن إلى مدخل السوق ومعى ثلاثون صينية وطلب ألا يقل المبلغ المورد له عن أربعمائة ريال .. وقفت فى نفس المكان .. بعت الصوانى كلها مثلما كان يفعل كومار .. لا سعر محدد .. أغلب المشترين من الرجال والنساء وكبار السن .. سألت امرأة بعد أن اشترت منى خمس صوانى بمائة ريال ، ماذا تفعل بهذه الصوانى وقلت لها إننا فى مصر لا يوجد فى البيت أكثر من صينية واحدة مثل هذه الحجم .. المرأة بشوشة غير متجهمة مثل غيرها من النساء فى السوق والذين يعاملون الباعة بشيء من التأفف والكبرياء .. أخبرتنى بما كنت أبحث عنه .. هذه الصوانى لأهل الخير .. تعد عليها الأطعمة وتقدم إلى رواد المساجد وهناك الكثير من أهل الخير فى قطر ، بعضهم يعد من هذه الصوانى بالعشرة ويرسلها إلى أحد المساجد القريبة وخاصة المساجد التى تنظم دروسا بين صلاة المغرب وصلاة العشاء ! .

أحصيت ما معى من حصيلة البيع أربعمائة وستين ريالا .. أوقفت سيارة نصف نقل .. حملتنى إلى المنطقة الصناعية .. وصلت قبل موعد وصولنا المعتاد أنا وكومار بما يزيد عن ثلاث ساعات .. وجدت الحاج حسن فى انتظارى .. كنت وضعت له أربعمائة ريال فى جيب والستين الأخرى فى الجيب الثانى .. أخرجت النقود .. سلمتها له .. أعمل فيها أنامله ليحصيها .. استخرج منهم خمسة عشر ريالا « ما فيه النصيب » .. أخذتهم وضعتهم فى جيبى الثانى لتصبح حصيلة اليوم الأول لخروجى وحيدا خمسة وسبعين ريالا .. فى الليل دونت المبلغ وتاريخه فى الأجندة ذات الغلاف الاخضر ، لو ظل الأمر كذلك من الممكن أن يصل دخلى الشهرى إلى 2250 ريالا .. عندما تسلم الحاج حسن الحصيلة تبسط معى فى الحديث وسألنى لأول مرة عن اسمى كاملا وعن اسم « فكه » .. قهقه عاليا .. ذكرنى بأول يوم فى المدرسة عندما تضاحك الأطفال عند سماع هذا الاسم ورد .. عبده فكه .. عبده فكه .. خليها عبده ريال . وصك الاسم الجديد الذى لم أستطع الفرار منه !.

كل ما أخشاه أن يكتشف الحاج حسن اللعبة .. لم أنم ليلتى لا هادئا ولا مطمئنا .. أتقلب على فراشى .. أحسب مكسبى فى الشهر ثم العام إذا سار العمل على هذا المنوال .. أنا لم أسرقه أعطانى ثلاثين صينية وطلب أربعمائة ريال .. سلمتها له ولكن ماذا عن الخمسة عشر ريالا التى دفعها لى ؟! الكل فى العنبر يغط فى نوم عميق .. سرير كومار على بعد ثلاثة أسرة من سريرى .. نزلت .. دخلت الحجرة التى يستقبل فيها الحاج حسن الضيوف وإذا بكومار يأتى فى أثرى ، يسألنى عما فعلت اليوم فى السوق .. وماذا بعت وماهى حصيلة البيع ؟ .. أخبرته أننى تسلمت ثلاثين صينية وسلمت الحاج أربعمائة ريال .. ضحك وأخبرنى أن الثلاثين صينية بثلاثمائة ريال وقد كسب اليوم الحاج مائة ريال زيادة ! .. لقد أدرك الحاج أن كومار يسرقه ، فقرر نقله إلى عمل آخر وهو بيع التليفزيونات المستعملة وأنزله السوق عصرا حتى لا أقابله ، وأوضح كومار أن كل فترة يرفع الحاج الأسعار .. « طمع جشع » وأن ما فعله معه قد يفعله معى ولابد من أخذ حذرى منه ونصحنى أن أعود إليه من وقت لآخر بالصوانى حتى يعلم أن بضاعته لا يقبل عليها أحد وألا يستمرئ رفع السعر .

كلام كومار جدير بالتمعن والتفكير ، فإما أن تكون نصيحته خالصة أو أنه يرغب فى العودة مرة أخرى إلى بيع الصوانى ، فمكسبها اليومى مغر ، إذا كان كومار يعمل نفس الشيء الذى فعلته اليوم .. وحكى كومار وظل يحكى طوال الليل عن مكاسب الحاج وبضائعه التى يشتريها بالقليل ويبيعها بالغالى ، وأن هناك بضائع لا يدفع فيها فلسا واحدا مثل الصوانى التى يجمعها من المساجد ثم يكلف أحد العمال بغسلها وتلميعها ويعطيها لعامل آخر ليبيعها له .. نعم المرأة القطرية ذكرت لى أن هذه الصوانى تذهب لأهل الخير وعليها أطعمة ، ومن يرسلها إلى المساجد لا ينتظر عودتها بالطبع .. وهناك من يقوم بتجميعها وإرسالها إلى الحاج حسن ، إلا أن كومار لا يجب أخذ كل كلامه مأخذ الجد كما لا يجب التشكك فيه .. الحذر واجب ومثل تلوانة قابل للتطبيق فى كل مكان .. « حذر ولا تخونش » .

الشهور تمر ولم يرفع الحاج حسن أسعار الصوانى ، وتعلمت من كومار أن أشترى أشياء بسيطة وأبيعها لحسابى بجانب الصوانى كما نصحنى بعدم العودة مسرعا بعد البيع ، فيجب أن أقضى اليوم كله خارج المنطقة الصناعية وأن أبحث عن عمل آخر بجانب شغل الحاج حسن .. لم أعرف أن شهورا عشرة قد مرت على وصولى إلى الدوحة ، إلا بعد وصول خطاب من صديقى عبد الله زوج أختى هناء ، يخبرنى بأننى أصبحت خالا حيث رزق بمولود أسماه « سعد » .. يا فرحة أمى .. سعادتى غامرة وفرحتى لا توصف ، عندما قرأت خطابه وقد أنطفأ وميض الفرحة بعض الشئ عندما دببت يدى فى جيبى واستخرجت ورقة بعشرين ريالا وقررت أن أحدثه تليفونيا لأبارك له ولأختى ولأمى .. المكالمة التهمت العشرين ريالا .. سألنى عن الأحوال وظروف العمل ، استفسر عن عدم إرسالى اية نقود حتى الآن ، وأستاذننى فى أن يفتح لى دفتر توفير فى الباجور لأرسل مدخراتى عليه ، أخبرته أن ينتظر بعض الوقت ولم أعطه جوابا شافيا حول ظروف العمل أو المدخرات وكنت قد فتحت حسابا بنكيا فى بنك قطر الإسلامى فى نهاية شارع الكهرباء ، أضع فيه مدخراتى أسبوعيا مثلما أخبرنى كومار بأنه يرسل ما يدخره كل أسبوع إلى الهند .. لقد وصل حسابى فى البنك حتى تاريخه والمدون فى الأجندة الخضراء ستة عشرة الفا من الريالات فى عشرة شهور .

رحلة كل يوم إلى سوق النجمة جعلتنى أتعرف على كل الباعة الهنود والمصريين ولا أعلم كيف وصلهم اسمى الجديد « عبده ريال » .. الكل ينادينى به ولم أعد أجد فيه غضاضة .. عبده ريال .. عبده فكة .. كلها فلوس .. عملت بنصيحة كومار كنت أبيع أشياء اخرى بجانب الصوانى فى مدخل السوق .. كل يوم أبيع بضائع مختلفة ، استلمها من باعة هنود آخرين .. تسلمت ذات يوم عشرين شمسية قيمتها ستون ريالا وبعتها جميعا بمائة وعشرين ريالا .. بعدما هطلت الامطار فجأة واحتمى المشترون بشماسى عبده ريال ، بعت الواحدة بستة ريال « مكسب مائة فى المائة ».. عرفت كل من فى السوق تجارا إيرانيين وباكستانين .. مخازن كبرى لبيع الأخشاب والأثاث الجاهز القادم من أندونسيا وأصبح سوق الحراج فى النجمة .. لعبتى وملعبى ..

عندما حاول بائع جديد أن يحتل مكانى فى مدخل السوق نهرته وساندنى كل باعة السوق ، فهذا مكان عبده ريال منذ وصل واستطعت بعد فترة بمعاونة عامل هندى فى أحد المحال المجاورة أن أستأجر منه منضدة صغيرة وكرسى خشبى وشمسية كبيرة أتقى بها شمس الصيف ومطر الشتاء مقابل خمسة عشر ريالا فى الشهر .. مكسبى اليومى تعدى المائة ريال وأحيانا يصل إلى مائة وخمسين أو المائة وستين وكل أسبوع أذهب لبنك قطر الإسلامى أضع حصيلة مدخراتى وأتناول غدائى فى مطعم معقول أدفع فى الوجبة خمسة عشر ريالا .

خصصت ليلة الخميس لمقهى الريان .. أجلس فيها ما يقرب من ساعتين أو ثلاث ساعات ولا أتناول إلا كوبا واحدا من الشاى ولا أتحرك من المقهى ، إلا عند نزول الرجل صاحب البيجامة الكستور والذى يدخن حجرين فقط من الشيشة ثم يصعد إلى الاستراحة .. تشعبت علاقاتى بالناس .. بالكلمة الطيبة ومساعدة من يستحق المساعدة دون أن أكلف نفسى شيئا ، فى المقهى يصل كل يوم مصريون جدد يحتاجون بعض الأغراض ، منهم من يريد أن يشترى سريرا أو جهاز تكييف مستعمل أو ثلاجة قديمة وكل حسب طاقته .. والأمور تسير .. أخذ جهاز تكييف مستعمل من الحاج حسن بثلاثمائة ريال وأبيعه بزيادة خمسين أو ستين ريالا .

القهوة بالفعل أصبحت مصدرا آخرا للرزق وصبى القهوة هو المروج لبضائعى كل من يطلب شيئا ، يسأله الانتظار .. موعد وصول عبده ريال .. صبى القهوة لا يفعل هذا مجانا ، كل أسبوعين أو ثلاثة أمنحه عشرين ريالا ، تسير الأمور وتصلنى من تلوانة والكويت خطابات بانتظام بعدما أرسلت إليهم رقم الصندوق البريدى الخاص بالحاج حسن والذى أصبح عنوان مراسلة كل من يعملون معه او يقيمون عنده فى الورشة ، إلا أننى كنت لا أجد الوقت للرد على الخطابات .. فاطمة تستعجل وصولى لإتمام الزفاف وأمى تتمنى رؤيتى فقد مضى أكثر من عام وأخى عطية يحثنى على ادخار كل فلس لتحقيق وصايا محمد سعد فكة وشراء ما يمكن شراؤه فى تلوانة وهناء اختى وزوجها صديقى عبد الله يطلبون منى أن أحدد يوما فى الشهر لمحادثة فاطمة خطيبتى ـ زوجتى على الورق ـ عند أمى وأنا لا استطيع أن ألبى مطالبهم جميعا .

الخطابات كلها تدور فى إطار واحد ، باستثناء خطابات الشيخ على ماضى ، فهى خطابات ذات نكهة خاصة وموضوعاتها شيقة تبدأ بالسلام وتنتهى به إلا أن ما بينهما يحتاج للقراءة أكثر من مرة ، يصور لى أحوال تلوانة ومشاجرات ناسها وتطور الأمور فيها والرجال الغرباء القادمين من القرى المجاورة أو من الباجور الذين بدأوا التحرك على أرضها .. هذا يجرف الأرض ويقيم « قمينة » طوب أحمر ، وذاك يجمع بطاقات الشباب والرجال الشخصية لاستخراج بطاقات انتخابات لهم وليضمن أصواتهم فى الانتخابات القادمة .. ينقل لى خبر وفاة العمدة وعدم تعيين عمدة جديد مما جعل تلوانة مضغة فى أفواه القرى المجاورة بأنها بلد بلا عمدة وبلا كبير .. يحكى لى فى خطاب آخر عن غضب عضو مجلس الشعب على الواد محمود ابن صلاح عجورة والاستغناء عن خدماته وغلق المقهى أكثر من مرة ووصول ضابط المباحث من الباجور للقبض على مرتادى قهوته واستمرار هذا المسلسل الذى حوله إلى حلقات فى خطاباته .. يحكى لى أنه ليس سعيدا مع زوجته الجديدة فاطمة ولا يستطيع أن يتخذ قرارا بطلاقها وتدخل أمها السافر فى حياتهما ، وإقامتها المستمرة فى داره وتحكمها فى كل شئ كأنه دار أبيها .

الشيخ على ماضى لخطاباته مذاق آخر ، كانت تجبرنى على أن أرد على كل خطاب يرسله وباستمرار وجعلنى اشترى ورقا مخصوصا - ورق أرز - خفيف لأكتب له فى الرسالة الواحدة ثلاث أو أربع ورقات بينما كانت لا تزيد خطابات أخى عطية عن نصف صفحة .. يوصى فيها ويأمر ويطلب .. آخر خطاب ذكر لى أن البناء اكتمل وأن شقتى التى حددها فى الدور الأول لا ينقصها سوى « الفرش » والزوجة ووصولى إلى تلوانة .. وأن المفروض أن أدفع كذا .. حصتى من تكاليف البناء وثمن الأرض التى سيطلبها عمى وعمتى ويطلب أن أرسل له المبلغ مجزءا على حوالات إليه فى الكويت أو إلى زوج أختى عبد الله .. وما أدخرته إذا قسمته وأرسلته ، سأشعر أننى لم أفعل شيئا فى غربتى .. أرسلت إليه رسالة ، أطلب منه تأجيل زفافى إلى العام المقبل وأن يمارس قدراته مع أهل فاطمة ، فالظروف غير مواتية لنزول الاجازة وأن مهاراته فى الإقناع ستجعلهم يقبلون التأجيل لمدة عام آخر ، أما فلوس تكاليف البناء وثمن الأرض ، سأرسلها إليه فى الكويت مجزأة على حوالات بنكية كما طلب ومع اول حوالة أرسلتها له ، أرسل لى خطابا يؤكد لى أنه سينجح فى إقناع أهل فاطمة بتأجيل الزفاف لمدة عام آخر ! .

يوم جديد .. حملنى الحاج حسن فى سيارته « الونيت » نصف النقل بعد أن سلمنى ثلاثين صينية ألومونيوم وطلب فيهم أربعمائة ريال .. لم يرفع الأسعار حتى الآن ، إلا أن كلام كومار جعلنى أترقب وفى أى وقت حركة مفاجئه من الحاج حسن ، طلب منى أن أجلس بجواره فى كابينة السيارة بعكس الفترات السابقة التى كان يجلسنى فيها فى الصندوق المكشوف رغم برودة الجو وقبل أن يدير محرك السيارة ، نادى على رفيق هندى وطلب منه الصعود إلى صندوق السيارة ، هل هذا الهندى الجديد سيلعب نفس الدور الذى لعبته أنا مع كومار ؟ .. لم يتحدث الحاج حسن فى الطريق كثيرا .. أمام السوق أنزلنى وأخبرنى أن هذا الرفيق الجديد سيساعدنى اليوم ! .

بدأت اللعبة .. ويبدو أن الحاج حسن هذا الذى لا يعلم أحد جذوره قد بدأ يسلك معى سلوك « المنايفة » الذين أنا منهم .. حمل الهندى الصوانى وقبل أن يدخل السوق أعلمته أن مكانه أمام الباب وليس بالداخل وضع الصوانى عند المدخل وأخذت الكرسى والمنضدة والشمسية لتسليمهم للمحل المجاور وأخبرهم أننى لم أعد فى حاجة إليهم .. فقد قررت ألا أعمل مع الحاج هذا بعد اليوم .. طلبت من الهندى رفيقى بعد أن سألته عن اسمه أن يقف بجوار الصوانى إلى أن آتى دون أن أفهمه كيف نبيع وما سعر الصوانى ، تركته وذهبت إلى بنك قطر الإسلامى لأرسل حوالة جديدة إلى أخى عطية فى الكويت .. عدت إليه عصرا لم يبع صينية واحدة ، أوقفت سيارة ونيت .. عدنا إلى المنطقة الصناعية .. وجدنا الحاج حسن فى انتظارنا .. عندما شاهد الصوانى كما هى انقلب وجهه وانشرح صدرى .. السوق نايم اليوم ولم نبع صينية واحدة وربما الغد يكون أفضل ! .

بعد أن انصرف الحاج حسن ، نزلت مرة اخرى إلى الدوحة .. إلى مقهى الريان .. اليوم ليس خميس .. استغرب صبى المقهى من وصولى فى غير موعدى .. اخبرته أننى أبحث عن بيت عربى لا يزيد إيجاره الشهرى عن خمسمائة ريال وأن يكون قريبا من سوق « الحراج » .. غالى والطلب رخيص .. هناك منزل فى منطقة النجمة إيجاره ستمائة ريال .. أربع حجرات ومطبخ وحمام وحوش كبير .. أعطانى رقم تليفون صاحب الدار .. اتصلت به .. ذهبت إليه .. عاينت المكان .. من الغد سأكتب العقد ويتسلم الإيجار وأبيت ليلتى فى المنزل الجديد .

آخر ليلة لى فى ورشة أو استراحة الحاج حسن ، أخبرت كومار أننى سأستاجر منزلا فى منطقة النجمة القريبة من السوق وأننى لن أعمل مع الحاج حسن بعد اليوم ، فهو ليس كفيلى ولا يستطيع الإضرار بى .. فى الصباح وعندما جاء الحاج وقام العمال باستخراج الصوانى وقبل أن يكلفنى بمهمة البيع ، اعتذرت عن عدم الخروج لتوعكى بعض الشئ ولظروفى النفسية الصعبة ، فهذا العمل فى الحقيقة لا يناسبنى على الإطلاق وأننى أبحث عن وظيفة بمؤهلى .. لم يهتم ولم يكترث ولم تظهر علامات ضيق أو تبرم على وجهه ، طلب من هندى آخر أن يحمل الصوانى ويركب فى صندوق السيارة .

بمجرد تحرك سيارة الحاج حسن بحثت عن سيارة نقلتنى إلى الدوحة مع حقيبتى والبطانيتين وملاءة السرير والوسادة وقد ربطهم جميعا بطريقة جيدة .. إلى بنك قطر الإسلامى .. سحبت من رصيدى ثمانمائة ريال مرة واحدة .. من البنك إلى منطقة النجمة ، سلمت الإيجار لصاحب المنزل واستلمت مفتاحا ضخما .. وضعت أغراضى فى الحوش ، وإلى السوق اشتريت سريرا خشبيا مستعملا ودولابا من البلاستيك ومقعدا واحدا ومنضدة صغيرة .. وقد أكرمنى أصدقائى الباعة ، ولم أدفع سوى مائة ريال فقط وظلت معى المائة الأخرى ونمت فى منزلى الجديد .

13

عشرة أيام متتالية لم يدخل جيبى مليم واحد .. أصرف من مالي الحى ولا ارغب فى الاقتراب من البنك حتى لا أسحب ريالا من مدخراتى .. المنزل الجديد يحتاج بعض الرعاية وإعادة الترتيب ، سأخصص حجرة لنفسى والحجرات الثلاث سأفرشها وأعرضها للإيجار بالسرير ، اضطررت للذهاب إلى البنك ، سحبت مائتى ريال .. اشتريت أربع أسرة مستعملة دون مراتب ووضعتها فى حجرة واحدة وذهبت إلى مقهى الريان .. صعدت إلى الاستراحة .. وجدت بعض الرفاق القدامى .. أقنعتهم بالإقامة معى ولعدة أسباب .. البيت كبير وموحش وفى منطقة منعزلة عن المنازل المجاورة ، كما أن الإيجار الشهرى فى حالة الاستمرار دون العثور على عمل سيأكل مدخراتى .. وافق ثلاثة من الرفاق بالسكن معى .. السرير بمائة ريال شهريا .. أول محاولة دبرت نصف الإيجار الشهرى ، لو نجحت فى تأسيس الحجرتين الأخريين ـ كل حجرة بأربع أسرة ـ لحصلت على ضعف الإيجار الشهرى دون أن أدفع أنا مليما واحدا للإيجار ، صبى المقهى قد يساعدنى فى ذلك ، إلا أنه قد يخشى قريبه .. « كل مشكلة لها حلال » .

اليوم خميس .. من المقهى إلى محل « اختار » الترزى حيث الكفيل غيث الكوارى .. سألنى .. تركت العمل لدى الحاج حسن عبد المتجلى ، إلا أن ذلك لن يمنعنى من دفع المائة ريال شهريا .. أرشدنى إلى تاجر أخشاب فى سوق الحراج بالنجمة ، كان يريد محاسبا على ألا يزيد راتبه عن الف ومائتى ريال شهريا .. نعم أنا خريج تجارة

ودرست أشياء عديدة وغبية ، إلا أننى لم أعمل بالمحاسبة ، وبعد تخرجى مباشرة قذفت بى القوى العاملة إلى مديرية التموين بالباجور .. خبرتى العملية لا تزيد عن استخراج بطاقات التموين وكتابة الأسماء ، إلا أننى فى الكلية درست الدورة المستندية وأنواعها والجرد والمخازن وكيفية تنظيمها والصادر والوارد وحسابات الدائن والمدين وإعداد الميزانية ، وماذا يريد تاجر الأخشاب هذا من المحاسب أكثر مما تعلمته فى الجامعة ؟ .. إلا أن العمل معه قد يعوقنى عن التجارة التى اقتنعت بها تماما وزاد إيمانى عمليا لا نظريا بأن « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » .. اعطانى اسم تاجر الأخشاب ، ذهبت إليه .

مخزن ضخم ملئ بأنواع مختلفة .. منها ألواح ومنها جذوع أشجار كاملة ، لا أعرف فى الأخشاب أو الأشجار سوى ما رأيته أو ما لعبت تحته أو حوله فى تلوانة ـ الباجور ـ منوفية .. أعرف شجر التوت والكافور وشعر البنت الذى يزرع على حواف الترع والمصارف .. أعرف السنط والجازورين والبأس وزانزلخت .. هذا كله لا يهم .. المهم نتيجة المقابلة والقبول .

التاجر فى السبعينيات من العمر .. بشوش إلا أنه كثير الشك فيمن يعملون معه .. جاء بهنود وباكستانين ومصريين وسوريين والكل يسرقه .. نعم هو يكسب حسب قوله ، الا إنهم يكسبون أضعاف ما يكسب هو ، يبيعون البضاعة بأقل من سعرها ثم يحصلون الباقى من وراء ظهره .. بعضهم يخرج ألواحا خشبية من الباب الخلفى للمخزن ثم تأتى سيارات لحمله بعد أن يغادر المخزن ، إلا أنهم جميعا اتفقوا عليه .. كل منهم له دوره فى السرقة وكل منهم له زبائنه .. أنصت إليه باهتمام حتى أجد المدخل المناسب للحديث معه ، لم أنطق إلا بجملة واحدة تقال عندنا فى مصر « المال السايب يعلم السرقة » .. آمن على كلامى ولعن أولاده الذين رفضوا جميعهم العمل معه فى تجارة الأخشاب ولام نفسه لأنه علمهم وتركهم يستوظفون .

الرجل يحكى بمرارة أن حجم المبيعات فى زيادة مستمرة ، إلا أن العائد والحصيلة فى نقصان مستمر أيضا ، يحكى الرجل وعماله يتناوبون الحضور على مكتبه ، يحاول كل منهم قدر استطاعته استكشاف سبب وجودى .. مكتب الرجل فى مدخل المخزن .. أربعة جوانب من الزجاج ليشاهد كل ما حوله .. الرجل فيما يبدو مأزوم فى حاجة إلى حراسة وحرس وليس فى حاجة إلى محاسب .. شكر فى غيث الكوارى وكل من يرسله للعمل عنده ، إلا أنهم لا يستمرون طويلا معه وخاصة المصريون .. لا يمكثون عنده أكثر من سنتين أو ثلاث ثم يعودون إلى مصر .. سألنى عن نوع التأشيرة وسألنى عن الفترة التى أخطط لها بالبقاء فى قطر .. وماذا أستطيع أن أفعل لضبط وتنظيم هذا المخزن الضخم ومنع السرقات ! .

تحرك من مكتبه ليجلس على المقعد المواجه لى تماما للإنصات جيدا لما أقوله ، ارتسم على وجهه علامات الاقتناع والارتياح خاصة عندما أخبرته بضرورة استبدال هؤلاء العمال بالتدريج .. وأن العملية كلها لا تحتاج لمهارة أما معرفة أنواع الأخشاب وأسعارها هذه مهمته ، يعلمنى إياها واقوم أنا بدورى بتعليم العمال الجدد ، تحدث عن الراتب ـ كل شيء يخضع للفصال فى الدوحة ـ المبلغ المعروض لا يناسبنى خاصة وأننى أسكن فى منزل إيجاره الشهرى ستمائة ريال ، رفع الراتب إلى ألف وخمسمائه ريال بعد جلسة استمرت ثلاث ساعات شريطة ابتداء عملى فى اليوم التالى .. وأن أقوم بالبحث وأبحث عن العمالة المناسبة على ألا يكونوا جميعا من المصريين ، عدت للمقهى وطلبت من الصبى أن يرسل لى أحد العمال الذين يبحثون عن عمل على أن يكون قوى البنية للعمل فى مخزن أخشاب ، فرجت وكنت أظنها لن تفرج .. عدت لمنزلى .. كتبت أربع خطابات مرة واحدة .. إلى عبد الله زوج أختى والشيخ على ماضى وفاطمة وإلى أخى عطية فى الكويت .

مشكلة العمل الجديد أنه سيعوقنى عن التجارة والبيع والشراء كما أن صاحب المخزن الشيخ يوسف الحرمى طلب منى استئذان غيث الكوارى فى نقل الكفالة ليتمكن من التعاقد معى بشكل رسمى ، والكوارى لن يرضى بأقل من ألف ريال لنقل الكفالة .. مشاكل جديدة بالإضافة إلى خطابات فاطمة المزعجة التى بدأت تطلب فيها ضرورة الإسراع بالعودة لإتمام الزواج ، خاصة وأن المنزل قد انتهى بناؤه وهو ما ذكره من قبل أخى عطية .

العمل فى المخزن يأخذ كل وقتى من الثامنة صباحا حتى صلاة المغرب ، عرفت أنواع الأخشاب .. زان وآرو وموسكى وأنواع الكونتر وسمكها وأسعارها .. وقد بدأ التنظيم بالفعل ووصل عامل مصرى جديد .. تم إغلاق الباب الخلفى للمخزن والذى لا يفتح إلا بإذنى ومفاتيحه معى ولا يتم فتحه إلا عند وصول بضاعة جديدة ، فهذا الباب أصبح مخصصا لإدخال البضاعة فقط وبعد الانتهاء من تفريغ السيارات أغلقه واحتفظ بالمفاتيح وقد ترك الشيخ يوسف الحرمى مكتبه لى .. استخدم أدراجه واحتفظ فيها بالدفاتر .. وارد ومبيعات والتاريخ .. لقد درسوا لنا ضمن ما درسوه عن المخازن أن « ما يأتى أولا يصرف أولا » .. وكان هذا غائبا عن الشيخ يوسف الحرمى وعماله وبدأت فى التخلص من المخزون القديم .

المخزن عبارة عن ممرات وأرفف حديدية عليها ألواح وعروق أخشاب متنوعة .. عرفت أسعارها وعرفت أن الخشب يباع فى العالم بأسره بالمتر المكعب إلا عند الشيخ يوسف الحرمى يباع بالقطعة والقطع تأتى من أوربا عليها أرقام ورموز مكتوبة باللغة الإنجليزية وبمساعدة الشيخ كتبت سعر كل قطعة عليها من طرفيها والدفع عندى وقبل تحميل البضاعة ، أخرج من المكتب لمعاينتها والتأكد أن المبلغ المدفوع هو الأسعار المكتوبة على كل قطعة وتململ العمال من المراقبة وأنهى الشيخ يوسف عمل أحدهم وجئت برفيقي كومار ، إلا أننى نبهت عليه أن ما كان يفعله مع الحاج حسن عبد المتجلى لا ينفع هنا ، خاصة وأن متوسط أجر العامل الهندى أربعمائة ريال ، إلا أن الشيخ يوسف قد حدد له أجرا قيمته ستمائة ريال ويبدو أن هذا المبلغ هو الذى يجيد الشيخ يوسف نطقه .

الشيخ يوسف الحرمى يراجع على دفتر المبيعات صبيحة اليوم التالى وقد اكتشف بالفعل أن هناك تغييرا طرأ على قيمة المبيعات وعندما اكتشف يوما أن الفرق وصل إلى ألفى ريال فى اليوم ، قرر فصل العاملين القديمين الباقيين وطلب منى أن أبحث عن غيرهما مع إصراره ألا يكونا مصريين .. جئت بعامل باكستانى من طرف اختار الترزى وآخر من بنجلاديش ، المشكلة الآن فى إيجار المنزل وصعوبة الحصول على سكان جدد بعد الثلاثة الذين يقيمون فيه حاليا . أول مرة أمسك بيدى ألف وخمسمائة ريالا مرتب الشهر .. ذهبت مباشرة إلى البنك .. وضعت فى حسابى ألفا منهم وأبقيت خمسمائة ، حصلت على إيجار ثلاثة أسرة فى منزلى .. دفعت قيمة الإيجار لصاحب المنزل وتبقى معى مائتا ريال .. بعد انتهاء العمل ذهبت مباشرة إلى مقهى الريان وبصحبتى كومار .

أجمل ما فى كومار أنه مستمع جيد والفترة التي قضيتها معه سواء عند الحاج حسن عبد المتجلى أو عند ذهابنا سويا إلى السوق .. جعلت منا صديقين يعرف كل واحد منا بالآخر ، ففى سوق النجمة ، يشير إليه المصريون بأنه الهندى صاحب عبده ريال وعند تجمعات الهنود يعرفوننى بأننى رفيق كومار .. اقتربت المسافات بيننا وأصبحت لنا لغة مشتركة ، خليط من الهندية والإنجليزية والخليجية والمصرية ، لغة وضعت مرادفاتها الغربة بكل تداعياتها .. كومار لا تعرف له دينا ، إذا سألته عن ديانته يتهرب ويبدو أنها وصية حملها معه من الهند إلى الدوحة إلا أنه شديد الإيمان والكفر فى آن واحد ، فلاح من أخمص قدميه حتى شعره المنقوع فى الزيت ، كل قضية عنده لها حل ، على طرف لسانه جملة يبدو أنها التصقت بغراء شديد « نو بروبلم » .. يقولها فى كل وقت وكأنه يسبح الله .. لا مشكلة ! .

كومار هو الزبون غير المصرى الوحيد الذى يجلس معى على مقهى الريان ، وقد عرفه جميع رواد المقهى ويبدو أن الجالية المصرية وأفرادها أصبحوا من اهتمامات كومار ، عالم جديد يحاول أن يكتشفه ويعيشه وعندما انتقل للسكن معى ، أصبح من أشد المعجبين بالطعام المصرى ، ويسألنى من وقت لآخر متى سأعد الكشرى وبدأ يتعلم هو كيفية إعداده .. اقتسمنا الحجرة واقتسمنا اللقمة .. المهم لقد جئت بكومار هذه المرة إلى المقهى لنناقش أمورا مستقبلية أهمها كيف ننشئ تجارة صغيرة ونصبح شركاء ، ولتكن فى بيع الأدوات المنزلية من أكواب وأوان وقد لاحظت فى سوق النجمة أن هذه الأشياء أكثر البضائع مبيعا ، اتفق كومار معى فى كل ما قلته إلا أنه رفض أن يشارك فى رأس المال .

باءت كل محاولاتى معه بالفشل ، فما يدخره يرسله إلى الهند مباشرة أول كل شهر وما يحتفظ به يأكل به ، إلا أنه أبدى استعداده أن يساعدنى فى أى شئ ومجانا ولا شئ مجانا فى الدوحة ، قال لى أن المنزل من الممكن تخصيصه للعمال الهنود ، إلا أنهم لا يستطيعون دفع إيجار مرتفع ، وأكثر ما يدفعونه عشرين ريالا للسكن فى الشهر ومن الممكن أن أقوم أنا باستئجار منزل آخر ويتولى هو تسويقه للهنود ومن الممكن أن يأتى بمائة هندى، كل ما يحتاجونه مكان يستلقون عليه ليلا بعد عناء يوم العمل .

الفكرة قابلة للتنفيذ بالفعل إذا خلصت النوايا وساعدنى كومار بإخلاص ، فإذا جاء بالفعل بمائة هندى فهذا يعنى ألفي ريال فى الشهر حسب السعر الذى ذكره ، وإذا رفعنا قيمة الإيجار للفرد إلى خمسة وعشرين ريالا ، فهناك زيادة خمسائة ريال ولكن أين البيت الذى يتسع لمائة هندى ؟ .. اتفقت مع كومار أن أقوم أنا بتمويل هذا المشروع واستأجر المنزل وعليه هو إحضار السكان وإدارته مقابل مائتى ريال شهريا .. هز رأسه موافقا وطلب أن أبحث عن منزل قريب من تجمعات الهنود وليكن بالقرب من منطقة مشيرب وشارع الكهرباء وسيسأل هو اصدقاءه من الغد .. وعلى أنا أن أبحث أيضا بطريقتى واشترط شروطا .. منزل بحوش واسع .. لا يهم عدد الحجرات . . الأهم المساحة الكلية على أن يكون له سقف متين واسع ! .. شربنا الشاى ودقت ساعة الانصراف عند دخول صاحب البيجاما الكستور إلى المقهى ! .

فى الطريق إلى النجمة سيرا على الاقدام ، حكى لى كومار عن أهله وأسرته ومدينته فى الهند والتى يراها أفضل مكان فى الدنيا .. واستمر فى الحديث عن غنى الناس وفقرهم .. حديثه عن الفقر مؤلم ، يتحدث عنه بمفردات أشبه بكلام الإمام على بن أبى طالب .. ويرغب أن لو كان الفقر رجلا لقتله واستراح وأنه يتحمل الغربة هنا ليبدأ بقتل الفقر فى أسرته وقد نجح إلى حد ما ، إلا أنه يتمنى أن يقضى على الفقر فى مدينته كلها .. يتحدث مثل الفلاحين عن القضاء والقدر ولا أحد يملك قدره ولا يستطيع تغيير قضائه وحتى الأمثال التى يضربها تكشف عن إيمان عميق وإن كانت أيضا تحمل شبهات كفر ، لا أنسى مثله عن الوحوش سواء كانت وحوشا ضارية أو وحوشا إنسانية ، قال لى ذات مرة « لا تلقي باللوم على الله لأنه خلق النمور لكن أشكره لأنه لم يخلق لها أجنحة »! .

عندما يدخل كومار المنزل يخلع قميصه وسرواله ويلف حول وسطه « وزارا » قطعة من القماش المصنوعة من القطن ، تغطى الجزء الأسفل من بطنه حتى ركبتيه ، الجزء العلوى من جسده عار وتستطيع عد ضلوع قفصه الصدرى ضلعا ضلعا وفقرات عموده الفقرى .. ورغم نحافته لا أعلم مصدر قوته وصلابته ، ففى مخزن الأخشاب يستطيع أن يحمل لوحا ضخما بيد واحدة والأغرب أنه فى أشد الأيام حرا ورطوبة لا ترى حبة عرق واحدة على جبهته .. الأيام قربت بيننا ، عرفت أسماء أخوته كما عرف أسماء أخوتى ، من وقت لآخر يسألنى عن أخبارهم .. وأحوالهم ، يحثنى أن أرسل ما أدخره إليهم يستفسر عن أفضل طرق الاستثمار فى مصر ، عندما أذكر له أن الأراضى سواء كانت أراضى زراعية أو أراضى بناء هى الأفضل ، يلوح لى بيده وكأنه يرفض هذه الفكرة ، فهو كدارس تجارة واقتصاد يرى أن استثمارات العقارات بكافة أنواعها ، استثمار طويل الأجل وعندما أحاول إفهامه أن سعر الأرض فى مصر يتضاعف كل عام ، يذكرنى بمبادىء الاقتصاد التى درستها ، بأن هناك سقفا لكل شىء بعدها تنتكس مؤشرات الصعود وتتحول إلى الهبوط .

ليست الغربة فقط هى الرباط الذى جمعنى بكومار فيما يبدو ، نوعية الدراسة المشتركة قربت المسافات بيننا كما أن النشأة المشابهة وظروف المعيشة فى الهند التى لا تختلف كثيرا عن مصر أقامت بينى وبينه جسورا من المحبة بالإضافة إلى الرغبة فى الثراء ، قد لا يكون ثراء بالمعنى المعروف لكنه إدخار أكبر مبلغ من المال ثم العودة إلى أرض الوطن ، أعود أنا إلى وطنى تلوانة ـ الباجور ـ منوفية ويعود هو إلى وطنه فى تريفاندروم Trivandrum فى ولاية كيرالا الهندية .. ورغم أنه حفظ اسم تلوانة والباجور والمنوفية بعد جلسة واحدة الا انني ظللت شهورا لا أستطيع أن أنطق اسم بلدته النطق الصحيح .

رحلة كل يوم تبدأ بمخزن الشيخ يوسف الحرمى للأخشاب وتنتهى فى المنزل ومعى كومار ، عندما أخبرته ذات مساء أننى لا أرغب فى الخروج بعد يوم العمل وأننى سأذهب إلى « الهوم » لأكتب بعض الرسائل وأغسل ملابسى ، انتفض عند ذكر كلمة « هوم » أوضح لى أن « هومى » هو تلوانة ـ الباجور ـ منوفية مصر أما ما نسكن فيه فهو مجرد « هاوس » أدركت الفرق .. أدركت أن « الهوم » هو الوطن بكل همومه ومتاعبه ، بكل شقائه وأحلامه ، الوطن يعنى وصايا محمد سعد فكه ، أما ما أسكن فيه فهو مجرد استراحة .. محطة فى سفر طويل .. لا نعلم إلى متى سيطول .

أحضرت أوراقا وأظرف خطابات وكتبت الأسماء قبل أن أشرع فى وضع أول سطر ، خطابات لا تخرج عن ردود لخطابات يرسلها لى كل من عبد الله زوج أختى وعلى ماضى وفاطمة خطيبتى وعطية أخى ولا تخرج عن موضوع واحد وهو السؤال عن الصحة والأحوال وعندما أختلى بنفسى لكتابة خطاب أتذكر قول كومار عندما يسلمنى رسالة قادمة من مصر .. يبتسم ويقول خطاب من تلوانة ، لا داعى لقراءته ، فهو يعرف مضمونه وتأتيه رسائل مثله من كيرالا ، تقول كلها أرسل لنا شيكا وطمائنى عنكم .. لغته العربية المكسرة تحسنت مع مرور الأيام وبدأ ينطق جملا كاملة صحيحة بطريقة أهل مصر لا أهل قطر .

الخطابات كلها بالفعل واحدة ، إلا رسائل فاطمة فهى خطابات مملة كئيبة ، وكأن أمها تجلس بجانبها وتملى عليها ما تكتبه ، تطلب فيها سرعة المجىء لاتمام الزواج مما جعلنى أكره خطاباتها وأكره الكتابة إليها ، الا أنه يجب أن أرد على خطابها الأخير والتى تطلب فيه بجانب سرعة العودة أن أخصص لها مبلغا شهريا كمصروف ، خاصة وأنها أصبحت على « ذمة رجل » وتحاول أن تستشهد بأقوال صديقى الشيخ على ماضى بأن المرأة بمجرد عقد القران تصبح كافة مصاريفها من مأكل وملبس ونفقة على حساب زوجها وتطلب فى خطابها على استحياء أن أخصص لها مبلغ ثلاثين جنيها فى الشهر ، وهو نفس المبلغ الذى كنت أتقاضاه كراتب شهرى من عملى فى إدارة التموين قبل السفر ! .

أشم بين السطور رائحة أمها نبوية الداية وأشم رائحة الحلبة وغيرها من الأشياء التى ترتبط بميلاد الأطفال ، ويبدو أن نبوية أم فاطمة فكرت ودبرت هذا الأمر وأجبرت فاطمة على كتابة هذا الخطاب الأخير بهذه الصيغة فإما ان آتى مسرعا لإتمام الزواج وإما تخصيص راتب شهري ولا يهم موعد عودتى .

كانت أمى تقول دائما: إن نبوية الداية لديها القدرة على حفر بئر عميق بأبرة وأنها تظل تحفر وتحفر إلى أن ينبثق الماء ورغم أن أمى توقفت عن ذكر ما يعيب نبوية الداية بعد الارتباط بيننا الا أنها تعلم ألاعيبها تماما .. كتبت الخطاب وحددت موعدا لنزولى مصر بعد خمسة أشهر وخلال تلك الفترة أكون قد أعددت العدة للقيام بالاجازة ويكون الله قد وفقنى فى مشروعى مع كومار لاستئجار منزل وتحويله إلى استراحة للعمال الهنود وأكون قد أمضيت فى الدوحة حتى تاريخ النزول عامين كاملين .

قبل أن أغلق الرسائل التى كتبتها عاد كومار ومعه البشرى .. لقد عثر أصدقاؤه الهنود على منزل واسع كبير ومهجور منذ سنوات وإيجاره لا يتعدى ستمائة ريال - لا أعرف دلالة رقم الستمائة فى الدوحة - وأن المنزل فى حاجة إلى بعض الترميمات البسيطة سيقوم بها كومار وبعض رفاقه الهنود قد لا تتعدى أيضا بتكاليفها مبلغ ستمائة ريال ويصبح صالحا للسكنى ، طلب منى أن أرتدى ملابسى وأخرج معه لمعاينة المنزل ومقابلة صاحبه وكتابة عقد الإيجار وألح فى الطلب مما اغراني بالاستجابة لطلبه .

فى الطريق ، أفهمنى أن المنزل المعروض للإيجار يتمتع بميزة نسبية ويبدو أن كومار لا يجد من يتحدث معه ويستخدم فى حديثه التعبيرات الاقتصادية إلا أنا ، الميزة أن المنزل قريب من سكننا فى منطقة النجمة مما يمكنه من مداهمته فى أى وقت ومعرفة عدد السكان بالضبط خاصة .. وأن الهنود أهل جلدته يستأجرون مكانا لعشرة أفراد وفى الليل تجد فيه ثلاثين أو أربعين فردا ، كما أنه فى رأيه مناسب من حيث المساحة والتى سيفكر كيف يديرها بالشكل المربح ، كلامه أثلج صدرى وجعلنى أدرك أننا سنضع أقدامنا على الطريق الصحيح للثراء ، خاصة وأن الخليج فيه كل شئ مباح ما لم تضر أو تضار ..

اقتربنا من المنزل .. كنت أمر عليه مرارا وتكرار وأظنه « خرابة » .. سور كبير متهدم ومن طابق واحد .. منزل عربى قديم .. باحة واسعة وعلى أضلاعه الثلاثة حجرات متلاصقة لا تقل عن عشرين حجرة بين حجرات معيشة ومطابخ ودورات مياه .. المساحة لا تقل بأى حال من الأحوال عن أربعة قراريط ، الا أنه يحتاج مبالغ طائلة لترميمه وليس إلى ستمائة ريال كما ذكر لى كومار أول الامر .

هذا المنزل يحتاج على الأقل إلى عشرين ألف ريال لتحويله إلى مكان صالح للسكنى البشرية ، فهو بالفعل خرابة مهجورة منذ سنوات وأسقف الحجرات من الألواح الخشبية ، كما أن الحجرات بها فتحات إلا أنه لا يوجد نوافذ ، أفهمنى كومار وهو أقدم منى فى الدوحة أن عرض مثل هذه المنازل للإيجار حيلة يتبعها أصحاب المنازل القديمة حيث يتقاضى الملاك إيجارا زهيدا لمداعبة أطماع الراغبين فى استئجارها على أن يتم إصلاحها وبعد الإصلاح .. وبعد عام أو عامين يطلب صاحب العقار من السكان اخلاؤه ويكون قد استفاد من القيمة الإيجارية طوال مدة الإيجار بالاضافة إلى الترميمات التى أجريت على المنزل والتى لم يدفع فيها فلسا واحدا ! .

ستمائة ريال فقط .. كرر كومار .. كل ما يحتاجه هذا المنزل إعادة بناء بعض أجزاء من سوره .. والأحجار موجودة وكل ما نحتاجه رمل وأسمنت والعمالة سيأتى بها كومار من أصدقائه الهنود والسكان المرتقبون ليسوا بحاجة إلى نوافذ أو غيره ، هم فى حاجة فقط إلى باب كبير خارجى ومن الممكن شراؤه من سوق « الحراج » ولن يزيد ثمنه عن مائتى ريال وسيظل المنزل كما هو « خرابة » وعندما يمر عليه مالكه يجد بعض آثار العمل .. عدة قوالب من الطوب وكومة من الرمل ولن نضع فيه طوبة واحدة وبالتالى لن يفكر فى إخراجنا من المنزل وربما يكتفى بطلب زيادة فى القيمة الإيجارية بعد مضى سنة أو أكثر .

تفكير منظم ومنطقى وعلى وعى ودراية بطريقة تفكير أهل الدوحة ، فرأس كومار هذا وإن كانت مبللة فى زيت رائحته غريبة ، الا أنها تساوى وزنها ذهبا ويبدو أن كيرالا التى أتى منها كومار هى منوفية الهند ، نفس الطريقة التى يفكر بها أهل تلوانة .. طريقة عمتى وعمى .. طريقة صلاح عجورة وإن كان التعليم هذبها وجعلها أقرب الى أسلوب أخى عطية .

فى الصباح الباكر وقبل الذهاب إلى مخزن أخشاب الشيخ يوسف الحرمى مررنا على صاحب العقار .. كتبنا العقد باسمى على أن يتسلم القيمة الإيجارية أول الشهر بعدما اسحب المبلغ المطلوب من البنك وأن يتولى كومار إدارة هذا المنزل والذى قال عنه فى الطريق إنه سيحول حجرتين منه إلى مطعم شعبى هندى .. يقدم الوجبة الرئيسية بسعر أقل من المعروض فى السوق وعلى أن يكون المطعم فى نهاية المنزل دون يافطة أو إعلان .. حتى لا يطالب المالك بزيادة الإيجار أو يدعى أننا استأجرنا منه منزلا ومطعما ! .. أرباب « جشع طمع » أول جملة سمعتها فى الدوحة من سائق التاكسى الهندى يكررها كومار .

14

الجو قائظ .. فنحن على مشارف شهر يوليو ، أتصبب عرقا من كل موقع .. رأسى .. صدرى .. ظهرى وكومار الذى سار معى نفس المسافة ونفس الطريق ونفس الظروف لا يبدو عليه إرهاق أو زهق من الحر والرطوبة .. دخلنا المخزن وجدنا حجرة الشيخ يوسف الحرمى الزجاجية مضاءة ويبدو أنه أتى اليوم مبكرا ، بمجرد مشاهدته لنا ، أشار لى .. هرعت إليه ، قام وأغلق باب مكتبه بنفسه ، يبدو أن الأمر خطير .. دقات قلبى تسارعت .. زادت كميات العرق المتصببة منى ، أمرنى أن أدير المروحة « البنكه» .. لتساعد جهاز التكييف فى تجفيف عرقى وأعطانى منديلا ورقيا .

« خير من استأجرت القوى الأمين » استهل حديثه معى .. يبدو أن هناك مصيبة ، لم أنطق ، انتظرت لأرى ماذا يكون قد فعل القوى الأمين ، الآية القرآنية نعرفها .. وقصة حكيت لنا حول بنت النبى شعيب التى تزوجت فيما بعد سيدنا موسى ، حيث أقنعت والدها بقوة وأمانة موسى والذى تزوجها فيما بعد وإذا كان شعيب قد استأجر موسى القوى الأمين إلا أن علاقة العمل تطورت لتصبح علاقة إنسانية أسرية .. أعاد الشيخ يوسف الحرمى الآية على مسامعى مرة أخرى ودخل فى الموضوع وإن كان لا علاقة له بالقوة أو الأمانة .. الشيخ يوسف سيسافر إلى الهند لمدة شهر ولا يريد أن أخبر أحدا بسفره وعلى أن أضع فى حسابه البنكى حصيلة البيع يوما بيوم فى البنك وأخرج ورقة عليها رقم الحساب و أضاف أن أمامه عدة « مشاوير » اليوم سيصحبنى معه لقضائها .. وقام بفتح باب المكتب وأمسك بيدى ودخلنا سيارته « الكابريس » السوداء الفخمة .

بمجرد دخولى السيارة بعدما أدار محركها وقام بتشغيل جهاز التكييف وانطلق فى شوارع الدوحة كشاب فى العشرينيات ، أحسست بطعم جديد للدوحة ورائحة جميلة غير رائحة الكارى وزيت شعر كومار .. الشوراع تتألق من النظافة .. العمال الهنود والبنغال على جانبى الطريق الرئيسى لا ينظفون الشوارع بمكانسهم لكنهم يلعقونها بألسنتهم ، لأول مرة أرى الأسفلت بتلك النظافة والبنايات الضخمة ذات الواجهات الزجاجية اللامعة وحركة المرور المنتظمة ، عرج إلى شارع لم ينته العمل به لتوفير الوقت والمسافة ، أخبرنى أنه الطريق الدائرى الرابع .. معنى ذلك أن هناك طريقا دائريا أول وثانيا وثالثا بهذا الاتساع ، أخبرنى أنه لم يتناول إفطاره وسنفطر سويا فى فندق الخليج .

لم أدخل من قبل فنادق سواء فى القاهرة أو غيرها . لكننا قضينا ليلة ونحن صغار فى لوكاندة بطنطا بالقرب من مسجد السيد البدوى ، لوكاندة صغيرة ونظيفة وحجرة بها ثلاث أسرة .. أمى وأختى نامتا على سرير وأخى عطية نام وحده على سرير آخر وأبى محمد سعد فكه احتضنى ونمنا على السرير الثالث ، فى صباح اليوم التالى عندما أخبرنا أبى بأننا سنغادر ، كنت أنظر إلى الغرفة وأسرتها الثلاثة والكليم المنقوش المفروش على الأرض والستائر التى تغطى النافذة الوحيدة بالحجرة ولا أرغب فى تركها ، شد أبى على يدى قائلا جملة كان يرددها دائما «الجايات أكتر من الرايحات » .. شد الشيخ يوسف على يدى وأنا أدخل الفندق .. السجادة المفروشة على مدخله خشيت أن أدوسها بأقدامى من فرط نظافتها ، كنت أحاول أن أمشى بجوار السجادة لا عليها .. شد الشيخ يوسف يدى وجذبنى بجواره لأسير محازيا له على السجادة .. ومن بهو الفندق إلى صالة المطعم .

فى ركن من المطعم ، لمحت عيناى مائدة أمامها مقعدان اثنان .. جذبنى إليها .. جلسنا ثم نهض واقفا فوقفت جانبه بالإيحاء .. سار خطوات إلى منضدة طويلة ، فى بداياتها أطباق صينى فارغة وملاعق وسكاكين وشوك وبقية الطاولة أطعمة مفروشة من كل لون وطعم ورائحة .. أمسك الشيخ يوسف بطبق كبير وأعطانى آخر ومر أمامى .. مما يأخذ من الطعام .. أمد يدى وما يتجنبه من أوان أكتفى فقط بالنظر إليه ، حملنا طبقينا وعدنا إلى المنضدة الصغيرة .

ألح بعدم إفشاء سر سفره إلى الهند لأحد ، ولا حتى لكومار الهندى أو أحد من أصدقائه الذين يأتون لزيارته فى مكتبه من وقت لآخر وأن أبلغهم عند السؤال عليه بأنه فى مشوار وقد يأتى غدا ، أنهينا الفطار وأخبرنى أن الطاولة الطويلة الممتدة تلك والتى يختار منها الزبائن ما يرغبون اسمها « بوفيه مفتوح » .. ذكر لى أن ابنه الأكبر وكنت قد شاهدته من قبل يمر عليه فى المكتب ويسأل عنه ، قال لى من الممكن فقط أن أقول لابنه الأكبر أنه قد سافر فى مهمة شغل ولكن لا يجب أن أذكر له وجهة السفر ولا أتطرق إلى الهند من قريب أو بعيد .

بدا لى الشيخ يوسف شخصا آخر أكثر إنسانية ، مهموما وراءه قصة كفاح سمعنا مثلها فى مصر وتلوانة ، أغلب الأغنياء كانوا فقراء .. جمعوا المليم على المليم أو الفلس على الفلس .. سهروا الليالى .. عملوا وكدوا ثم أعطاهم الله بغير حساب .. حديثه من الفندق إلى البنك ينم عن خوف ما .. خوف من شيء مجهول ويبدو أنه يخشى أكثر من ابنه الأكبر صاحب اللحية الكثة الذى شاهدته فى مكتبه أكثر من مرة .. فى البنك استقبل بحفاوة من حارس البنك حتى مديره الذى أدخلنا مكتبه .. شربنا قهوة عربية أكثر من مرة .. قدمنى للمدير .. عبد الحميد فكه يعمل لدى محاسبا وابتسم ابتسامة رائعة لم أعهدها .. عبد الحميد معروف باسم عبده ريال ونبغى أن نفتح له بنكا صغيرا وضحك المدير وضحكت واستمر الحديث .. عبده من المنوفية من بلد الرئيس السادات وضحك الاثنان ولم أضحك أنا .. وبدأ الشيخ يوسف فى إصدار تعليماته لمدير البنك .. عبده سيودع فى حسابى من الغد حصيلة المبيعات اليومية وسأتصل بك تليفونيا لأعلم قيمة المبلغ الذى أودعه وهب واقفا ! .

ظننت أن المهمة انتهت .. عرج بى إلى السوق وأوقف سيارته بعيدا وأعطانى ألفى ريال وأشار إلى محل ، طلب منى أن أدخله وأشترى عددا من أغطية الرأس الحريمى .. ألوان مختلفة وملابس داخلية حريمى أكبر مقاس وثلاث أو أربع زجاجات عطر وثلاثة أزواج من الأحذية الحريمى مقاس (40) وعلبة مكياج كبيرة ماركة « أماندا »وماكينة نزع شعر حريمى ماركة « براون ».

نزلت ودخلت المحل .. الرجل الوحيد بين بنات وسيدات من جنسيات مختلفة .. أسيويات وأوربيات وعربيات .. شعرت بالخجل .. ترددت فى الدخول .. استوقفنى عامل المحل الهندى ، سألنى عن طلبى .. ذكرت له طلبات الشيخ .. طلب منى أن أقف بجوار « الكاشير » حتى لا أحرج النساء بوجودى بينهن ، امتثلت للأمر .. عيون النساء تتفحصنى .. تكاد تنهشنى .. لأول مرة فى الدوحة .. أرى هذا الجمع من النساء ورغم برودة التكييف غرقت فى عرقى .. عرق الخوف ربما .. أو ربما النشوة والرغبة .. جاء الهندى بحقيبتين من البلاستيك بهما ما طلبت .. دفعت ولم يتبق من الألفى ريال سوى ثمانين ، خرجت مسرعا وعطور النساء داخل المحل مازالت عالقة فى كل حواسى .. فتحت حقيبة السيارة وضعت فيها المشتريات .. أخبرته بما تبقى من ريالات أخذها وراجع قائمة إيصال المشتريات وردد مرة أخرى قول « خير من استأجرت القوى الأمين » .

استأنف القيادة وهو يحكى قصصا وحكايات لم أتبينها ، فأنا فى حيرة من أمر القوة والأمانة فى هذا اليوم ، كما أننى فى حيرة من أمره ، خاصة وأن هناك قصصا وروايات تملأ سماء الدوحة ، أهز رأسى محاولا طرد الأفكار الخبيثة ، ربما يكون الرجل يستعد للزواج سرا ولا يريد أن يعرف أحد بزواجه وخاصة ابنه الأكبر وربما سيذهب إلى الهند لاستيراد زوجة شابة تعيد له شبابه وصباه كما يحكون عندنا فى تلوانة ، مائة سؤال دون إجابة يتيمة قاطعة ، عندما تسرب إلى آذاننا أذان الظهر ، أوقف السيارة عند الجامع الكبير ، أكبر مساجد الدوحة .. نزلنا .. تحدث عن فضل صلاة الجماعة .. عندما دخلنا المسجد صدم عينى عشرات من الصوانى المصنوعة من الألومنيوم مرصوصة فوق بعضها عليها آثار الشحم والطعام مثل الصوانى التى كنا نبيعها عند الحاج عبد المتجلى .. تلكأت فى الدخول لأسأل عنها .. نظر إلى حارس هندى فهمت من كلماته القليلة غير الواضحة أننى من الممكن أن أحمل كل هذه الصوانى إذا كنت أرغب .. أخرجت من جيبى عشرين ريالا .. ورقتين أعطيتهما له وأخبرته أننى سأعود له بعد صلاة المغرب ، ولحقت بالشيخ يوسف الحرمى وصلاة الجماعة ثم عدنا إلى مخزن الأخشاب .

لم يسألنى كومار أين كنا لكنه سلمنى خطابا من تلوانة ، من فاطمة .. دسسته فى جيبى ، لم أفتحه ، فمطالبها كثيرة هى وأمها لا تنتهى ، والنساء هنا على « قفا من يشيل » .. فماذا يحدث لو تزوجت هندية أو فليبينية من هنا وماذا عن وصايا محمد سعد فكة والعزوة والبلدة .. تذكرت أننى لم أفاتح الشيخ يوسف فى أمر الإجازة التى أرغب فى القيام بها بعد أربعة أو خمسة شهور فى نوفمبر المقبل ، دخلت عليه فى مكتبه مستأذنا ، لم يمانع فى الإجازة ، وبعد مجيئه من السفر سنتناقش فى الأمر .. أخبرته أننى أحتاج شهرين على الأقل لإتمام زواجى فى تلوانة .. تبسم وتندر بقوله إن ملابس الحريم التى اشتريتها له هذا اليوم ذكرتنى بالنساء والزواج ! .

كومار يرقبنى من وراء الزجاج .. يريد أن يعرف لماذا دخلت إليه مرة ثانية وأنا كنت معه طوال اليوم ، انتهى يوم العمل ، من المخزن إلى المسجد الكبير مباشرة بصحبة كومار .. حملنا الصوانى الألومنيوم والتى جعلت كومار لا يتوقف عن الضحك طوال الطريق ! .. خاصة عندما عرف أننى عقدت اتفاقا مع الحارس الهندى .. سآخذ منه الصوانى أسبوعيا مقابل خمسين ريالا .. على ألا تقل عن عشرين صينية ! .

في المنزل ترددت فى فتح خطاب فاطمة .. أخرجته من جيبى .. استأذن كومار ليترك لى الحجرة لأطالع وجه فاطمة بين السطور .. تعلم كومار أن يغمز بعينيه مثل المصريين وقلل من هز رأسه .. سطور فاطمة ليس بها جديد .. الإلحاح فى العودة لإتمام الزواج وفى الصيف وليس فى نوفمبر والفرح يجب أن يكون فى نادى المعلمين بالباجور وفى نهاية خطابها تقول إنها تخشى ألا تعرفنى بعد طول غيابى وطلبت أن أرسل لها صورة حديثة .. وأن أحكى لها بالتفاصيل عن حياتى فى الدوحة وظروف عملى وأصدقائى .. فى هذا الخطاب بالذات شعرت أن أمها نبوية الداية ليست بجوارها وبدأت فى تخيل ملامحها والتى جعلت أهل تلوانة يميزونها عن فاطمة الأخرى بلقب فاطمة الحلوة .. قد تكون حلوة بالفعل إلا أنها لو استمرت فى مطالبها تلك وإلحاحها الزائد ستتحول حلاوتها إلى مرارة ، قررت تأجيل الرد على خطابها ليوم أو اثنين توفيرا للنفقات ، خاصة بعدما رفعوا سعر طابع البريد إلى نصف ريال .

نحسب الوقت هنا باليوم والشهر والريال ونستعجل العمر وبدلا من الرد على خطابها ، أخرجت الأجندة ذات الغلاف الأخضر ، كتبت فيها ما أنفقت اليوم أو ما خرج من جيبى ، ستمائة ريال قيمة إيجار المنزل المهجور ، عشرون ريالا للحارس الهندى فى المسجد الكبير ، وستمائة ريال أخرى لترميم المنزل وإعداده للسكن ، ما مضى من وقت فى الدوحة يبدو أنه الأسهل والقادم هو الصعب ، مشروعات وأحلام مؤجلة وإنفاق وصرف على أمل الحصاد ونقضى حياتنا فى الانتظار .. انتظار السفر .. انتظار الزواج .. انتظار الثراء .. انتظار العودة النهائية إلى أرض الوطن .. إلى تلوانة حيث يرقد محمد سعد فكة فى قبره ، وتجلس أمى أمام منزلنا تحت دكر التوت فى انتظار ولديها عطية وعبد الحميد .

تلوانة ـ الباجور ـ منوفية ـ عندما أراها أسفل كل خطاب يصلنى .. أتذكر هذه الكلمات والحروف المكتوبة على باطن ساعد والدى وإبر المحاليل المغروسة فيها ، وصبره على مرضه ورضاه عن نفسه وعن الناس رغم كل ما بدر منهم ، أتذكر القرية بحواريها وناسها ، لا أتخيلها بدون عمى أو عمتى أو عجورة وولده 048 منوفية فرز أول .. عيال نقاوة .. لم أضع لقمة واحدة اليوم فى فمى بعدما وصلنى خطاب على ماضى .. لقد مات صلاح عجورة فى حجز شرطة مركز الباجور ولم يوافق أحد من أهل القرية على فتح مقبرته لدفنه فيها ، وحملوا جثمانه إلى بى العرب المجاورة حيث ورى الثرى فى مدافن الصدقة هناك .. الشيخ على ماضى يحكى ويسهب ويذكر أدق التفاصيل .

لقد هجمت الشرطة على دار صلاح عجورة فجرا واقتادوه هو وولده محمود وأخرجوا من المحل الذى تحول إلى مقهى ومن المنزل طرب حشيش .. وصرخ عجورة فى الضباط مما أيقظ القرية كلها قبل الفجر .. صرخ فيهم أن الحشيش لا يخصه ولا يخص ولده محمود .. فهم مجرد مخزن يتقاضون إيجارا أسبوعيا من الباشا الكبير وأنه سيفضح الكل أمام النيابة ، صفعه الضابط على وجهه وركله بأقدامه ، ودفعوه إلى سيارة الشرطة وأمام النيابة أنكر ملكيته وحيازته للحشيش ولم يجرؤ أن ينبث بكلمة أمام وكيل النيابة بسبب النظرات النارية التى كانت تخترق جسده .. أمر وكيل النيابة بحبسه أربعة أيام على ذمة القضية وعلى محمود ولده بخمسة عشر يوما .. فى الحجز هاج و ماج و هدد بأن ما لم يستطع قوله أمام النيابة سيقوله فى المحكمة .. ضربوه وفى اليوم الثالث لم يجدوا له أهلا لإبلاغهم بوفاته .. التقرير الطبى يقول هبوط حاد فى الدورة الدموية وخطاب الشيخ على ماضى يؤكد أنه هبوط أكثر من حاد فى الذمم والضمائر الخربة لقد قتلوه بأوامر الباشا عضو مجلس الشعب .

بيت عجورة ومحله وخلفهما أربعة قراريط معروض للبيع .. هناك محام من الباجور وكله محمود عجورة إلا أن القضية كبيرة تستلزم محاميا كبيرا من مصر ، ومصاريف كثيرة .. المنزل والمحل والأرض معروضون على ثلاثة عشر ألف جنيها .. من الممكن دفع عشرة فقط ويطلب منى الشيخ على ماضى أن أرسل هذا المبلغ لعبد الله زوج أختى لشراء أملاك صلاح عجورة والحى أبقى من الميت .. لا أستطيع أن أتخيل تلوانة بدون عجورة .. فى الصباح الباكر أرسلت شيكا لعبد الله بعشرة آلاف جنيه ورسالة أطلب فيها شراء أملاك عجورة من ولده السجين أو من محاميه على أن يلجأ لصديق لنا يعمل محاميا لإتمام الصفقة و بشكل قانونى ، وترحمت على صلاح عجورة وتمنيت أن يفك الله أسر ولده .. فى الأجندة ذات الغلاف الأخضر ، دونت رقم الشيك وقيمته وتاريخه وقرأت الفاتحة على أرواح أمواتنا أجمعين .

فى عصر نفس اليوم أبلغنى الشيخ يوسف الحرمى أنه سيسافر ليلا إلى الهند وقد يقضى هناك شهرا أو شهرين على الأكثر وأن فى درج مكتبه رواتب العمال بالمخزن لمدة خمسة شهور كاملة .. وأكد على ألا أبلغ أحدا عن وجهته .

. وأن أودع فى البنك حصيلة المبيعات يوما بيوم وأن أراقب العمال جيدا وألا أغادر المخزن إلا بعد أن يغادروه جميعا وأن أكون أول من يأتى صباحا وأثنى على أمانتى .. وأوضح أنه يستقل سيارة أجرة إلى المطار على أن تظل سيارته الكابريس أمام المخزن ويقوم العمال بتنظيفها وغسلها يوميا .. جاءت السيارة الأجرة .. ووضع فيها حقائبه أمام جميع العمال وأصحاب المحلات المجاورة وغادر وسألنى كومار عن وجهة الشيخ .. لم أجد على طرف لسانى ما أجيبه به سوى رايح .. مشوار ! .

طال المشوار .. مشوار الشيخ يوسف ومشوار فاطمة الحلوة بنت نبوية الداية ومشوار كومار الهندى ، الشيخ يوسف دخل فى الشهر الثالث وأصبح يتصل أسبوعيا من بومباى بالمخزن .. يطمئن على سير العمل وحصيلة المبيعات ويلقى بأوامره وتعليماته .. آخرها أن نتوقف عن بيع الأخشاب لمدة ثلاثة أيام وأن أحاول أن أقنع الزبائن أن رسائل الأخشاب تأخرت فى الوصول رغم أننى أبلغته فى آخر مكالمة باستلام رسالة جديدة جاءت من فنلندا .. خشب زان وآرو وكونتر وأبلاكاش بمقاسات متنوعة وأننى وقعت على الاستلام نيابة عنه وأن الرسالة جاءت على سيارة نقل ضخمة وسلمت السائق ألفى ريال ووقع على إيصال بذلك .. بعد الأيام الثلاثة عاود الاتصال أخبرنى أن أسعار الأخشاب العالمية ارتفعت كما زادت أجرة الشحن بنسبة لا تقل عن سبعة فى المائة من الأسعار ، وطالب بزيادة الأسعار بنسبة لا تقل عن خمسة عشرة فى المائة .. وسألته عن موعد عودته نهرنى لسؤالى موضحا ، أن هناك أعمالا تستلزم وجوده هنا مزيدا من الوقت ، طال مشوار الشيخ يوسف ولم يسأل عنه أحد حتى ابنه الملتحى الذى يخشاه ! .

وطال مشوار بنت نبوية الداية ، ترسل لى خطابات ترفعنى إلى سابع سماء وتبعث فى أثرها رسائل أخرى تخفضنى إلى سابع أرض ، أكلها الشوق فطلبت منى صورة حديثة فى خطاب ، ثم أرسلت آخر تطلب فيه نفقة شهرية حددتها بثلاثين جنيها وخطاب آخر تحذر فيه إن لم آت فى الصيف فالزواج قسمة ونصيب ويذهب كل حى إلى حاله ويكاد الصيف أن ينتهى وأصابنى الملل من الرد على رسائلها فتوقفت تماما .. واكتفيت برسائلى إلى عبد الله زوج أختى ، خاصة وأن عطية وأولاده وزوجته الفلسطينية يقضون إجازتهم حاليا فى تلوانة .

أما مشوار كومار فإنه يبدو بلا نهاية حيث طلب أول أمس مبلغا إضافيا لترميم المنزل ، أعطيته ستمائة ريال أخرى ودونتهم فى الأجندة الخضراء ولم يأت حتى الآن بساكن واحد هندى وهو الذى وعدنى بمائة هندى « وصنع لى من مياه البحر طحينة » .. كما نقول فى تلوانة وعندما أسأله متى ينتهى من عمله ومنى نبدأ فى جنى أرباح ما أنفقته ، عاد إلى هز رأسه بالطريقة الهندية المعهودة .

لقد طالت « كل المشاوير » وأصبحت فى حالة من التخبط وفقدان الثقة ودخلت فى دوامة إحصاء الأيام وأتمنى قضاءها بأسرع ما يمكن للعودة إلى تلوانة ، وعدت إلى ترددى اليومى على مقهى الريان ، أملا فى الهروب من دوائر الإحباط التى بدأت تلفنى من « ساسى لراسى » ، خاصة وأن كومار بدأ فى « الزوغان » من العمل بحجة متابعة العمل فى المنزل المهجور .. أشعر بأن رأسى تكاد تنفجر بما تكاثر عليها من أفكار وأحلام وإحباطات ولا أجد متنفسا إلا فى قهوة الريان .. قهوة المصريين .. حيث يتحاكون ويتضاحكون على ما هو أشد إيلاما من ظروفى وما زال موعد انصرافى من المقهى محددا بوصول صاحب البيجامة الكستور ! .

15

توقف البيع فى مخزن الأخشاب كما أمر الشيخ يوسف واكتشفت بالصدفة أن مخزنا آخر ليس ببعيد توقف أيضا عن البيع ، عندما أخبرنى أحد الزبائن بأنه قد ذهب إليه وامتنع العمال عن البيع له ، بحجة جرد المخزن ، وتبين لى أن الشيخ يوسف لا يعمل وحده بل ان هناك اتفاقا ما بين التجار أو ما كان يدرسونه لنا فى كلية التجارة حول مجموعات المصالح التى تعمل فى مجال واحد ، ويطلق عليها اسم « الكارتل » ، فهناك فيما يبدو واحدة منها فى الدوحة ، إلا أن وقف البيع منحنى الفرصة للتحرك مجددا فى الدوحة ومشاهدة محلاتها وشوارعها حيث أبدأ يومى بالمخزن ، واستأذن من العمال بأن هناك « مشاوير» يجب أن أقضيها ولا أظهر فى المخزن إلا قبل إغلاقه بساعة أو اثنين على الأكثر .

فكرت فى مداهمة المنزل المهجور لأتابع أعمال كومار ، دهشت لما شاهدته لقد تحول المنزل ، إلى ما يشبه ورشة الحاج عبد المتجلى أول من عملنا لديه فى الدوحة ، أزال الحوائط بين الحجرات المتراصة ، وجعل منها عنبرا كبيرا بطول ما يزيد عن خمسة عشر مترا بجوار الباب من ناحية اليمين ، ومن ناحية اليسار احتفظ بثلاث حجرات فقط ، كل حجرة على حدة ، بينما فتح الحجرات الأخرى على بعضها ، وجعل منها عنبرا أكثر اتساعا ، لكنه أقل طولا من العنبر الأول ، عمل دورة مياه كبيرة بها حواجز للاستحمام .. زود كلا منها بـ« دش »

وفى نهايـة المنـزل ثـلاث حجـرات أخـرى ، فتحهـا عـلى بعضـها وأزال حوائطها ويبدو أنها المطعم الذى اقترحه ، خلية نحل مـن العمـال الهنـود يعملون فى صمت ، وكومار يقف بينهم كأنه رئيس عمال بالسـليقة ، يلقـى بتعليماته إلى هذا وينهر ذاك ولا يشعر أحد خارج المنزل بما يحدث داخله .

عندما رأنى هرع إلى وعلى شفتيه ابتسامة الواثق من نفسه ومن عمله ، أشار لى بيده إلى باحة المنزل .. المنزل غير المنزل بالفعل .. وبلغته الإنجليزية أكد أنه الباقي من الزمن ثلاثة أيام « ترى دايز » ، حيث لا ينطق أغلب الهنود حرف الثاء ، ثلاثة أيام ويأتى لى بمائة هندى كما قال رغم أننى أتشكك فى هذا الرقم ، فالعنبران الرئيسيان قد يستوعبان خمسين شخصا على الأكثر إذا أتى بأسرة متعددة الأدوار ، مثل التى كانت فى ورشة الحاج عبد المتجلى ، ثلاثـة أيام وإتسلم بعض ما أنفقته إلا أن كومار طلب ستمائة ريـال أخـرى ، رقـم السـتمائة هـذا يثيرنى منذ أن وصلت إلى الدوحة ، عـدنا سـويا إلى مخـزن الأخشـاب ومنـه إلى المنـزل ، أعطيته ستمائة ريال أخرى كنت أحتفظ بها ، أكـدت عليـه بـأننى لسـت عـلى اسـتعداد أن أصرف فلسا آخر إضافيا على هذا المنزل ، دونت الرقم فى الأجندة ذات الغلاف الأخضر ، ووضعتها تحت الوسادة وتركته لأذهب بمفردى إلى قهوة الريان .

أكثر المصريين مرحا فى المقهـى هـم « العـزاب » وأكثـرهم كآبـة المرتبطـون عاطفيـا أو الأزواج ، الحواديت كثيرة متشابهة ، تكاد أن تكـون واحـدة ، طلبـات لا تنتهـى ، شـروط كثيرة بعضها وضع بعد السفر لإتمام عمليات الزواج ، البعض أنهى ارتباطه ليعيش سـعيدا وليعطى لنفسه فرصة لتكوين نفسه دون استنزاف ، لقد أصبحت فردا من شلة المقهى وهم مجموعة تضم جامعيين وأميين وعمالا مهرة وعمال ترحيلـة واكتشـفت أيضـا ضـمن مـا اكتشفته داخل المقهى أن هناك جرائد ومجلات مصرية يتبادلونهـا لمتابعـة أخبـار الـوطن وسياساته وأسعار صرف الدولار والفروق بين سعر البنك والسوق السوداء ، كما أن هناك شخصا يتردد على المقهى يتسلم الدولارات من المصـريين ويرسـلها إلى ذويهـم بالجنيـه المصرى فى أى مكان بمصر وفى نفس اليـوم وأن الفـرق هـو قرشـين فى الـدولار الواحـد بالإضافة إلى مكالمة تليفونية مجانية للاطمئنان على وصول المبلغ والاطمئنان على الأهـل وأن أقل مبلغ قابل للتحويل هو ألف ريال .

واحد من بلدياتى جاء عصرا للسؤال عنى فى المقهى و قد وصل من مصر منذ يومين اثنين للعمل فى مصنع الحديد والصلب بشمال الدوحة وأضاف الصبى أن الشخص لديه أمانة يخشى على فسادها إن لم يعثر على ، موضحا أنها فى الغالب طعام ، إلا أنها لن تكون « جبنة قديمة » أخبرته أنه فى حالة ظهوره يعطيه عنوانى لدى الشيخ يوسف الحرمى ورقم التليفون وهممت أن أكتب له ورقة ، إلا أنه أحضر نوتة فيها جميع أسماء المصريين المترددين على المقهى وعناوينهم وتليفوناتهم وعلل امتناعه عن إعطائه أية بيانات إلا بعد استئذأنى ، أعطيته ثمن المشاريب والتى زادت عن كوب الشاى الواحد الذى تعودت على شربه .. هذه الأمسية تناولت شايا وقهوة وينسون دفعت ريالين بالبقشيش وفى موعدى المحدد .. انصرفت .

حكايات المقهى حول فشل الارتباطات والزيجات والأسباب التى يعددونها ، أهمها دخول عنصر الطمع فى المغتربين وظن الناس فى مصر واعتقادهم أن المسافر ينهل من آبار الريالات دون حساب دفعتنى لإعادة التفكير فى مسألة ارتباطى ببنت نبوية الداية التى تريد حفل زفاف فى نادى المعلمين بالباجور تقضى تكلفته على مدخرات نصف عام كامل وطلبها لنفقة شهرية وما قد يتبعه من مطالب أخرى سببها الرئيسى الطمع ، فماذا لو أجلت موضوع الزواج برمته سواء من بنت نبوية أو من غيرها إلى عودتى النهائية لتلوانة .. وماذا يحدث لو أعدت تنظيم وصايا محمد سعد فكه ، أكرس جهدى للعمل والتجارة وما أدخره أرسله لشراء ما يمكن شراؤه فى تلوانة ، سواء كان أرضا أو بهائم وأؤجل العزوة والأبناء لبعض الوقت ، هذا ليس تملص من وصايا المرحوم ولكنه مجرد ترتيب للألويات ولو كان حيا ما كان قد تقبل ألاعيب نبوية الداية وابنتها ، الرأس مثقل بالهموم وضاق صدرى من الهواجس ورغم قرب انتهاء الصيف إلا أن الطريق من المقهى للمنزل استنزف منى لترات من العرق ، توقفت فى سيرى ، عرجت إلى محل .. ابتعت علبة من المياه الغازية ، فإذا بحارس المسجد الذى اتفقت معه على توريد الصوانى الألمونيوم ، أمامى اشتريت له علبة مماثلة وأصررت على اصطحابه معى إلى المنزل ليعرفه وليقوم بنفسه بتوصيل الصوانى أمام المنزل ،رفض الدخول وودعنى وأبلغنى أنه سيأتى فى الغد بمجموعة جديدة من الصوانى وفرك إصبعيه السبابة والإبهام فى إشارة معروفة فى كل بقاع العالم لإعداد المبلغ المتفق عليه فى صحن المسجد الكبير .

ميزة الدوحة .. لا أحد هنا يجامل أحدا ، فالغربة تفرض قوانينها .. جئنا جميعا من بلاد بعيدة ليس فيها « حسن وحميدة » التى كنا نتغنى بها ونحن صغار .. جئنا من أجل العمل بلا هوادة ، بلا إنسانيات ، بلا مجاملات .. نشترك جميعا فى هم واحد وهو أن يعمل كل منا على زيادة مدخراته لتقصير فترة إقامته فى الخليج .. يوم الدوحة الواحد بعشرة أيام إن لم يكن أكثر من أيام تلوانة ، لا شجرة هنا تهتز بفضل ريح أو نسمة هواء ، حتى نباتات وزرع الله جامدة صلدة خشنة قريبة الشبه بالزهور الصناعية البلاستيكية ، الأنف لا تشم رائحة تنعش والصدر لا يمكنه أخذ نفس عميق فالجو ملبد بالرطوبة ، تعلق فيه فقط روائح الكارى الهندى وعطور النساء ورائحة العنبر الذى يتعطر به الأثرياء ، ليلة أخرى من ليالى الدوحة المتشابهات ، أخلع ثيابى أو « أفسخها » حسب تعبير أهل الدوحة وألقى بنفسى وهمومى اليومية على سريرى وأدير جهاز التكييف فيتداخل أزيره مع دقات قلبى ويزيد أحلامى ضجيجا وشوشرة ويحولها إلى كوابيس مزعجة .

أسبوع كامل قضيته فى تلوانة ، أشم رائحتها وأتمشى فى حواريها الضيقة وأملا نظرى بحقولها الواسعة .. أسبوع كامل لم أحاول فيه أن أطالع وجه فاطمة الحلوة أو وجه أمها القبيح ، استمع بكل خلجة قلب لحكاوى الشيخ على ماضى وأترحم على صلاح عجورة وأتذكر ولده « 048 عيال نقاوة .. فرز أول » وأتحسر على نهايته ، كل يوم صبحا وعصرا ومساء أتصفح تلوانة فى الخطاب ،هذه البلدة التى نجح أبى فى أن يسقينى حبها وجعلها تمشى فى شرايينى ، أغمض عيونى وأفتحها ولا أرى إلا تلوانة ووجه أمى الجميل البشوش وتقاطيع وجه أبى الذى أورثنى إياها .. لقد جاء الضيف الذى حدثنى عنه صبى المقهى ، ليس من تلوانة لكنه من بير شمس بلد عبد الله زوج أختى ، جاء يحمل معه ما قاله الصبى بأنه يخشى أن يفسد دكر بط محمر وثلاثة أزواج من الحمام المحشى بالفريك وما لايقل عن اثنين كيلو لحمة « مشوحة » فى السمن البلدى .. أعدتهم أمى وسلمتهم إلى عبد الله وسلمهم له بدوره بعد أن وضعوهم فى الثلاجة تجمدوا وبمجرد وصوله إلى الدوحة وضعهم فى ثلاجة إلى أن أتى إلى بعد اتصاله التليفونى عند الشيخ يوسف الحرمى .

الضيف يعمل مهندسا ، جاء للعمل بعقد محترم ، راتب كبير ، سيارة ومسكن مجهز وتذاكر سفر له ولزوجته ولثلاثة من أبنائه ، جاءنى يحمل معه رائحة تلوانة وجمالها ويحمل معه عدة رسائل من عبد الله ومن عطية أخى الذى يقضى إجازته هناك ومن الشيخ على ماضى ومن التى « ما تتسماش» بنت نبوية ، أسبوع كامل أقرأ الخطابات أو بمعنى أصح خطابا واحدا من عدة ورقات أرسله الشيخ على ماضى ، يصف لى أحوال القرية فردا فرد وأحوال أسرتى وحيرة نبوية الداية ، خطاب عطية موجز لقد دفع لعمى وعمتى ما تبقى لهما من ثمن الأرض الخلفية التى أقام عليها المنزل الجديد والمبلغ المطلوب منى أن أدفعه له ثمانمائه جنيها أدفعهم له حين ميسرة ، فهو ليس فى حاجة لهم الآن ونصحنى بعدم نزول مصر إلا فى العام القادم ! .

خطاب عبد الله سلامات وتحيات وصور للحيازة للقراريط الأربعة وحجة المنزل التى اشتراها لى بتوكيل من محمود عجورة المسجون وصورة له مع أختى هناء يتوسطهم ابنهم سعد ، أما خطاب فاطمة يتحدث عن القسمة والنصيب والقدر والمقسوم وكلام « الفلاحين الخايب » .. قرأته مرة واحدة ومزقته وقررت ألا أرد عليها وكأنه لم يصلنى منها شئ.

أسبوع بالكامل قضيته مع خطاب الشيخ على ماضى الذى بارك لى أننى أصبحت من الملاك فى تلوانة ، بمالى وعرقى وكدى وليس بالإرث وأصبح لى اسم فى كشوف الحيازة الزراعية بالجمعية وأنه يتوقع أن أقوم خلال عدة سنوات ـ بدون حسد ـ أن أشترى الشريط الواصل من منزل صلاح عجورة إلى نهاية البلدة وأن لديه مشروعا لن يطلعنى عليه إلا بعد أن أهدى له « حتة الرادو » التى كان قد طلبها من أخى عطية من قبل إلا أنه استبدلها بساعة أورينت « عرة ».

وصف لى أحوال أمى والتى بهرتنى كثيرا فهى تعيش أسعد أيامها ، مع عطية وأبنائه الأربعة وزوجته الفلسطينية والتى نجحت أمى فى تحويلها إلى فلاحة مصرية وأجبرتها على التخلى عن لهجتها الفلسطينيه .. «أمك تخرج من دارها فى الصباح الباكر وتسوق أبناء عطية أمامها وتمسك فى يدها فرع سجر طويل وكأنها ترعى غنما وتجلس معهم طوال اليوم فى خص ماكينة الزراعة التى اشتراها عطية بعد وصوله من الكويت ، تحكى للأطفال حكايات وتعلمهم لعب السيجة حتى الظهر وتأتى امرأة عطية لهم بالطعام فى الغيط ، امرأة عطية شدت رأسها بتربيعة فلاحى وتحمل على رأسها صينية الطعام دون اهتزاز وبعد تناول الغذاء تسوقهم جميعا إلى الدار وبيدها فرع السجر ، تجلسهم بالأمر تحت دكر التوت عند مدخل الدار وغير مسموح للأطفال باللعب بالعجل فقد استلفت حمارا صغيرا من جارتها أم فوزى وتقوم بتدريب الأطفال على ركوب الحمير ، كما قامت بتفصيل أربع جلاليب للعيال ، وبعد العصر تأتى بهم لى فى المسجد لأحفظهم القرآن مع غيرهم من الصبية ».

تشاجرت نبوية الداية مع أمى بسبب تهربى من إتمام الزواج كما يقول الشيخ على ماضى فى خطابه إلا أنه أكد أن فاطمة الحلوة لم تشارك فى الشجار وكانت تحاول قدر استطاعتها ادخالهما إلى داخل الدار حتى لا تسمع الحارة شجارهما وقد هددت نبوية الداية بعدم المضى قدما فى موضوع الزواج ما لم أتمه فى هذا الصيف وقالت عن ابنتها أن ألفا من الشباب يتمناها ، وردت أمى بأنها ستفرح لها مما زاد من ثورة غضب نبوية الداية بل زادت أمى من جرعة الهجوم معلنة أن الفلسطينية أفضل ألف مرة من بنات تلوانة وانتهت المعركة على خير وانصرفت أمى من أمام دارهم ودخلت نبوية وابنتها الدار وأغلقتا بابه على نفسيهما ! .

كل يوم اقرأ جزءا من حواديت الشيخ على ماضى الذى أخبرنى بأنه يعتزم تطليق زوجته الثانية ما لم ينصلح حالها ، إلا أنه لم يكشف تفاصيل اعوجاج الحال ، وفى موضع آخر من خطابه يشكو من ضيق الرزق خاصة وأن البلد لم يعد فيها شباب فى سن الزواج لعقد قرانهم ، كما أن حالات الطلاق أمامه كمأذون أصبحت نادرة ، فالكل يلجأ إلى المحاكم خشية من الطلاق الغيابى والقوانين الجديدة التى صدرت لصالح المرأة ، أما عن قراءة القرآن فى المآتم والمناسبات التى كان يسترزق منها فقد شحت هى أيضا بعد دخول عدد من المنافسين له فى هذا « الكار » جاءوا من قرى مجاورة ورغم أن أصواتهم ليست على ما يرام الا أن أجهزة الصوت الحديثة التى يستأجرونها من الباجور جعلت أصواتهم جميعا شبيهة بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد وكبار المقرئين .

يبدو أن تلوانة قد « لطشها » التغيير وكل ما أخشاه من خطابات الشيخ على ماضى القادمة خاصة بعد أن أخبرنى فى خطابه أن عمى اشترى ماكينة « جاوة » موتوسيكل يثير به الغبار على الزراعية ويقضى أغلب وقته فى غسيله ومسحه أمام محله الجديد .. ورغم أن رسائل الشيخ على ماضى تنتشلنى من غربتى الموحشة ، إلا أنها تشطر قلبى شطرين ، شطر يعمل ويكد دون دقات طبيعية فى الدوحة وشطر يملؤه الحنين تسكنه كل تفاصيل تلوانة - الباجور - منوفية زيرو 48 .

أربعة شهور مضت ولم يصل الشيخ يوسف الحرمى وإن كان يتصل بصفة أسبوعية بالمكتب للاطمئنان على سير العمل ويبلغنى بأنه يهاتف البنك ويعلم أننى أضع حصيلة المبيعات بصفة يومية ويبدو أنه يتصل بالبنك قبل الاتصال بالمخزن ويعرف قيمة المبلغ الذى تم إيداعه فى نفس اليوم ، حيث أوضح لى ذات مرة أن 1800 ريال مبيعات فقط تؤكد أن هناك خللا ما وعلى أن أتابع العمال بشكل لصيق ، خشية أن يكون أحدهم يقوم ببيع أخشاب المخزن من وراء ظهرى وعندما سألته عن موعد العودة ، أخبرنى أن إقامته لن تطول .. لقد انتهى الصيف وأتممت سنتى الثانية فى الدوحة وقررت الاحتفال بالمناسبة .. فرخة مشوية وخمسة أسياخ من « التكا » ـــ الكباب الهندى - وخبز إيرانى وزجاجة مياه غازية كبيرة .. خمسة وعشرون ريالا أنفقتها على وجبة واحدة واحتفلت أنا وكومار بالمناسبة .

انتهت الأيام الثلاثة التى وعدنى بهم كومار وسلمنى ألف ريال كاملة ، لقد جاء بعدد من السكان الهنود إلى المنزل الجديد وقبل أن أخرج الأجندة ذات الغلاف الأخضر لتدوين المبلغ ، طلب منهم كومار ستمائة ريال لتجهيز المطعم الداخلى وأوضح أنه ليس بمطعم عام بل إنه أقرب إلى « الميس » ، مكان يتناول فيه العمال الهنود المقيمون فى المنزل وجباتهم الغذائية الثلاث من فطور وغذاء وعشاء ، مقابل اشتراك شهرى وأن المبلغ المطلوب سيشترى به عددا من المقاعد والطاولات بالإضافة إلى أوانى طهى وبوتاجاز قديم ، أعطيته فقط خمسمائة ريال ودونت الخمسمائة الباقين فى الأجندة الخضراء ، إلا أنه أوضح أنه سيحتاج لشراء جهازي تكييف قديمين قبل قدوم الصيف المقبل .

لم أسأل كومار عن عدد السكان ، المهم عندى أن يسلمنى قيمة الإيجار أولا بأول مثلما أفعل مع الشيخ يوسف الحرمى فى توريد حصيلة المبيعات إلى البنك وأن أحصل على دخل مجز من المنزل يغطى كافة التكاليف من إيجار شهرى وقيمة استهلاك الكهرباء والمياه والتى يصل متوسط الفاتورة كل شهرين ثلاثمائة ريال وما زاد فهو مكسب ، كدت أنسى المائتى ريال اللذين طلبهما كأجر له لإدارة هذا المشروع .

لا فرق بين اليوم والأمس والغد فى الدوحة إلا أن هذا اليوم بدا مختلفا عن الأيام السابقة ، ذهبنا سويا إلى المخزن أنا وكومار ، طلبت من أحد العمال أن يغسل سيارة الشيخ يوسف الكابريس وأن ينظف أمام المدخل الرئيسى وإذا بالشيخ يهبط علينا حيث أنزلته سيارة أجرة ، تقدمنا إليه مهئنين بسلامة العودة ، إلا أنه جلس فى مكتبه ساعة أو أكثر يتحدث فى التليفون ثم غادر ، موضحا أنه لن يأتى عصرا .. الجديد أن الشيخ لم يعد يجلس طويلا فى مكتبه ، ساعة أو أقل ثم يستقل سيارته ويذهب ولا يعود إلا فى صباح اليوم التالى ، كومار يقول إن هذه الحالة تنتاب كل من يسافر ويحتاج بعض الوقت لاستعادة توازنه وحياته اليومية العادية وأن هذا الأمر قد لا يستغرق طويلا ، إلا أنه طال ما يقرب من شهر كامل ولا أحد يعرف سر عزوف الشيخ يوسف عن الجلوس فى مكتبه كما اعتاد قبل سفره ! .

16

يبدأ كومار صباحه دائما بخبر سار ، استيقظ بعدى كعادته ، فأنا أصحو قبل صلاة الفجر ، أصلى السنة والفرض واستلقى على السرير وأحيانا أغفو لمدة ساعة .. لقد تخلص كومار من تحية الصباح الخليجية « الله بالخير » واستبدل بها صباح الفل .. ارتدى ملابسه ووضع يده فى جيبه ، أخرج رزمة من الريالات « الفكة » عملات صغيرة .. خمسة وعشرة ريالات ، لقد بدأ فى جمع اشتراكات المطعم ، ظننت أنه سيسلمنى الحصيلة ، مددت يدى لاستخراج الأجندة الخضراء ، وضع الريالات فى جيبة مرة أخرى طالبا منى التمهل فعوائد المطعم وحساباته سيسلمها لى كل ثلاثة شهور ، موضحا أن المطعم مؤسسة اقتصادية مستقلة ، ستمول نفسها بنفسها وهو لن يعطينى الاشتراكات ثم يطلب منها جزءا لشراء احتياجات المطعم .. وأخبرنى أن المطعم سيعمل مع بداية الأسبوع المقبل عندما يأتى أخوه من الهند ، فقد نجح فى الحصول له على تأشيرة حرة .

لم يشر لى كومار من قبل أنه يحاول استقدام أخيه ويبدو أنه من المؤمنين باستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان وفضل أن يخبرنى بالموضوع بعد انتهائه ، لقد دفع فى تأشيرة أخيه ستمائة ريال بالإضافة إلى تذكرة السفر واستأذننى بأنه سيغادر حجرتى تلك ليقيم مع أخيه فى المنزل الجديد لمتابعة شؤون السكان الهنود والإشراف على المطعم فى ذات الوقت .. أحسست أن خروج كومار من المنزل سيترك فراغا

لا أستطيع وحدى ملئه ، أخبرنى أن هناك ثلاثة هنود بلدياته من كيرالا ، سيحضرون مساء اليوم لمعاينة الحجرة الشاغرة وهم لا يستطيعون دفع أكثر من ثلثمائة ريال إيجارا فى الشهر وأنهم موظفون محترمون يحاولون الاستفادة من فرق بدل السكن الحكومى والبحث عن مكان أرخص ، وخاصة وأنهم عزاب ليس لديهم أسر، كما أن مستواهم التعليمى لا يسمح لهم بالإقامة مع العمال الهنود البسطاء ، بقدر ما حزنت بخبر مغادرة كومار ، فرحت بالسكان الجدد فوصولهم يعنى دخلا إضافيا أو عوائد جديدة بلغة كومار ! .

إلى مخزن الأخشاب وبمجرد دخولنا .. جمعنا الشيخ يوسف الحرمى .. خمسة عمال وأنا وكومار ننظر لبعضنا البعض ، وفى صدر كل منا تساؤل عن سبب استدعائنا جميعا .. الشيخ يوسف يجلس على مقعده وكلنا وقوف ، تفحص وجوهنا وكأنه يرانا لأول مرة ، سأل العامل الباكستانى عن اسمه ، الصمت يلف المكان والخوف يطل من كل العيون ، قد يكون الشيخ غاضبا من الأداء وقد يستغنى عن بعض العمال أو قد يأمر بخفض المرتبات وكان كومار دائما يقول إن «الارباب » صاحب العمل لا يطلب عاملا إلا لتوبيخه أو « تفنيشه » فصله من العمل ، طال انتظارنا لحديث الشيخ ، تكلم عن ارتفاع أسعار الأخشاب فى العالم وأنها قابلة للزيادة وتحدث عن انتظار الدوحة لحركة معمارية ضخمة تتطلب استيراد مزيدا من الأخشاب مما يفرض عليه تنظيم العمل داخل المخزن وأنه قد يأتى بمن يقوم بهذا التنظيم وأمرنا بالانصراف وكل منا فى قراره نفسه أن التنظيم يعنى الاستغناء عن واحد منا أو أكثر وكل ما يتمناه كل منا ألا يكون هو .

بعد أقل من ساعة ، هبطت من سيارة أجرة أمام المخزن فاتنة هندية مثل نجوم السينما بزيها الوطنى المعروف .. السارى الهندى .. جزءان ، جزء سفلى يلتف حول أردافها وجزء علوى مشدود على صدرها وما بينهما متروك للعراء . دخلت وكأنها تعرف المكان إلى مكتب الشيخ يوسف مباشرة ، أغلقت الباب وراءها وعيون العمال ترقبها ، أدارت مفتاح المكيف رغم الشتاء ثم تركها الشيخ وغادر المكان طلبت كل العاملين فى المخزن .. سألت عن وظيفة كل واحد وزعت علينا بطاقة بها اسمها باللغة الإنجليزية « شانتى رود ريجيوز » وتحتها مدير عام .. أمرتنا بالانصراف على أن يبقى معها كومار وحده .. أسبوع كامل وكومار يدخل إليها .. انتقاله للإقامة فى المنزل الجديد لا يوفر فرصة لأساله عن دور شانتى فى المخزن وموقف الشيخ يوسف الجديد ، يحضر فى الصباح ثم يغادر بعد ساعة وتظل هى بالمكتب تنظر من الزجاج إلى حركة العمال وخروج الأخشاب أو دخولها ، وفى الظهيرة يأتى لها رجل هندى بموتوسيكل يحمل لها طعام الغداء .

كارثة لقد جاء ابن الشيخ يوسف الملتحى ومن عينيه يتطاير الشرر ، قابلنى عند مدخل المخزن سألنى عما تفعل امرأة هندية فى مخزن أخشاب يعمل به رجال .. لم أنطق .. اندفع إلى مكتب أبيه لم تكن شانتى قد وصلت بعد ، من الزجاج الفاصل رأيت الأب والابن يتشاجران ، لم أسمع صوتا ولكن حركة الأيدى وتعبيرات الوجوه تنم أن هناك قضية ما وربما يكون أحد أطرافها شانتى الهندية . خرج الابن غاضبا وأغلق باب مكتب والده بعنف ، سمع كل من فى المخزن ارتطام الباب . دقائق وجاءت شانتى ، ترك الشيخ لها المكتب كعادته ، طلبتنى .. دخلت عليها ، انتقلت لتجلس على مقعد الشيخ ، سألتنى عن اسمى وبلدى ومؤهلى وماذا أفعل .. تنظر بتمعن فى وجهى واكتافى وصدرى ، نظراتها نارية تخترقنى عندما تتحرك عيونها على تضاريس جسدى أشعر برجفة ، طلبت منى أن أجلس وانتقلت من مقعد الشيخ إلى أحد المقعدين المواجهين للمكتب ، سألتنى عن الدفاتر وأماكنها ، بكل ما استطعت من لغة إنجليزية ركيكة وهندية مما تعلمتها من كومار أحاول أن أشرح لها ، أمهلتنى أسبوعا لأقدم لها الدفاتر للاطلاع عليها ، سألنى كومار عما دار بيننا .. قلت له تنظيم العمل ، فإذا كان هو من كيرالا منوفية الهند ، فأنا من زيرو 48 الحقيقية ، فهو لم يطلعنى عما كان يدور بينه وبينها من أحاديث خلال الأيام الماضية ! .

الكل فى حالة ترقب ولا أحد يستطيع البوح بوظيفة شانتى الحقيقية والتى جاءت من الهند بعد أن قضى فيها الشيخ يوسف ما يقرب من خمسة أشهر ، بعد أسبوع دخلت إليها بالدفاتر ، بدأت حديثها أن الشيخ يحبنى كثيرا وأغلقت الدفاتر ، فالحسابات باللغة العربية وهى لم تتعلمها بعد وعلى أن أسلم الدفاتر إلى كومار لإعدادها باللغة الإنجليزية .. خاصة وأنه يحمل مؤهلا فى التجارة والاقتصاد ! .

خرجت من المكتب إلى كومار والذى كان فيما يبدو يعلم ماذا تخطط له إن لم تكن قد أطلعته عليه ، خاصة وأنهما من بلد واحد ، سلمته الدفاتر وأخبرته بما أمرت شانتى ، كاظما « غيظى وخائفا » من تدهور علاقتى معه وأنا حسب ما نقوله فى تلوانة ـ الباجور ـ منوفية .. أن « مصارينى فى يده » ، فهو يدير المنزل الجديد والمطعم وقد أتى لى بمستأجرين هنود جدد فى منزلى القديم ، هز كومار رأسه بالطريقة الهندية التقليدية ولم يعلق وإذا بموعد غداء شانتى قد حل ويأخذ كومار الطعام من عامل الموتوسيكل ويدخل به عليها ويخرج من ثلاجة الشيخ زجاجة مياه مثلجة وكوبا .

أيامى فيما يبدو أصبحت معدودة فى مخزن الشيخ يوسف ، فقد تم الاستغناء عن العامل الباكستانى والبنغالى وحل محلهما هنديان جاء بهما كومار من معارفه ، الدور قادم على ، لم أستطع التردد على مقهى الريان ، فالهموم تثقل رأسى ، أعود من المخزن إلى المنزل ، أصلى المغرب والعشاء وتضغط على أعصابى ما قد تحمله الأيام القادمة ، أقرأ بعض سور من مصحف قديم وانتظر الصباح ومزيدا من تعليمات الست شانتى التى زينت معصمها بأربع غوايش ذهبية ثقيلة وسميكة رغم أنها لم تمض شهرا بعد فى الدوحة ولم تتقاض راتبا .. آجلا أو عاجلا سأغادر هذا المكان ومن الأفضل أن أتركه قبل أن تأمر شانتى بفصلى ، المشكلة فى الكفالة والتى فى يد الشيخ يوسف وهل سيسمح لى بالانتقال إلى كفيل آخر كما فعل غيث الكوارى وكم سيطلب فى نقل الكفالة ! .

أقضى بعض ليلى فى مراجعة حسابات الأجندة الخضراء وماذا حولت من أموال إلى تلوانة وما معى فى البنك هنا وما هو المبلغ الإجمالى الذى سيكون معى عند قدوم الصيف موعد عودتى إلى مصر ، جاءنى كومار دون موعد ومعه أخوه الذى وصل من الهند ، قدمه لى .. أوسكار .. خريج كلية فنادق وسياحة فى كيرالا .. سيدير المطعم إلى أن يجد عملا مناسبا فى أحد فنادق الدوحة الكبيرة ، لقد نجح كومار فيما فشل فيه أخى عطية ، لقد جاء بأخيه من الهند بينما عطية ظل لعدة سنوات يحاول أن يجد لى فرصة عمل فى الكويت ولم يوفق ، فجئت إلى هنا .. إلى الدوحة .

ثلاثة آلاف ريال ومائتان .. عوائد المطعم فى ثلاثة شهور سلمنى إياهم كومار ، لم أسال عن التفاصيل ، إلا أننى حاولت الاستفسار عما يأكل الهندى فى الوجبات الثلاث مقابل خمسين ريالا فقط .. هز كومار رأسه بطريقته .. يأكلون طعاما .. عمال مسكين وعاد إلى لغته العربية المكسرة بعد أن تركنى ، يجب ألا أدخل فى تفاصيل التفاصيل .. فألف ريال فى الشهر ليس بقليل ويجب أن أبقى على علاقتى الجيدة مع كومار مهما حدث من تطورات داخل مخزن الأخشاب ، هنا لغة واحدة يفهمها كل من يعيش الغربة .. لغة المصالح والريال قد تكون الإنسانيات مطلوبة ، إلا أننا لا نستطيع فرضها .. المصالح تغلب العواطف وما بينى وكومار الآن مصالح يجب الحفاظ عليها وحمايتها من التقلب بل العمل على تقويتها .

شانتى .. أحلم بها ليلا .. أمد يدى فوق السارى وتحت السارى ، أشعر أحيانا بقربى الشديد منها إلا أن كومار أقرب إليها ، فهو ابن بلدها .. والدم كما يقولون فى تلوانة « يحن » ، أخبرتها برغبتى فى إجازة بنهاية شهر يوينو موعد نزول أخى عطية إلى مصر .. و أوضحت لها أن الشيخ موافق على الإجازة ، رفعت راتبى مائة ريال .. قالت لى أن المائة ريال تساوى ألف روبية هندية ، راتب موظف محترم فى الهند ، وطالبتنى بالاعتناء بمظهرى بعض الشئ .. وتساءلت لماذا لا ألمع حذائى كل يوم كما أغسل وجهى ، ظننتها فى بداية الأمر إهانة ، إلا أنها تتحدث لى بلغة إنجليزية بطيئة وعلى سجيتها حتى أستطيع فهمها

ومن وقت لآخر تقول لى إن الشيخ يوسف يحبنى ، فى الأحلام تأتينى وتأخذنى بعيـدا وفى المخزن تتعامل باستعلاء وحزم حتى لا يطمع فيها أحد .. الأفكـار تخـرج مـن رأسـى إلى سائر أعضاء جسدى .. أسأل نفسى أحيانا ماذا لو طلبتها للزواج وأقمت هنا بقية العمـر أو أخذتها معى إلى تلوانة أو ذهبت إلى بلدها الهند ، المشكلة فى زيت شـعرها ، فقـد تعـودت رويدا رويدا على العطر الذى تستخدمه ، مزيج من العطور التى يبدو أننى اشتريتها لها قبل سفر الشيخ يوسف إلى الهند وعطور محلية من صنع بلادها ولكن من تكون شانتى .. هـل هى زوجة للشيخ أو غير ذلك ؟ .

بدأت الاستعداد للسفر .. لن أشترى شيئا من الدوحة ولن أدخل تلوانة بسيارة كبيرة كمـا يفعل أخى عطية ولن أحمل سوى حقيبة يد صغيرة .. سأعطى أختى هناء مائة جنيه تشـترى ما تريد ومثلهم لأمى وسأشترى ثلاث ساعات فقط واحدة للشـيخ عـلى ماضـى وأخـرى لعمى وثالثة لعبد الله زوج أختى .. الحتة الرادو التى يطلبها الشيخ على ماضى ثمنها ألفـان وخمسمائة ريال ولا تباع إلا فى التوكيل ، صديق فى مقهى الريان أخبرنى أن هنـاك سـاعات تقليد للرادو تباع بمائة ريال أو قد تزيد عشرين ولا أحد يستطيع تفريق الأصلى عن التقليـد وأن اسمها « رابو» قلبوا حرف الـ D إلى B ، لن أشترى شيئا لفاطمة الحلوة فأنا لا أعلـم إذا كانت الزيجة ستسير إلى نهايتها أو أن كل شخص سيذهب إلى حال سبيله .

ذهبت للبنك سحبت كل فلوسى إلا مائة ريال .. حتى يظل الحساب مفتوحـا ، اشـتريت قميصا وبنطلونا جديدين واشتريت الساعات وحقيبـة يـد جميلـة ووجـدت نفسـى فى أول ميدان بعد دوار المطار ، دوار البنـك العربـى ، حيـث تقبـع محـلات الفـردان للصـرافة ، حولت ما معى من ريالات إلى ألف جنيه مصري ، وستة آلاف دولار .. فى المنـزل دونـت حسابات الفترة كلها ، عامين ونصف عام فى صفحة واحدة ، وإذا بكومار يدعونى لحضور حفل وداع يقيمه فى مطعمه فى المنزل الجديد .. هناك رفيق هندى عائد نهائيا إلى بلاده وأنـا سأذهب لإجازة قد تمتد شهرين .. فى المطعم ما لا يقل عن مـائتى هنـدى ، بالإضـافة إلى المتواجدين فى صحن الدار ، كومار وأخوه أوسكار يوزعون علب العصائر على الضـيوف الذين جـاءوا لـوداع صـديقهم وفى النهايـة وضـع كومـار منـديلا قريـب الشـبه بمناديلنـا المحلاوى الملون والهنود يلقون عملات ورقية ومعدنية فى المنديل ، كل حسب قدرتـه ، فى النهاية أحصى كومار مبلغا من المال وسلمه للرفيق الهندى .

« فاكرنى هندى ».. تعبير دارج على ألسنة المصريين للاستهانة بتفكير الهنود وليتنى كنت هنديا ، كومار يشرح أن هـذه طريقـة متبعـة بـين الجاليـة الهنديـة فى كافـة دول الخلـيج ، المسافر نهائيا يجمع له مبلغا من المال يساعده فى بدء حياتـه الجديـدة ، ودخـل كومـار فى عرض أفكاره وفلسفته ، حذرنى من إعطـاء حسـنة لفقيـر لأنهـا تزيـد بغضـاءه وكراهيتـه للأغنياء ، تزيد حقده عليهم ، فهم يملكون وهو لا يملك ، هم لديهم فائض من المال وهو ليس لديه ما يقيم أوده ، الحسنة مردودها سلبى وبدلا من الحسنة قدم له المساعدة حتى لا يمد يده للتسول ، ساعده على أن يعمل وأن ينتج .

الهنود تركيبة قد تبدو غريبة ، عملت معهم لا أعـرف ديـانتهم ، إلا أنهـم كلهـم سـواء .. يتجمعون سويا ، يأكلون سويا ، يعيشـون سـويا ، لا مشـاكل بيـنهم ، يسـاعدون بعضـهم البعض ، يتزاورون ، فى المطار يستقبلون القادم الجديد وعند سفر أحدهم تكـتظ الصـالة بالمودعين ، عندما جئت الدوحـة ، أعطـونى عنوانـا خاطئـا لشـخص مـن المفتـرض أن يستقبلنى .. عثرت عليه فيما بعد بالصدفة ، نعم أكرمنى واستقبلنى فى بيته لمدة ثلاثة أيام ، إلا أنه لم يفكر بعد ذلك فى الاطمئنان على ، وعندما جاءنى مهندس بير شمس بلديات عبـد الله زوج أختى ، وأحضر معه دكر البط والحمام ، سألته عن عنوانه ورقـم تليفونـه الا أنـه تعلل بعدم معرفة العناوين أو التليفونات ووعدنى بالزيارة .. إلا أنه « فص ملح وداب » .. فى الغربـة ، المصـرى يخشـى المصـرى وفى بلـده وعـلى طـرف لسـانه جملـة « فاكرنى هندى » وهو لم ير الهنود ولم يتعامل معهم .

فى مطار الدوحة جاء أربعة لوداعى ، صبى مقهى الريان وكومار وأخوه وشـانتى ، كانـت عيون المسافرين والمودعين تأكلها ، ينظـرون إلى صـدرها ويطيلـون النظـر فى خصـرها ، شعرت بغيرة عليها .. شدت على يدى وقالت نحن فى انتظارك .. كومار احتضنى بشدة قبل عبور بوابة الجوازات ، طمأننى أن كل شئ سيسير كما اتفقنا وكأننى فى الدوحة تماما « ونو بروبلم »، الإيجار سيحتفظ لى به إلى أن آتى وعوائد المطعم ، كما أنه سيبحث عـن رفيـق هندى ، لبيع مخزون صوانى الألومنيوم .. المخزن فى صحن الدار ، بالمصرى قال « تروح وتيجى بالسلامة » .. واحتضننى مرة أخيرة ، وشعرت بدمعة تسقط منه على صدرى .

طائرة مصر للطيران تدخلها وكأنك هبطت مصر ، شعور كل المصريين فى الغربة ، رحلة العودة هرج ومرج ، الكل يتحدث بصوت عال ، الفرحة بالعودة ولقاء الأهل ، المضيفات يعانين من الركاب ، يطلبن منهم عدم التحرك فى الطائرة ، وربط الأحزمة إلى أن تقلع ، ثلاث ساعات أنظر من نافذة الطائرة على صحارى وجبال ، صوت كابتن الطائرة يعلن الاقتراب من مطار القاهرة ، ويطلب ربط الأحزمة ، يعلن أن درجة الحرارة بالقاهرة أربعون .. يصرخ مسافر مهللا أن درجة الحرارة لا تهم ، فهو قد جاء من جهنم وكل ما يريد معرفته « سعر الدولار بكام تحت » ، ينفجر المسافرون فى الضحك .. إلى طابور الجوازات .. ليس لدى حقائب سوى حقيبة يد صغيرة ، خرجت مسرعا .. لا أحد فى انتظارى .. فلم أبلغهم بموعد وصولى .. إلى موقف الأتوبيسات إلى ميدان رمسيس ومنه إلى المؤسسة فى شبرا الخيمة .. ميكروباص إلى تلوانة .

هبطت .. اليافطة الصاج الصدئة .. تلوانة .. من الزراعية إلى منزلى لم يرنى أحد فقد رفع أذان المغرب ، والكل فيما يبدو فى مسجد القرية .. نظرت أول ما نظرت إلى ناحية المقابر حيث يرقد محمد سعد فكة .. قرأت الفاتحة على روحه .. ناجيته .. لقد جئت .. وصاياك تطوق عنقى .. سأفعل ما كنت تتمناه ، سأنفذ ما فشلت فى إجبار أخى عطية على تنفيذه ، أبطأت الخطى أمام دار محمود عجورة سابقا ، دارى حاليا بما معى من أوراق .. أمام باب دارنا بالتوتة الدكر ، يجلس أخى ورضوى زوجة أخى ويلعب حولهما الأبناء الأربعة .. لقد كبروا بعض الشئ ، استقبلتنى أمى بالأحضان والقبلات .. تتحسس وجهى وأنفى ، شاربى الذى ربيته فى الدوحة ، تحتضننى رضوى زوجة أخى .. كل منهما تمسك بيد ، ويدخلاننى إلى الحجرة الكبرى فى وسط الدار حيث ما زالت صورة محمد سعد فكة فى مكانها تحرسهم وتباركهم ، تلقى إليهم بالتعليمات والوصايا وتشيع جوا يمتزج فيه الموت مع الحياة .

دقائق وعاد أخى من المسجد بصحبة الشيخ على ماضى .. قامت رضوى لإعداد الطعام ، وإذا بالصمت يطبق على الجميع يقدمون لى العزاء ويتمنون لى طول العمر ، فقد توفيت عمتى منذ ثلاثة أسابيع ، لم يحاولوا إزعاجى أو الاتصال بى تليفونيا ، رفعت أمى عينها إلى صورة محمد سعد فكة ، وانفجرت فى بكاء مرير ، أعرف أنها لا تحبها ولكنه الموت الذى يقف أمامه الجميع عاجزا باكيا ، مسحت عينيها بظهر يدها وطالبتنى بإكمال زيجتى من فاطمة الحلوة فالحى أبقى من الميت ، والبنت أفضل كثيرا من أمها ، وتداخل حديث الموتى مع أحاديث الأحياء ، والأيام الأخيرة لعمتى وليلة العزاء وحزن زوجها الشديد عليها ، وسقوطه مغشيا عليه عدة مرات أثناء الجنازة إلى المقابر واعتكافه بالدار وعدم خروجه منه منذ دفنها ، قررنا أن ننتقل إليه .. إلى داره ، لتقديم واجب العزاء قبل أن يحل موعد أذان العشاء وطلبنا من رضوى تأجيل إعداد الطعام .

تلوانة رغم ما فيها من غيرة ، بين أبنائها وتنافس بينهم دون تنافر ، تشعرنى كل يوم بقيمة أبى .. المتسامح ، المتغاضى عن الصغائر ، العليم بسلوك البشر ، المدرك أن الخارج عن السرب سيجبر على العودة يوما .. وتسير الأمور ، فالحى بالفعل أبقى من الميت ، سأستكمل موضوع الزواج ، سأذهب إلى منزل فاطمة بعدما نتصل بأخوتها ، سيسير كل شىء كما قدر الله وخطط له محمد سعد فكة .. العزوة والأرض والمال زينة .. وكل ذلك إن لم يكن فى حضن تلوانة وفوق ترابها ، فهو سراب .. لقاء فاطمة وأسرتها المرتقب سيحدد الكثير من الأمور .

17

أنقذتنى عمتى مرتين ، فى حياتها وفى مماتها .. أنقذتنى عندما اعترض طريقى محمود عجورة زيرو 48 محاولا التشاجر معى ، كسرت أنفه وأنقذت الأسرة كلها من بطشه وفتوته النامية وأنقذتنى فى مماتها ، عندما ذهبت إلى بيت فاطمة الحلوة مع أخى عطية لمقابلة أخواتها ، وفاتها لم تجعلهم يتحدثون فى إقامة فرح فى نادى المعلمين بالباجور ، أمها اكتفت باحتضانى والبكاء على وفاة عمتى والترحم عليها ، تحدثنا عن الظروف الجديدة وأننا لا نستطيع أن نتم الزفاف قبل مرور ذكرى أربعين عمتى .. حتى لا يأكل الناس « وشنا » . اتفق الرجال دون شروط تذكر على أن اصطحب فاطمة من منزلها إلى بيتى الجديد ، ثم نسافر لقضاء أسبوع أو أكثر فى شقة عطية بالإسكندرية ، أنقذتنى عمتى من تكاليف البذخ ووافقت حماتى نبوية دون اعتراض متمنية لنا هدوء السر ، لم تنطلق زغرودة واحدة فى تلوانة ، فسماء القرية ملبدة بغيوم حزن حقيقى على وفاة عمتى .

أمامى ما يقرب من عشرين يوما لإتمام الزفاف ، أستغل هذه الفترة فى الذهاب إلى ميت شهالة .. إلى الأستاذ عبد النبى متعهد توريد الأفراد إلى الخليج ، أشكو له حالى وأطلب منه البحث لى عن وظيفة مستقرة بأجر طيب مثل خلق الله وأحكى له عن الصعوبات التى واجهتها فى الدوحة والسلامات التى جاءت منها خاصة من كفيلى الأول غيث الكوارى .. سنتان ونصف قضيتهم فى الدوحة أكمل فيهم الأستاذ عبد النبى بناء عمارته .. يجلس فى مدخلها .. رحب بى .. سألنى إذا كان معى دولارات فهو يحولها بثلاثة قروش

أعلى من سعر البنك وأعلى من سعر الدوحة بقرشين ، يبـدو أنـه متـابع جيـد لحركة الدولار فى الخليج وغيره ، أعطيته ما معى من دولارات .. أحصـاهم .. دخل شقته فى الدور الأرضى وعاد بجنيهات مصرية .. الحديث أصبح له مذاق مختلف بعد إتمام صفقة الدولارات ، سألنى عن عطية وقـال إنـه يعلـم أنـه فى إجازة إلا أنه لم يكلف نفسه بالمرور عليه .. أوضح أن فرص السـفر أصـبحت ضيقة خاصة بعد مقاطعة الدول العربية لمصر بعد توقيـع اتفـاق كامـب ديفيـد وأن هذه الاتفاقية وبال على مصر وأن المصـريين خسـروا كثيـرا بسـببها ، فـلا فرص عمل جديدة لهم بالخليج ولا تأشيرات وهناك جنسيات أخرى استغلت الموقف السياسى لتحسين أوضاع جالياتها .. الحقيقة أننى لا أحب السياسة أو الخوض فيها .. كنت مكتفيا بهز رأسى متظاهرا بموافقته .. فكل مـا يهمنـى أن يحصل لى على عقد عمل وأنا على استعداد لدفع المطلوب .

الأستاذ عبد النبى يجلس فى ميت شهالة وعيونه وأذنه على الخليج مصدر رزقه وثرائه ، يسأل فى أدق التفاصيل .. يحاول أن يعرف ما حدث للمصريين بالضبط فى الدوحة بعد توقيع الاتفاقية .. كل ما أعرفه هو ما سمعته فى مقهى الريان ، فأنا لا أقـرأ الصـحف ولا أتـابع الإذاعـات ورثـت كراهيتهم من محمد سعد فكة ، عندما ذهبت إلى المقهى بعد عدة أيام فى نهايـة مـارس 1979 لم أجد من المصريين سوى ثلاثة فقط ، منزوين فى ركن من المقهى ، رؤوسـهم فى رؤوس بعـض .. يتحدثون بصـوت مـنخفض ويتوقعـون أن يـتم تـرحيلهم مـن الدوحـة ، خاصـة أن هنـاك مظاهرات ضد المصريين فى الكويت ومحاولة اقتحام السفارة المصرية هناك .. ارتجفت خوفا على عطية خرجت مباشرة للاتصال بأخى سألته عما يحدث فى الكويت ، أخبرنى أن كـل شـئ على ما يرام وسيرسل لى خطابـا ، فى رسـالته أوضـح لى محاصـرة بعـض الفلسـطينين للسـفارة وتقاعس الشرطة عن حمايتها ولجوء العاملين بها إلى الصـعايدة فى المقـاهى الـذين حضـروا فى سيارات نصف نقل كل منهم يحمل شومة وضربوا سورا حول السفارة واختفى المتظاهرون .

يريد أن يعرف ما حدث بالضبط فى الدوحة ، فهو على علم بما دار فى الكويت ، الا أننى حكيت له عما شاهدته وسمعته ، خاصة وأنا أعمل فى « الطل » خارج الدواوين الحكومية .. وأغلب ما أعمل معهم من الهنود والبنغال .. سألنى إذا كانت هناك محلات أخرى تقوم بإجراء تحويلات بنكية لمصر غير الفردان وسألنى إذا كان هناك من يقوم بتجميع الدولارات من تجمعات المصريين ، سألنى عن كل شئ وقد شاركنا فى الجلسة أحد القادمين لزيارته من قرية مجاورة ، قال له إنه جاء مباشرة من المطار إليه ، مقسما له أنه كان يعيش فى الخليج على « حس » الأستاذ عبد النبى المعروف هناك أكثر من الشيوخ والأمراء ومضى فى وصلة من النفاق لم أعهدها من قبل .

دخلنا فى موضوع .. أبحث عن عقد عمل ثابت .. قال إن وزارة التربية والتعليم فى قطر هى جراح المصريين وأن اللجنة الوزارية التى تأتى للتعاقد على المدرسين لابد أن تمر أولا على منزله العامر للحصول على تأشيرة دخول وبعد أنتهاء أعمالها لابد أن تمر عليه فى زيارة وداع وأن أعضاء اللجنة ورئيسها أصدقاء له ، لا يردون له طلبا فى حدود المسموح وأنهم قد أرسلوا له قبل مجيئهم هذا الصيف بأنهم فى حاجة لمدرسين تربية رياضية وتربية موسيقية وهو من الممكن أن « يضرب » لى شهادة بأننى خريج معهد التربية الرياضية ولديه كتيب صغير عن الإحماء والتدريبات البسيطة من مد وثنى من الممكن أن أحفظها وبتوصية بسيطة ستقوم اللجنة باختيارى وتوقيع العقد معى وأنه يتقاضى عن هذه الخدمة أجر شهرين كاملين .. أجر شهر قبل السفر وأجر شهر عند أول اجازة ، ومن الممكن أن يجعلهم يتعاقدون معى فى الدوحة .. عقد داخلى .. أو ما يطلق عليه عقد محلى ، الأجر فيه لا يختلف عن العقد الخارجى إلا أن المتعاقد لا يتمتع بمميزات بدل السكن أو تذاكر السفر ، كل ما يقوله الأستاذ عبد النبى عرفته من مقهى الريان ، إلا أننى لست على استعداد أن أحمل مؤهلا مزورا وأعمل به وأنا لدى مؤهلى الجامعى السليم ! .

الأخ الذى جلس معنا ينصحنى بقبول اقتراحات الأستاذ عبد النبى ، فهو رجل « نافذ » ويعرف الخليج وناسه مثل كف يده وأن نصف من يعملون فى الخليج من المنايفة قد مروا على الأستاذ ، كما أن هناك خليجيين يأتون إلى داره .. هنا .. لاستشارته

، أوضحت للأستاذ أن وزارة التربية فى قطر تطلب محاسبين للعمل فى مجالات غير التعليم والتدريس وأننى أصبحت على خبرة بأعمال المخازن والجرد ومن الممكن أن يوصى لجنة التعاقد بقبولى عند عودتى للدوحة ، خاصة وأن لدى إقامة هناك وتأشيرة دخول صالحة .. وعدنى بالاتصال تليفونيا عندما تأتيه اللجنة ، إلا أن هذه الخدمة يجب دفع أجر شهرين قبل التعاقد .

لقد اقتحمت الطريق وأبديت استعدادى للدفع فورا وانصرفت ، أفكر فى تجهيزات الزفاف على أن تكون فى أضيق الحدود ، خاصة وأن العائلة تمر بحالة حداد وحزن على وفاة عمتى .. لا زمر ولا دف ولا طبل .. مجرد عشاء لمن يأتى ليبارك .. لقد أنقذتنى عمتى فى مماتها من مطالب فاطمة ونبوية الداية وكان أخواتها بالفعل أكثر حرصا على إتمام الزفاف بأسرع وقت ، على وعد أن تسافر معى إلى الدوحة بعد عام على الأكثر .. أكون فيه قد أعددت بيتا للزوجية واستخرجت لها الأوراق المطلوبة وأحضرت تأشيرة السفر .

دارنا كان أهدأ دور القرية ونحن صغار ، أسرة من خمسة أفراد هادئة مسالمة .. لا شجار ولا صوت عال .. الآن أصبح أعلى الدور صوتا وخاصة فى الصيف عندما يأتى عطية بأولاده الأربعة وقد جاءت هناء بإبنها سعد وزوجها عبد الله ، بطنها أمامها فى أيام الحمل الأخيرة : جاءت للإقامة والولادة ، أبناء عطية الأربعة ضد سعد الوحيد ، وأمى تصرخ والتى لم أكن أسمع لها صوتا ، يتشاجرون على لعبة ، يتنازعون على كرة ومع إجازة عطية يصبح الشيخ على ماضى شبه مقيم فى منزلنا ، لا يتركه إلا لإقامة الصلاة وأمامة الناس ثم العودة ، فهو ليس مجرد صديق .. خاصة وأن أمى تؤكد أن أمه بنت خال عم أبيها .. الشيخ يعمل فلاحا فى قراريطه الأربعة من بعد الفجر حتى أذان الظهر ويعود شيخا مرة أخرى وحتى دروس حفظ القرآن التى ينظمها من بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب ، يلغيها فترة إقامة عطية فى تلوانة !

قررت أمى أن تحضر داية من بى العرب لتوليد هناء لتكشف عن سواد قلبها تجاه نبوية الداية وأنها لم تصف لها بعد شجارها معها بسببى وقد أخبرت فاطمة بذلك والتى تأتى إلى الدار لتقضى أغلب وقتها مع رضوى وأمى ، إلا أنها تتظاهر بعدم الاكتراث بجلب داية أخرى غير أمها من بلد مجاور وكأنها ترغب فى إعلان استقلالها عن أمها .. « كهن فلاحين » .. فهى لم تحدثنى اطلاقا عما حدث بينهما وأنا سعيد بموقفها هذا ، خاصة وأن نصائح الشيخ على ماضى تطالب دائما بالفصل بين الأم وابنتها ويضرب مثله المفضل « خد بنت الندل وخاصمه » .. إلا أننى لست فى حاجة لمخاصمة نبوية الداية حماتى ، خاصة وأنها بدأت فى مسايرة أمورها ولا تنادينى إلا بـ « عبده ابنى » .

حفل الزفاف فى بيت فاطمة .. جاء أخواتها وزوجاتهم وأبناؤهم من مصر وشبين ومن الباجور وجاء أهل أمى من بى العرب ، الجلسة بسيطة .. لا طبل فيها ولا زمر وأن لم تخل من قفشات الشيخ على الذى يكاد يضع معصمه فى عيون الناس ليروا « الحتة الرادو» التى تزينها .. ويسعد عندما يمتدح الناس ساعته ويغمز بعينيه لى قائلا « ولا الحوجة لعطية » .. وأصبحت ساعة الشيخ على ماضى حديث القرية ولا يعلم أحد قصتها ، تناول الضيوف عشاءهم وأصرت رضوى زوجة أخى أن تخرج فاطمة من دارها إلى دارنا بزفة قصيرة ، فقد مضى على أربعين عمتى ما يقرب من أسبوع وجاءت بشموع ووزعتها على البنات والأطفال الصغار .. ومن دار فاطمة إلى دارنا .. أغلقنا باب الشقة لم أفكر فى شىء سوى أن وصايا محمد سعد فكة على وشك التحقق .. أسرة كبيرة .. وأطفال وأرض .. يجب أن يكون كل شىء داخل تلوانة وليس خارجها .. ترحمت على محمد سعد فكة وبدأت حياتى الزوجية .

عدنا إلى تلوانة من الإسكندرية بعد شهر عسل اختصر لمدة عشرة أيام ، أمامى مهام صعبة تصريح العمل وإذن السفر وتطويع فاطمة للاندماج فى أسرة جديدة والاتصال يوميا بالأستاذ عبد النبى فى ميت شهالة للسؤال عن موعد حضور لجنة التعاقد وبين المهام الأربعة الجسام تتأرجح حياتى اليومية .. فاطمة والتى أصبحت جزءا مهما من حياتى الجديدة لا مطالب لها .. نعم وحاضر ، لا تخرج من الدار حتى لزيارة أمها .. نبوية تأتى إليها ، تلقى بالتحية على أمى وتدخل إلى شقة ابنتها ، تجلس معها ثم تخرج كما جاءت ، تسأل من وقت لآخر عن هناء وتنتظر موعد وضعها لطفلها الجديد رغم مشاهدتها لداية بى العرب أكثر من مرة

، إلا أنها تبدو مصرة على توليد أختى ، جاءت آلام المخاض .. ذهب عبد الله إلى بى العرب ، أحضر الداية وضعت هناء طفلة وكما فرضت أمى رأيها وأطلقت اسم أبى على مولود عبد الله الأول ، قررت أن تنعم على الوليدة الجديدة بأسمها .. اسم لا مثيل له فى عب الباجور كله كما كان يقول محمد سعد فكة ، اسم بالفعل لم أسمعه ولم أقابله فى حياتى وأصبح لهناء سعد وقنوع ، فى حفل « السبوع » وضعت انا لها فى الغربال خمسين جنيها .. وأعطيت لفاطمة مثلهم .. قامت بدورها بنثرها عليها أمام صورة محمد سعد فكة .

تسأل فاطمة من وقت لآخر إذا كانت ستسافر معى ، أخبرتها أن الأمر يحتاج الى ترتيب وعليها بشئ من الصبر ، الشيخ على ماضى يحدثنى عن مشاريع مستقبلية يشاركنى فيها بجهده بعدما دخل كار قراءة القرآن غرباء .. طبيب يقرأ القرآن فى المآتم والحفلات ومشرف زراعى يسترزق من هذه المهنة وفلاحون اكتشفوا أنها أكثر ربحا من الفلاحة ، الشيخ على لديه مشروع فى القراريط الأربعة التى اشتريتها ، إقامة مصنع صغير لتعبئة المواد الغذائية .. وأن بناء المصنع لن يكلفنى شيئا ، فكل ما يحتاجه بناء سور وجمالون والأرض ملاصقة للدار وأن هناك من يدفع ألف وأربعمائة جنيه أو أكثر دون أن يأخذ من الأرض أكثر من ثلاثين أو أربعين سنتيمتر من طميها ، فقد انتشرت قمائن الطوب الأحمر وانتشر السماسرة والتجار وقد عرض هذا الأمر على عطية إلا أنه رفض أن يعرض الأرض الورث لهذا العبث كما قال ! .

لقد أوضح لى الشيخ على ماضى ما غمض عنى ، فقد رأيت الغيطان قد ارتفع بعضها وانخفض البعض الآخر وهناك أحواض انخفضت بما لا يقل عن متر .. إنه التجريف .. بيع طبقة من الطمى لتجار الطوب ، ويدفع فى تجريف القيراط الواحد من ثلاثمائة إلى أربعمائة جنيه ما يقرب من ربع ثمن القيراط الحقيقى ، فلماذا لا أستفيد من فكرة الشيخ على ، خاصة وأننى لا أفكر فى زراعة قراريط محمود عجورة ولا أرغب أيضا فى تبويرها .. جاءنى الشيخ على ماضى بالتاجر ، أعلنت موافقتى على تجريف القراريط الأربعة ، على ألا يقل السعر عن أربعمائة جنيه للقيراط الواحد ، أقسم بأغلظ الإيمانات بأن هذا سعر لم يدفعه لأحد من قبل إلا أنه فى حاجة شديدة لطمى أرضى .. فقد بنى قمينة قريبة ويريد تشغيلها للانتقال إلى مكان آخر ، دفع المبلغ المطلوب وأخذ الشيخ على ماضى حلاوته « عشوة » حلوة من يد أم عطية وشاركت فيها فاطمة زوجتى ، سألتنى عن المناسبة ، طلبت منها ألا تسأل كثيرا .. استكانت .

كومار لم يتصل بى تليفونيا حتى الآن ، والاتصال بميت شهالة أصبحت إجابة الطرف الآخر واحدة ، الأستاذ عبد النبى غير موجود ، أجلس فى شقتى بالمنزل الجديد وأنزل لأجلس مع أمى بعض الوقت ، ورأسى معلقة بالدوحة وكومار من ناحية ، وميت شهالة وعبد النبى من الناحية الأخرى ، وما عدا ذلك يأتى فى خلفية الصورة ، باهت لا وضوح فيه ، عطية يستعد للعودة للكويت ، هناء وزوجها عبد الله وطفلاها غادروا إلى بير شمس ، قبل سفر عطية أخبرنى بأنه أنهى الأزمة مع عمى ، وانتزع كامل ميراثنا غير منقوص ، وأن الجلسة حضرها الشيخ على ماضى وقد سلم أولاد عمى الأرض وكلف عطية محاميا من الباجور ، لرفع قضية فرز وتجنيب وأن عمى لم يعد له مليم واحدا لدى أبناء محمد سعد فكة ، والصيف القادم سيتم تسوية كافة الحسابات معى عندما تتحسن الأوضاع .. عطية كلامه قليل كعادته ، أوضح أن عمى فضل أن يكون عاقلا وبدل « الغصب يعملها بجميلة » ، مثل أبى الدائم « إن جالك الغصب اعمله بجميلة » .. ورضخ وقبض كل ما له وربنا فتح عليه ، بمحل « المستورد » ، هذه التفاصيل لا تشغلنى الآن وعمى لم يعد قضية وخاصة بعد وفاة عمتى التى كان يستمد منها القوة ، قضيتى الآن مع كومار وعبد النبى .

لجنة التعاقد التابعة لوزارة التربية والتعليم فى قطر بكامل هيئتها ستحل ضيفا على الأستاذ عبد النبى فى ميت شهالة الأسبوع المقبل وعلى إعداد المبلغ المطلوب .. مرتب شهر مقدم والآخر فى الإجازة القادمة ، كانت مكالمة الأستاذ عبد النبى فتحا جديدا مثلما سافرت لأول مرة إلى الدوحة ، فى الموعد ذهبت سألنى عبد النبى إذا كانت معى الفلوس أخبرته بأن معى ثلاثة آلف جنيه مصرى ، أخبرنى أنهم يحتاجون دولارات أو ريالات ، ومن الممكن أن يغير لى المبلغ المطلوب ، أعطانى الدولار بزيادة خمسة قروش عما اشتراه منى ، قدمنى لكبيرهم ، رحب بى ، وأعطانى بطاقة عليها اسمه ، وطلب أن أتصل به بمجرد عودته للدوحة والعقد جاهز ، عقد عمل محلى براتب شهرى ، وقدره ألفين وأربعمائة ريال للعمل محاسبا فى مخازن التربية والتعليم المركزية .

استأذنت أمى للذهاب إلى القاهرة ومعى فاطمة ، اشترى لها بعض الأشياء ، وأقضى عدة ليالى فى شقة الدراسة بالخلفاوى ، طلبت تأجيل السفر إلى مصر إلى ما بعد مغادرة عطية لتأتى معنا وتقضى أيضا بعض الأيام وتزور الأولياء الصالحين وخاصة السيدة زينب ، وستنا نفيسة ، انفرجت أزمة ميت شهالة ولم يتصل بعد كومار ، ولعل المانع خير ، شحن عطية أولاده وزوجته فى سيارته وجاءت الأسرة كلها لوداعه فى دارنا ، هناء وعبد الله وطفلاها ، الشيخ على ماضى وعمى وبعض أقارب أمى وعاد الدار إلى هدوئه .

فى الصباح شددنا الرحال إلى القاهرة تعجبت لقدرة فاطمة على التعامل مع أمى ، تعلمت أشياء كثيرة فيما يبدو من رضوى الفلسطينية ، لا تخاطبها إلا بكلمة ماما ، تنحنى عليها تسمعها باهتمام ، تلتزم بكل ما تقوله ، وهذا ما أريده ، قضينا ثلاث ليال ، ذهبنا إلى سينما التحرير فى شبرا ، كانت أول مرة تدخل فيها أمى وفاطمة السينما ، اشترينا أشياء من القاهرة ، لم أستطع أن أشترى لزوجتى وأهمل أمى .. عدنا إلى تلوانة وأنا فى انتظار مكالمة من كومار ، ووجدت نفسى أسبه ، كومار اللعين .

الأيام بطيئة أكثر بطءا من أيام الدوحة ، الشيخ على ماضى يأتى ليجلس معى أمام الدار ، يحدثنى عن مشاريع وهمية تدر أرباحا خيالية ، منها الصوبات الزراعية ، والتى تمكن الفلاح من زراعة محاصيل ونباتات فى غير مواسمها وأن هناك بطيخا بدأ يظهر فى مصر فى الشتاء وأنه على استعداد أن يساعدنى ، تركت كومار فى الدوحة وتسلمنى الشيخ على ماضى فى تلوانة ومن وقت لآخر يسأل عن إمكانية سفره إلى الدوحة ، فهو أزهرى وقد سمع أن قطر أحيانا تطلب مقيمى شعائر فى مساجدها ! .

منذ رحيل أخى عطية وعودة أختى هناء إلى بير شمس لم أدخل شقتى الجديدة ، خاصة وأن أمى كانت قد أعدت حجرة لعبد الله وهناء للمبيت فيها عند إقامتها فى تلوانة ، هذه الحجرة أصبحت حجرتى مؤقتا أنا وفاطمة ، بعد صلاة العشاء أعود من المسجد وأدخل حجرتى ولا أخرج منها إلا فجرا . فاطمة تحاول بالود و« الحنية » أن تستكشف مستقبلها ، وتسأل عن ظروف المعيشة فى الدوحة وعن أسواقها وعن سوق الذهب الذى يتحدثون عنه ، كلامها يخيفنى ، فأنا لم أذهب للدوحة للشراء أو التسوق ومعنى ذلك أنها إذا جاءت معى ستخرب بيتى ! .

تسأل أحيانا عن حقيقة ما أشيع فى القرية عن شرائنا لدار محمود عجورة وأرضه وعن مشكلة الأرض التى وضع عمى عليها يده لعدة سنوات وهل أعطاه عطية كل ما طلبه وأخرجه من الأرض وهل هناك قضية فعلا فى المحاكم .. فاطمة بنت تلوانة تسمع وتحاول أن تتحقق بطريقة لا تثيرنى وتطلب كل ليلة أن أمد إجازتى بعض الشئ ، الغريب رغم حداثة عهدها بالزواج إلا أن مطالبها تأتى فى توقيت أتظاهر فيه بالموافقة المبدئية ، لقد انتهت الإجازة ولا أستطيع مدها بأية حال وكومار اللعين لم يكلف خاطره ويتصل بى ، كنت أقدم لها إجابات شافية ، إلا أننى أخفيت عنها موضوع عبد النبى وقصة العقد الجديد والمبلغ المالى الذى دفعته له أو لرئيس لجنة التعاقد القطرى وللأمانة المبلغ حوله لى بالدولار عبد النبى وطلب منى أن أقدمه بنفسى لرئيس اللجنة .

تحاول فاطمة ضمن ما تحاول أن تعرف كم استطعت أن أدخر فى غربة السنتين والنصف ، هذه أسئلة لا إجابة لها وقد يضر الإفصاح فيها أكثر مما ينفع ومثل هذا السؤال لم يسأله محمد سعد فكة لابنه عطية طوال فترة غربته وتسأل فاطمة والدموع بعينها أن مدة العام طويلة .. المدة التى ستتركنى فيها وكيف تقضيها بدونى وقد تعودت على وكلما اقترب موعد السفر زادت فترات نحيبها .. هذا السؤال أجبتها عليه بوضوح ستقضى العام مع أمى .. لا تغادر المنزل إلا بإذنها لا تذهب إلى دار أمها ، بل تأتى أمها لزيارتها هنا ، ولها مطلق الحرية أن تقيم فى شقتنا الجديدة أو فى دارنا وأننى سأتصل تليفونيا مرة كل شهر ، كما أننى سأرسل خطابات بصفة منتظمة وقد حددت لها مصروفا شهريا قيمته خمسون جنيها ستصلها فى حوالة تسلمها لعبد الله يصرفها لها من الباجور وأوصيتها بأن تبقى على علاقة طيبة بأمى ولا دخل لها على الإطلاق فى حالة خلافات أمها مع أمى .

18

حـان وقـت السـفر ، دمـوع ونهنهـة وتنهـدات .. أمـى وهنـاء وزوجهـا عبد الله صديقى وفاطمة زوجتى وحتى عمى وزوجتـه وعـلى ماضـى جـاءوا لوداعى ، شعرت بشفقة على فاطمة وعلى نفسى .. زواج لمـدة ثلاثـة أسـابيع مثل المآسى التى كنت أسمع عنها فى الدوحة ، الضـعف الإنسـانى لسـت فى حاجة له الآن ، قـررت أن أودعهـم جميعـا أمـام الـدار ، خجلـت فاطمـة أن تحتصننى أمام الأهل ، سلمت بيـدها أولا ثـم اقتربـت وألقـت بنفسـها عـلى صدرى كل جسدها يهتز ، ربت على ظهرها ، أطمئنها بأن الأيام ستمر سـريعا وأعلم أنى كاذب ، فيوم الدوحة بأسبوع فى تلوانة وشـهر الدوحـة بسـنة مـن مصر ، لا تريد فاطمة أن تبتعد عنى ، شـعرت بضـعفها تكـاد أن تسـقط عـلى الأرض ، أخذتها هناء ، وطبعت قبلة على جبهتهـا .. وقبلـتهم جميعـا حتـى لا تصبح لحظة الوداع حديث تلوانة .

من الدار للزراعية معى عبد الله والشيخ على ماضى .. حقيبة اليد استبدلت بها إحدى حقائب عطية الكبيـرة ، سـألت عمـا فيهـا ، لقـد وضـعت فقـط ملابس داخلية والأجندة الخضراء ، وأمى وضعت فيها كميـة مـن الجـبن ودكر بط وحمام وعدد من الفطائر « المشلتتة » وليفة اسـتحمام وقطـع مـن الصابون وكأن الدوحة بلد جـرداء .. مـن تلوانـة للقـاهرة ومنهـا للمطـار وهبطت الطائرة فى الدوحة عصر اليوم ، خرجت مـن مطـار الدوحـة بثقـة عكس أول مرة واخترت سيارة أجرة أخذ منى السائق الحقيبة ، طلبت منـه التوجه إلى منطقة النجمة « سيدا » مباشرة .. لقد غبت عن الدوحة شـهرين فقط ، أحياء كاملة وشوراع أزيلـت ، حـوارى قديمـة عـلى جـانبى منطقـة الجسرة وبامتداد الشارع المؤدى إلى دوار البنك العربـى .. حركـة عمـران كبيرة .. وتم تغيير

المرور فى بعض الشوارع ، الشيخ يوسف الحرمى كان يعلم عندما طلب وهو فى الهند وقف البيع لمدة ثلاثة أيام ورفع أسعار الأخشاب وكان محقا عندما قال أن الدوحة ستشهد فى الأيام المقبلة حركة عمران كبيرة ويتزايد الطلب على الأخشاب بمختلف أنواعها .. الشيخ يوسف الحرمى وكومار اللعين وشانتى .. لقد عدت لكم مرة أخرى .. أمام منزلى فى النجمة طلبت من السائق التوقف وبكل ثقة أخرجت له ثلاثة ريالات .

أخذت حماما وأفرغت ما فى الحقيبة .. الأجندة الخضراء ، بط وحمام وجبن وست فطائر كبيرة .. فطيرتان لى وكومار ولأخيه أوسكار وفطيره لصبى المقهى والثلاث الآخريات لأصدقاء المقهى ، ولكن كومار الآن أهم من المقهى .. ماذا يمنع أن « أطب » عليه فى منزله الجديد ومن هناك أصحبه إلى مقهى الريان ، عانقنى كومار وهو مرتد وزاره وحافى القدمين ، طلبت منه ارتداء ملابسه ، لقد عاد إلى لغته وكلامه غير المفهوم ، أخرج رزمة من الأوراق المالية ، ثلاثة آلاف ريال ، إيجار المنزل وجزء من عوائد المطعم ، على وعد بتقديم كشف حساب فى وقت لاحق ، المقهى مكتظ بالمصريين ، هللوا لرؤيتى وعودتى سالما ، أعطيت لصبى المقهى نصيبه من الفطائر وفرشت الفطائر الأخرى والجبن على مائدة .. هرع صبى المقهى لإحضار أكواب الماء وقضينا الليلة وعندما ظهر صاحب البيجاما الكستور استأذنت فى الانصراف .. فى الطريق لم يدل كومار بخبر واحد أو معلومة عما يحدث وحدث فى مخزن الأخشاب طوال غيابى .. سألته عن الشيخ .. سألته عن شانتى .. يهز رأسه بطريقته التقليدية اللعينة ، سألته لماذا لم يتصل بى طوال تلك الفترة .. هز رأسه مرة أخرى .. بمجرد دخولى المنزل دونت فى الأجندة الخضراء المبلغ الذى سلمنى إياه كومار وتاريخه .

أول يوم عمل .. مثل التلميذ العائد إلى مدرسته بعد إجازة طويلة ، أول من وصلت إلى المخزن ، بعدها بدقائق وصل الشيخ يوسف الحرمى ، استقبلنى بترحاب شديد .. أعرب عن افتقاده لى خلال الإجازة ، لقد عاد اللعب مرة أخرى فى مبيعات المخزن وشانتى لم تستطع ضبط الأعمال ، سعدت بهذه الشهادة وترددت فى إخباره عن استعدادى للعمل فى وزارة التعليم وموضوع نقل الكفالة ، إلا أننى فضلت أن أطلعه على أمورى قبل وصول شانتى وكومار .. تزوجت وسأعين فى وظيفة هنا ، إلا أننى سأعمل هنا بعد الظهر ، لم يعترض وافق على الفور ، إلا أنه سأل إذا كنت سأستقدم زوجتى ، الأمر متروك للظروف ، سألته عن المبلغ المطلوب لنقل الكفالة مثلما فعل معى غيث الكوارى ، غضب بشدة ونهرنى عن الحديث فى هذا الموضوع .

لا أعلم سر مغادرته للمكتب قبل وصول شانتى حتى الآن وكومار أخفى عنى الكثير من الأسرار .. انطلق الشيخ يوسف بسيارته ، ودعته أمام المخزن وقبل أن يغيب عن نظرى ، اقتربت سيارة مازدا حديثة بالقرب من بوابة المخزن ، حاولت أن أشير لها بالابتعاد ، فإذا بها شانتى ، نزلت وهللت لرؤيتى ، تفحصتنى من أسفل إلى أعلى .. حذاء لامع ، ذقنى حليقة جيدا ، شعر ممشط .. ما أحلى الوطن ومدت يدها بالسلام واصطحبتى إلى المكتب ، باللغة العربية نطقت زواج مبارك ، لقد أخبرها كومار بكل أسرارى ولم ينطق لى بكلمة واحدة عنها ، بعد الغوايش الذهبية .. سيارة حديثة ، عاد السؤال القديم للظهور فى مقدمة رأسى ، من تكون شانتى ، هل هى زوجة الشيخ أو رفيقته وبدأت فى إصدار التعليمات وهى فيما يبدو تعليمات الشيخ .. الحسابات مهمتك وسألجأ إلى كومار للترجمة ما لم تسعفك لغتك الإنجليزية .

استأذنت منها للذهاب إلى مبنى وزارة التربية والتعليم ، سألت عن صاحب الكارت .. استقبلنى وكأنه لم يقابلنى فى ميت شهالة لدى الأستاذ عبد النبى ، ذكرته بوعده بالتعاقد معى بمجرد وصولى الدوحة ، لم أستطع أن أذكره بما دفعته له ، أشار إلى حجرة المقابلة الخاصة بالعقود الداخلية ، يبدو أن الكل « فاهم اللعبة » .. أخرج الموظف القطرى عقدا من صورتين ، طلب التمهل بعض الوقت لكتابته على الآلة الكتابة وطلب جواز سفرى ، دقائق وأدخل العقد إلى الكبير مرة أخرى وقع عليه وختمه ، وتم تسليمى تحويلي إلى القومسيون الطبى لتوقيع الكشف وإبلاغهم بالنتيجة ، على أن أقوم بإحضار عدم ممانعة من كفيلى وبمجرد انتهاء الأوراق ، سأتسلم العمل كمحاسب فى المخازن المركزية للوزارة .

ما تم إنجازه فى هذا اليوم يحتاج شهورا مع موظفى مصر .. كشف أشعة ونظر وباطنة وتقرير طبى تم وضعه فى مظروف كبير ، مكتوب عليه لا يفتح إلا بمعرفة مسئولى وزارة التربية والتعليم .. عدت مرة أخرى إلى الوزارة ، سلمت المظروف ومنه إلى المخزن .. كومار يريد أن يعرف لماذا خرجت ، قررت أن احرمه من أية معلومات كما يفعل معى .. سألت عن شانتى ، حدثنى عن الحسابات .. سألته عن ابن الشيخ يوسف الملتحى .. وإذا كان قد عاد مجددا إلى المخزن ، قال أنه جاء فى غياب والده ذات مرة ، أحثه على أن يحكى .. يهز رأسه .. بعد إلحاح استكمل حديثه .. تشاجر مع شانتى والشيخ طلب منعه من دخول المخزن .

طلبت منه أن يأتينى ليلا أو أذهب أنا إليه لتسوية حسابات الإجازة ومعرفة قيمة العوائد .. تحدث على أن ما بيننا شراكة شفوية ، اتفقنا فى البداية على أن أقوم أنا بالتمويل ويقوم هو بالإدارة مقابل مائتى ريال ، هذه الشراكة لابد من تحويلها إلى عقد كتابى مدته لا تزيد عن خمس سنوات .. اسمعه .. إلا أنه طلب أن تكون الإدارة مقابل نسبة لا تقل عن ثلاثين فى المائة من صافى العوائد بعد خصم الضرائب وهو يعلم أن قطر لا ضرائب فيها .

فى المساء ذهبت إليه .. المنزل أقرب إلى دور السينما الهندية ، ناس تدخل وناس تخرج ، البعض يجلس على مقاعد خشبية فى صحن الدار ، أخشابها فيما يبدو مسروقة من مخزن الشيخ يوسف وآخرون يقفون ، حتى المطعم مكتظ برواده ، الدخول فى تفاصيل العوائد قد ينجم عنه مشاكل لا أريدها ، خاصة بعدما حصلت على فرصة العمل فى الوزارة والراتب ألفا وأربعمائة ريال والشيخ يوسف طلب منى الاستمرار معه بعد الظهر وهذا مبلغ إضافى والمنزل والمطعم عوائدهما قد تصل إلى ألف وخمسمائة ريال فى الشهر وهو مبلغ محترم ، بالإضافة إلى أرباح بيع الصوانى الألمونيوم .. خاصة بعدما نجح كومار فى تجنيد كل بلدياته الهنود لجمع الصوانى من جميع مساجد الدوحة ومكسب الصينية الواحدة يترواح من عشرة إلى خمسة عشر ريالا ولا نبيع فى اليوم أقل من عشرين صينية ، حوإلى مائتى ريال ، ندفع للبائع الهندى عشرة ريالات وندفع فى الصينية الواحدة ما يقرب من أربعة أو خمسة ريالات لحراس المساجد بجانب سكان منزلى من المصريين والهنود الذين يدفعون ستمائة ريال إيجارا شهريا .. بحسبة بسيطة .. دخلى الشهرى يقترب أو يزيد قليلا عن سبعة آلاف ريال أى ما يزيد عن ثمانين ألف ريال سنويا .

كان كومار فيما يبدو قد أعد العدة أثناء سفرى لتلوانة ، أخرج عقدا مكتوبا على الآلة الكاتبة من صورتين ، البند الواحد مكتوب باللغة الإنجليزية ثم العربية ، أخرج العقد ، وقد وقع عليه وأخوه أوسكار وضع إمضاءه تحت الشاهد الأول وطلب منى أن أوقع وأبحث عن مصرى آخر ليكون الشاهد الثانى ، موضحا أن هذا العقد لا يحتاج إلى توثيق أو خلافه ، فهو عقد عرفى بدلا من العقد الشفوى ، خاصة وأننا نعمل لدى كفلاء وغير مسموح لنا بالعمل لدى غيرهم أو العمل حتى لدى أنفسنا .

طراوة الصبحية تنعش البدن كما كان يقول محمد سعد فكة دائما .. جو الدوحة فى بداية الشتاء يتميز بلسعة برد محببة .. وقفت أمام باب المنزل أخذت نفسا عميقا وأفكر فى كيفية الذهاب إلى الوزارة ، هل أستقل سيارة أجرة أو أسير على قدمى ، المسافة حوالى نصف ساعة ، لا بأس فالجو بالفعل جميل والساعة تقترب من السادسة والنصف وبداية الدوام كما أخبرونى الساعة السابعة .. لا مارة فى الشوارع .. سيارات فقط والمشاة أو الواقفون فرد أو أكثر من الهنود فى الميادين ، يقذفون بالجرائد الصباحية فى السيارات عندما تهدىء من سرعتها .. لم يفتح بعد من المحلات سوى المطاعم ومجموعات من الصبية يحملون الحقائب المدرسية فى انتظار اتوبيسات الصباح .. أمل جديد .. وإذا استمر الحال كما حسبته فى عشر سنوات أو أكثر قليلا سأصبح ...... لاداعى فى الإفراط فى التفاؤل .. أسير فى الطريق أحسب العوائد كما يقول كومار وتداعبنى أحلام المال والعزوة كما كان يقول محمد سعد فكة وأتخيل أشجارا على جانبى الطريق لا وجود لها ، ربما يكون سحر تلوانة قد لصقت صوره فى عيونى .. الوزارة .. المخازن المركزية .. دلونى عليها .. الدور الثانى .. أول باب يمين .. المدير العام .

المحاسب الجديد ، عقد داخلى ، أجلسنى المدير بعد أن صافحنى ، سألنى إذا كنت أرغب فى شاى أو قهوة ، فعلى جانبى المكتب الضخم الكبير دورقان ، فى الغالب بهما الشاى والقهوة ، موضحا أن هذه أول وآخر مرة سأشرب شايا فى مكتبه وقهقه .. نظرت إليه غترة وعقال وجسد ضئيل نحيل ، أسمر أقرب الشبه بكومار ويافطة كبيرة تحمل اسمه سلمان المالكى وبخط أكبر وظيفته . تحدث عن ضرورة الالتزام بمواعيد الدوام ، لا تصاريح خروج ولا إجازات .. كل ما لى إجازة شهر كامل مدفوعة الأجر ، إلا أنها ليست فى الصيف ، فإجازات موظفى المخازن تبدأ قبل إجازات المدارس أو بعد بداية العام الدراسى ، فالصيف كله عمل لإعداد الاحتياجات وجرد المخازن وإجراء المناقصات وشراء المستلزمات وعلى من الآن تحديد موعد الإجازة .. الدراسة تنتهى فى منتصف يونيو وتبدأ فى منتصف سبتمبر ومن الممكن أن يتم تقديم أو تاخير الإجازة لمدة أسبوع على الأكثر .

أفهمنى أن عقدى لمدة سنتين ، الأولى اختبار وهو الذى يصدق على التقرير السرى الذى يكتبه رئيسى المباشر ، وهذا التقرير فى غاية الأهمية لتجديد العقد أو إنهائه ، مع كل جملة يطلق ضحكة أقرب للصرخة ولا أعلم لماذا يضحك ، فحديثه لا يثير ضحكا ، ، طالبنى بالالتزام فى العمل وإطاعة الرؤساء واحترامهم وعدم العمل فى أماكن آخرى بعد ساعات الدوام الرسمى فقد أصبحت موظفا فى حكومة قطر وتهكم على المصريين .. فهو يعرفهم جيدا ، لقد درس فى مصر ولا أحد فيها يكتفى بعمل واحد وللأسف لا يجيدون أى عمل ، حتى الطباخة التى كانت تعمل فى شقته المفروشة بالمهندسين ، كانت طباخة وعاهرة ولصة وتاجرة دولارات وكانت لا تجيد من هذه الأعمال سوى السرقة .. وقهقه ! .

بداية مثل طين تلوانة ، شديدة السواد ، من عنده انتقلت إلى قسم ، المشتريات والمناقصات رئيسه مصرى ، قدم نفسه وسألنى عن مسقط رأسى وكيف تعاقدت مع الوزارة وما هي الواسطة التى عجلت بالتعاقد معى قبل غيرى وأشار لى إلى مكتب شاغر لأجلس عليه وألقى بتعليمات .. الدوام على فترتين من السابعة صباحا حتى الثانية عشرة ظهرا ومن الرابعة عصرا حتى السابعة وهناك توقيعات للحضور والانصراف ومدد التأخير يتم جمعها فى نهاية الشهر وخصمها من الراتب وفى حالة تكرار التأخير هناك أمور أخرى .

المكان مريح للغاية ، ستة مكاتب ومكتب رئيس القسم فى المنتصف ، لا ذرة تراب على المكاتب أو على زجاج النوافذ ، الأرضية تلمع والناس كذلك من وقت لآخر يمر عامل يحمل دلة شاى ، يصب لمن يطلب .. المقارنة ظالمة .. تراب وقذارة مكتب تموين الباجور لهما مذاق خاص استشعرته على طرف لسانى عندما ذهبت رأسى بعيدا .. الموظفون لا أحد يكلم زميله ، على كل مكتب تليفون ، الستة بينهم فيما يبدو مصريان اثنان ، عيونهما من وقت لآخر تلامس عيونى ، يهزون رأسيهما ترحيبا بى وعلى شفاههما ابتسامة لا تختلف كثيرا عن ابتسامات الموظفين فى مصر ، لم أفعل شيئا خلال الدوام الأول ، أخذت سيارة أجرة إلى مخزن الشيخ يوسف وقبل الرابعة استوقفت سيارة نصف نقل لتحملنى إلى الوزارة ، التاكسى تكلفته ثلاثة ريالات والسيارة أجرتها ريال واحد ، كومة من الملفات وضعت على مكتبى بين انصرافى وحضورى وبدأ رئيس القسم يشرح لى عملى الجديد .

الوزارة تعلن فى الصحف السيارة عن احتياجاتها من القرطاسية والأدوات المكتبية وتأتى العروض بالأسعار ونختار الأجود والأرخص ، لا يأتى لنا أقل من خمسة عروض ، دائما نختار منها ثلاثة ، الاختيار من مهام وظيفتى ويتم عرضه على رئيس القسم ليرفعه بدوره إلى المدير العام واستكمالا للوظيفة على حضور عمليات التوريد والاستلام إلى أن تدخل البضائع المخازن ، عمل مكتبى بسيط ، إلا أنه محاط بأشياء كثيرة أوضحها لى أحد المصريين العاملين بالقسم ، جاءنى إلى مقهى الريان ليلة الخميس وحكى لى الكثير من أسرار العمل ، العروض كلها تأتى من مكتبات مدير عام الإدارة ، فهو لديه عدة محلات ضخمة فى مناطق مختلفة فى الدوحة ولا أحد غيره يدخل مثل هذه المناقصات وعلينا تمرير ما يطلبه ، يصدر تعليماته لرئيس القسم وينقلها إلى مرؤوسيه ، هناك أصناف راكدة لابد من تحريكها وهناك أشياء تالفة يتم توريدها ، يجب عدم التوقف عندها أو إثارة المشاكل ، عالم الموظفين الكبار فى الدوحة لا يختلف عنه فى العواصم العربية الأخرى .. الوظيفة مجرد ديكور ، أبهة .. والتربح من ورائها هو الأهم ! .

من الوزارة للمخزن ثم العودة للوزارة ، ثم البيت والمقهى ومتابعة أعمال كومار ، أقصد أعمالى واستلام العوائد وتدوينها فى الأجندة الخضراء هى حياتى ، الجديد أننى أصبحت أتحدث تليفونيا كل أسبوع لتلوانة .. مصاريف زائدة ولكن مكالمة واحدة مدتها لا تزيد عن ثلاث دقائق تقتسمها أمى مع فاطمة ، تسألنى أمى عن صحتى وتسألنى زوجتى عن موعد عودتى وإجازتى وإذا كنت سآخذها معى للدوحة المرة القادمة والإجابات كلها تسويف وما لم يستكمل فى التليفون ترسله فاطمة فى خطاباتها والتى تسير كلها على وتيرة واحدة وهى تألمها لانتهاء الإجازة سريعا بعد فترة زواج قصيرة وتدعو فى النهاية بجمع الشمل .

خطابات الشيخ على ماضى تدور كلها حول مشروعات وهمية سمع عنها فى قرى مجاورة ويؤكد أن هذه المشروعات تدر أرباحا « بالهبل » على أصحابها ويحكى لى عن أخبار القرية ويشكو لى من عمى الذى تحول إلى صلاح عجورة جديد ، يجلس أمام محله وينهش فى سير وأعراض الناس ولم يتعلم الدرس ولم يسأل نفسه أين ذهب صلاح عجورة وولده محمود زيرو 48 منوفية فرز أول عيال نقاوة ؟! .. رسائل الشيخ هى النافذة التى أطل منها على تلوانة وأتنفس نسيمها وأسير فى حواريها وأسمع أحاديث وشائعات أهلها ، لو جاءنى أكثر من خطاب من تلوانة ، أبدأ دوما بخطاب الشيخ ، فهى أخف الرسائل لاتحمل هموما ولا تحملنى هموما .

فى المكتب لا علاقة لى بأحد ، أتلقى التعليمات من رئيسى وأنفذها ، فأنا لست بحاجة إلى أصدقاء ، يكفينى المقهى ورواده وكومار وبلدياته وضربت حول نفسى سياجا ، لا أحد يعلم أين أقيم على وجه التحديد والنجمة منطقة واسعة . حاول أحد زملاء المكتب أن يزورنى فى بيتى ، تعللت أنه غير مناسب لاستقبال زوار ، فهو منزل « عزاب » .. أما عملى فى مخزن الشيخ يوسف الحرمى ، فهو ما زال فى طى الكتمان ، لا أحد يعلم عنه شيئا ، رغم أن هناك زميلا سخيفا ، حاول استدراجى بأن العديد من الموظفين المقيمين وحدهم دون أسرهم يستغلون وقتهم بالعمل فى مكان آخر بعد الدوام الحكومى ، طلبت منه إن وجد عملا يناسبنى أن يبلغنى مما دفعه فى النهاية إلى تخفيض التمثيل الإنسانى بيننا إلى حده الأدنى ، التحية والسلام .

الشهور تمر أكثر سرعة عما عهدتها رغم أن مذاق هذه السفرية يختلف عن المرة الأولى ، لقد تركت زوجة ورائى ، اشتاق إليها وأحن إلى احتضانها ولمسها .. تأتينى فى المنام وكأنها حددت لنفسها موعدا ، مرة فى الأسبوع وعوائد كومار و مبيعات الصوانى إلا أنه يحتجز جزءا منها لتمويل إكراميات حراس المساجد وقد أصبح هذا العمل يمول نفسه كما يقول كومار ذاتيا ، إلا فى تذبذب العوائد بين الصعود والهبوط دون أسباب واضحة ، وكل ما أخشاه أن ينهار مشروعى الدولى مع كومار

.. تجرأت ذات يوم وسألته ، إجاباته حاضرة ، فسكان المنزل من الهنود بعضهم يبيت ليلة واحدة أو أسبوع ، وينصرف ويأتى غيرهم وهو لا يحصل إلا على الثلاثين فى المائة مقابل الإدارة كما ينص العقد الذى احتفظ بصورة منه وكشر لى عن أنياب النمور التى يحمد الله على أنه لم يخلقها بأجنحة وأبدى غضبا شديدا لتشككى فى ذمته وحدثنى عن الهنود وأمانتهم وتاريخهم وحضارتهم مثل الذين يتحدثون عندنا عن حضارة السبعة آلاف سنة .. طيبت خاطره ، وعاد لصفائه فى لحظة .

الخميس ، موعد المقهى والمكالمة التليفونية ، من السنترال فى مشيرب إلى شارع الريان بعد المحادثة أنتابى شعور غريب جديد ، يتجاوز حسابات الوزارة وعوائد كومار ، لقد أخبرتنى فاطمة بحملها أنها فى شهرها الرابع أو الخامس لم ترغب فى إبلاغى و « أمنت » أمى ألا تبلغنى وتسألنى إذا كنت سأنزل مصر أو أتركها وحدها تضع طفلى وطفلها ، بدأت أعد على أصابعى ما بقى من شهور الحمل ، قد تضع المولود فى نهاية مايو تسعة شهور بالكمال والتمام على زفافنا ولا يمكن بأى حال القيام بإجازة ، فأنا لم أمض سنة على العمل فى الوزارة كما أن أول تعليمات المدير أن إجازات المخازن المركزية محددة سلفا .. دخلت المقهى ، « الرفاق » جالسون ، كلمة كومار وعلى لسان الخليجيين الهندى رفيق والإنجليزى والأمريكى صديق والعربى غريب ، جلست بينهم لم أنطق بكلمة واحدة ، سألونى إذا كنت طبيعيا هذه الليلة أو أشعر بإرهاق ، طمأنتهم وجاء موعد انصرافى ، دخل الرجل صاحب البيجاما الكستور والتى لم تتغير طوال السنوات الثلاث ، أحضر له صبى القهوة الشيشة ودفعت الحساب وانصرفت .

19

شانتى تبدو لى لغزا كبيرا لا أستطيع فهمه ، أحيانا ودودة فى غاية الرقـة وفى أغلب الأحيان صارمة جادة ، بعد زواجى وتركى لفاطمة وعودتى للدوحة أصبحت أشتهى ما لم أكن اشتهيه قبل الزفاف ، كنـت لا أفكـر فى النسـاء ، تزورنى أطيافهن فى الأحلام وينتهى الأمر مع ظهور الصباح .. الآن الوضع اختلف ، تسيطر على أفكار غريبة فى الظهر والعصرية وأشعر أن شانتى التى تحسست ساريها ذات حلم ومررت كفى تحته وفوقه بـدأت تحتـل حيـزا من تفكيرى غير السوى وتتجول فى ثنايا جسدى .. فأنا متزوج وهى امـرأة نموذج للجمال الهندى وقد تكون زوجة أيضا للشيخ يوسـف الحرمـى أو غيره ، إلا أن كومار لا يصارحنى أبدا بموقفها وكأنها سر قومى يحافظ عليه ، الغريب أنها لا تقترب منى ودا أو لطفا أو حتى مداعبة بريئة ، إلا فى حالـة غياب كومار أو خلال ساعة قيلولته داخل المخزن .

بعد الظهر مباشرة عندما تقل الحركة داخل المخزن ، يستلقى كـل عامـل على لوح خشبى فى ركن من أركان المخزن البعيـدة تحـت المـراوح لمـدة ساعة أو ساعتين ، وبعد الظهر مباشرة يـأتى عامـل الموتوسـيكل الهنـدى بغداء شانتى .. نادت على .. أغلقت باب مكتـب الشـيخ يوسـف ، طلبـت منى أن أشاركها غداءها . طعام هندى حريف ، فى البداية رفضـت إلا أنهـا أصرت ، فهى تعلم كما قالت أننى آتى مباشرة من الوزارة إلى المخـزن ثـم أعود إلى الوزارة قبل الرابعة ولا أتناول وجبتى الرئيسية إلا مساء .

هذه المعلومات لا يسربها إلا كومار اللعين .. جلسنا فى مواجهة بعضنا ، فكت الجزء العلوى من السارى بعض الشئ استعدادا لتناول الطعام .. سألتنى عن زوجتى فى مصر وهل هى جميلة وهل احتفظ بصورة لها ؟ .. تسأل وتأكل وتتلذذ بمشاهدتى ، تقاطيع وجهى عندما تلسعنى التوابل أو البهارات الموجودة فى الطعام وأعض على شفتى أو أمسح بلسانى شفتى العليا ، تسألنى كيف أقضى وقتى دون امرأة بعد أن جربت الزواج .. اخشى أن أسألها عن علاقتها بالشيخ وهل هى زوجة له أو غير ذلك ، أهز رأسى أحيانا مثل الهنود وأتحدث أحيانا بما يفتح به الله على من كلمات إنجليزية وهندية ، لقد أصبحت أفهم الإنجليزى الهندى تماما أما الحديث فما زالت تعوزنى الطلاقة ، حدثتنى عن ارتباط المسلم بأكثر من امرأة وعن إمكانية الزواج هنا ، وأن تكون لى زوجة أخرى فى مصر ، تسير إلى هدفها وتنظر فى عينى والمثلث المقلوب بين ذقنى وصدرى وكأنها تعلم أنها احتلت مكان فاطمة الحلوة على سرير أحلامى ، وتنتظر أن أقول .. آه .. بالهندية أو الإنجليزية أو العربية .

لملمت بقايا الطعام والأوراق المعدنية التى غلفت بها الوجبة وفتحت ثلاجة الشيخ ، أخرجت زجاجة مياه معدنية وغمزت لى بعينها مثلما يفعل كومار تماما ، غمزت غمزة أخرى وطلبت منى أن أفكر جيدا فيما قالته لى .. من المخزن إلى الوزارة سيرا على الاقدام ، فالجو ما زال يطاق والسير بجانب البنايات يجنبنى سهام شمس الدوحة الحارقة .. أفكر فى كلام شانتى ، الحياة بدون امرأة بعد التعود على الحياة الزوجية يطيل الليالى ويقصف العمر كما يقول الشيخ على ماضى بعد أن طلق زوجته الأولى .. مضت ساعات الدوام الثانى بطيئة كئيبة وقد انشغل المصريان زميلاى بالمكتب بالحديث عن خطابات « التفنيش » ، إنهاء الخدمة والتى تصل فى نهاية شهر أبريل أو مايو على الأكثر ، يتحدثان عن التفنيش وعيناى عليهما وأذناى معهما إلا أن بقية جسدى مع شانتى ، مع حديثها ومع غمزة عينها ومع قوامها الهندى النموذجى ، تعبير أستعيره أحيانا من كومار ، أغوص فى أحلام اليقظة لا أحلام المساء ، والمصريان ما يزالان فى حديثهما عن إنهاء الخدمة وكأنه نهاية المطاف فى العالم .

انسياب الخطابات القادمة من مصر يعانى من مشاكل فأكتر من عشرة أيام لم تصلنى خطابات من تلوانة ، استعيض عنها بقراءة الخطابات القديمة ، خاصة خطابات الشيخ على ماضى ، أمد يدى فى صندوق البريد الذى وضعه كومار أمام منزلى ، عندما كان يقيم معى وكتب عليه بالإنجليزية فكة ـ كومار كومبنى ، ولا أجد فيها رسائل ، التليفونات مرة واحدة فى الأسبوع ، ولا أحاول أن استمرئ الاتصال أو استسهله ، فهناك مصريون يقولون إن كيوتل وهى شركة التليفونات القطرية تتسلم نصف مرتباتهم شهريا ، الاقتصاد واجب ، لم أستطع أن أنام ليلتى ، ارتديت ملابسى وخرجت إلى مركز الاتصالات ، فى مشيرب ، على غير العادة ، مكالمة فى منتصف الأسبوع ، أمى ترد ، وتصرخ على فاطمة وتناولها التليفون ، لقد عادت فاطمة لتوها من الباجور كانت عند الطبيب لتتابع الحمل ، سلامات وأشواق وسؤال عن موعد حضورى مصر ، وسلام .

قلق من نوع جديد على فاطمة وما فى رحمها وقلق آخر على مصاريف الأطباء وارتفاع أجورهم ، خاصة وإن كان الطبيب من مشاهير مراكز بحرى أو استشارى أو أستاذ بالجامعة وسؤال آخر كيف تذهب فاطمة بنت نبوية الداية إلى طبيب نساء وتوليد وأمها تكرههم وتثير حولهم الشائعات وتتهمهم بالتقصير والإهمال وعدم الخبرة ، وأنهم السبب فى عيوب الأطفال الخلقية ، فالطبيب يخلع كتف الوليد أو يصيبه بشلل الأطفال عند جذبه من قدمه وغيره من حواديتها التى لا أنساها .. نبوية الداية تذهب بصحبة ابنتها إلى الطبيب لعل هناك مشاكل أو أن زوج الهانم فى الخليج وعليه أن يدفع دم قلبه ، « بلوة سودة » .. فقد تطلب نبوية الداية أن تضع ابنتها حملها فى إحدى المستشفيات أو تصحبها إلى القاهرة وقد يضيع فى ذلك أجر شهر كامل ، راتب ثلاثين يوما فى قيظ الدوحة .

الأسابيع تلتهم الأيام والشهور تبتلعهم معا ، فاطمة أمامها أيام وتضع طفلها ، وخطاب جديد يصلنى من الشيخ على ماضى يشكو فيه من عمى ويصفه بعد الاعتذار « بالناقص » ، لم أفهم الخلاف الجديد بينه وبين عمى ، إلا أنه يؤكد أن « جدر صلاح عجورة نبت فى عمى » .. وبدأ فى مهاجمة عمي فى الجامع وفى الغيط ، خطابه هذه المرة يخلو من القفشات والأخبار والحديث عن المشروعات ، وإن كان قد ذكر لى أن ثمن تجريف القيراط الواحد قد ارتفع فى تلوانة إلى خمسمائة جنيه وأن هناك أناسا يشترون الأرض ممن يجرفونها بشدة ولأعماق تصل إلى متر أحيانا ويعيدون بيعها بتراب الفلوس .

أصبح مذاق الحياة فى الدوحة مثل توابل شانتى ، لذيذة وحريفة ، الوزارة والمخزن والمقهى والبيت وعوائد كومار والأجندة الخضراء وصاحب البيجاما الكستور وانتظار المولود وخطابات على ماضى . أصبح هناك ما يشغلنى فى كل مكان وكل وقت وعندما أحتاج لحضن دافئ ألجأ لشانتى فى يقظتى ومنامى إلا أننى لم أتوقع جرأتها .. دقات على باب حجرتى فى التاسعة ليلا .. فتحت الباب لأجد شانتى بشحمها ولحمها أمامى ، كانت تمر بخاطرى قبل وصولها بلحظات ، لم تلق التحية وسط الحجرة ، انعقد لسانى ، فكل ما ارتديه على جسدى « وزار » ، اشتراه لى كومار ، تركتها ، نظرت إلى ساحة المنزل، إلى الحجرتين المؤجرتين إحداهما لهنود والأخرى لمصريين ، أعلم أنهم لا يأتون إلا عند منتصف الليل ، لكننى أخشى أن يكون أحد رأها ، وهى تدخل إلى ، عدت إليها مسرعا وتركت الباب مواربا ، طلبت غلقه ، وتقدمت وبعدها أغلقته ، الجو ليس حارا إلا أن ينابيع العرق انفجرت فى كل أنحاء جسدى .

شكرت فى ذوقى وفى الحجرة وبساطتها ، سرير يسع فردا واحدا ، ودولاب كان كومار قد تركه ، وسجادة صغيرة ومكتب ومقعد واحد وبعض الصور المعلقة ، على الحائط لنجوم سينما هنود منهم ، نجمة كان كومار يعشقها ، ولا ينام إلا بعد أن يطبع قبلة على جبهتها ، جلست على طرف السرير وجلست أنا على المقعد ، أجمع أطراف الوزار على لأخفى سيقانى ، ورعشتى ، كيف عرفت المنزل ولماذا جاءت ؟ ، أشارت لصورة النجمة الهندية المعلقة على الحائط وعلقت على حظى الجميل لنومى معها كل ليلة ، سألتنى : إذا كنت أفهم مدلول العلامات المطبوعة على جبهات الهنديات ، العلامة اسمها بيندنى ، تضعها المتزوجة فقط ، وأشارت إلى جبهتها التى لا توجد عليها علامة ، غير المتزوجات لا يضعن بيندى ، زادت رعشتى ، نهضت لأستخرج من الثلاجة تفاحتين وثلاثة أصابع من الموز ظلوا فيها لمدة شهر ، طلبت منى أن أجلس واسمعها ! .

ماذا أسمع ؟ .. لقد أصابنى مجيئها بحالة من الاستنفار لم تحدث فى حياتى إلا بعد أن أغلق على الباب أنا وفاطمة ليلة زفافنا ، آخرجت على عجل زجاجة كولا من الثلاجة ، إلا أننى أمسكتها أطول فترة بكلتا يدى لأبرد حرارة جسدى أول مرة أشاهدها بدون السارى ، بنطلون جينز ليس بضيق إلا أنه يزيدها إثارة ، وقميص قطنى شفاف ليس تحته حمالة صدر .. نارى زادت اشتعالا عندما أخبرتنى أنها ليست زوجة للشيخ يوسف الحرمى .. كما أنها أيضا ليست عشيقته ، فقد جاءت لتعمل لديه مدير عام أو مديرة أعماله .. تدير مشروعاته وأملاكه ، فالشيخ متزوج بالفعل فى الهند ، لكنه زوج شقيقتها الكبرى ولديه منها شابان يدرسان فى إنجلترا ، وسيأتيان للدوحة بعد إنهاء دراستهما ، هدأت بعض الشئ ، سألتنى عما إذا كنت فكرت فيما قالته لى وأن اتخذ فى الدوحة زوجة لى بجانب زوجتى المصرية إذا كان هناك صعوبة فى استقدامها .. تمنيت أن تكون قد جاءت لهذا الطلب ، خاصة بعدما أعادت على مسامعى ثقة الشيخ الشديدة بى وبأمانتى ، وأنه يثق فى أكثر من كومار .

ذهبت رأسى بعيدا وعادت سريعا ، فهى لديها لى عروس ، لن تكلفنى شيئا فالهنديات الأناث هن اللاتى يقدمن المهور والعروس تناسبنى من حيث الحجم والسن ، وتعمل فى مستشفى حمد ولا تستطيع أن تستمر بدون رجل ، وتدينها يمنعها عن الخروج من الإطار .. بردت كل شراايينى وأوردتى وهدأت دقات قلبى ولهاثى .. شانتى تأتى لى لتعرض على عروسا ، شانتى التى كنت أظن فيها الظنون ليست زوجة للشيخ ولا عشيقته ، شانتى خاطبة مثل اللاتى ينتشرن فى قرانا وكفورنا وتريد أن تزوج صديقتها ، والأهم أنها جاءت لتبرئ نفسها بما حاول أن يتهمها به ابن الشيخ الملتحى ! .. رغبت فى احتضانها ، فى تقبيلها ، نهضت .. احتضنتنى هى وغادرت الحجرة .. لم أخط خطوة واحدة خارج الباب خشية أن يرانى أو يراها أحد وغادرت الحجرة وزادت ليلتى كآبة وزادت طولا .

الشيخ يوسف الحرمى يدخرنى لشىء ما قد لا يفصح عنه إلا فى موعده ، فقد عهدته قليل الكلام لا يعرف إلا لغة الأرقام ، جامد الوجه وإن كان عليه طيبة ، بين الـوزارة والمخـزن ورسائل تلوانة وتليفونات مشيرب ومقهى الريان أعيش أيامى وأقضـى لـيلى .. فى الـوزارة وجدت على مكتبى كومة من الأوراق والأدوات المكتبية المتنوعة وأمرنى رئيسى المباشر أن أضع توقيعى بالموافقة والعرض على قائمة طويلة من الاحتياجات ، سيوقع هو بـدوره عليها ويعرضها على مدير عام المخازن ، إجراءات بيروقراطية ، مثل التـى تطبـق فى مصـر تماما إلا أنها أسرع بكثير ، ليس هناك لجان بت أو غير ذلك ، المـدير العـام هـو الكـل فى الكل إلا أنـه يحصـن نفسـه وظيفيـا وإداريـا بتوقيعـات وموافقـات مرؤسـيه مـن صـغار الموظفين ، وفى النهاية تأتى التوريدات من محلاته المنتشرة فى الدوحة ! .

فى المخزن انهارت الأسقف والحواجز ، بينى وبين شـانتى ، تعـاملى معهـا لم يعـد يغلفـه خوف ، ونظراتى إليها لم تعد تحركها شهوة أو اشتهاء وكانـت زيارتهـا لى فى منـزلى فتحـا لم أدرك نتائجه ولم ألم بدوافعه ، كانت تدعونى للغداء معها كل يوم إلا أننى كنت أتهـرب فأنـا لا أستطيع دعوتها فى المقابل ، وإذا دعوتها فإن هناك تأثيرا سـلبيا عـلى المـدخرات وأعـلى معدلات الإدخار كما يقول كومار هو خفض النفقات إلى نقطة الصفر ، كنت أشترى بعض الفطائر أو السمبوسة بعد خروجى من الوزارة وإذا دعتنى شانتى أتحجج بأن غدائى معـى وأشكرها وأجلس مع كومار الذى أخذت ثقتى فيه تتآكل ، خاصة وأن شانتى لم تفصح عن سبب ثقة الشيخ فى وعدم ثقته فى كومار ، حديثى معه أصبح قليلا وعوائد المنزل والمطعم أصبحت أيضا قليلة وعندما أساله عـن سـبب انخفـاض العوائـد ، يطلـب منـى أن أزوره وأطلع بنفسى على الحسابات .

كانت نظرات كومار لى تنم عن معرفته الكاملة لزيارة شانتى ويبدو أنه يعلم تمام العلم ما دار بيننا وبالتفاصيل ويستشعر أن هناك خطرا قادما لا محالة وأن الشيخ قد يستغنى عن خدماته أو على الأقل سيفقد موقعه المقرب منه ، إلا أنه لا يفصح عما يدور فى صدره ولا يستطيع أحد أن يستشف من عينيه أو انفعالاته ما يكشف موقفه ويبدو أن علاقتنا معا تحولت إلى نوع من الإرغام ، هو مرغم على إبقاء هذه العلاقة وأنا مرغم على الاستمرار فيها ، فالجزء الأعظم من العوائد المدونة فى الأجندة الخضراء تأتى عن طريق كومار .. وظيفتى الجديدة فى الوزارة وضعت قيودا على حركتى وتحركاتى ولكن ما بينى وبينه أفضل كثيرا مما أسمعه عن حكاوى المصريين سواء فى المقهى أو الوزارة وخلافاتهم على أتفه الأشياء وعمليات الوشاية والتجسس التى يقومون بها ضد بعضهم البعض .

رسائل تلوانة ليس بها جديد ، سوى طلب للشيخ على ماضى بإحضار مروحة ستاند ملونة وحدد ماركتها توشيبا موضحا أن ثمنها فى الحفظ والصون وقد وضعه جانبا فى محفظته الجلدية التى يدعى أنها من جلد تمساح سودانى صغير وكأنه يعرف التمساح قبل صيده وسلخه ، رسائل تلوانة أصبحت مكررة ليس بها جديد لكن الأجد هو رسالة عمى والذى لم يرسل لى خطابا منذ وصولى إلى هنا ، يطلب فيها الإسراع فى قضية الفرز والتجنيب الخاصة بالأرض ويتهم محامى عطية بالتلاعب وتأخير إصدار الحكم فيها وانتقال الخبير لرفع مساحة الأرض ويخبرنى أنه فى انتظار التجنيب ليعرف حدود أرضه ويقوم بتجريفها مثلما فعل الآخرون حتى يوفر بعض السيولة المالية اللازمة لتطوير محله وشراء بضائع جديدة ، خاصة أنه ينوى بيع أجهزة كهربائية بالتقسيط لأهل القرية ويسأل عن إمكانية شراء بعضها من الدوحة وإرسالها له ، خاصة وأنهم يقولون إن المراوح الكهربائية والراديوهات والتليفزيونات أسعارها رخيصة فى الدوحة لقد اشترك مع الشيخ على ماضى فى الحديث عن المراوح ويبدو أن الشيخ يرغب فى اقتناء مروحة قبل أن يدخل عمى هذه الأجهزة لتلوانة .

في سنترال مشيرب خرجت من الكابينة أقبل كل من أقابله واحتضنه من العاملين في السنترال ، لقد طلبت مكالمة مفتوحة ، لم أحددها مثل كل مرة بثلاث دقائق ، فأنا أعلم أن فاطمة على وشك الوضع وكانوا قد أخبروني في المكالمة السابقة أن أمامها ثلاثة أو أربعة أيام ، لقد وضعت فاطمة الحلوة توأمين من الذكور ، باركت لي أمي وهناء أختي وتحدثت مع فاطمة لما يزيد عن أربع دقائق وسألت أين وضعت .. في دارنا أو دار أمها .. وهل الأولاد يشبهونني أو يشبهون أمهم ، كانت فاطمة في غاية السعادة إلا أنها كانت تتمنى أن أكون بجانبها في المستشفى ، الكلمة الأخيرة أزعجتني ، فهذا يعني مصاريف أكثر ، إلا أنني مررت عليها سريعا حتى لا أفسد فرحتها وفرحتي .

بدأت أقترح اسماء للطفلين .. يوسف اسم جميل واستبعدت اسم كومار حتى لا ينطقه أهل تلوانة حمار وفاطمة تستمع ، لم تعلق ، في النهاية أخبرتني أن أمي اختارت الأسماء ، سويلم على اسم أبيها وخميس على اسم أخيها وهي التي اختارت من قبل أسماء أولاد هناء أختي ، اختارت سعد وقنوع ويبدو أنها تقلد الملوك والأمراء ، تريد سعد الأول وسويلم الثاني ، حاولت أن أخفف عن فاطمة ، فهي كانت ترغب فيما يبدو في أسماء أخرى ، أخبرتها أن الأسماء تكتب في السماء قبل ولادة الأطفال وسويلم اسم جميل وخميس اسم أجمل ، لقد مارست أمي مع هناء ومعي ما لم تستطع ممارسته مع عطية ، لقد ولد أولاده جميعا في الكويت وأطلقت عليهم رضوى أسماء فلسطينية كانت مثار غضب أمي وسخطها وها هي قد أطلقت على أبنائنا الذين ولدوا في تلوانة أسماء أهل تلوانة ولو كان أبي حيا لاختار الأسماء نفسها، فهو كان يحب جدي سويلم ويحترم خالي خميس الذي تعلم في بلاد بره وحصل على شهادته وكان فخرا لبني العرب وما حولها .

طلبت منهم قبل إنهاء المكالمة أن يغرسوا نخلتين لسويلم وخميس بجانب نخيل أبناء عطية في الغيط وأن يعهدوا بذلك للشيخ علي ماضي فهو لن يتأخر وسألت فاطمة ماذا تريد أن أشترى لها من الدوحة وما ترغب في إحضاره معي للأطفال ، طلبت سلامتي وسألت عن موعد نزولي ، أقسمت لها أنني أتمنى أن أطير إليهم الآن إلا أن ظروف العمل الجديد لن تسمح بقيامي بإجازة إلا بعد إتمام سنة كاملة من العمل وموعدنا في شهر اكتوبر أو نوفمبر ، طلبت منها أن تقبل لي سويلم وخميس وسألتها إذا كان هناك علامات مميزة تفرقهم عن بعض ، ضحكت وأنهينا المكالمة .

لم تزرنى شانتى فى منامى ولم تأتنى فاطمة .. الليلة كلها قضيتها فى حلم جميل ، نائم وحول وسطى « وزار » كومار وعلى يمينى خميس وعلى يسارى سويلم .. أخشى أن أتقلب أو أضغط على احدهما ، لقد ميزت فى الحلم خميس عن سويلم ، الأول عيناه جميلتان واسعتان وشفته مكتنزة مثل شفة فاطمة السفلى وسويلم أنفه أكبر مثل أنفى وجبهته أعرض .. الطفلان يصعدان على صدرى ، لم أشعر بثقل وزنهما ، يتشاجران ، يحاولان جذب « الوزار » تحولت حجرتى الهادئة إلى فصل مدرسة ، صياح وصوت عال ، حاول خميس أن ينزع صورة الممثلة الهندية المعلقة فوق الحائط ، صرخت فيه ، أنكمش فى مكانه وسخر منه سويلم .

فى الصباح وبعد وصولى مكتبى ، أعطيت الساعى عشرين ريالا طلبت منه أن يشترى لى علبة حلوى ، فتحتها ومررت على زملائى فى المكتب ، أخبرتهم بأننى رزقت بطفلين أمس .. قالوا إن الأمر يستحق وليمة ، دخلت على رئيسى أقدم له الحلوى ، هنأنى وأكد ضرورة إقامة وليمة فى الظهيرة ، اشتريت علبة مماثلة ، فتحتها أمام شانتى ومددت يدى لها ، سألتنى عن المناسبة ، هلل عمال المخزن ، كانت فرحة كومار لا توصف إلا أن الكل طلب وليمة ، فالحلوى والشيوكولاته لا تنفع فى مثل هذه المناسبات ، أحصيت عدد الزملاء الذين يمكن دعوتهم بالإضافة إلى رفاق المقهى ، ليسوا بأقل من خمسة عشر فردا .

أبدى كومار استعداده لإعداد الوليمة وتوصيلها إلى منزلى ، على أن يحضر أيضا الطاولات والمقاعد وأن يقوم مطعمه ـ مطعمنا ـ بإعداد الوليمة وتخصم تكاليفها من العوائد .. ما يقرب من أحد عشر شخصا ، بينهم الشيخ يوسف الحرمى جاءوا بعد صلاة الجمعة .. خروفان كاملان وأرز بالصنوبر ودجاج محمر وبعد انصرافهم قدم لى كومار الحساب ، أربعمائة وستين ريالا سعر التكلفة فقط وقد نقل هو المقاعد والطاولات والطعام من المطعم إلى منزلى على حسابه الشخصى كهدية لأميس وسوليام ، يقصد خميس وسويلم ! .

20

« الخير على قدوم الواردين » .. لقد رفع الشيخ يوسف الحرمى راتبى مائتى ريال مرة واحدة وأعطانى منحة خمسمائة ريال بمناسبة الأولاد وطلب منى أن أفكر جيدا فى ترك العمل بوزارة التربية والتعليم والعودة مرة أخرى للعمل فى المخزن طوال اليوم ، على أن يحاول تسوية وضعى ويبحث لى عن شقة ويمنحنى بدل سكن ويساعدنى على استقدام زوجتى وأولادى .. لم أر الدوحة فى جمال مثل هذا اليوم ، حتى النخيل البصراوى القصير المزروع على جانبى الطرق رأيته اعلى وأطول .. ورغم الرطوبة العالية إلا أننى لم أشعر باختناق ولم تضايقنى لزوجة العرق .

الأيام القادمة أبهى وكل أحلام محمد سعد فكة بشيء من الصبر والتحمل ستتحقق ، سأعود فى النهاية إلى تلوانة سالما غانما ، سأدخر كل ما أستطيع ادخاره ، سأحوله إلى أصول ثابتة قابلة للتسييل بسهولة كما يقول كومار .. أفكر فيما مضى ولا أغرق فيه ، أطل على المستقبل بجماله وروعته ، عدة فدادين فى البلد ، منزل كبير مثل عمارة الأستاذ عبد النبى فى ميت شهالة وأربع أو خمس عيال يكبرون حولى وأكبر وسطهم وأعود إلى وظيفتى فى مديرية التموين بالباجور ، أقضى فيها عدة ساعات ثم أعود لتلوانة ، لن أركب الميكروباص ، سأشترى سيارة صغيرة .. لا .. كبيرة .. كى تسع الأولاد وأمهم وأمى إذا أخذتهم لزيارة أخوالى فى بى العرب أو ذهبنا إلى فاطمة وعبد الله فى بير شمس .

كم سأقضى من السنوات هنا ، الأفضل ألا أفكر فى المدة وأتركها مفتوحة ، كنت أخطط لعدم النزول هذا العام وأحاول البحث عن

حجج وأسباب تقنع فاطمة أولا وأمى ثانيا ، إلا أن الأوضاع اختلفت ، فلابد من النزول لرؤية سويلم وخميس ، ولابد أن أشترى هدايا لهما ولعب أطفال مثل التى كان يحضرها أخى عطية لأولاده ويلعبون بها أمام الدار ، سأشترى لهما دراجة يلعبون بها سويا ، قد تكون غالية الثمن إلا أنها لعبة لا تناسب عمرهما الآن ، سأشترى لهما لعبا صغيرة ، قدماى تسوقانى إلى ما أفكر فيه وتتوقف أمام محل للعب الأطفال ، هذا القطار بقضبان يتم فكها وتركيبها ، ثمنه معقول خمسة وثلاثون ريالا ، القطار يعمل بالبطاريات الجافة ، مصاريف أخرى إضافية ، كل ألعاب الأطفال للأسف تعمل بالبطاريات ، هذا قرد يضرب على الطبلة ويهز رأسه يمينا ويسارا .. ثمنه لا يزيد عن خمسة وعشرين ريالا ، بعد مفاوضات مع البائع الهندى دفعت فى اللعبتين خمسين ريالا .

من السوق إلى المقهى ، هلل الرفاق ورحبوا بصاحب العيال ، المقهى على غير المعتاد مليئة بالجرائد المصرية والحديث بين المصريين عن أعمال الشغب فى الزاوية الحمراء بالقاهرة ، بين المسلمين والمسيحيين ، البعض يؤكد أن الأمور ستتطور للأسوأ وآخرون يؤكدون قدرة الرئيس السادات على تطويق الموضوع ، فهو رجل سياسى محنك ، انفعل صديق واتهم السادات بإشعال الفتنة وأن ما ذكره فى خطابه بأنه رئيس مسلم لدولة مسلمة يزيد الطين بلة ، وجدت نفسى استمع وأحاول أن ألم بأكبر قدر من الموضوع رغم كراهيتى للسياسة ، فالأمر ليس سياسة بقدر أن أمامى شهرين أو ثلاثة وأبدأ إجازتى ، البعض ينصح بتأجيل الإجازات حتى تهدأ الأوضاع ، خاصة وأن الحكومة المصرية قد تعطل سفر المواطنين للاشتباه فيهم أو غير ذلك ، أنا لا أستطيع بحال من الاحوال تأجيل الإجازة ، فصورة خميس وسويلم لا تفارقنى منذ المكالمة التليفونية الأولى ومع كل مكالمة أطلب من فاطمة أن تصفهما لى وكنت أسعد بسماع صراخهما وبكائهما عبر التليفون .

أصبحت لعب الأطفال شغلى ، كلما أجد لعبة رخيصة اشتريتها وقد اشترت لى شانتى دبا كبيرا هدية للأولاد وفى المساء وبعد تناول العشاء ، أفرش الألعاب حولى وأركب قضبان القطار وأشغل القرد وأشعر بسعادة بالغة وكأن خميس وسويلم جانبى ، ألعب لهما أو ألعب لنفسى ، ففى طفولتنا لم نعرف هذه الألعاب . عصا كنا نركبها ونضعها بين ساقينا ونتخيلها حمارا وعندما كبرنا بعض الشئ عرفنا السبع طوبات ، مجموعة من البلاطات الصغيرة ترص فوق بعضها البعض ونقذف بكرة من الخيش والفائز هو الذى يسقط أكبر عدد من البلاطات ، وفى حوارى القرية ، كنا نجرى وراء بعضنا ، فريقان عسكر وحرامية . يبدو أننى ألعب لنفسى وأعوض طفولتى .

فى الوزارة ، يتحدث المصريون والقطريون عما يحدث فى مصر ، عمليات القبض على بعض الناس ، استمع ولا أشارك فى الحديث ، فكل ما يهمنى أن تهدأ الأمور وأقضى إجازتى فى مصر مع أولادى ثم أعود للدوحة .. يتحدثون عن إلقاء القبض على الشيخ عمر التلمسانى المرشد العام للإخوان المسلمين .. لا أعرف التلمسانى لكننى أعرف الإخوان والجماعات الإسلامية التى ظهرت فى الجامعة وكان أبى يحذرنى منهم أو مجرد الاقتراب منهم ، فقد أرسلنى إلى الجامعة لأحصل على شهادة ثم أعود ، لا لكى أدخل السجن . يتحدثون عن إلقاء القبض على شيخ كفيف ، أعرف اسمه تماما من التسجيلات التى كان يديرها محمود عجورة فى محله ، وكان يتندر على خطبه أو يرددها بطريقته الساخرة ، لقد قبضوا على الشيخ عبد الحميد كشك ، كان عجورة يحلو له أن يردد بعض مقاطع خطبه وكأنها أغانى « امرأة عجوز شمطاء فى السبعين من عمرها تقول خذنى فى حنانك خذنى .. ربنا يأخذها » .. أسمع وأتذكر ولا أشارك فى الحديث ، عملا بنصائح محمد سعد فكة الذى كان يطلب ألا أطيل الجلوس فى مثل هذه المجالس والأفضل مغادرتها ، ولكن كيف أغادر المكتب وأنا فى الحقيقة أصبحت أكثر اهتماما عما سبق بما يحدث على أرض مصر .

ميزانية جديدة وبند لم يكن فى الحسبان وهو شراء جريدة يوميا بريال ، اشتريها كل صباح أطبقها وأضعها فى جيبى ولا أقرأها إلا ظهرا فى مخزن الأخشاب ، فأنا وإن كنت لا أرغب فى الاستماع أو المشاركة إلا أننى أرغب فى الاطمئنان عما يدور فى بلدى والأمور فيما يبدو لا تسر ، الشيخ يوسف الحرمى يسألنى عما يفعله الرئيس السادات وكومار يتحدث عن الفقراء الذين زادوا فقرا فى مصر بسبب سياسات الانفتاح الاقتصادى ويحدثنى عن القطط السمان .. موضوعات لم تكن تشغلنى من قبل ولم أهتم بها إلا أننى اكتشفت فجأة أنها تحاصرنى .

تشاجر المصريون فى المقهى وتحولت المجموعة إلى مجموعتين وكل منهما تجلس بعيدة عن الأخرى ، قيل إن صاحب المقهى طلب منهما ذلك أو عدم تشريفه والبحث لهم عن مقهى آخر .. مجموعة ترى أن كل ما يفعله الرئيس السادات صحيح على طول الخط والأخرى ترفض كل ما يقوله ويعلنه ، كيف يحدث هذا فى وسط من العمال البسطاء ، أما صاحب البيجاما الكستور ، فلا دخل له أساسا بما يحدث وكأنه ليس من مصر ، يدخل المقهى فى موعده ويغادرها فى موعده ولا يلقى على أحد التحية ، رجل عزل نفسه برغبته ويشعر بسعادته فى هذه العزلة .. بمجرد دخوله ، أغادر المقهى إلى منزلى ، أضع لعب الأطفال وأجلس بينها حتى يأتينى النوم .

عاد الشيخ يوسف الحرمى إلى سابق عهده فى المخزن ، يأتى صباحا ولا يتركه إلا مع صلاة العصر ، وأصبح جلوسه فى المكتب مع شانتى أمرا طبيعيا عاديا لا يثير فضول العمال ولا حتى فضول الزبائن الذين يحضرون لشراء الأخشاب وأصبح لى نصيب فى الجلوس معه وعاد للحديث عن التطوير ، قلبت المخزن رأسا على عقب نقلت ألواحا فى مكانها إلى مكان آخر وأعدت ترتيب القطاعات بمساعدة كومار والعمال وأثنت شانتى على الفكرة ، ورغم بساطة الفكرة إلا أنها توفر جهدا ووقتا للزبائن والعمال على حد سواء ، فقد نقلت القطاع الأكثر حركة ومبيعا إلى بداية المخزن بالقرب من البوابة .. ألواح الكونتر وأخشاب الموسكى هى الأكثر مبيعا والأرخص سعرا وهى أكبر الكميات التى تصل أيضا للمخزن وجاءت أخشاب جديدة كلها من الهند ورغم انخفاض أسعارها مقارنة بالأخشاب الأوروبية كما هو فى الفواتير إلا أن الشيخ يوسف طلب بيعها بنفس السعر مع إجراء تخفيضات طفيفة إرضاء للزبائن وأغلبهم من أصحاب ورش النجارة والعاملين فيها من المصريين والهنود وبعض الباكستانيين .

الشيخ يوسف يسأل عن مصر بصفة يومية ، إلا أن ما يعرفه عن أخبارها أكثر بكثير مما أعرفه ، ثم يدخل فى موضوعات التطوير الخاصة بمشروعاته ، فهو يمتلك عدة شركات ، بعضها مقاولات والأخرى للاستيراد وهذا المخزن يعتبره شركة قائمة بذاتها لاستيراد وتجارة الأخشاب وقد قرر أن ينقل ملكيته بالكامل إلى ابنيه اللذين يدرسان فى إنجلترا وباقى الشركات سيدخل أبناءه جميعا فى الإرث كما يقول الشرع .. هذا بيت القصيد وها هو الموضوع الذى كان تساورنى الشكوك فى أن الشيخ يوسف يدخرنى من أجله .. ولداه من المرأة الهندية هما أصغر الأبناء وإذا تركهما وحدهما سيأكلها أبناؤه الآخرون ولهذا السبب استقدم خالتهم شانتى ويطلب منى أن أتعامل معهما بكل أمانة وصدق كما تعاملت معه وأن أحرص عليهما وعلى مصالحهما وكأنهما أخان لى وكرر أقواله عن الأجير القوى الأمين وثقته فى وضرورة أن أتفرغ تماما للعمل معه ومعهما وأترك العمل بالوزارة .

لم ألعب تلك الليلة بلعب الأطفال ، قضيتها كلها فى الحسابات وماذا سأخسر وماذا سأكسب لو تركت الوزارة ؟ .. الشيخ يوسف لن يعوضنى بأى حال عن الخسارة ، راتبى فى الوزارة 2400 ألفان وأربعمائة ريال ومرتبى من المخزن وصل بالزيادات إلى ثلثى هذا المبلغ ولو تفرغت له تماما ومنحنى راتب الوزارة على أكثر تقدير .. يعنى ذلك أننى سأخسر ما أتقاضاه منه ، صارحته بالحال قال أن راتبى الجديد ببدل السكن بالإضافة إلى بدل الانتقال سيصل إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة ريال وهو مرتب لا بأس به ، بالإضافة إلى مشروعى مع كومار وأنه من الممكن فى حالة الاستقرار أن أتوسع فى مشروعات أخرى ولكن بعيدا عن بيع الأخشاب خاصة وأنه يرغب فى قيامى بأعمال أخرى خارج قطر ، فصحته لم تعد كما كانت ، منها على سبيل المثال السفر للهند لإجراء التعاقدات وشحن البضاعة وغيرها وأن ولديه ما زالت عظامهما طرية ، وهما فى حاجة إلى مساعد قوى وأمين ، كما أن شانتى ستقوم بالتعاقدات الداخلية والتوريدات فى الدوحة وأعطانى مهلة للتفكير على أن تنتهى قبل موعد سفرى إلى مصر ليبحث عن بديل فى حالة رفضى لعرضه .

خرجت من المخزن أنا وكومار ، تناولت العشاء فى مطعمه يحاول أن يقنعنى أنه عرض لا يرفض ، فالوزارات هنا تفنش العاملين فيها دون إبداء الأسباب وفى أى وقت بينما العمل لدى الشيخ أكثر استقرارا ، الشيخ سيتوسع فى أعماله ، سينشئ مصنعا لتصنيع الأخشاب ، سيستورد جذوع الأشجار من الهند ويصنعها فى الدوحة كما سيقيم مصنعا للأبواب والنوافذ وسيقوم بالتصدير إلى كل دول الخليج ، لقد أخبرته شانتى بكل التفاصيل ، المشروع الجديد سيشرف عليه ابناه وأنهما قدما دراسة مستفيضة وسيقوم الشيخ بجلب المزيد من العمال المهرة من مصر والهند ، كما سيودع كومار المخزن قريبا ويذهب للمصنع الذى أقيمت أساساته بالفعل ويتم حاليا تركيب الماكينات فى المنطقة الصناعية وسيرتدى قميصا وبنطلونا ورباط عنق ويصبح مسئولا أو على الأقل مدير حسابات وقد يترقى أكثر .

كومار لا يقول كل ما يسمعه ولا يكشف كل ما يعرفه مثل أبناء تلوانة ، يلمح ولا يصرح ويحاول أن يعرف المزيد من الطرف الآخر .. اتخاذ قرار بترك الوزارة ليس بالسهل بالنسبة لى ، خاصة وأننى دفعت أجر شهر مقدما وما زال فى ذمتى للأستاذ عبد النبى أجر شهر آخر ، هذا الموقع الجديد حسدنى عليه حتى العاملون معى فى الوزارة وسألونى عن الواسطة التى جاءت بى وسهلت تعاقدى وفى الحقيقة فالعمل فى المخازن المركزية ليس بعمل على الإطلاق ولا أبذل فيه جهدا ، كما أننى نجحت طوال الشهور العشرة الماضية أن أنأى بنفسى عن الموظفين وحواديتهم ومشاكلهم وحتى الرئيس القطرى سلمان المالكى والذى يكره مصر والمصريين لا أتعامل معه مباشرة ولم أره سوى ثلاث أو أربع مرات حتى الآن .

الشيخ يوسف الحرمى ينتظر القرار وأنا لا ارغب أن أستشير أحد أو أطلع آخرين على أسرارى ، إلا أننى وعدته أن يكون قرارى ومصيرى بين يديه قبل سفرى إلى مصر ، مصر أخبارها الآن لا تسر ، وفى جريدة الراية التى بدأت أداوم على شرائها أقرأ المزيد من حكايات مصر والحكومة والمعارضة والمحاكمة التى تنتظر الذين هاجموا الرئيس السادات وحتى المقهى أنقسم فيه المصريون ، فماذا يكون وضع المصريين فى مصر ، لن أستبق الأحداث وما قدره الله سيكون ، كان محمد سعد فكه عندما تتكاثر عليه المشاكل يترك أمره إلى الله ويقول « من غيره ألقى عليه أحمالى » .. ومن غيره القى عليه احمالى الآن .. الأمور المالية تتحسن ، مبيعات الصوانى تحولت إلى تجارة رابحة ، بل أصبحت المحتكر الوحيد لها وعوائد المنزل والمطعم يسلمها لى كومار بانتظام ولم أعد أفكر فى زيادتها أو نقصانها ، أدونها فى الأجندة الخضراء ، ثم أهرع إلى البنك لإيداعها وأنتظر مرور الأيام وما تأتى به أو ما تحملنا اليه .

الخطاب الثانى من عمى ، قضية الأرض لم تحسم بعد وهو يرغب فى تجريف الأرض أو بيعها ، خاصة وأن أولاده هجروا الزراعة ، وأنقسموا إلى فريقين ، إلا أنهما اتفقوا على النوم طوال النهار « والسرحان » طوال الليل ، فريق منهم يعمل لدى الباشا نائب الحكومة والفريق الآخر يعمل فى عزبة نائب الوفد وأصبح الأولاد يتقاضون رواتب من الباشوات واضطر إلى الاستعانة بمن « يفلح » الأرض ، وهو يريد ألا يعرض الأرض للبيع علانية ، فإذا كنت أريدها ، فهو لا يمانع خاصة وأنها لن تذهب لغريب .. هاتفت عطية فى الكويت ، أخبرته بما ذكره عمنا فى خطابه ، نصحنى بألا أسأل فيه وأتركه ، فهو لن يستطيع تجريف الأرض أو بيعها ، إلا بعد القضية وعلى بعد عودتى إلى تلوانة فى الإجازة أن أغرى زوج عمتى المرحومة ببيع نصيبه فى إرثها وهذا هو الأهم ، فهو الغريب الوحيد الآن والقضية مع عمى سيتم تسويتها عاجلا أو آجلا ولا داعى للقلق أو « اللهفة » .

صحيح أن الغريب الوحيد الآن هو زوج عمتى وكيف غاب ذلك عن « بالى » وعمى لا يستطيع بيع الأرض ، فمن حقنا أخذها منه بحق الشفعة وتصبح المساحة كلها لى ولأخى عطية ، لا يشاركنا فيها أحد ولا ينازعنا عليها أحد ، سيعود لك حقك كاملا يا محمد سعد يا فكة ، آه لو كنت حيا ترزق لكنت مت من الفرحة وليس من البلهارسيا وتليف الكبد ! .

باقى من الزمن شهر وأعود لتلوانة ، أملأ عينى برؤية خميس وسويلم وأحملهما وأذهب بهما إلى الغيط .. أتشمم رائحة عرق محمد سعد فكه فى طينه ثم أزور قبره .. ها هى الأحلام تقترب من الواقع ، أشعر بأننى ألمس أحلامى وأمر عليها بأصابعى وكفى .. « الأيام تدور » كلمة أمى تجيب اللى فوق تحت واللى تحت فوق ، الأيام زى خضاض الزبدة ! .

سلمان المالكى طلبنى ، حدثنى بشماتة عما يحدث فى مصر وتحدث عن « التفنيش » .. المتعاقدون من الخارج يتم تسليمهم خطاب إنهاء الخدمة قبل ثلاثة شهور ، أما المتعاقدون محليا ، فالخطابات تسلم لهم قبل شهر واحد ، شعرت بالضيق من طريقة ضغطه على الكلمات والحروف وشعرت بالضيق بسبب المبلغ الذى دفعته لعبد النبى فى ميت شهالة . سلمان المالكى يحاول اللعب بأعصابى قبل تقديم خطاب الاستغناء .. أخبرته أننى على علم بخطاب التفنيش منذ ما يزيد عن شهر ، انقلب وجهه وقلبت سعادته إلى غم ، وضعت يدى فى جيبى لاستخراج ورقة مطوية ، أفهمته أنها استقالتى وكنت قد كتبتها منذ شهر إلا اننى ترددت فى تقديمها ، استشاط غضبا تسلمت منه الخطاب ومن مكتبه إلى منزلى مباشرة لقد جاءت منهم والحمد لله والآن سأتفرغ للشيخ يوسف الحرمى كاملا ، سأذهب إليه عصرا أبلغه قرارى ، كان الشيخ قد غادر المكتب وشانتى ما زالت هناك ، أخبرتها بقرارى للعمل معهم وأننى قدمت استقالتى وعندما أعود من الإجازة سأتسلم العمل بدوام كامل واستعطفتها أن تطلب من الشيخ تسوية راتبى كما وعد وعودة كفالتى إليه مرة أخرى .

كلما يشتد بى الضيق أذهب إلى منطقة الأسواق أفرغ شحنة الغضب فى فاترينات المحلات المضاءة وأتفحص البضائع والاسعار وأقارن بينها وبين أسعار مصر ، وفى الغالب لا أشترى شيئا حتى لا أخرب ميزانيتى ، قدماى أصبحت مثل « حمار الغيط » تعرف طريقها ولا تحيد عنه أبدا ، وجدت نفسى أتجه إلى شارع الريان ومنه إلى المقهى ، قبل أن أعرج عليها وعلى مقربة منها محل يعرض تشكيلة من البضائع ، ساعات ، راديوهات ، أجهزة تليفزيون ، لعب أطفال ملابس رجالى وحريمى اشتريت لنفسى ساعة جيدة بخمسين ريالا ومروحة ستاند للشيخ على ماضى ودراجة لخميس وسويلم وفستانا محتشما لفاطمة ، خربت الميزانية ! .. سألت البائع الهندى عن موعد الإغلاق واستأذنته فى ترك مشترياتى لديه لبعض الوقت لأدخل المقهى .

المقهى خاوية على عروشها ، الكراسى فوق بعضها فى ركن منها ، ولا يوجد سوى صبى القهوة وحتى التليفزيون مغلق والمعلم صاحب المقهى غير موجود والإضاءة خافتة وكأنها فى حالة حداد ، أحضر صبى المقهى مقعدا لى وسألته عن سبب خلو المقهى من رواده ، سألنى بدوره عن المكان الذى جئت منه وإن كنت سمعت الأخبار أو شاهدت التليفزيون ، لقد حدث فى المقهى شجار بين الرواد ، المصريون والقطريون ولأول مرة فى مقاهى قطر يصاب زبائن بجروح وكسور وقد جاءت سيارات الإسعاف والشرطة ، حملوا المصابين والأسوياء وقد نجح هو فى الاختباء وراء « النصبة » إلى أن تأكدت الشرطة من خلو المقهى والقبض على من فيها ، فالذين قبض عليهم مشكلتهم يمكن تسويتها ، أما هو فمشكلته أكبر ، فهو يعمل فى المقهى دون إقامة ودون كفالة بعدما ألغى كفيله ضمانه لامتناعه عن سداد الإتاوة الشهرية وهو منذ ذلك الحين يعيش ويعمل فى الدوحة دون إقامة صالحة .

الصبى ترك أسباب الشجار وقصة الأخبار وبدأ يحكى لى عن نفسه ومشاكله وإمكانية أن تصدر الشرطة أمرا بإغلاق هذا المقهى ، فلا يستطيع العيش بالدوحة ويسألنى عن فرص العمل سواء فى المنطقة الصناعية أو فى غيرها وسألنى فجاة إذا كنت علمت أن الرئيس السادات قد مات وأردف موضحا أن السادات قتل فى الاستعراض العسكرى وخرج من طابور العرض بعض الجنود وأطلقوا النار على كل المتواجدين معه ومصر الآن بلا حكومة فالكل مات ، لم أستطع استيعاب ما قاله ، قام بإطفاء الأنوار كلها فى المقهى وأدار التليفزيون وهناك من يعلق على مقتل السادات وأسباب اغتياله .

خبر اغتيال السادات سبب اندلاع الحرب فى المقهى وضرب الزبائن لبعضهم البعض وخاصة الفريقان المصريان ، بعضهم أظهر الشماتة فى مقتل السادات وآخرون يكذبون الخبر من أساسه ، وخاصة وأن أحدهم كان يمسك بجريدة « المساء » القادمة على رحلة مصر للطيران فى عصر نفس اليوم ، والتى تؤكد فى عناونيها أن الرئيس حضر العرض العسكرى بمناسبة انتصارات أكتوبر ثم وضع إكليلا من الزهور على قبر الجندى المجهول ثم غادر بأمان الله .

تليفزيون قطر يؤكد أنه مات ويعرض لقطات للهرج والمرج وإطلاق النيران وجريدة « المساء » تقول غير ذلك ، بل تنشر للسادات صورة وهو يحيى الجنود أثناء العرض العسكرى وإذا بالمقهى تنقلب والكل يضرب الكل والكراسى تتطاير وأشار لى صبى المقهى إلى زجاج المقهى من الناحية الخلفية الذى « أنبدر » قطعا صغيرة فى أرضية المقهى وحكى لى عن إصابة المعلم فى راسه ، إلا أنه لا يستطيع الذهاب إلى المستشفى للاطمئنان عليه خشية أن تقبض عليه الشرطة .

لقد « خربت » الأمور.. من المقهى إلى المحل المجاور ، جمعت الأشياء التى أشتريتها .. لم أستطع الوقوف ، أشعر أن قدمى لا تستطيعان حملى ، الرئيس مات ، كلنا سنموت ، إلا أن الرئيس بلدياتى ، كنا نعتز أنه من المنوفية ولكنه مات ، ما الوضع الآن فى مصر ، كيف تسير الأمور ، كيف أنزل الإجازة فى مثل هذه الظروف ، استوقفت سيارة أجرة ، حملتنى إلى النجمة ، وضعت ما اشتريته بجانب لعب الأطفال .. لم « أنصب » القطار هذه الليلة ولم أقم بتشغيل القرد ، خلعت ملابسى وارتديت جلبابا وتحت البطانيتين دخلت ! .

21

خلت شوارع الدوحة من المصريين ومن يقابلنى من الهنود والقطريين يقدم تعازيه فى الرئيس ، شانتى أعربت عن أسفها لموته والشيخ يوسف كان حزينا ، وكومار يتفلسف وله رأى فى أسباب اغتياله لم يعجبنى ، بقى حوالى أسبوعين على عودتى لتلوانة ، أنزل السوق أشترى بعض الأشياء ومنها جلباب لزوج المرحومة عمتى ، ليس بصوف خالص ولكن ملمسه يوحى بأنه من الصوف ، فكرت فى أن أشترى « جوز » غوايش لفاطمة ، إلا أن الذهب غالى وإعطاءها نصف ثمنهما سيدخل على قلبها السرور ، كما أننى لا أستطيع أن أحضر لها ذهبا ولا أشترى مثله لأمى أو أختى ، الأيام الأخيرة دائما تمر بتثاقل غريب ، قبل ليلة السفر بيومين جلست مع كومار للمحاسبة ، كل ما استلمته منه بالإضافة إلى مدخراتى فى البنك حولته إلى دولارات ، لن أعطى عبد النبى بقية حسابه ، فهو فرد فى عصابة ، تمتد من تلوانة إلى الدوحة ، الشيخ يوسف طلب منى استقدام عشرة عمال مصريين ، نجارين باب وشباك ، شريطة ألا تزيد أعمارهم عن خمسة وعشرين سنة ، طلب رسمى من وزارة الداخلية إلى السفارة القطرية بالقاهرة لمنح عشرة عمال تأشيرات دخول ، تأشيرة جماعية وعلى أن أضع أسماءهم فى قائمة طبقا لجوازت سفرهم ثم استخرج لهم تذاكر الطيران من القاهرة للدوحة ونصحنى أن أرعى الله فى اختيار العمال ولا مانع أن يساعدنى أحد فى مصر ، موصيا أن يكونوا من العمال المهرة .

الخبرة الأولية لها مذاق خاص ، تعيشها بعيونك وآذانك وكل حواسك وعندما تتكرر لا تجد فيها جديدا .. الطائرة ركبتها أكثر من

مرة ، المسافرون أغلبهم من العمال .. وصلت إلى القاهرة ظهرا ، ما معى من حقائب وأشياء يصعب الانتقال بهما فى المواصلات العامة « قاولنى » سائق تاكسى من أمام المطار ، خمسون جنيها لتلوانة حتى باب المنزل .. تجمع الصبية حول السيارة بمجرد دخولها القرية ، يرددون نشيدهم القومى الذى وضع كلماته وألحانه محمود عجورة .. زيرو 48 .. عيال نقاوة .. فرز أول وأضافوا إليه .. منوفية منوفية منوفية ! .. أمى أول من استقبلتنى ، بكت بشدة ، كانت تتمنى أن أنزل فى الصيف لأقابل أخى عطية وأولاده ، فاطمة خرجت على صوت ارتطام باب سيارة الأجرة وهى تحمل طفليها بطريقة مضحكة ، كادت أن تلقى بهما على الأرض لاحتضانى ، قبل احتضانها انحنيت لآخذ منها الطفلين ، خميس وسويلم من منهم خميس وأين سويلم ، مسحت أمى دموعها بظهر يدها وضحكت وأشارت إلى الأكبر حجما بعض الشىء .. جدك سويلم ، عرفت الفرق بينهما وطلبت أن يضعوا الطفلين بجانبى وأن يتركونى أنام بعض الوقت .

أتشمم خميس وسويلم مثلما تفعل الحيوانات للتعرف على أبنائها ، أقبلهما إلا أن صراخهما لم ينقطع ، أخذت أمى سويلم وحملت فاطمة خميس وضاع النوم مع قدوم الشيخ على ماضى وعمى وزوج عمتى لتهنئتى بسلامة الوصول ، فتحت الحقائب لم أشتر لعمى ما أهديه به ، أعطيته بلوفر فى غلافه كنت اشتريته لنفسى ولم أفتحه ، فرحة الشيخ على بالمروحة الاستاند لا توصف وجلباب زوج عمتى ذو الملمس الصوف خطف الأبصار ، الجو البارد فى خارج الدار جعلنا ننكمش بالداخل وصراخ الطفلين لم ينقطع فى الحجرة المجاورة .

أشم رائحة بيض بالزبدة تعده أمى أو فاطمة ، المكان الدافئ الذى كنت أفتقده عدت إليه والأحاديث عن الناس وأخبارهم وتطورات الأحداث لم ينقطع ، يلتقط الخيط عمى ، يحكى ويضيف ، يتدخل على ماضى يزيد ويعيد ، ويشكو زوج عمتى من الوحدة بعد وفاة زوجته ، أرغب فى فتح موضوع الأرض معهما ، إلا أنه من الأفضل التعامل مع كل منهما على انفراد ، خاصة وأن حديث عطية فى التليفون من الكويت والذى نصحنى بعدم « اللهفة » على شراء أرض عمى والبدء بأرض زوج عمتى جعلتنى أتشكك فى نوايا أخى ، فربما يريد هو شراء الأرض لنفسه .. انصرف الضيوف واختليت بأم العيال بعد أن أرضعتهما وتركتهما نياما فى حضن جدتهما .

جدول أعمال الإجازة متخم ، هناء وزوجها جاءا من بير شمس ومعهما طفلاهما ، الحجرة جاهزة لاستقبالهما ، ستمكث معنا هنا بضعة أيام ، ويخرج عبد الله من تلوانة إلى عمله فى الباجور ويعود ظهرا ، مشروعات الشيخ على الخيالية لم تتوقف ، يرغب فى افتتاح محل سندوتشات كبدة ، عندما أخبرته أن أهل تلوانة لا يأكلون خارج منازلهم ، حاول أن يقنعنى بضرورة المرور على الباجور لمشاهدة محل السندوتشات القريب من مركز الشرطة لأعلم مدى إقبال الناس ، ضحك بطريقته وأخبرنى أن الناس فى الباجور وما حولها ودعوا « المش » والجبنة القديمة .

الجدول ملئ وأهم بند فيه اختيار عشرة نجارين للشيخ يوسف الحرمى وإعداد أوراقهم وتسفيرهم .. على ماضى أبدى استعداده للمساعدة وسأل كم سيدفع الراغب فى السفر وعندما رفضت فكرة أخذ فلوس منهم أو لعب دور الأستاذ عبد النبى بتاع ميت شهالة « نفر» منى واتهمنى بالطيبة والسذاجة ، فكل شئ قد أصبح بفلوس فى البلد .. « الجلة بتباع بجنيهات والمش ما عدش بيتشحت » وحدد هو السعر ألف جنيه لمن يرغب فى السفر ، وهو لديه صديق صاحب ورشة كبيرة فى سنتريس ، سيذهب إليه ويعرض عليه أمر البحث عن النجارين ونصحنى بأن ابتعد أنا عن الموضوع ، هو الذى سيختار العمال وهو الذى يقبض « الفيزيتا » ونصيبه الثلث والثلثان لى ! .

الأخت هناء تشتكى من أخيها عطية ، فقد طلبت منه أن يغرس لابنها سعد وابنتها قنوع نخلتين فى الغيط مثل النخل الذي غرسه لأبنائه ولأبنائى ، إلا أنه لم يفعل وكأنها ليست أخته وكأنها ليس لها نصيب فى الأرض ، مشكلة جديدة إرث هناء ولا أعتقد أن عبد الله صديقى قد حرضها على المطالبة به ، فأنا أعرفه جيدا وما المشكلة فى غرس نخلتين لها ، ربما مشاغل عطية منعته من أن يفعل ذلك ولا أظن أن عطية يخطط لإبعاد أختى عن نصيبها فى الأرض .. الشيخ على ماضى أحضر فصيلتي نخل ، قال أنهما زغلول وغرسهما بجانب نخيل الأولاد وأصبح على حد الأرض الشرقى صف من ثماني نخلات تختلف أطوالهان طبقا لأعمار الأولاد .

كل هذه القضايا الصغيرة « لا بروبلم فيها » كما يقول كومار .. « البروبلم » الكبير فى فاطمة وكيفية إقناعها فى تركها لمدة عام أو عامين آخرين دون اصطحابها معى وهى التى عملتها « مناحة » عند الاختلاء بها أول ليلة .. أخذت تبكى وتلطم على خدودها وتندب حظها ، فقد تزوجتنى وتركتها قبل انقضاء شهر العسل ولم أحضر ميلاد الأولاد ، كانت ليلة عسيرة ، تذكرت فيها كل ألاعيب وأقاويل الشيخ على ماضى والذى اعترف لى ذات مرة بأن سبب فشله الرئيسى فى زواجه الأول أنه لم يعرف كيف « يبلف » زوجته الأولى .. كل النساء فى حاجة للكلام المعسول ، خاصة إن كانت اليد وغير اليد قصيرة وأهم من الكلام ودغدغة المشاعر نسج الأحلام والأوهام واستخدام جزء يسير من ذهب المعز إذا وجد ، وفى حاله ندرته فاللجوء إلى سيفه والنهاية تكون الطلاق ! .

شرحت لها ظروف عملى وتفنيشى من الوظيفة الحكومية وعودتى مرة أخرى إلى الشيخ يوسف الحرمى ، لم أحك لها عن مشروعى مع كومار واشتغلت لها فى « البلف » مع أننى اتخذت قرارى قبل مجيئى بعدم اصطحابها معى على الأقل لمدة العامين القادمين .. استخرجت لها جواز سفر وعليه طفلانا وفى نفس رحلة الباجور افتتحت لها حسابا فى البنك ، فكرت فى أول الأمر أن أضع لها فيه ألف جنيه إلا أننى خشيت من الطمع ، فوضعت لها خمسمائة فقط .. أخبرتها أننى سأرسل لها مصروف الشهر على حسابها فى البنك ولا داعى « لمشورة » صديقى عبد الله

وأننى سأرفع المصروف إلى مائة جنيه فى الشهر ولا داعى أن تخبر أحدا وحتى أمى ، مع وعد بإرسال التأشيرة لها عندما تتيسر الأمور ، خاصة وأن وجود طفلين صغيرين ما زالا يرضعان قد يكون فى غاية الصعوبة وهى الآن مع أمى وأمها يمكنهما مساعدتها فى تربية الطفلين حتى يشبا ، إلا أن عيون بنت نبوية الداية كانت بين مصدقة ومكذبة لما أقول ! .. أخبرتها واستحلفتها بالله أن تحفظ السر ، فأنا أخطط أن أبنى لها دارا مستقلة مكان بيت محمود عجورة ، ليس دارا ولكن عمارة ستتحدث عنها تلوانة كلها إلا أن الأمر يحتاج الكثير من التدبير وبعض الصبر ، خاصة وأن الغربة صعبة واحتياجى واشتياقى لها أكثر من احتياجها لى .. « البلف » نتائجه ظهرت ، لم تحدثنى عن السفر أغلب أيام إجازتى ! .

أمى سعادتها فى أن نكون حولها ، يحبو خميس وسويلم فى مدخل الدار وتنظر إليهما بسعادة غامرة ، ويبدو أنها لم تتعب من الأطفال وتربيتهم ، تتمنى اليوم الذى نعود فيه نهائيا إلى تلوانة وتجتمع الأسرة كلها والأطفال جميعهم ، تترحم على محمد سعد فكة .. يرن جرس التليفون .. الأستاذ عبد النبى من ميت شهالة على الطرف الآخر ، يهنئنى بسلامة العودة ويطلب بقية الحساب . أخبرته بتفنيشى واستشف من حديثى عدم رغبتى فى دفع مبلغ الشهر المتبقى .. غير من نبرة صوته ، وأفهمنى أننى عملت لمدة عام ، دخل جيبى خمسة وعشرين ألف ريال ولا أرغب فى دفع ألفين وأربعمائة منهم .. أنهى المكالمة بسرعة وهددنى بأن حسابه مع أخى عطية .. لا مشاكل « نو برولم » .. نصاب مثل غيره من النصابين ، عصابة تمص دم الغلابة ، تعمل على تشغيلهم لمدة عام ثم تنهى عقودهم وتستبدلهم بآخرين على استعداد للدفع ! .

جاءنى الشيخ على ماضى ومعه عشرة جوازت سفر لنجارين على استعداد للسفر والدفع وهناك عشرات غيرهم .. تسلم من كل منهم خمسمائة جنيه والباقى عند تسليمهم التأشيرة وتذكرة الطيران .. الشيخ على سيحتفظ بالمبالغ المالية إلى أن يتم تسفيرهم حتى لا نتهم بالنصب .. أكدت عليه أن لا علاقة لى بالموضوع ولا أرغب فى مقابلتهم .. سأنهى إجراءات سفرهم وبعد إقلاعهم عليه أن يسلمنى نصيبى ويحتفظ بنصيبه .. أخذته معى إلى القاهرة إلى المهندسين حيث سفارة قطر ، الإجراءات لم تستغرق وقتا ، فسمعة الشيخ يوسف الحرمى معروفة لا يتاجر فى تأشيرات سفر ولا يستغل العمال .. أحضرنا تذاكر السفر وسألنى عن حاتى الجيش الذى رآه فى أفلام إسماعيل ياسين . يرغب فى تناول وجبة من الكباب والكفتة .. من شركة طيران الخليج بشارع محمود بسيونى إلى حاتى باب اللوق إلى المؤسسة إلى تلوانة .

ما أن يغلق بابى على فاطمة الحلوة بعد تسريب خميس وسويلم إلى أمى ، إلا وتفتح أبوابا ونوافذ وتبدأ أحاديث تطفئ نيران الشوق والرغبة لدرجة جعلتنى أكره الانفراد بها وإن كانت هى التى تصر على استدراجى .. لا يحلو لها الحديث عما ادخرته وماذا اشتريته وما هو حقيقة ما بينى وبين أخوتى فى الميراث وما هو نصيبى من المنزل الجديد الذى نعيش فيه ، وهل سأتركه لعطية بعدما أبنى لنفسى منزلا مستقلا . لا يحلو لها طرح هذه الاسئلة إلا بعد أن أتخذ وضع الاستعداد وكأنها بالفطرة أو التلقين من أمها نبوية الداية تعرف لحظات ضعف الرجال .. أسئلتها بعضها مباشر والآخر من نوع « الدحلبة » .. وأنا لا أرغب فى البوح بأسرارى حتى لأمى وأخى .. أصبحت أكره لحظات الخلوة وفى أحيان كثيرة أنام بجوارها وأحلم بشانتى الهندية التى تتعامل برقة مخلوطة بصرامة إلا أنها لا تحاول النفاذ إلى ما تحت جلدى .. مشكلة فاطمة أنها تحاول دس أنفها فى كل شئ وأنا لا أمانع إلا فى حالة واحدة أن تدس أنفها فى جيبى ! .

الأجازة لم تخل من الزيارات ، أهمها زيارتى لـزوج عمتـى المرحومـة ، أوضـح لى أنـه لا يرغب فى الاحتفاظ بميراثها فى الارض وإذا رغبت أنا أو أخى عطية فى شرائه فهو لا يمانع .. نقلت الفكرة إلى على ماضى وعبد الله ، طلبا منى أن أغتنم الفرصة بدلا من دخول غرباء ، اتفقت معه على السعر .. سلمته المبلغ فى حضور المحامي صديق عبـد الله وكتبنـا عقـدا ابتدائيا ، بموجبه أصبحت أنا مالك نصيب زوج عمتى مع تركـه للعمـل فى الأرض لحـين عودتى النهائية من السفر .

عندما وصل الخبر إلى دارنا ، لم تزد أمى عن كلمة مبروك والـدعاء لله أن يطـرح البركـة فى أبناء محمد سعد فكه وعندما علمت زوجتى حاولت أن تعرف بكل الاساليب كم دفعت ، وهل سجلت الارض أو لا وطالبت بتسجيلها باسم خميس وسويلم ، لم تحصـل منـى عـلى إجابات شافية وأدركت أنها لن تحصل على ما تريد ، فقررت إفساد ليلتى مثـل غيرهـا مـن الليالى ! .

وصايا محمد سعد فكه ثقيلة صعبة ، إلا أنها فى طريقهـا أن تتحـول مـن حلـم وخيـال إلى واقع حقيقى ، سلمنى الشيخ على ماضى نصيبى من عمليـة تسـفير العمـال العشـرة سـبعة آلاف جنيه .. نصحنى بألا أودعهم فى البنك وأن أشرع فى هدم دار محمود عجـورة الـذى اشتريته وبناء منزل كبير أو عمارة على مساحة الارض ، فالمبلغ المتاح حاليا مـن الممكـن أن يساعدنى فى وضع الاساس وبناء الدور الارضى ورفـع أعمـدة مسـلحة للـدور الثـانى استكمله حين مجيئى الإجازة القادمة . المساحة حوالى قيراط كامل وأربعة أسهم ، الـدور شقة كبيرة ولن أشترى سوى الأسمنت وحديد التسليح وطوب البناء ومن الممكن عمـل قمينة فى القراريط الأربعة المجاورة وكما جرفتها أول مرة للغير ، أجرفها هذه المرة لنفسى .. « استملحت » الفكرة وأنضم الينا عبد الله زوج أختى فى جلسة عمل فى المسـجد بعيـدا عن عيون فاطمة ، فأنا لا أرغب فى تدخلها أو فرضها لأحد أخواتهـا للإشـراف والوقـوف على عملية البناء .

النصيب الذى حصل عليه الشيخ على ماضى من عملية واحدة لتسفير العمال فتح أمامه أبواب الأحلام وزاد حماسه للعمل معى بكل قلبه . كان يسألنى من وقت لآخر عن مكاتب تسفير العمال وهل تحتاج ترخيصا أو أنها تتم بالطريقة التى اتبعناها ويحسب حساباته ، يفكر بصوت اسمعه .. يسألنى عن إمكانية تسفير ثلاثين أو خمسين عاملا فى السنة وينصحنى إذا نجحنا فى ذلك فلا حاجة لى للسفر والغربة ومن الممكن فى سنوات قليلة أن أصبح مثل الأستاذ عبد النبى بتاع ميت شهالة . الأمر ليس بهذه السهولة والعمال العشرة طلبهم الشيخ يوسف الحرمى لمصنعه الجديد ولن يقيم كل شهر أو كل سنة مصنعا .. إلا أن الشيخ على ماضى لا يمل من التعبير عن آماله وأحلامه ، خاصة وأن هناك الكثير من العمال الراغبين فى السفر والمستعدين لدفع ما يطلب منهم مقابل تأشيرة سفر سليمة لا نصب فيها ولا احتيال .

عندما علم عمى بشراء نصيب زوج عمتى ، عرض على أرضه مرة أخرى ، وذكرنى أنه قد أرسل لى خطابا فى الدوحة حول هذا الموضوع ، إلا أننى لم أرد عليه .. أرضه لن أستطيع شراءها ، فمساحتها كبيرة ، والأموال فى الخليج ليست على الأرصفة كما يعتقد البعض ، خاصة وأن مدتى هناك مقيدة وربما يشتريها منه أخى عطية إلا أننى من الممكن أن أشترى نصيبه فى إرث عمتى .

على ماضى له رأى ، البائع غير المشترى والبائع المضطر غير البائع المرتاح ونصحنى فى التمهل فى الرد على طلب عمى ولا أقدم على الشراء إلا قبل سفرى بيوم أو اثنين حين يفقد الأمل .. فالديون قد تراكمت عليه وأصحاب الكمبيالات يأتون إليه فرادى وجماعات لتحصيل الديون التى اشترى بها بضائع المحل والذى توسع فيه دون دراية ولم تعد تلوانة وحدها قادرة على استيعاب بضائعه .. فهو « سيبيع سيبيع » ولكن بالسعر الذى نرغبه نحن ، لا الذى يريده هو .

الخوف يا عبد الحميد ألا تستطيع أن تحقق كل شىء دفعة واحدة ويتوقف الحلم وتتجمد وصايا محمد سعد فكه ، ولابد من مراجعة الحسابات قبل الشروع فى هدم بيت عجورة أو الاتفاق مع عمى ، فاطمة وخميس وسويلم مع أمى فى الدار القديم ، أغلقت باب الشقة وأخرجت الأجندة الخضراء وراجعت بعض الأرقام ، إذا تم تنفيذ ما أتمناه ، سأخرج هذه المرة من تلوانة مثلما خرجت منها أول مرة وسأعود إلى قطر مثلما ذهبت إليها أول مرة وسأبدأ من جديد ومن أول السطر فى الأجندة الخضراء .. حيث ستنسف مدخراتى ، ما المشكلة ، نو بروبلم ، دفنت الأجندة الخضراء فى حقيبة سفرى وتوكلت على الله ، سأهدم بيت عجورة وما تبقى أعطيه لعمى مقابل عقد ابتدائى .. « ربط كلام » .

« جمايل » عبد الله زوج أختى كثيرة ولا أستطيع ردها مهما فعلت ، فهو صديق قبل أن يكون نسيبا وصدوقا ووفيا دون انتظار لمقابل أو شكر .. قرر أن يقف معى فى الهدم والبناء وتجريف الأرض وإقامة قمينة الطوب وأحضر العمال من « حداهم » فى بير شمس واتفق على الأجرة .. أحضر صديقا له ،رفع مساحة الأرض ورسم المنزل .. أربعة « مطارح » كبيرة وصالة واسعة وحمامان والدور الأرضى كله تحيطه شرفه من جميع الجهات .. الرسوم أعجبتنى والتصميم أدهشنى وعندما سألته عن التكاليف ، أخبرنى أنه دفعها ، ثلاثمائة جنيه لاغير ، فصديقه هذا يعمل فى مكتب هندسى فى مصر ، فهو مهندس معمارى ونحن فى حاجة لمهندس مدنى إلا أنه لن « يغلب حماره » .. فهناك الكثيرون منهم فى الباجور إلا أن أغلبهم يقيمون فى القاهرة ويحضرون أسبوعيا لزيارة ذويهم .

بدأ العمل ، وقفت أمام دار عجورة ترحمت عليه ، الترعة أمامه وامتـداد الزراعيـة وعـلى « مدى الشوف » نظرت .. إلى أرضنا والثماني نخلات الباسقات ، لكل مولود نخلـة وهنـاك عند انتهاء « الغيطان » مقابر تلوانة حيث ترقد عظام محمد سعد فكه .. سـرت فى جسـدى قشعريرة ، طننتها فى بداية الأمر بسبب نسيم « الصبحية » .. هناك يرقد محمـد سـعد فكـه على مشارف تلوانة حيث تعلو المقابر بعض الشئ عن الغيطان تخيلت أنه يحلق في الهواء .. ينظر صوبى وتجاه النخيل ، اسمع صوته وكأنه يقول « عفارم عليـك » وهـبط ليرقـد فى التراب الندى . لقد رأيت مقابرالدوحة مرة واحدة ، حيث تحفر لحود فى الصـخر ويـدفن الموتى بلا شواهد على مقابرهم ، يتركونهم فى لظى الشمس ، لا شجرة تطـل علـيهم ولا « صبارة » خضراء ترطب أرضهم ، القشعريرة سـببها ـ ربمـا ـ أننـى تمنيـت ألا أمـوت فى الدوحـة أو أدفـن بهـا ، فهنـا الجـو أطيـب وقـد يكـون العـذاب أقـل .. اسـتغفرت « فلا تدرى نفس بأى أرض تموت » .

عبد الله أحضر زوجته وأولاده ليقيموا إقامـة دائمـة حتـى تقـام الأعمـدة وأسـتقطع مـن إجازته السنوية ثلاثة أسابيع ليقف بنفسه على البناء وكأنه يبنى لنفسه وأعد موقع عمل مثل المهندسين تماما .. منضدة وأربعة كراسى بلاستيك وشمسية كبيرة وعند الغروب يطلـب من أحد العمال حملهم إلى الدار .. جاء عمـى ليبـارك ذات يـوم ، نظـر لـلأرض المجرفـة واشتكى حاله فى أنه لا يستطيع تجريف أرضـه ، فقضـية الفـرز والتجنيـب لم تحسـم بعـد والأرض ما زالت مشاعا ، طمأنته بأن عطية فى الصيف القادم قد ينهى كل الأمور المعلقـة .. عاود سؤالى عن رغبتى فى « ورث » عمتى ، تعللت بمصاريف البناء ووعدته بـأن العـام القادم قد تكون الظروف المالية أفضل ، مصمص شفتيه مثل النسـاء واعتـرف بأنـه « لـولا الحوجة » ما كان قد عرض نصيبه من إرث أخته للبيع .. البائع غير المشترى كما يقول الشيخ على ماضى ، عرض سعرا من الممكن أن « أشيل به البيعـة » إلا أننـى تريثـت فى الـرد عليـه ، الأفضل أن أدفع له ما أرغب أنا فى دفعه بعد أن يفقد الأمل .

قام البناء وظهر على الأرض وتآكلت الإجازة وأصبحت أيامى معدودة فى تلوانة وفاطمة تسأل متى سآخذها معى ، صورت جواز سفرها لأخذه معى إلى الدوحة مع صورة من قسيمة زواجنا ، وطلبت منها الصبر ، فإلاجراءات هناك قد تطول بعض الشىء ، فى الحقيقة أخطط فى تركها فى تلوانة لمدة عام أو عامين آخرين حتى أستطيع إكمال المنزل أو على الأقل إقامة هيكله الخارجى فوجودها معى فى الدوحة يعنى زيادة المصاريف والإنفاق وانخفاض المدخرات وما أعمله فى عام بدونها لا أستطيع إنجازه فى عامين وهى معى ولو اطلعت فاطمة على ما فى صدرى لجعلت أيامى الأخيرة فى تلوانة « محزنة » .. بكاء ولطم خدود ، الأسلوب الأفضل معها « البلف » فهو ينفع أحيانا ويفشل فى كثير من الأحيان . فى ليلة السفر مثل ليلة الوصول ، نمت ليلتى أتقلب بين خميس وسويلم ، أقبل هذا و احتضن ذاك ، أتشمم رائحتهما وأشعر أن كل ما أفعله وإن كان من وصايا محمد سعد فكه إلا أنه من أجلهما ومن أجل ما يأتى من أخوة لهم ، ودعت الكل داخل الدار ولم يصحبنى إلى الطريق النازل إلى مصر سوى الشيخ على ماضى وصديقى عبد الله .

22

مصنع الشيخ يوسف الحرمى الجديد شغلنا جميعا،ننتقل من المخـزن إلى المصنع فى المنطقة الصناعية ، واحد على الأقل يظل فى المخزن منا ، أنا أو كومار أو شانتى ، العمال المنايفة العشـرة كونـوا مجموعـة خاصـة بهـم ، أسكنتهم معى فى منزلى فى الحجرة التى تركها الهنود ، أحضرت لهم مراتب وبطاطين مع وعد بإحضار أسرة الشهر القادم .. كل مـنهم دفـع مائـة ريـال إيجار .. الحجرة أصبح إيجارهـا ألـف ريـال ، أول مبلـغ أدونـه فى الأجنـدة الخضراء بعد شهر كامل من وصولى . كومار أدخلهم معه « الميس » . وجبـة واحدة يوميا ، العشاء فراخ أو لحم وصالونه وخبز وسلطة خضـراء ، يرسـله لهم أحد عمال كومار .. لقد تحول كومار إلى مؤسسة خلال الشهرين اللذين قضيتهما فى تلوانة . أصبح لديه عمال يوزعـون الوجبـات ، سـواء فى أمـاكن تجمعات العمال أو فى سكنهم وحدد للمصريين اشتراكا أعلى مـن الهنـود ـ مائة وعشرين ريالا فى الشهر ـ فهم يستهلكون خبزا أكثر وأرزا بكميات أكبر ، بالإضافة إلى نقل الطعام لهم يوميا . الحركة لم تنقطع بين المخـزن والمصـنع والسكن وفى نهاية اليوم أدخل حجرتى ولا أخرج منهـا إلا صـباحا ، تـرددى على المقهى أصبح كل أسبوعين تقريبا وأحيانا تطول المدة .. أتمنى أن تستقر الأمور وتعود إلى طبيعتها السابقة .

تم تركيب الماكينات والمناشير الضخمة فى المصنع الجديد ، كل شىء تقريبا جاء من الهند والشيخ يوسف الحرمى فى حاجة إلى عمال جدد ، مهرة وعاديين ، حدد الرواتب ، ألف ومائتى ريال وتسعمائة ريال ، العمل منذ السادسة صباحا حتى السادسة مساء ، ساعة راحة للغداء ، نشاط العمال المصريين والتزامهم ، جعله يطلب منى أن أرسل إلى مصر للبحث عن عمال .. رزق الشيخ على ماضى ورزقى ، ويبدو أن حلمه فى إنشاء شركة لإلحاق العمالة بالخارج ، ستبدأ عملها .. اتصلت به تليفونيا ، أبشره وأساله عن فاطمة وأمى وأولادى ، أول مرة اتصل بتلوانة منذ مجيئى ، طمأننى عليهم جميعا وحاول أن يطمئن نفسه عن نوعية طلبية العمال ونوعية أعمالهم وأجورهم وكم سيتقاضى من كل واحد منهم ، وبقية الإجراءات هو يعرفها والسفارة فى مصر يعرف مكانها ومكتب الطيران قد ذهب إليه من قبل معى .

الشيخ يوسف الحرمى كما فهمت منه وفهمته خلال عملى معه لا يحب أن يترك الغلبة لجنسية واحدة ، فهو يعمل بذكاء التجار يخلق نوعا من التوازن « الأسطوات » من الهنود وكل أسطى له عدد من العمال يشرف عليهم وبمجرد أن تدور عجلة الإنتاج يرغب فى استبدال عدد من المصريين ، الأسطى مكان الأسطى والمساعد مكان المساعد أو كما أشار أنه يريد أسطى هندى على مجموعة من المصريين ويريد أسطى مصرى على مجموعة من العمال الهنود وشانتى فيما يبدو تشاركه هذا الرأى أو أنها وضعت الخطة معه .

الشيخ يوسف فى حاجة إلى خمسة « أسطوات » مصريين لديهم خبرة فى تشغيل ماكينات ومناشير القطع وخمسة وعشرين عاملا .. ثلاثين مرة واحدة .. هو سيقدم تأشيرة السفر مجانا وعليهم استخراج تذاكر سفرهم وتحمل التكاليف العقد مدته سنتان وشهر إجازة مدفوعة الأجر وبعد السنتين ستتحمل الشركة قيمة تذاكر السفر .

هذا ليس تخطيط الشيخ يوسف وحده ، بل ربما تكون عقود العمل أيضا قد أعدها ولـداه اللذان نتوقع حضورهما من إنجلترا قبل افتتـاح المصـنع رسـميا ، فكـل شـئ تـم إعـداده بدراسة واضحة ومحددة المدة .. خلف المصنع سيقام مسكن للعمـال وإلى أن يسـتكمل فالعمال سينقلون من الدوحة إلى المنطقة الصناعية فى أتوبيس تـم اسـتئجاره لمـدة عـام . معنى ذلك أن البناء لن يستغرق أكثر من عام إن لم يكـن أقـل ، المصـنع بأقسـامه وورشـه وطرقاته أصبح مثل المصانع التى نشـاهد صـورها فى التليفزيـون ..عمـال قسـم التقطيـع يرتدون زيا موحدا وعمال التجميع زيا آخر مخالفا تم توزيعه عليهم ، بالإضافة إلى خـوذة حديدية لكل مـنهم وحـذاء ثقيـل اسـمه « سـيفتى » أى الأمـن ، فى الطرقـات والردهـات طفايات حريق بكل الأحجام ، منها ما يتحرك على عجل ونوعيـات أخـرى أصـغر حجمـا معلقة على الحوائط .. يمر الشيخ يوسف الحرمى وينظر بزهو إلى مـا أنجـزه ، معلنـا أنـه أول مصنع فى الخليج يقام على أساس علمى ودراسة عميقـة قـام بهـا ابنـاه اللـذان يدرسـان فى إنجلترا .

دخل الصيف بحرارته ورطوبته وتـم افتتـاح المصـنع فى حفـل حضـره كبـار قطـر وقـام التليفزيون بتصوير أقسامه والشيخ يوسف الحرمى يقف بين ولديه بخيلاء وفخر ويشير إلى جهودهما فى نقل مصنع مشابه بإنجلترا وأنه سيقوم بالتصدير إلى كل دول الخلـيج ، أبـواب ونوافذ وخشب أرضيات جاهز للتركيب .. تحدث عن الطاقة الإنتاجيـة وأن هنـاك خطـة مستقبلية لتصنيع الأثاث المكتبى والفندقى بدلا من استيراده من الخارج .. طلـب منـا أن نحضر حفل الافتتاح بزى رسمى ، ارتديت رباط عنق وقميصا نصف كم وكـذلك كومـار الذى انتقل بشكل كامل للعمل فى المصنع وتـرك المخـزن نهائيـا وكانـت شـانتى الوجـه الأنثوى الجميل الذى أضاف الى الصورة التليفزيونية رونقا وجمالا ترتدى « سارى » هنديا مزركشا به كل ألوان الطيف ، مثل رقبة الحمامة .

أحسست أن فترة الإعداد لافتتاح وتشغيل المصنع تساوى الفترة التى قضيتها بالدوحة كاملة ، عمل طوال ما يزيد عن أربع عشرة ساعة يوميا ، وأسال من حين لآخر عندما اختلى بكومار عن سير عملنا ، تجارة الصوانى الألومنيوم ، المنزل الذى استأجرناه ، سير العمل فى المطعم ويهز لى رأسه ولا أدرى ما بداخلها ، أعطانى أربعة آلاف ريال إيراد خمسة شهور وهذا يعنى نقص فى العوائد إلا أننى لم اسأله .. ذهبت مباشرة للبنك أودعتهم وفتحت الأجندة الخضراء ودونت المبلغ وبدأت رأسى تتجه نحو تلوانة مرة أخرى .. فاطمة وأمى وخميس وسويلم والشيخ على ماضى وعمى وداومت الاتصال مرة أخرى بأخى عطية فى الكويت ، وعدت لمقهى الريان كل خميس مرة أخرى .

مكالمة لفاطمة الحلوة فى تلوانة ، تشتكى من الوحدة والكوابيس التى تأتيها ليلا وقيامها فى منتصف الليل تتحسس ولديها وتسأل متى سأرسل لها التأشيرة وتذاكر السفر . كل ما كنت أتمنى سماعه خبر حملها ، فهذا يعنى تأجيل حضورها للدوحة عاما أو عامين آخرين ، إلا أنها لم تتطرق إلى موضوع الحمل وعندما سألتها ، نفت وقوعه ، إلا أننى حسمت موضوع القلق والكوابيس ، فهى ربما تريد الانتقال للإقامة مع أمها نبوية الداية وتختلق قصة الأحلام الرهيبة تلك وفزع الليالى ، فإذا كانت تخاف أن تقيم وحدها فى شقتنا ، فعليها الانتقال لتقيم مع أمى وإذا كانت لا ترغب ، فعليها دعوة أمها للإقامة معها فى شقتنا فى بيتنا الجديد وغير مسموح لها على الإطلاق بالانتقال للإقامة مع أمها . أما تأشيرة السفر والتذاكر فهى تحتاج بعض الوقت لطول الإجراءات وعليها أن تصبر قليلا « ومفيش حاجة بالساهل » .. رغم عدم اقتناعها بكلامى وعدم ثقتى فى حديثها ، إلا أنها انتقلت للحديث عن المنزل الجديد والذى يشرف على بنائه عبد الله زوج أختى ، فقد انتهى من بناء الدور الأول ورفع أعمدة الدور الثانى وقام بتركيب السيراميك وانتهى من الدهانات وغير ذلك وتقفز لتسأل متى ستنتقل هى والأولاد للإقامة فى المنزل الجديد ؟! .

انتقلت للمطار لاستقبال القادمين الجدد الذين انتقاهم وأجرى لهم الاختبارات الشيخ على ماضى كما قال لى وأضحكنى ، ثلاثون شخصا ، كنت اتفقت مع كومار أن يستضيفهم فى المنزل الذى أطلقنا عليه منزل الهنود إلى أن يتم تدبير مسكن لهم .. ارتديت القميص ورباط العنق والذى يضيف بالفعل هيبة وقيمة ، وتم نقلهم فى ست سيارات أجرة إلى منزل كومار وأعطيت كل سائق ثلاثة ريالات فقط وذهبت وراءهم فى سيارة أجرة مستقلة .. فى مطعم كومار جلسوا ، تناولوا شايا وقهوة ورحبت بهم ومارست عليهم دورى الجديد كمسئول فى المصنع والمخزن .. طلبت منهم التخلص من « النعرة الكدابة » فهم قد جاءوا هنا للعمل ، كنت أتمنى منهم أن يصبحوا مثل العمال الهنود ، قلوبهم على بعض ، لا خلافات ولا مشاحنات ، أى شكاوى فيما بينهم لا يجب أن يعرفها أحد ، عليهم الرجوع إلى فى كل كبيرة وصغيرة ، فأنا أقدمهم هنا وكلنا فى الأساس منايفة وكتمت ضحكة عندما تذكرت مقولة محمود عجورة زيرو 48 فرز أول ، عيال نقاوة ، منوفية .. منوفية .. منوفية ، المقطع الذى أضافه أطفال تلوانة على نشيد عجورة القومى ! .

الفلسطينى يزرع بجانبه عشرة من الفلسطينيين والسودانى يزرع قبيلة بجواره ، تسانده وتشد أزره وتقويه ويفسحون مجالات العمل لبعضهم البعض وفى مقهى الريان يحلو للمصريين القول « إن المصرى فى الغربة يخلع مصرى » لكنه مجال رزق جديد لى وللشيخ على ماضى والذى لم يطلعنى حتى الآن ، كم تقاضى من كل فرد فيهم وما هى التكلفة الحقيقية للسفر .. فى التليفون أدركت أن الشيخ على ماضى رفع السعر ، ألف وخمسمائة جنيه من كل واحد ، إيصال امانة بخمسمائة جنيه ، يسددها حينما يصل فى أول إجازة ويسأل هل هناك طلبية جديدة من العمال ، فقد ذاع صيته فى القرى والمراكز المجاورة وتخلى تماما عن قراءة القرآن فى المآتم وعين ولدا فى القرية يدرس فى الأزهر لإقامة الشعائر فى المسجد مقابل ثلاثين جنيها وقد تفرغ للفلاحة وتسفير العمال ، وأصبحت زوجته راضية عنه تماما ، بعدما رأت المكسب والخير ، طلبت منه أن يسلم نصيبى إلى عبد الله زوج أختى لاستكمال الدور الثانى وشد أعمدة الدور الثالث .

شهر يوليو موعد سفر عطية لتلوانة ، هاتفته ، اطمأننت عليه وعلى أولاده قبل سفره ، أخبرنى بأنه ادخر ما يكفى لشراء أرض عمى كلها وأستاذننى فى إقامة سور حول القراريط الأربعة التى اشتريتها من عجورة ، للتفكير فيما بعد فى تحويلها إلى مخزن أو مصنع صغير ، لم أمانع ، فقد يأتى لها زبون لاستئجارها وتضاف عوائد جديدة لمدخراتى .. أوضح أن التفاوض مع عمى لن يكون سهلا ، خاصة عندما يذهب هو إليه ولذا فكر فى عملية بناء السور ، فهو الطعم الذى سيجذب عمى ليسأله عما يفعل وإذا كان لديه فائض من المال لشراء الأرض وحينذاك قد لا يدفع له ثمن الأرض كلها ويستطيع تأجيل دفع بعض القيمة إلى العام المقبل .

عطية هذا « دماغ » ينطبق عليه مثل أمى عندما كانت تتهم نبوية الداية بأنها تحفر البير بإبرة أو دبوس ، هو يعلم « زنقة » عمى ، إلا أنه يريد أن يطرد الطمع من رأسه قبل إتمام الصفقة ، أبى لم يكن بهذا الشكل وربما تعلم عطية هذا من غربته أو من حميه أبوعودة الراجل « الفهمان » على رأى محمد سعد فكه.

أجلت مكالمة فاطمة إلى أن ينزل عطية وأولاده إلى مصر ، فالرحلة عن طريق البر قد تستغرق منه أربعة أيام أو خمسة، ستدب الحركة والحياة فى دارنا ، اتصلت بها ، نوبة من البكاء والنهنهة .. عطية وصل .. ينزل كل عام ليشاهد أمه وأخته وأنا لا أنزل ولا أسأل ، حاولت تهدئتها ، فوجود عطية وأولاده فرصة جميلة خاصة أن رضوى صديقتها ويحبان بعضهما البعض ، كما أن أولاده الأربعة سيفرحون بخميس وسويلم ، بكت بشدة ولعنت حظها وسألتنى عن العمل والبناء الجديد فى المنزل والأخشاب وحديد التسليح الذى أحضره عبد الله وقالت إن الدور الأول قد استكمل وقد ذهبت هى وهناء إلى هناك واستمرت فى الأسئلة .. وهل سيستمر البيت خاليا إلى أن آتى أو من الممكن أن تنقل «عفشها » إلى هناك والإقامة فى البيت .. وفكرتنى بوعدى أن يكون هذا البيت لنا ولأولادنا وهل ما زلت على وعدى أم غيرت رأيى .. أسوأ ما فى غربتى « تنغيص » فاطمة بنت نبوية الدائم ، فى تلوانة لها أساليبها فى « التنغيص » وعلى بعد تمارس دورها بطرق أخرى .

كنت قبل الزواج أسعد حالا ، بعده انشطرت رأسى شطرين ، أعيش مشاكل الدوحة ومتاعب العمل وأنام وأصحو على شكاوى فاطمة من تلوانة ، وأتمنى مع كل مكالمة أن تزف لى خبر حملها ، إلا أنه لم يحدث مما زاد من قلقها وقلقى ، فهى لا تعلم ماذا تريد ، هل ترغب فى المجىء إلى هنا ، أو الانتقال إلى المنزل الجديد ، هل تبكى لأن عطية يحضر كل عام أو لأن أسرة عطية معه وهى فى تلوانة وحدها ولكنها ليست وحيدة بينما أعيش أنا هنا الوحدة والقلق فى آن واحد ، سلوتى الوحيدة الآن فى الأجندة الخضراء ، اكتفيت بأن أجعل حساب الشهر كله فى سطرين أو ثلاثة على الأكثر ، نجحت حتى فى الاقتصاد فى الكتابة إلا أن الجزء الأعظم من المكاسب يأتى من إيجار المنزل وعوائد المطعم وقد تراجعت بعض الشىء مبيعات الصوانى الألولمونيوم .. أصبح العمال المصريون فى المصنع مصدر فخر آخر ، فقد التزموا بما ذكرته لهم من تعليمات ونصائح أهمها الصمت أثناء العمل ، فلا مناداة بأصوات مرتفعة ولا سب فيما بينهم ولا مزاح ، الشيخ يوسف الحرمى يثنى عليهم وشانتى تتساءل هل كل رجال مصر مقاس واحد « اكس اكس لارج » لقد اختار الشيخ على ماضى بالفعل عمالا فى صحة جيدة ، طوال و« عراض» وكأنهم جميعا مقاس واحد ! .

المشكلة الوحيدة أن كومار كل يوم يكتسب أرضا جديدة ربما تكون على حسابى وبمساعدة شانتى ، فأنا وإن كان الشيخ يوسف الحرمى قد عهد إلى باستقدام العمال إلا أنه أعطى كافتيريا المصنع لكومار وأحضر أحد بلدياته لإدارتها ورغم أنها لا تعمل إلا ساعة واحدة فى اليوم إلا أنها تدر عوائد قد لا تقل عن مائة ريال .. أنها نصيبه .. إلا أن ذلك لا يتم بعيدا عن مساعدة شانتى ، كما أنه أصبح الأكثر قربا لولدى الشيخ يوسف الحرمى واللذين يحضران فى تمام السابعة صباحا ويمكثان حتى السابعة مساء وسرعان ما قسما العمل والحضور بينهما بعد عدة شهور ، يحضران صباحا وينصرف أحدهما الساعة الواحدة ظهرا والآخر يستمر إلى أن يطلق المصنع صفارة الانتهاء ويتبادلان الورديات .. كومار بدأ يتجنب الحديث معى تماما ، خاصة وأن فترة ذهابى إلى المصنع أصبحت بعد الظهر فأنا فى المخزن صباحا وظهرا أنتقل إلى المصنع وأترك الشيخ يوسف الحرمى فى المخزن بعد أن تكون حركة البيع والشحن والتفريغ قد هدأت .. سألت كومار عن سبب عزوفه عن الجلوس أو حتى الوقوف معى ، هز رأسه فى إشارة تعنى أنه سيتحدث معى فيما بعد ! .

لم أجد سببا واضحا لفتور علاقة كومار بى ، عندما يصمت يزداد قلقى منه وعندما يتحدث أتوجس خيفة وبين صمته وحديثه يزداد قلقى قلقا . كومار يريد أن يفك الشراكة التى بيننا ويريد أن أنقل الصوانى الألولمونيوم إلى منزلى وأن أبحث عن بائع بمعرفتى ، ما الأسباب التى دفعته لطلب ذلك ؟ ، لا شئ واضح ولا أسباب ، فض الشراكة يعنى ، أننى سأعيش على مرتبى فقط من شركة الشيخ يوسف ولا مكاسب أخرى ستدخل جيبى أو بنكى أو أجندتى الخضراء .. هل حدث منى شئ أساء كومار فهمه ، هل قرر كومار أن يستقل بالعمل هو وأخوه ؟ خاصة وأننى لم أعد أقدم شيئا وأصبح مشروع الشراكة يمول نفسه بنفسه ولم يعد كومار فى حاجة إلى تمويلى لمشروعاته وأحلامه .. هناك شئ غامض وراء تحول كومار لا أعرفه .. قام بتسليمى ألفي ريال مؤكدا أنها آخر عوائد المطعم والمنزل حتى تاريخه وأن هناك ألفي ريال آخرين قيمة ما دفعته لترميم المنزل وشراء بعض الأشياء فى المطعم عند إنشائه وطلب منى أن اصطحبه إلى صاحب المنزل لتغيير عقد الإيجار باسمه أو اسم أخيه ، الأمور لا تحتمل « معلش » .. « وعشان خاطرى » .. « وإيه الحكاية » .. « والعيش والملح » ، كومار اتخذ قرارا ولابد من الاستجابة له وترك الأمور إلى أن تتضح الصورة بكامل أطرافها .. ذهبت معه إلى مالك المنزل ، رفع القيمة الإيجارية الجديدة إلى ألف ريال ، دفع المبلغ وتسلم العقد الجديد باسم أخيه أوسكار الذى لم يحضر الجلسة .

كنت أظن أننى فهمت الهنود ، إلا أننى « طلعت » هندى لم أفهم شيئا رغم علاقاتى الطويلة بكومار. بدأت أتشكك فى كل الناس ، لم أعد أذهب للمقهى وإذا رأيت كومار فى المصنع أتجنب أن أضع عينى فى عينيه ، حتى شانتى التى كانت بالنسبة لى زهرة عشقت أن أطالعها وأنظر إليها مليا كلما رأيتها ، كنت أدير وجهى عنها وإذا طلبتنى للتحدث معى فيما يخص العمل ، أخفض وجهى وأنظر إلى حواف حذائها أو صندلها ولا أرغب فى مطالعة تقاسيم وجهها الذى ألفته وأحببته حبا من نوع خاص وغريب .. الغربة فيما يبدو لها قوانين لا أعرفها والناس أنواع يصعب حصرها أو معرفتها .

علاقتى بالعمال المصريين دخلت دائرة الجزر والانحسار ، لا أحاديث طويلة معهم ، سلام أو تحية صباح ولا أكثر ، فعلاقتى مع كومار كانت مضربا للمثل وقد تحولت دون أسباب لا أعلمها ، لم أعد أسال فى تلوانة أو أخبارها ولم أفتح الخطابات التى وصلتنى .. « الناس مش ناس » .. والعلاقات وإن كانت تكسوها من الخارج مشاعر إلا أن أساسها مصالح وعندما تنتهى المصالح « خالتى وخالتك وتفرقوا الخالات » ! .

شهور وأنا فى حالة من عدم التوازن ، لقد قضى عطية زيارته فى تلوانة وعاد للكويت وأرسلت لفاطمة خطابا وحيدا ، أبلغتها بأننى مريض منذ فترة ولا داعى أن تبلغ أمى ، تركت لحيتى وحاولت أن أخلع كومار من رأسى ، فكم من العلاقات الإنسانية انتهت فجأة .. إما بانشغال الناس الحقيقى أو الوهمى أو بالبحث عن معارف وأصدقاء جدد يتناسبون مع المرحلة الجديدة ، ربما يكون كومار قد فعل ذلك بعدما أصبح يرتدى قميصا أبيض اللون ورباط عنق وتحول وترقى إلى منصب المسئول المالى الأول فى المصنع ولكن كما تطور هو ، فقد تطورت انا أيضا ، لقد جئت إلى الدوحة كما جاء وأصبحت الآن من أصحاب الأملاك فى بلدتى تلوانة وكما فعلت فعل هو وأصبح من أعيان كيرالا ، ينظرون إليه الهنود العاملون بالدوحة بكثير من الإجلال والاحترام وينحنون له عندما يقابلونه فى الشارع ! .. ماذا حدث ؟ .

جاءتنى شانتى ليلا ، أوقفت السيارة أمام باب منزلى وأطلقت بوق سيارتها ، خرج إليها العمال المصريون الذين يعيشون فى منزلى ويعملون فى المصنع ، رحبوا بها ترحيبا شديدا ، كادوا أن يحملوها من فوق الأرض .. دخلت حجرتى وجلست على طرف السرير والعمال جوارها من كل جانب وكل منهم أحضر لها شيئا تشربه أو تأكله .. منهم من أحضر علبة مياه غازية ومنهم من أحضر بعض الفاكهة ، تشكر هذا وذاك باسمه ، ثم طلبت أن تجلس معى وحدى لبعض الوقت وانصرف العمال من الحجرة .. إلا أنهم ظلوا فى باحة المنزل .. جاءتنى بخبر أن كومار سيسافر إلى الهند إلى كيرالا بعد ست سنوات قضاها فى الدوحة منهم أربع سنوات معى ، سيسافر فى إجازة طويلة سيتزوج خلالها وأنه قبل سفره يريد أن يجلس معى وقد أخبرها بكل شىء وهى تفضل أن تكون الجلسة عندها فى منزلها وأنها ستعد عشاء هنديا لم أتناول مثله فى حياتى وقبل أن تنهض أثنت على كومار الرفيق الطيب المخلص الذى يحبنى ولا يرغب فى أن يغادر الدوحة دون تصفية الوضع المأزوم معه ، فهو لا يحب أبدأ أن يكون سببا فى إيذائى أو يسبب لى مشاكل من أى نوع .

23

أخبار تلوانة لا تطمئن ، كلما اتصل بالشيخ على ماضى ترد على زوجته وتخبرنى أنه غير متواجد وعندما اتصل بدارنا ترد على أمى وفاطمة ، شعرت أن الأمور بينهما ليست على ما يرام ، خاصة بعد انتقال حماتى نبوية للإقامة فى شقتى مع زوجتى وامتناعهما الدائم وبحجج واهية على ترك خميس وسويلم مع امي، ويبدو أن المنزل الجديد سيدمر حياتى ، فاطمة وأمها فى حالة سعار للانتقال إليه وكلام نبوية مثل الرصاص ، فهى تدعى أن المنزل يسكنه البوم والغربان مما استدعى تدخل أمى ولولا خطابات هناء ما كنت عرفت ما يحدث فى تلوانة .. هناء لم ترسل لى خطابات منتظمة من قبل وكانت تكتفى بخطابات زوجها عبد الله وترسل لى فيها السلام ، بدأت هى تراسلنى بانتظام ، كل ثلاثة أيام يصلنى منها خطاب ، تحكى لى عن كل ما يحدث فى تلوانة ، لقد انتقلت للإقامة فى دارنا مع زوجها ، إقامة دائمة وعبد الله يبيت فى دار أمه فى بير شمس كل خميس وجمعة .

«أما الشيخ على ماضى فربنا يفك حبسه » .. كادت هذه الجملة فى خطاب هناء أن تطير رأسى ، فلماذا حبس وزوجته التى حاولت الاتصال بها أكثر من مرة لم تبلغنى بشئ ؟ .. جاءت الشرطة إلى دار على ماضى فتشته واصطحبته إلى المسجد لتفتيشه أيضا .. عثروا على بعض جوازت السفر لعمال من بلدان مجاورة وبعض صور عقود العمال الذين أرسلهم إلى الدوحة ، من تلوانة إلى الباجور ومن قسم الشرطة إلى النيابة ذهب معه عبد الله .. حبس أربعة أيام على ذمة القضية ، التهمة القيام بإلحاق العمالة المصرية بوظائف فى الخارج دون الحصول على إذن أو تصريح من الجهات المختصة ، بعد الأربعة الأيام الأولى ، نظر وكيل النيابة فى أمر حبسه وقرر الإفراج عنه بكفالة خمسمائة جنيه وتحدد نظر القضية بعد شهرين .

عمى يمارس نفس دور عجورة « يشنع » على الناس ويستخدم محله لبث الإشاعات ، فقصة جوازت السفر وعقود العمل هذه لم تدخل دماغه وهناك أسباب أخرى للقبض على الشيخ على ماضى ويطرح على رواد محله وضيوفه أسئلة خبيثة تشكك فى سلوك الشيخ .. كان خطاب عبد الله أكثر وضوحا وتحديدا من الخطاب الذى أرسلته هناء .. عمى يتساءل إذا كان الموضوع يخص قصة الجوازات وعقود العمل ، فلماذا قامت الشرطة بتفتيش المسجد .. لقد ظهرت علامات الثراء على الشيخ على ماضى وقام بتعيين شيخ تلميذ يساعده ، بل يقوم بأداء الشعائر فى المسجد وتفرغ هو لقضية الجهاد وتخزين الأسلحة للجماعات الإسلامية ويفتى عمى بأن تخزين الأسلحة يدر أرباحا هائلة مقارنة بتخزين المخدرات ولا أحد فى البلدة يرد عليه أو يحاول أن يوقفه عند حده .

عبد الله سأل واستقصى من معارفه فى الباجور وعلم أن القصة كلها وشاية أدت إلى القبض على الشيخ وأن المحامى صديقه أخبره أنها ليست بقضية على الإطلاق وأنه سيحصل للشيخ على البراءة من أول جلسة لكن هناك من أوصى بإلقاء القبض عليه وتجريسه فى البلدة ، بعدما بدأ يتردد عليه موظفون وعمال وخريجو جامعة من القرى المجاورة ، كل منهم يحاول أن يبحث عن فرصة سفر للخارج ، خاصة وأنه لم ينصب على أحد ، فقد انتشرت مكاتب النصب فى الباجور مثل بقية المدن ، إلا أن الثلاثين عاملا الذين سافروا إلى الدوحة أرسل بعضهم رسائل إلى أهلهم وذويهم وأصدقائهم يخبرونهم ، بما حدث معهم وأنهم وجدوا من ينتظرهم فى المطار ونقلهم إلى مسكن مؤقت ، ثم إلى المصنع حيث العمل مما جعل العديد يسأل عن الشيخ على ماضى وذاع صيته ! .

فى التليفون ، كان الشيخ على ماضى رابط الجأش وانتابته نوبة من الضحك ، حكى أن الحبس كان نزهة وتجربة جميلة ، تقابل مع أناس لم يحتك بهم طوال حياته ، إلا أن أكثر المشاهد إيلاما ، خروجه من مركز شرطة الباجور إلى النيابة وفى يده فردة قيد حديدى والأخرى فى معصم الصول الذى اصطحبه ، وأمام النيابة وبجوار المدرسة الثانوية امرأة تقلى طعمية ضربت رائحتها فى « نغشيشه » ، طلب من الصول أن يفك قيده ويتناولا سويا الإفطار ووافق الصول ومع آخر« لقمة »

فى فم الصول طلب أن يعطيه يده ليضعها فى القيد مرة أخرى ، إلا أنه أخرج له جنيها من جيبه وصارا أصدقاء وعندما أفرجت عنه النيابة كان ولابد من عودته إلى مركز الشرطة والقيد فى يده ، لأن قرار النيابة يقول «يفرج عنه ما لم يكن على ذمة قضايا أخرى » .. والمركز هو الذى يعلم القضايا الأخرى وحتى لا يسير فى الشارع الرئيسى بالباجور وفى يده « الكلبش » .. نفح الصول جنيها ثانيا وبضع برايز » .. مكالمة الشيخ على ماضى دخلت فى ثلاثين ريالا ، حمدت الله على سلامته وطلبت منه أن يرسل لى خطابا يحكى لى عن كل التفاصيل .

من المنزل للمصنع ومخزن الأخشاب ولم يدخل جيبى أو بنكى أو أجندتى الخضراء سوى مرتب الشيخ يوسف .. سألت صبى المقهى عن شخص أمين ليعمل معى فى بيع الصوانى الألمونيوم مقابل عمولة لا أجر ثابت وأحدد له سعرا وما زاد فهو حلال عليه .. طلب مهلة يومين ، أحضر لى شابا صعيديا جاء إلى الدوحة مثلى ومثل غيرى بتأشيرة مفتوحة ويسعى على رزقه وكفيله يطارده ، اتفقنا ، يمر على منزلى عصرا ، ينزل « سقاطة » الباب الخارجى ويحمل ما يستطيع حمله من صوان إلى سوق الحراج ولا يأتينى إلا بعد التاسعة ، يسلمنى ما باع به ويتسلم عمولته ، اتفقنا على ريالين عن كل صينية وبدأت العجلة فى المسير ، يبيع كل ليلة ما لا يقل عن خمسة عشرة صينية أو ما يزيد ويأتى لى حراس المساجد بالصوانى من جديد ويتقاضون أيضا عمولتهم أو « حسنتهم » .

زادت عوائد هذا الشهر وزادت مشاكل فاطمة مع أمى .. تهدد بترك المنزل والذهاب إلى دار أمها ما لم أحسم الأمر وأرسل لها التأشيرة والتذكرة أو أتركها تنتقل إلى المنزل الجديد .. لقد عادت نبوية الداية من جديد تنفخ فى روح ابنتها بعدما ظننت عكس ذلك ، روائح أمها غير المحببة تفوح من بين سطور خطابها الذى أرسلته ولم تكتب لى كلمة واحدة عن خميس وسويلم ويبدو أنها حزمت أمرها لوضع « العقدة أمام المنشار » .. إما القدوم إلى الدوحة أو الانتقال إلى المنزل الجديد ولا خيار آخر أمامى .

« البلف » لن يجدى معها والوعود لم تؤت ثمارها ، التجاهل أفضل أسلوب ، نفس الأسلوب الذى اتبعه معى كومار قبل أن يعلن عن رغبته لفض الشراكة معى ، خطاب فاطمة قرأته أكثر من مرة ومزقته قطعا صغيرة وكأنه لم يصلنى ولم أقرأه وقررت تركها هى وأمها دون الرد عليها أو السؤال فيها ، وإمعانا فى التجاهل كتبت خطابا لأختى هناء وبأسمها ، ليصلها وتراه فاطمة وتعلم أننى لن أخضع لتهديد أو ابتزاز ، تعمدت أيضا ألا أسأل عن خميس وسويلم رغم اشتياقى لهما وأرسلت الكثير من السلامات إلى أمى .

« مشكلة النسوان » كما يقول الشيخ على ماضى .. لا وقت للحديث عنها الآن ، فقد حددت شانتى موعدا لحضورى إلى منزلها وتناول العشاء مع كومار وتسوية الأمر .. « الغنام كومبوند » خلف السنتر وعلى بعد عدة أمتار من فندق« رامادا » .. كيف قضيت هذه السنوات فى الدوحة ولم أذهب إلى هذا المكان ؟ .. التاكسى يسير فى اتجاه الخروج من العاصمة ، الشوارع أهدأ وأجمل .. فيلات على جانبى الطريق .. قرميد أحمر على أسقف المنازل مثل ما نشاهد فى الأفلام الأجنبية ، الأشجار على جانبى الطريق مقلمة كلها بطريقة واحدة .. إلى « الغنام كومبوند » .. سور ضخم ممتد عليه نباتات متسلقة .. روائح فل وياسمين وزهور أخرى لم أشمها فى الدوحة ،ساعدت الرطوبة على تعليقها فى الفضاء .

بوابة ضخمة حديدية ، مغلق نصفها ومفتوح الآخر ، توقف سائق التاكسى أمام البوابة سأله الحارس ، فيلا الشيخ يوسف الحرمى ، شوارع أقصر طولا داخل الكمبوند والذى يعنى مجمع سكنى ، النجيل المزروع على الأرصفة وفى الممرات يختلف عن النجيل الذى شاهدته من قبل ، لونه أخضر فاتح مثل خضار« السريس » أو الخس وأعمدة الإنارة بعضها يأتى من جانب الأرصفة ، ويدور سائق التاكسى ويدخل من طريق إلى آخر ويهدئ من سرعته أمام البوابات لعل وعسى أن أقرأ اسم الشيخ يوسف الحرمى على أحدها ، لا حراس لتسألهم .. أطفال أجانب وأسيويون يلعبون بجوار الفيلات ، لمحت عينى بابا مميزا من خشب الأرو الفنلندى بلونه الطبيعى ، طلبت من سائق التاكسى التوقف .. يافطة نحاس صغيرة إلا أنها تلمع بشدة وكأن هناك من لعقها بلسانه « يوسف الحرمى وأولاده » .. أربعة ريالات فقط لا غير ، أخذها سائق التاكسى وانصرف .

ثلاث درجات رخامية بنية اللون تؤدى إلى مدخل المنزل أو الفيلا ، دور واحد ، وسقف قرميد وحديقة صغيرة تحيطه من جهاته الأربع وجراج مفتوح فى الجانب الأيمن تظهر فيها سيارة شانتى وسيارتان أخريان .. لقد جئت قبل موعدى بما يقرب من الثلاثين دقيقة ، هل أدق جرس الباب أو أنتظر قليلا وأنظر إلى هذا المكان الجميل الذى صبغته الشمس بأشعتها اللينة قبل الغروب ، قد تمتعض شانتى لرؤيتى قبل موعدى وقد ترحب وبدلا من هذا أو ذاك لماذا لا أتجول فى المكان إلى أن يقترب ميعادى .

المكان يختلف عن الوكرة التى شاهدتها أول مرة عند قدومى من مصر ، الوكرة مدينة الشيوخ الحقيقيين وأعضاء الأسرة الحاكمة وأقاربهم ، كلها قصور ضخمة وحراس أشداء ، أغلبهم يحمل السلاح ، هنا يبدو أن المكان يسكنه الشيوخ الأثرياء ، الذين يمتلكون ولا يحكمون أو كبار موظفى الدولة من الأجانب ، البساطة هى السمة الغالبة والأشجار الموجودة لم أرها من قبل .. لا كافور ولا شعر البنت ولا توتة توسخ المكان .. سألت نفسى كم يكون إيجار الفيلا هنا ؟ .. إذا كانت تعرض للإيجار ؟ .. ربما لا يقل إيجارها الشهرى عن خمسة أو سبعة آلا ف ريال ، لكل مكان طعم ورائحة ومذاق .. وتلوانة ؟ .. أحلى الأمكنة ، قد قالتها شانتى من قبل « لا مكان مثل الوطن » .. وضغطت على جرس الباب .

قادنى شاب هندى للجلوس فى صالون ، لوحات فنية معلقة على الجدار وسجادة أخشى أن أدوس عليها بقدمى من جمال رسومها ونظافتها ، تجولت عيناى ، هذا الصالون جلست على مقعد مشابه لمقاعده من قبل ربما يكون فى منزل خالى خميس أو الدكتور خميس الذى جاء بكل أثاث منزله من أمريكا بعد أن قضى هناك عدة سنوات يدرس الدكتوراه .. دقائق ودخل الهندى يسألنى ماذا أشرب ؟ .. سألنى إذا كنت أرغب فى سماع موسيقى ودون أن أجيبه تحرك تجاه راديو من ثلاثة أدوار وأدار الزر وتركنى .. دق جرس الباب ، ربما يكون كومار ، إنه بالفعل ، دخل وجلس على مقعد مواز لى وليس أمامى ، ألقى التحية ولم تلامس بؤبؤة عينى عيونه ودخلت شانتى رحبت بنا .

. قالت إن المنزل يخص أسرة الشيخ يوسف وولديه وأنهما يعيشان هنا وأمهما أختها من المتوقع حضورها من الهند الشهر المقبل .. وقالت أنها الزوجة الثانية للشيخ ، تزوجها فى الهند واشترطت الإقامة بها وقد وافق وعندما حملت أصر على اصطحابها إلى الدوحة لتضع مولودها ، فوضعت التوأم جبر وجابر وأشارت إلى صورة موضوعة لهما على بايوه صغيرة فى ركن من الحجرة ، إلا أنها عادت بهما إلى الهند وهناك تعلما وأكملا دراستهما فى إنجلترا وعادا ثانية إلى الدوحة .. جبر وجابر مثل خميس وسويلم توأم فهل سأرى ولدى مثلهما . قطع الشابان « سرحانى » بظهورهما فجأة ، رحبا بى وبكومار واستأذنا خالتهما شانتى فيما يبدو للانصراف وعاد الشاب الهندى يحمل صينية عليها عصائر ومياه غازية .

ملأت عينى بالنظر لشانتى وسرحت فى « مشكلة نسوان » الشيخ على ماضى ، النساء عندنا لا يشغلهن سوى الأكل والنوم وسماع الحكاوى ونسج الحواديت ، النساء عندنا ليس بينهن شانتى ، فأمى لا تختلف كثيرا عن نبوية الداية وفاطمة الحلوة « مراتى » مثل هناء أختى ، نساء لا يهمن إلا ما يمسكن ويفرضن عليه سيطرتهن سواء كان زوجا أو ولدا أو دارا وعقارا أو مالا .

نهضت شانتى بحركة رشيقة لتقودنا إلى حجرة الطعام ، ما جئت لأجله لم تتطرق إليه ، لم تشر شانتى إلى الأزمة التى بينى وبين كومار وكيفية تصفيتها « الخراج عاوز اللى يصفيه » كما تقول أمى .. لكن شانتى بالفعل غير أمى وغير زوجتى وغير أختى .. المائدة ممدودة ، عليها مختلف الأطعمة والمشروبات ، بعضها فيما يبدو مشروبات كحولية ، مجموعة زجاجات مغلقة بجوار بعضها والآخر فيما يبدو استعمل من قبل وتصل السوائل إلى منتصف الزجاجة .

الحديث يحلو على الطعام واكتشفت أن لغة شانتى العربية أصبحت أقرب إلى لغة المصريين ومددنا أيدينا وإذا بكومار يقسم على قطعة خبز مثلما يفعل المصريون مؤكدا أن ما يقوله هو الحقيقة ولا شىء غيرها وإذا به يعود إلى طلاسم حديثه وأمثاله الشعبية وأقوال مأثورة هندية .. لا أعلم من أين جاء بها وكيف حفظها وإذا لم أفهمها بلغتها الهندية أو الإنجليزية أعاد شرحها باللغة العربية أو اللهجة المصرية أو لغة الإشارات ، باغتنى بسؤاله عن سبب فض شركته معى ، أعلم أن هذا هو الموضوع الرئيسى وراء جلستنا ، إلا أننى لم أتوقع أن يدخل إلى الموضوع مباشرة لكنه لم يجب على السؤال ، لف ودار وحكى « أن تعيش فى الماء وتعادى التماسيح ليس هذا فى صالحك .. « ماشى » .. فهمت هذا المثل وما يهدف من ورائه ، إلا أنه يأكل ويتحدث بنفس الحماس وشانتى التى تجلس على رأس المائدة وجعلتنا نجلس على مقعدين متقابلين لبعضهما كانت تكتفى بالنظر إلينا لتقيس مدى الصدق فى حديثى أو حديث كومار .

« يجب أن تبتعد خمس ياردات عن العربة التى يجرها حصان أو حمار ويجب أن تبتعد عشر ياردات عن الحصان نفسه وتبتعد مائة ياردة عن الفيل ، إلا أن المسافة التى بينك وبين الرجل الشرير يجب ألا تقاس بالياردات .. » هنا تدخلت شانتى .. يجب أن تبتعد عن الشر والأشرار بالأميال ، فهل أنا شرير وأنه فض الشراكة معى لخوفه منى ، لمعت عيناى من الغيظ وتوقفت عن مضع الطعام .. المصريون يسيئون الظن بالناس لا .. لا .. هذه إهانة ، فلا بد أن أترك لهما المكان إلا أن المغادرة قد تكون عواقبها وخيمة ، فلتنتظر يا عبد الحميد يا محمد يا سعد يا فكه « وخلى الردية إلى آخر السوق » .. أوسكار السبب فى فض الشراكة بينى وبين كومار وضعتها شانتى بكل بساطة وأكمل عليها كومار ، لقد جاء أوسكار إلى الدوحة بوصايا خاصة ولم تفلح معه النصيحة ، قالها كومار بتأثر شديد ، نصحته أكثر من مرة وعندما رفض قررت أن أفض معك الشراكة حتى لا أسبب لك متاعب أو إيذاء ! .

كلام غير مفهوم وشانتى تهز رأسها من حين لآخر تؤيد كومار فى حديثه ، أوسكار جاء إلى الدوحة وهو يعلم أن هناك أناسا يفنون حياتهم فى الخليج ولا يعودون منه بشىء سوى حكاوى عن الغربة وآخرين يعودون للهند بعد عام أو اثنين وقد اكتسبوا آلاف الروبيات وافتتحوا مشروعات خاصة بهم ويتندرون على الخليج وأهله واقتنع بالوصايا الخاطئة والنصائح المضللة ، لقد حول المطعم إلى معمل لتقطير الخمور وبيعها للعمال الهنود وآجلا أو عاجلا سيتم القبض عليه وسيتم ترحيله إلى الهند .. المنزل مؤجر باسمى .. لقد أدركت ما فعله كومار لحمايتى ، قمت لأحتضنه وإذا به يذرف دموعا بلا صوت ، عظام قفصه الصدرى أحسست بها فى صدرى وهو يرتجف ، لقد فشل فى إقناع أخيه عن الإقلاع عن صناعة الخمور وبيعها وعندما أدرك أن الأمر قد يصل إلى ما أبعد من ذلك ، قرر تحويل عقد إيجار المنزل باسم أخيه أوسكار ليتحمل وحده وزر ما يقوم به فى بلد تحرم صناعة وتجارة الخمور ، المسافة التى بينك وبين الرجل الشرير يجب ألا تقاس بالياردات ، يجب الابتعاد عنه تماما ! .. صح ؟ .

انتقلنا إلى حجرة الجلوس مرة أخرى بعد تناول العشاء ، وتحولت جهامة شانتى إلى مرح شديد وتحدثت عن رحلة كومار وزواجه من شابة جارة له أحبها لمدة عشرين سنة ! .. وتسخر من الحب وسنينه مثل المصريين وتتساءل عن العمر وكم عشرين سنة فيه ! .. وكومار مثل الفتاة البكر « حدانا » ينظر إلى الأرض ولا يقدر أن ينظر فى عينيها وتسأل كومار عن زوجة المستقبل تلك وهل هى جميلة أو أن الحب أعمى ، الحب يبدو عندهم وعندنا سواء ومثلما بدأ كومار حديثه بالأمثلة تعود شانتى لاستكمالها ، إلا أنها تنتقى منها ما يناسب تفكيرها وقناعتها ، « الحياة قصيرة ، مجرد جسر ، أعبر فوقه ، ولكن لا تبنى عليه منزلا » ، الحياة قصيرة وقد تطول والجسر هنا فى الخليج أعبر عليه ولكننى سأبنى ما أستطيع من منازل فى تلوانة .

أتمنى أن يكون فى منزلى فى تلوانة حجرة جميلة مثل التى نجلس فيهـا ، أتجـول بعيـونى فى أرجاء المكان ، طاولة صغيرة عليها تماثيل من ثلاثـة قـرود ، قـرد يضـع يديـه عـلى عينيـه والآخر يضع يديه على أذنيه والثالث يضع يديه على فمه ، القرود تجلس القرفصاء ، شانتى تتحدث مع كومار بلغتهم « لا أرى .. لا أسمع .. لا أتكلم » ، أعرف هذا المثل مـن مصـر يطلقونه على من يؤثر السلامة ، ويبدو أن الهنـود يطبقونـه عمليـا .. طاولـة أخـرى عليهـا طابور من الفيلة ، الأول كبير ، ووراءه عدة أفيال أصغر حجما ، كل ممسك فى ذيل من أمامه ، هكذا ينزل الهنود الخليج ، يأتى كبيرهم ويمسك فى ذيلـه كـل مـن يسـتطيع مـن الهنـود الصغار ! .

تحدث كومار عن مشكلته مع أخيه أوسكار بعدما فشـلت معـه كـل النصـائح ، أوسـكار أعلن تمرده على أخيه الذى جاء به إلى قطر ، ورفض الاستماع له ، فهو ليس بقاصر ، ويعلم ماذا يفعل و حتى يقطع صلته بأخيه ، قام بتسليمه المبالغ التى دفعها لاستقدامه من الهنـد أمام مجموعة من هنود كيرالا ، أعطاه ثمن تذكرة السفر ، وثمن التأشيرة وطالبه بالاحتفاظ بالنصائح لنفسه ، فهو لا يرغب أن يقضى عمره فى الخليج ، يحكى كومار بتأثر بالغ معلنـا أنه سيعود للإقامة معى . خرجت من منزل الشيخ يوسف ، يدى فى يد كومار ، وبات ليلتـه فى حجرتى ، سألته ماذا سيفعل فى زوجته بعد الزفاف ، الأمور محسومة عنـدهم ، سـتظل هى بكيرالا ، وسيذهب إليها هو كل ثلاث سنوات ، وإذا تحسنت الأمـور ، قـد تـنخفض المدة إلى سنتين ، لم أجرؤ على سؤاله ، عن اسم زوجتـه ، إلا أننـى أخشـى أن تكـون مثـل فاطمة الحلوة « تتمسكن حتى تتمكن » ، وبعدها تحاول فرض شروطها ! .

24

لـن يهـدأ بـال فاطمـة إلا بعـد الانتقـال إلى المنـزل الجديـد .. يقـول عبد الله زوج أختى فى الخطاب الذى أرسله ومعه صـورة للمنـزل ، ثلاثـة أدوار على الطوب الأحمر ، الدور الأرضى فقط تـم تشـطيبه ، وتـم إدخـال المياة والكهرباء للمنزل بعد تقديم الرشـوة المطلوبـة .. خطـاب عبـد الله أقرب إلى كشف الحساب ، كم تركت له وكم تسلم من الشيخ على ماضـى وكم أنفق ، الصورة تشرح النفس ، هذا المنـزل إذا ارتفـع دوريـن آخـرين سيصبح عمارة لا مثيل لها فى تلوانة ، المشكلة فى فاطمة لن يهـدأ لهـا بـال إلا بوضع يدها على المنزل ، ويصبح لها لـيس دارا مسـتقلا ولكـن عمـارة مستقلة ، وقد تأتى بأمها نبويـة الدايـة لتعـيش معهـا وهـذا مـا لا أرغبـه .. بالإضافة إلى كشف الحساب فقد تعلم عبد الله أن يرسل بعـض الحكـاوى والأخبار مثل أهل بلدنا .

المشاكل بين فاطمة وأمى تتفاقم بخصوص الأولاد ، فأمى ترغب فى ترك خميس وسويلم واللذين دخلا عامهما الثالث يلعبان فى صحن الدار ، إلا أن فاطمة تصر على أن يبقيـا فى الشـقة .. أمـى تقـول إنهمـا فى حاجـة لـبعض الشمس والهواء وفاطمة تخشى عليهما من البرد والمرض ..

مشاكل أخرى من نوع جديد فى تلوانة ، أهمها مشكلة الشيخ على ماضى مع عمى ، فالشيخ يظن ويعتقد أن عمى وراء الإبلاغ عنه ، خاصة أن أحاديث الأخير كثيرة « ويرطرط » بالكلام .. اتهم الشيخ بأنه جماعات إسلامية ويخفى أسلحة فى داره ، وأن حكاية تسفير العمال لا أساس لها من الصحة ولكنها قصة حاول بها أن ينفى التهمة عن نفسه والشيخ على ماضى لم يترك عمك فى حاله ، فهو «يلسن » عليه فى الراحة والجاية وآخر مرة رمى كلام على عمك مما جعلهما يتشاجران .. عمك كان جالسا مع جماعة على المصطبة أمام محله ومر عليه الشيخ على ماضى ، ألقى التحية وسأله أمام ضيوفه إذا كان يحتاج قطعة أو قطعتين سلاح ليطارد بها « الديانة » الذين يطالبونه بدفع ديونه بدلا من المنظرة على الخلق ! .

تلوانة أصابها ما أصاب مصر والمصريين ، طولة اللسان وقلة الفعل ، قضية على ماضى لا تستحق منى الكثير من التفكير ، لكن لابد من إرسال خطاب له أطلب منه ألا يتطاول على عمى وأن « يلم » الدور ، أما قضية فاطمة والانتقال إلى المنزل الجديد ، سأتركها لحين ميعاد إجازتى ، حيث إننى لا أفكر فى النزول هذا العام ، وقبل الموعد بفترة ليست ببعيدة وعندما أحدثها فى التليفون وتضع شروطها الغريبة وتسأل عن موعد الإجازة ، أشغلها بشىء آخر وهو السماح لها بالانتقال إلى المنزل الجديد وربما هذا يهدئ بالها ويجعلها أقل توترا .

سافر كومار إلى الهند وترك فراغا وألقى علىَّ بالمسئولية ، فكل المهام التى كان يقوم بها كومار فى العمل سواء فى المصنع أو خارجه ، كلفتنى شانتى بالقيام بها إلى أن يأتى ، وعندما سألته قبل سفره وسألت شانتى بعد سفره عن مدة إجازته ، أجزما أنها شهران أو ثلاثة ، إلا أنه دخل فى شهره الرابع ، واتصل تليفونيا من كيرالا يطلب من شانتى أن تستأذن الشيخ يوسف الحرمى ليمد إجازته لأسبوعين آخرين .

مقهى الريان أصبح دمه ثقيل ، ولا حديث لـرواده مـن المصـريين إلا فى السياسـة والـرئيس الذى اغتيل والرئيس الذى جاء ، مع توقعات بارتفاع سعر الدولار وينصحون بعضهم البعض بعدم التحويل الآن ويتحدثون عن حركـة « التفنيشـات » الكبـرى فى الـوزارات ، والأجهـزة الكهربائية والتكييفات والأثاث المنزلى الذى يباع بتراب الفلوس .

المقهى مرصد من الممكن أن تلتقط منه ما لم تلتقطه أذنك فى أى مكـان آخـر ، يتحـدثون عن انخفـاض متوقـع لإيجـار الشـقق والمنـازل بعـد تفنـيش عـدد كبيـر مـن المـوظفين الحكوميين فى إطار برنامج أطلقوا عليه اسم « قطرنة » الوظائف ، خاصة وأنه أصبح لديهم عدد كبير من خريجى المـدارس الثانويـة التجاريـة والجامعـات الخليجيـة والعربيـة ولا يجدون لهم وظائف ، ورغم أن الفارق الرهيب فى رواتب القطـريين مقارنـة بغيـرهم مـن العرب والأجانب الوافدين ، إلا أنه من حقهم أن يفعلوا ذلك بدلا من ترك أبنائهم عاطلين ، وقيل إن منهم من ذهب إلى بلدان الخليج المجاورة بحثا عـن عمـل ، الأجـواء مختلفـة والأحاديث التى يغلب عليها السياسة أضاعت بهجتها ، كما أن المقهى الذى كـان خاصـا بالمصريين أصبح يتردد عليه العديد من القطريين وبعض العمال السوريين الغلابة الـذين يعملون فى محطات البنزين بأجور زهيدة .

وصول كومار من كيرالا ونزوله مباشرة إلى منزلى ، كان الخبر الذى أفرحنى ، لقـد عـاد .. حكى قصصا وحكايات عن بلده الذى غاب عنه أكثر من ست سنوات ، تحدث عن تطور اجتماعى واقتصادى مشابه لما يحدث فى مصر ، الأثرياء زادوا ثراء والفقراء زادوا فقرا مع استثناءات هنا وهناك .. فى كيرالا يزداد الفقر فقرا كلما بعدت عن البحر واتجهت للداخل ، ورغم أنه ينتمى لفقراء الداخل ، إلا أن سنوات الخليج أحدثت طفرة فى أسرته .. النقـود التى يرسلها لهم يدخرون أغلبها ، هدموا المنزل وأقاموا مكانه منزلا جديـدا مثلمـا يفعـل فلاحو بلدنا .. الدور السفلى منه كله « سوبر ماركت » يـديره أبـوه ويعمـل فيـه عـدد مـن الجيران ، تحدث عن الفرح والعرس وأخرج صورا له ولعروسه وفى الصباح حمل علبة من الحلوى والشيكولاته ليوزعها على العاملين بالمصـنع بمناسـبة زفافـه الميمـون ، الفقـراء يشتركون فى أشياء عديدة لا وسطية فيهـا ، إمـا الحميميـة الزائـدة أو البغضـاء المفرطـة ، يفرحون لبعضهم البعض أو يكرهون بعضهم البعض دون أسباب واضحة أو مفهومة .

سأل أول ما سأل عن أخيه أوسكار ، وإذا كان قد أصابه مكروه خلال سفره أو ما زال يعمل فى تجارته المحرمة واستفسر عما جدَّ فى الدوحة خلال غيابه .. ذكرت له ما يقال عن توقع بانخفاض الإيجارات بعد تفنيش عدد كبير من الموظفين وما يثار حول هذا الموضوع فى مقهى الريان .. استمع بنهم وأوضح أن الأمر يحتاج زيارة للمقهى وغيرها من المقاهى للوقوف على حقيقة الأمر .. سألنى عن أهلى وتلوانة وما تم إنجازه وما لم يتم وإذا كنت سأنزل إجازة هذا العام أو لا .. سأل عن أبناء الشيخ يوسف الحرمى ، جبر وجابر ، وإذا كان الابن الأكبر للشيخ قد ظهر فى المصنع أو المخزن وتحدث عن شانتى بأسى لأنها قد تضيع عمرها دون زواج ودون أولاد .. الغريب أن وزن كومار فيما يبدو قد زاد أرطالا أثناء إجازته فى الهند .. ضحك موضحا أن أمه كانت تعد له ثلاث وجبات وزوجته مثلهم ، يأكل مع زوجته فى الدور العلوى ، وينزل ليأكل مع أمه والتى كانت تسأله مع كل لقمة تقدمها له ، ماذا كان يأكل فى الدوحة ؟ ، وإذا كانت هناك خراف كما يقول لماذا زاد نحافة ؟!.

عطية ما زال يرسل لى خطابات وأرد أنا عليه بالتليفون ، إجازته اقترب موعدها وسينزل معه حموه الفلسطينى أبوعودة ليعاين قطعة الأرض التى خلف منزلى الجديد وإذا كانت تصلح لإقامة مصنع صغير لتجميع لعب الأطفال وفى حالة موافقتى ، أدخل شريكا معهما بقيمة الأرض .. اتصلت به ، طلبت منه أن يفض الاشتباك بين الشيخ على ماضى وعمى ، وأن يهدئ من قلق فاطمة زوجتى وأخبرته أننى لا أنوى النزول هذا العام ، ومن الممكن قبل انتهاء إجازته أن يعلن موافقتى لانتقال فاطمة للمنزل الجديد ، كومار يحسدنى على علاقتى بعطية ويقارنه بأوسكار الذى لا يستمع لنصيحته ولا يستجيب لرجاء .. ومن التليفونات فى مشيرب إلى مقهى الريان ليسمع كومار بأذنيه الأخبار ولنفكر سويا فى الدخول فى شراكة جديدة ، خاصة وأن حسابى فى البنك وأجندتى الخضراء لم يدخلها فلس واحد سوى باقى راتبى وعوائد بيع الصوانى الألومونيوم والتى انخفضت أيضا وكأن أهل الخير اختفوا من قطر .

الأثاث المنزلى المستعمل والأجهزة الكهربائية وأجهزة التكييف ستباع بسعر التراب بعد حركة التفنيشات الكبرى ـ هذا رأى كومار ـ ومن الممكن شراء ما يمكن شراؤه وتخزينه فى منزلى ، على أن يعاد بيعه فيما بعد عندما يأتى للدوحة موظفون جدد ، خاصة وأن هناك حالة تقشف ولم تعد الوزارات توفر سكنا جاهزا لموظفيها كما كانت تعمل من قبل واكتفت الوزارات بصرف بدل سكن شهريا وبدل تأثيث مرة واحدة للقادمين الجدد .. لأول مرة يتخلى كومار عن حذره فى مجال الاستثمار ويعلن استعداده للدخول فى شراكة « فيفتى فيفتى » النصف بالنصف !.. طالت الجلسة فى المقهى وسرقنا الوقت ، عندما نظرت فى الساعة تجاوزت عقاربها منتصف الليل ، فقد ضاعت علامة الرحيل ولم يظهر الرجل صاحب البيجاما الكستور ولم يدخن شيشته الليلة .. سألت صبى المقهى عنه ، تعيش أنت لقد توفى فى مصر .. ذهب لقضاء إجازته فمات ، لم أستوعب الخبر ، تسمرت قدماى .. مات .. الموت علينا حق ولكن كيف .. هل كان مريضا أو يشتكى من علة وكم قضى هنا فى الدوحة ؟ .. قضى سبعة عشر عاما ، كان ينزل شهرا إجازة ، وهذا يعنى أنه طوال هذه المدة من حياته لم يقض مع أولاده ، إلا عاما ونصف العام فقط ! .

لم أنم ليلتى ، أتقلب على السرير وأنظر للسقف وكومار الذى جاء بسريره مرة أخرى لحجرتى يسألنى ماذا بى هذه الليلة ؟ ، أتخيل شكل الرجل وبيجامته ، دخوله إلى المقهى فى صمت وخروجه منها دون إلقاء تحية لأحد .. أتخيل خروجه من الدنيا وبنفس الطريقة ، سبعة عشرة عاما قضاها هنا وحده ، يدخر الفلس على الفلس ، لم أره بغير بيجامته الكستور المقلمة « وشبشب » فى قدمه .. جمع ما جمع من مال ، ربما يكون قد أشترى أرضا فى بلدته ، وقد يكون بنى منزلا مثل الذى بنيته ، وقضى حياته بعيدا عن أسرته . كان يظن ويعتقد ومن المؤكد أنه كان يخطط للاستمتاع بماله ..

ومات ، لا أريد أن أكون مثله ، هل أقضى عمرى هنا ولا أجلس مع أولادى طيلة حياتى سوى عام ونصف عام ؟ .. لا .. لا لن أكون هذا الرجل . ومن الفجرية سأذهب إلى الجوازات ومعى صورة جواز سفر فاطمة و خميس وسويلم ، أقدم طلبا لاستقدامهم .. لن أعيش وحدى .. وماذا عن أولاد الرجل « أبو بيجاما » .. هل حزنوا عليه وعلى فراقه أو أنه قد فارقهم برغبته طيلة حياته ، فجاءت لحظة الفراق الحقيقية أقل إيلاما .. نهض كومار ليعد كوبين من الشاى ويعاود سؤالى عن ماذا أصابنى هذه الليلة ؟ .. صورة الرجل حتى وإن أغمضت عينى ما زالت عالقة ، ثابتة غير مهتزة واضحة المعالم والملامح .

أول من لمحنى فى المصنع كانت شانتى ، سألتنى هل أعانى من شىء ، وهل نمت ليلتى جيدا وما سبب ثقل جفونى واحمرار عينى ، تخاطبنى وتتفحص وجهى بدقة ، أدخلتنى إلى مكتبها واستمرت فى توجيه الأسئلة ، محاولة أن تطمئن على أخبارى بأخوة صادقة ، ماذا أقول لها ؟ ، هل أحكى لها عن المصرى الذى عاش فى الدوحة سبعة عشر عاما ومات فى مصر فجأة ؟ .. هل تعلم أن الموت الفجائى من علامات الساعة ؟ .. هل لديهم فى الهند وفى ثقافتهم ساعة ولها علامات ؟! .. اعترفت لها أننى لم أنم ليلتى ولم يغمض لى جفن ، وأننى قررت أن أستقدم زوجتى وأولادى وأننى سأستأذن ساعة للذهاب إلى إدارة الجوازات للحصول على تأشيرة قدوم لهم .

الهنود مثل الفلاحين عندنا ، يعشقون التوصل إلى « قرار » الشىء ، سألت شانتى عن سبب القرار المفاجئ وغمزت بعينها واتهمتنى بأننى لا أستطيع البقاء دون امرأة وأن الحنين سبب قرارى .. لم أرغب أن أظهر أمامها بمظهر الضعيف ، حكيت لها عن صاحب البيجاما واختنق صوتى بالدموع .. لم تربطنى به صداقة ولم أعرف حتى اسمه ولم يلق على تحية ، إلا أن حزنى لموته كان غريبا .. وربما استشعرت أن نهايتى قد تكون مثل نهايته ، وأننى قد أموت هنا غريبا ، فهو على الأقل قد مات وسط أولاده ودفن فى تراب وطنه ، اتصلت تليفونيا بالشيخ يوسف الحرمى ، استأذنته فى تسليمى جواز السفر وهو أول مستند ينتزع من العامل الغريب بمجرد أن تطأ قدمه أرض الغربة .. الجواز يظل لدى الكفيل .. إذا رغبت فى السفر تحصل على إذن خروج من إدارة الجوازات والهجرة ، هذا الإذن لابد أن تسبقه موافقة صريحة من الكفيل ، ودون موافقته تظل حبيس الأرض والفضاء والرمال فى بلدان الخليج .

بمجرد أن انتهيت من المكالمة ، فتحت شانتى خزانة بها جوازات سفر العاملين لدى الشيخ يوسف الحرمى .. أعطتنى الجواز وطلبت منى أن أسلمه لها بمجرد انتهاء المصلحة .. تقدمت بطلب استقدام لأسرتى ، ليس عندهم « فوت علينا بكره » استلمه الموظف ، راجع بيانات جواز سفرى ، طلب صورة جواز سفر فاطمة ، ختم الطلب ، التأشيرة ستكون جاهزة بعد أسبوعين بالتمام والكمال . لن تأتى أم خميس وسويلم قبل ثلاثة شهور على الأقل أكون خلالها قد أعددت لهم استقبالا حافلا وأكون خلال هذه الفترة قد جنبت جزءا من الدخل الشهرى لتذاكر السفر ، وأعددت لهم منزلا أو شقة واشتريت لها بعض الأثاث القديم .

تذاكر السفر لن تقل قيمتها عن ألفى دينار وخمسمائة والمنزل أو الشقة لابد أن يكون فى جوار مصريين ، « الونس » مطلوب فى الغربة .. ونس دون تداخل ، صباح الخير يا جارى أنت فى حالك وأنا فى حالى .. الأسر المصرية تسكن موقعين فى الدوحة ، وادى السيل وفريق النصر ، إلا أن حكاوى مقهى الريان تعلق فى أذنى ، فقد حكى أحد المصريين المترددين على المقهى أنه أحضر أسرته ثم صرفهم قبل نهاية العام بعدما ارهقته زوجته بالطلبات والشراء ، خاصة وأنه أقام بمنزل بالقرب من المنطقة التجارية العامرة بمحلات الملابس والمصنوعات الذهبية .. الأفضل البحث عن منزل فى وادى السيل ، بعيدا عن العمران ولا توجد فى المنطقة سوى محلات البقالة أو السوبر ماركت .. سأطلب من الأصدقاء المصريين فى المقهى والهنود فى المصنع البحث عن منزل ملائم بإيجار مريح فى وادى السيل ، خاصة وأن بالمنطقة مدرسة ابتدائية قريبة قد يلتحق بها فيما بعد خميس وسويلم .

منزلى الحالى سيظل على حاله وعقد الإيجار سيظل بإسمى ، فهو استراحة للعمال ومخزن للبضائع والصوانى الألومنيوم وقد تنتعش تجارة الأثاث والأجهزة المستعملة بعد حركة التفنيشات المتوقعة وقد يظل كومار فى الحجرة أو قد ينتقل للإقامة مع أهله وأصدقائه الهنود وحينئذ يمكننى تأجير الحجرة منفصلة بمائة وخمسين أو مائتي ريال . عندما تسير الأمور كما خططت لها أشعر بخوف داخلى ، فبعد أسبوعين تسلمت تأشيرة الأولاد . تأشيرة صالحة لدخول قطر لمدة ثلاثة شهور . أرسلت صورتها إلى فاطمة وطمأنتها أننى سأرسل لها تذاكر السفر والتأشيرة إلى مكتب مصر للطيران فى مصر ومن الممكن أن يذهب الشيخ على ماضى لاستلامهم أو عطية إذا تزامن وصول التذكرة مع إجازته فى مصر .

عندما تسرى شائعة بين المصريين فى الخليج سرعان ما تنتقل من بلد الى آخر وعندما تطلق نكتة فى البحرين يتناقلها المصريون فى الكويت مع تغيير طفيف فى الأسماء والأمكنة ، ومقهى الريان أصبح مثل دكان صلاح عجورة تنطلق منها الإشاعات والنكات وتلف وتدور وتعود إلى رواد المقهى . فيصدقونها بالرغم من أنهم هم صناع الإشاعة أو مؤلفو النكتة .. خبر التفنيش ملأ قطر ، كل يوم سيذاع من مقهى الريان خبر من وزارة استغنت عن عدد من موظفيها وعمالها واستعد المصريون ، الأسر سافرت إلى مصر ، وموظفون ظلوا فى انتظار خطابات إنهاء الخدمة ، البعض يعرض سيارته وأثاث منزله للبيع ، آخرون باعوا أثاث شققهم بالكامل وانتقلوا للإقامة مع أصدقائهم « العزاب » . بالفعل انهارت أسعار الشقق والسيارات المستخدمة وأجهزة التكييف والثلاجات وهنا شمر كومار عن ساعديه ، ذهب إلى أحد الجرائد ونشر إعلانا من ثلاثة سطور « نشترى الأثاث المستعمل والأجهزة الكهربائية بأعلى الأسعار .. الاتصال على تليفون بليب رقم ... ، بليب شانتى فيما يبدو واقترض منها مبلغا من المال وانهالت العروض ، بدأنا فى زيارات الشقق لمعاينة الأثاث وتقديم الأسعار ، كومار جدد عرضه بأن الشراكة معه فيفتى فيفتى ، النصف بالنصف ، إلا أنها ستصبح ثلث وثلث وثلث بعدما دخلت شانتى بمالها فى العملية .

فى وادى السيل منزل معروض بأثاثه ، السعر مناسب ، فكـرت فى شـرائه ، عـلى أن يكـون منزلى الجديد بعد قدوم أم خميس وسويلم خاصة وأن المنطقـة بعيـدة تمامـا عـن المنطقـة التجارية والأسواق ، دفعت المطلوب ، إلا أن صاحب الشقة طلب تأجيل التسـليم حتـى نهاية شهر يونيو ، هنا تدخل كومار .. نحن ندفع ونشيل أمـا إذا كـان التسـليم فيمـا بعـد ، فيكفى عربون .. ربـط كـلام ، عـلى أن نسـتخدم بـاقى المبلـغ فى شـراء بعـض الأجهـزة المعروضة فى سوق التفنيش . ما يتم شراؤه يحمـل إلى منزلنـا فى النجمـة مباشـرة ، ويعـد كومار قائمة بالبضائع والأسعار يقدمها يوميا لشانتى والتـى نصـحته بتـأجير منـزل جديـد لتخزين البضائع فيه ، خاصة وأن الأسعار متدنية ، جهاز التكييف المستخدم وطبقا لحالته يتراوح بين ثلاثمائة ريال وخمسمائة ومكسبه عند البيع وبعد تنظيفه وإجراء بعض الصـيانة اللازمة لا يقل عن مائة فى المائة من سعره .

ننتقل من منطقة إلى أخرى فى الدوحة وأحيانـا نخـرج خارجهـا لنعـاين بعـض الشـقق .. الموضـوع لم يعـد بيعـا وشـراء .. حالـة مـن السـعار يمارسـها القليـل مـن المصـريين والفلسطنيين والهنود . الكل يحاول الشراء بأبخس الأثمـان والشـائعات تسـرى والنـاس تخشى من ضيق الوقت وانخفاض الأسعار لزيادة المعـروض . شـانتى اسـتأذنت الشـيخ يوسف الحرمى فى أن تضع بعض البضائع فى مخزن المصـنع ، لم يمـانع الشـيخ ، إلا إننـى كنت أخشى أن يدخل هو الآخر شريكا وأخشى فى الوقت نفسه أن أنفق كـل مـا معـى ولا أستطيع دفع قيمة تذاكر سفر العيال وأمهم .. نو برولم .. كل مشكلة ولها حل لدى كومار ، فهو يعرف مكتب سفريات يستخرج تذاكر السفر بالتقسيط على سنة كاملة ، ذهبـت معـه ، دفعت قسطا وتسلمت التذاكر وأرسلتها مع مصرى من مقهى الريان ليسلمهم باليـد إلى أم خميس فى تلوانة ـ الباجور ـ منوفية ، ومع التذاكر خطاب أحكى لها فيه عن المنزل الجديـد الذى استاجرته فى وادى السيل ، وأننى سأقيم لهم احتفالا عند وصولهم إلى الدوحـة بعـد شهر ونصف شهر من الآن على أن يكون عطية أخى فى الإجازة حيث سيقوم بتوصيلهم إلى المطار وأكون أنا فى انتظارهم بمطار الدوحة الدولى .

جزء من مخزن المصنع أصبح مخصصا للأثاث والتكييفات والأجهزة الكهربائية ، البضائع من الأرض للسقف وكومار يتفق مع البائعين ويدفع عربونا ثم يؤجر سيارة نصف نقل ويمر عليهم ، كل فى طريقه ، يدفع الباقى ويحمل البضاعة إلى المخزن وانتعشت التجارة ، انتعشت شراء فقط والقلق يساورنى فى أن تنشط بيعا لأسترد ما دفعت فى شراكتى مع كومار وشانتى بالإضافة إلى العوائد والتى يصر كومار على أن كل مكسبه عائد وليس أرباحا ، رغم معرفتى الجيدة بالفرق بين العوائد والأرباح .

25

لم أعرف أن للندم مذاقا إلا هذه الأيام ، أشعر بمرارته فى حلقى ، على طرف لسانى وفى قلبى . لم أندم فى حياتى على شىء فعلته أو قرار اتخذته أو شىء تركته لكن الندم يحاصرنى لارتكابى فعل الزواج . الزواج كفكرة استسلمت لها وتركت أمى تحركها كما تشاء ، إلى أن وقع اختيارها على فاطمة . القرار لم أتخذه أنا ، بل اتخذته أمى خشية أن أطير منها مثل عطية وأتزوج من خارج البلدة ، كنت أسيرا لنصيحة أبى ، الذرية والعزوة والأرض ، وها أنا أصبح أسيراً لفاطمة وأمها ، أسيرا للريال ، يحاصرنى القلق والندم لقد كانت نصائح الرفاق فى مقهى الريان لغير المتزوجين أمثالى ألا يتورطوا فيه ، إلا بعد الانتهاء من رحلة الغربة ، ثلاث سنوات أو أربع يعود المغترب بعدها لأهله ووطنه يبحث بتأن عن زوجة تناسبه ولا تجهده .. تقبله لشخصه لا لريالاته ، تعيش معه دون إجهاد ودون مطالب لا يقوى على تلبيتها .. الله يسامح أمى ويرحم أبى ويوفق عطية الذى امتلك شجاعة اتخاذ القرار وتزوج من رضوى الفلسطينية والتى لا تعرف تلوانة ولا ألاعيبها ولا نبوية الداية وأسافينها .

فاطمة وصلتها التذاكر والرسالة وأعددت أنا كل شىء ، استأجرت منزل وادى السيل . قضيت يوما كاملا فى الأسواق اشترى لها وللأولاد ما يلزمهم من ملابس وهدايا انتظارا لقدومهم . ذهبت إلى المحل الذى أرسلنى إليه الشيخ يوسف الحرمى أول مرة والذى اشتريت منه الملابس الحريمى قبل رحلته الشهيرة إلى الهند ، تلك المهمة التى جعلتنى أظن به الظنون .

فاطمة التى كادت تموت على السفر ، ترسل لى رسالة تطلب فيها إعطاءها مهلة قبل أن تتخذ قرارها بمغادرة تلوانة وترك أمها . خطابها ملئ بالألاعيب وكهن الفلاحين ، فهى قد انتقلت إلى المنزل الجديد وتتحجج أن أخى عطية وزوجته وأولاده قد حضروا لتلوانة وخميس وسويلم لا يتركان أبناء عمهما عطية . تريد مهلة لبعد انتهاء الصيف ، فهم يقولون أن الخليج نار وحر ورطوبة ، وهى قد لا تستطيع العيش فى هذه الأجواء . تريد أن تقضى الصيف كله فى تلوانة .. بنت الداية تحاول أن تفرض شروطا جديدة ، وكأنها موظفة حكومية وليست زوجة . تريد أجازة سنوية مدفوعة الأجر وتذاكر سفر لمصر سنويا .. طلب المهلة هذا طير برجا من عقلى ، فهى تعلم أن التأشيرة صالحة لمدة ثلاثة شهور قد مضى منهم شهر الآن ، وهى تعلم أن الخليج لا يمر فيه نهر وليس به ترع ولا يوجد به نخيل أو أعناب أو غابات ، تعلم أننا نعمل لنأكل وندخر ، تعلم أننا نعيش هنا وكل آمالنا وأحلامنا مؤجلة بالعودة لمصر ، وكنت قد تحدثت معها طويلا عن ظروف الحياة فى قطر .

يبدو أنها لا تريد أن تغادر المنزل الجديد وهو ما حذرنى منه الشيخ على ماضى بطريقة مباشرة فى رسالته الأخيرة ، وهو ما مسه عن بعد عبد الله زوج أختى فى رسالته أيضا ، حيث أشارا أن انتقال فاطمة والأولاد إلى المنزل الجديد قد لا يجعلها تفكر فى السفر وتصرف نظر عن ضم شمل الأسرة .. هل أرسل لها خطابا أقسم فيه بأغلظ الإيمانات أن رجلها لن تطأ الدوحة ؟ ، ولكن ماذا أفعل فى تذاكر السفر التى دفعت قسطها الاول .. هل تريد فاطمة أن أنتهى مثلما انتهى صاحب البيجاما الكستور والذى لم تعرفه ولم تره ، وهل

كانت زوجة صاحب البيجاما مثل فاطمة لا ترغب فى رؤيته إلا فى الإجازات ، موسم التزاوج كما يقول الرفاق فى مقهى الريان والذى ينشط قبل بداية بيع الادوية والمنشطات الجنسية من أقراص ودهانات وهو ما يتندر به الرفاق على المقهى وهو أن النساء يفرحن بهذه الهدايا أكثر من فرحتهن بالملابس ، لعنة الله عليك يا بنت نبوية ، لن أرسل لها خطابات وسأتصل بتلوانة تليفونيا للاطمئنان على أمى وأخى وحتى إن وجدتها بالدار لن أحدثها وما لم تحضر ، سأطلب من شانتى أن تبحث لى عن زوجة هندية من المقيميات بالدوحة فأنا لا أرغب فى أن اكون رجلا معطلا ولا أرغب أيضا فى أن أموت ميتة صاحب البيجاما الكستور ! .

سألت كومار للمرة الثانية ألا يفكر فى استقدام زوجته من كيرالا ؟ ، لم يجاوب ، رد على السؤال بسؤال عن سبب توجيه مثل هذه الأسئلة ، خاصة وأنه أكد لى من قبل أنه لا يفكر فى ذلك وأغلب العمالة الهندية تترك زوجاتهم ثم يعودون إليهن كل ثلاث أو أربع سنوات ولأسباب يطول شرحها وعاد يسألنى عن موعد وصول زوجتى وسبب ضيقى الظاهر خلال الأيام القليلة الماضية .. شرحت له الوضع .. لقننى درسا ، فقد أصبح خبيرا فى شئون المصريين خاصة بعد أن امتلأ المصنع بهم ، ذكرت له موقف فاطمة الجديد فإذا به يرد دون تحفظ أن المصريين ليسوا صرحاء وخاصة الفلاحين منهم وأنهم يلفون ويدورون وقد تكون زوجتى مثلهم ، كدت أقول له إنهم بالفعل مثل زوجتى ، فاطمة نموذج صارخ لفلاحي زيرو 48 ، « ملاوعة » وغير صريحة وأنها رضعت هذا السلوك من أمها ، لقد التهمت أول « قطفة » من « كهن » الفلاحين ومكرهم وتمارسه بانتظام وبإجادة ، خاصة وأن أمها أستاذة فى هذا التخصص . طلب منى أن أترك هذا الأمر ، فقد أرسلت التأشيرة والتذاكر وإذا كانت ترغب فى القدوم .. أهلا وسهلا وإذا كانت قد صرفت نظر ، فيجب ألا أضغط عليها حتى لا تحول حياتى إلى جحيم ، وأن هناك الكثير من المهام التى لابد أن تنجز وأن نبحث عن فنى تكييفات وثلاجات لصيانة الأجهزة التى اشتريناه وتنظيفها ، استعدادا لعرضها للبيع على بداية شهر سبتمبر موعد قدوم المغتربين الجدد .

كومار صاحب تفكير عملى وغير عاطفى ، فهو يعلـم أنـه جـاء إلى هنـا مـن أجـل الريـال ويجب ألا نشغل بالنا بغيره ، نفكر أولا فى كيفية اكتسـابه ثـم ادخـاره ونعمـل عـلى تنميتـه واستثماره وموضوع الزوجات والأولاد يأتى فى المقام الثانى بعـد الريـال ، إلا إنـه طلـب منى أن أحسم الأمر وإلا ظل معلقا ، هل ستأتى فاطمة أو لا تأتى ؟ ، فـإن صـاحب الفكـر المشغول لا يستطيع العمل والإنجاز ويضعف الصحة والبدن .. لك كل الحـق يـا كومـار ولعنة الله على الفلاحين ، فقد كان أخى محقا عندما هرب من البلـدة كلهـا ، ألقـى بتلوانـة وأهلها خلف ظهره وارتبط بفلسطينية ترحل معه وتحل معه أينما يهبط ، لا تسـأله إلى أيـن ولا « تنغص » عليه حياته .

هدأت أخبار التفنيشات بعض الشىء ، هناك من تسـلم خطابـا بإنهـاء الخدمـة مباشـرة ، خطاب قصير موجز ، يشكرونه على الفترة التى قضاها فى خدمة المصلحة التـى عمـل بهـا وهناك خطابات مطولة تسلمها البعض ، يتحدثون فيها عن سياسات جديـدة سـتطبق وأن هناك قوانين تعد لاستجلاب موظفين جدد ، وأن الميزانيات فى الوزرات المختلفة قد تـم تخفيضها بنسب متفاوتة ومن يرغب فى التعاقد من جديد بدلا من إنهاء خدمته نهائيـا عليـه المرور على شئون المستخدمين كل فى إدارته !.

كما نشطت تجارة بيع الأثاث المسـتعمل نشـط خبـراء المقـاهى ، خاصـة فى تجمعـات المصريين ، التحليلات كثيرة ، الغرض من إشاعات التفنيشات هو التعاقد الجديد بـأجور أقل « وفك » الموظفين الذين يتقاضون تسعة أو عشرة آلاف ريال والذين قضـوا سـنوات طويلة بالعمل بموظفين صغار ومن يرغب فى البقاء عليه التعاقد من جديد براتب يقل عـن راتبه الأصلى بخمسين فى المائة أو ما يزيد ، مع عدم تضـمين العقـد سـكنا مؤثثـا أو بـدلا سنويا للتأثيث أو تذاكر سفر سنوية له ولزوجتـه ولثلاثـة مـن أبنائـه القصـر ، سـيتم بهـذه الحركة البسيطة والإشاعات غير المكلفة توفير ما لا يقل عن ستين فى المائة مـن تكـاليف العمالة الوافدة . عدد كبير من الموظفين القدامى وافقوا على العقود الجديدة ، خاصة وأن هناك من يتحدث عن الغلاء فى مصر وموجة الجوع والبطالة القادمة ، بعضهم شد الرحال ورفض العقود وتمسح فى المثل القائل « بارك الله فيما رزق » معتبرا أن ما يحدث إهانـة .. إلا أن الموجة هدأت وعاد من باع أثاثه ليشترى من جديد ! .

منزل النجمة خلية نحل ، جاء كومار بفنيين هنود ، يغسلون أجهزة التكييفات ويرممون الثلاجات ويرشون بعضها بطلاء جديد ، وفى مقهى الريان علقت يافطة للإعلان عن بيع أجهزة تكييف وثلاجات مستعملة بأسعار مقبولة ودارت العجلة ، إلا إننى لم أستطع نسيان موقف فاطمة وصاحب الفكر المشغول لا ينتج ولا ينجز حسبما يقول كومار ، وزاد الفكر فكرا والهموم هموما عندما أبلغتنى شانتى أن الشيخ يوسف يرغب فى رؤيتى فى منزله إلا أنه لم يحدد موعدا للقاء حتى الآن وستبلغنى فور تحديد الموعد .

الشيخ يوسف الحرمى انقطع عن الحضور لعدة أيام وقامت شانتى بتسليم بعض العمال خطابات تفنيش إلا أنه لحسن الحظ لم يمس العمال المصريين ، فهل الشيخ يرغب فى التخلص منى بعدما بلغ راتبى ثلاثة آلاف وأربعمائة أو أنه يرغب فى تخفيض راتبى كيفما تفعل المصالح الحكومية ، لعن الله الفكر ، نظرة على الأجندة الخضراء وحساباتها جعلت « مصارينى تكركب » كيف سأحصل على ما أنفقته فى شراء الأجهزة وهل أستطيع أن أحمل ما دفعته معى فى حالة تفنيشى أو سينهى الشيخ عقدى معه ويتركنى لحالى ، أبحث عن عمل جديد وكفيل جديد .

رسالة جديدة من عبد الله زوج أختى ، لا يحدثنى فيها من قريب أو بعيد عن فاطمة ، يتحدث عن عطية وخلافه مع الشيخ على ماضى ورفضه لتطاول الشيخ على عمى ويبدو أن عمى اشتكى له بمجرد وصوله ، كما يحدثنى عن الموظفين الذين أتوا من شبين الكوم والمخالفات التى يحررونها للناس وما يشاع من تحديد كردون القرى والتصوير الجوى والغرامات التى فرضوها على من قاموا بتجريف الأرض أو قام بالبناء على المناطق الزراعية ، نصيبى من هذا الهم والكرب مخالفة واحدة وهى البناء على الأراضى الزراعية وهو السور الذى ضرب حول قطعة الأرض الصغيرة خلف منزلى الجديد .

خطاب الشيخ على ماضى أكثر وضوحا وبه كل التفاصيل وتفاصيل التفاصيل ، كلام فلاحين ، الانتخابات البرلمانية على الأبواب وقبلها تقوم الحكومة « بنفش ريشها » على الغلابة ، هذا مخالفة وذاك قضية ، إلى أن تقترب الانتخابات وتتحدث الصحافة الخايبة عن رفع العبء عن كاهل الفلاحين وتقسيط المديونيات للجمعيات الزراعية ويتدخل عضو مجلس الشعب الهمام لتصفية المخالفات والقضايا وكام فلاح فى الباجور وكام يافطة على الطريق السريع تشكر الرئيس والحكومة وعضو مجلس الشعب وتجرى الانتخابات ، « وهو ليس فى حاجة إلى أصواتنا ، فصناديق الانتخابات تأتى من القاهرة وبها عدد الأصوات التى تجعله يفوز فوزا ساحقا على كل من عداه » .. وفى نهاية خطابه يؤكد لى ألا أقلق فمخالفة البناء على أرض زراعية تنشط كل أربع أو خمس سنوات قبل الانتخابات وتنتهى على ما فيش ! .

« داهية سودة » فاطمة والشيخ يوسف والحكومة ، يحرق تلوانة واللى فيها ، ما عدا أمى وأخواتى ، دخل الشيخ يوسف المصنع ، تجاهلنى تماما ، يبدو أنه عقد العزم على التخلص منى ، ذهبت لألقى عليه تحية الصباح ، استقبلها بوجه جامد ، انصرفت سريعا ، كومار أو مستر كومار الذى بدأ فى ارتداء قميص ورباطة عنق ، دخل إليه فى مكتبه سريعا وخرج ليبلغنى أن الشيخ يرغب فى رؤيتى غدا لكن فى منزله وبعد صلاة العشاء .. يا داهية دقى ! .. حاولت أن أعرف من شانتى سبب هذا الطلب ولماذا اللقاء فى المنزل وليس فى المصنع أو فى مخزن الخشب ، ادعت أنها لا تعلم شيئا مما زاد من التكهنات السيئة ، سألتها هل يريد مقابلتى وحدى أو معى كومار وهل ستكون هى معنا ، قالت بحزم إنها لا تعرف وطلبت منى عدم الإكثار من الاسئلة ! .

كوابيس لم أعهدها من قبل ، ليلة أنهكت فيها كما لم أنهك من قبل ، صاحب البيجاما الكستور يقف فوق رأسى وأنامل شانتى تعبث بشعيرات صدرى وأمى تضع على وجهها الطين كما فعلت يوم وفاة أبى وفاطمة تمسك بفأس صدئ وتهدم منزلى الجديد وخميس وسويلم يصرخان وسماء تلوانة أو سماء الدوحة ، لم أتبين أيهما ، تغطيها أسراب من الغربان كبيرة الأحجام .. أيقظت كومار من الخوف والهلع .. أخبرته ببعض الكوابيس ، حاول أن ينام ونصحنى بأن أقرأ ما أقرأه من قرآن ، خشيت أن أدخل فى النوم مرة ثانية . وضعت إبريق الشاى على النار وتوضأت ، صليت ركعتين وانتظرت آذان الفجر ، لم أنطق بكلمة طوال اليوم أكثر من تحية الصباح ، أشعر أن الشياطين « تتنطط » حولى وفوق أكتافى وأمام عيونى .

بعد العشاء كنت فى منزل الشيخ يوسف الحرمى ، أكاد أرتجف ، لا أعلم لماذا ، فحتى إن أنهى خدمتى فأنا لن أموت جوعا فى بلدتى ، فهناك الوظيفة وهناك المنزل والأرض التى ورثتها والتى اشتريتها وقد يصبح الحال أفضل بكثير وعلى الأقل لن أموت موتة صاحب البيجاما الكستور ، الشيخ يوسف لديه فى منزله حجرة مكتب كبيرة ، فى أركانها خزائن حديدية بأحجام مختلفة ، بدأ حديثه بأن المصنع أصبح كما تقولون فى مصر « عال العال » وهناك طلبيات تصدير إلى دول الخليج المجاورة وجبر وجابر ترسخت أقدامهما فى سوق قطر والخليج وأصبحت علاقاتهما واسعة .. بعد ذلك كله أخشى من أن يشكرنى ويعطينى مكافأة نهاية الخدمة ويطلب لى الصحة والعافية .

كان دخول شانتى طوق النجاة ، ضحكت مع الشيخ يوسف ، ابتسم ابتسامة صافية ، لم أعهده أبدا يبتسم ، وجهه لا ينم عن طيبة ، تقاطيعه قاسية ، ليس بها ملمح من طيبة ، الطيبة مكانها فى القلب ، طلبت شانتى من الشيخ أن يزوجنى هنا فى قطر وأن يطلب منى أن أنسى مصر ومن فيها .. محور الحديث يشير أنهما يتمسكان بى ولا نية على الاطلاق للاستغناء عنى . مع أول رشفة من الشاى ، عاد الشيخ يوسف الحرمى ليتحدث عن « خير من استأجرت القوى الأمين » .. المدخل الذى تعودته منه عن تكليفى بشىء جديد .

أخبرنى أن راتبى سيزيد خمسمائة ريال عند قدوم أولادى من مصر ، بدل سكن ! يا فضل الله .. إلا أننى سأترك مصنع الأخشاب وأتابع ما يحدث فى شركة المقاولات لمدة أسبوعين ، مراقبة العمال ، الكميات المنصرفة من المخازن ، إعداد دورة مستندية فيها الوارد والصادر ، وخاصة البويات والأدوات الصحية والسيراميك ومواسير الرصاص وخلافه ، وبعدها قد انتقل إلى مواقع العمل لأقدم تقريرا عن أداء العمال والتزامهم . الشيخ يوسف يرغب فى أن يعلم كل كبيرة وصغيرة فى شركة المقاولات قبل أن يقوم بتسليمها لابنه الملتحى ولأخواته البنات الأربع ، ليتم الفصل تماما بين جبر وجابر فى قطاع الأخشاب والأخوة الأخرين فى المقاولات فهو يرغب فى تقسيم الميراث وفى « حياة عينه » تقسيما عادلا ، ويريد جردا كاملا لكل البضائع التى فى الشركة ومراجعة كافة أوضاعها المالية .

المقاولات لا أعرف عنها شيئا وحتى المنزل الذى بنيته فى تلوانة وقف على تشييده عبد الله زوج أختى وهنا تدخلت شانتى ، سألتنى عن معرفتى السابقة بالأخشاب قبل تعاملى مع الشيخ يوسف ، فهمت الغرض من السؤال وتلقيت الأمر . من باكر ستذهب إلى شركة المقاولات وقد تم إعداد مكتب لك هناك ، واختتم الشيخ قوله بأن « خير من استأجرت القوى الأمين » .. هذا الرجل ثقته فىّ كبيرة ، إلا أن العبد الضعيف .. عبده ريال مثلما يقولون أضعف من أن يحمل أو يتحمل هذه المهام ، وتلك الهموم .. بمجرد خروجى من منزل الشيخ يوسف ، عاد شريط الكوابيس يتراقص أمام عينى . وأنا يقظ .. لابد من حسم قضية فاطمة وأخذ الفأس الصدئ الذى تحمله بيدها وتهدم به منزلى الجديد .

إلى التليفونات فى مشيرب ، مكالمة لتلوانة ، ليست مدة واحدة .. مفتوحة .. أول من رفع سماعة التليفون أمى .. تسأل بلهفة عن أخبارى وصحتى ، تطلب ولأول مرة أن أعود وبارك الله فيما رزق ، أختى تتناول منها التليفون ، أسمع عن بعد صراخ خميس وسويلم ، بعد هناء حدثنى عطية وسلم التليفون إلى فاطمة سألتها سؤالا واحدا .. هل ترغب فى السفر إلى الدوحة أو أنها تريد البقاء بجانب أمها ؟ .. التأشيرة وصلتها وتذاكر السفر .. وإذا كانت قد صرفت نظر عن المجىء إلى قطر فعليها أن ترسل التذاكر بخطاب بعلم الوصول فى أسرع وقت ، حتى أستطيع إرجاعهم لمكتب السفريات ، لم أنتظر منها إجابة ، صرخت ثلاث مرات .. الو .. الو .. الو .. وكأن الخط سيقطع وأغلقت الخط بيدى .. ووضعت السماعة ! .

نمت ليلة هادئة .. حلم جميل ناعم وأنا لا أعرف قصة الأحلام تلك والتى غمرتنى فجأة ، تلوانة تبدو فى الحلم أكبر مما أعرفها ، حقولها أوسع .. ناسها أكثر طيبة ، دارنا مليئة بصبية وأطفال لا أعرفهم .. الترعة تبدو مياهها أكثر نظافة .. نزلت فيها .. شربت حتى ارتويت واغتسلت .. وإلى المسجد ذهبت .. استقبلنى الشيخ على ماضى بالقبلات والأحضان ، دخلت معه المسجد .. كل من فيه تكسو ملامحه علامات الورع والتقوى .. هل هؤلاء هم ناس تلوانة ؟ .. نعم .. محمود عجورة وأبوه صلاح ، عمى وأولاده .. الكل يسجد ويطيل السجود .. سجدت معهم ، رفعت رأسى من فوق الوسادة مع أذان فجر يوم جديد .

26

شركة المقاولات تلك تبدو أنها مقبرة ، الموظفون العاملون بها ، خاصة المحاسبون وموظفو المخزن ، والمدير العام ومساعده كأنهم عصابة ، لا يتحدث أحد منهم إلا بعد النظر إلى صديقه أو رئيسه وكأنه يستأذنه قبل الحديث معى ، ويعاود النظر إليه ليسمح له بالاستمرار فى الحديث ويتوقف الكلام فجأة ، إذا كان هناك ما يمس أسرار العمل ، المدير العام فلسطينى وساعده الأيمن مصرى من المنصورة ، جلست معه ، واوضحت له المهمة التى جئت من أجلها كما حددها الشيخ يوسف الحرمى .. تطوير الشركة .. ضبط حساباتها .. مراجعة أداء الموظفين والعمال فيها ، إعداد دفاتر للمخزن ، صادر ووارد ، والكميات المنصرفة ، وكشوف بأسماء العاملين وجنسياتهم ورواتبهم ، مدة بقائهم فى الشركة .

المدير العام والذى استصغر سنى وحاول أن يلقى على مساعده المصرى أسئلة ليعرف خبراتى السابقة وإذا كنت قد عملت من قبل فى قطاع المقاولات أو لا ، حاول أن يفهمنى أن الشركة حققت أرباحا العام الماضى تقدر بأربعة ملايين ريال ، الفلسطينى والمصرى اتفقا على أن البركة وراء النجاح وأن أى محاولة لتطوير الشركة قد تأتى بنتائج عكسية ، خاصة وأن الشيخ يوسف لا يهمه سوى الأرباح ولم يحاول من قبل أن يعرف كيف تسير الشركة ،

فما هو الجديد الذى دفعه إلى إعادة تطويرها وتنظيمها .. المهمة صعبة ، بل فى غاية الصعوبة مع وجود هذا المدير العام ومساعده المصرى .. بعد قضاء يوم فى مكتبى بالشركة ، هرعت إلى الشيخ يوسف ، أبلغته بما أشعر به وبما قاله الفلسطينى والمصرى ، لم أزد حرفا واحدا عما ذكراه ، أطرق برأسه قليلا ، ونظر إلى شانتى ، التى طلبت انتداب المصرى والفلسطينى إلى مصنع الأخشاب لمدة شهر أو أكثر حتى أنهى مهمتى فى شركة المقاولات .

فى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى الجديد قبل كل الموظفين ، وقبل أن يدخل على الفراش بشاى الصباح ، أخبرنى أن المدير العام والمصرى مساعده قد انتقلا إلى المنطقة الصناعية ويبدو أن الشيخ قرر الاستغناء عن خدماتهما . طلبت من الموظفين الأصغر كشوفا بأسماء العمال .. مائة وخمسون عاملا يعملون فى المحارة والدهانات والبلاط والسيراميك والأعمال الصحية ، بعضهم قضى فى الدوحة ما يزيد عن عشرسنوات . أمين المخزن أو المسئول عنه رحب بى وأوضح أن جرد المخزن الذى يحتل الدور الأرضى فى العمارة كلها يحتاج شهرين أو أكثر وأنه تحت أمرى فيما أطلبه .. مخزن مثل مخزن أخشاب الشيخ يوسف الحرمى عندما ذهبت إليه أول مرة ، البويات مع الأدوات الصحية مع البلاط والقيشانى مع السيراميك .. كراتين وبراميل لا تسطيع تبين ما فيها وماذا تحتوى .. طلبت منه فى البداية تنظيم المخزن وتحدثت مع رئيس العمال أن يأتى لنا بأربعة عمال أو أكثر لنقل بعض الأشياء وتقسيم المخزن إلى أربعة أقسام مختلفة ، كل قسم يحتوى على صنف واحد فقط من مواد أو أدوات البناء ، وبعد التنظيم على أمين المخزن أن يعد دفاتر تتضمن كل ما يحتويه كل قسم سواء بالعدد أو الكمية أو الكراتين والبراميل .

أخرج من الشركة إلى المصنع ، ينتظرنى الشيخ يسمع منى بيانا يوميا عما قمت به ، يستمع ويكتفى بهز رأسه وشانتى تدون بعض ما أقوله فى دفتر بيدها وتضيف بعض التعليمات الجديدة ، الشركة تقوم بتشطيب عمارة فى فريق النصر ، على الذهاب إلى هناك لأرى العمال وكيف يؤدون عملهم وهل هناك تباطؤ أو تكاسل فى العمل ومن يعمل منهم بكد ومن منهم يقضى يومه دون إنتاج حقيقى ، تعليمات شانتى أن أحمل معى كشوف العمال وأن أتعرف عليهم بالاسم وأن أضع علامة إكس على من أرى أنه لا يستحق الاستمرار .

زيارة يوم واحد لا تكفى لتقييم أداء العمل فأنا أحتاج أسبوعا على الأقل ، يروننى وسطهم وأتعرف على نوعية عملهم وأن أستمر معهم طوال ساعات العمل من السادسة صباحا حتى السادسة بعد المغرب وأن أرعى الله حتى لا أتسبب فى تفنيش عامل وقطع رزقه .. قسمت يومى إلى ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول مع العمال فى موقع العمل ثم الانتقال إلى الشركة والعودة إليهم مرة أخرى أثناء ذهابى إلى مصنع الأخشاب ، العمل باتت تتكشف خيوطه ، كل من فى شركة المقاولات يقدم لى ما معه من أوراق ومستندات حول أعمال تم تنفيذها وأخرى قيد التنفيذ ، والكميات المطلوبة من البويات والسيراميك وخلافه .. شانتى هذه بنت شياطين ، لو كان المدير العام ومساعده استمرا فى الشركة ما كانت الأمور قد سارت على مثل هذا النحو .. فى أقل من أسبوع واحد تم تنظيم المخزن ، طلب المسؤل عنه استاندات وأرففا ، وفرت له كل ما طلبه .. الخطوة التالية داخل المخزن وقد أصبحت المخازن لعبتى ، تدوين الوارد والمنصرف ، كمياته وتاريخه ولا يخرج شىء من المخزن إلا بإذن صرف يوقع عليه المهندس أو الموظف المسئول وأن يصبح لكل مشروع ملفه الخاص ، ولا يتم نقل مواد من موقع إلى آخر كما كان يحدث من قبل ، مواد البناء والتشطيب تخرج من المخزن فقط وما يدخل المخزن أولا يصرف أولا حتى لا تبقى هناك رواكد أو بضائع قديمة .

الشيخ يوسف يستمع إلى التقرير اليومى وتعلو شفته ابتسامة هادئة ونظرات شانتى تشجعنى على الاستمرار فى الحديث وبجدية ، استمع الشيخ إلى التقرير وبعد الانتهاء سلمتنى شانتى تلغرافا نظرت إلى أسفله .. تلوانة .. الباجور .. منوفية ، المرسل عطية محمد سعد فكة .. اللهم اجعله خيرا ، الفلاحون لا يتعاملون مع التلغرافات إلا فى « البلاوى » .. استر يارب .. انتقلت عيونى إلى أعلى التلغراف « أم سويلم ستصل الدوحة الجمعة القادمة على رحلة مصر للطيران رقم 335 .. الحمد لله . لقد قررت فاطمة الحلوة أن تأتى مرغمة ويبدو أن عطية قد مارس معها أدواره التى كان يمارسها مع عمتى رحمها الله ومع عمى ، فى أقل من أسبوع واحد من مكالمتى الأخيرة لتلوانة قررت أن تأتى للدوحة ، لا يهمنى معرفة تفاصيل ما حدث ، إلا أن مواقفها قد أتلفت أعصابى ، وجعلتنى ألعن يوم ترشيحها لى زوجة ، ويوم زواجى منها .

فى المنزل الذى أعددته كنت وضعت بعض الملابس التى اشتريتها لها وللأولاد ، إلا أن ترددها فى المجىء جعلنى لا أرغب فى النظر إلى تلك الأشياء .. أخيرا ستأتى يوم الجمعة إلا أنها ستأتى فى ظروف فى غاية الصعوبة .. فطوال اليوم أنتقل من مكان إلى آخر ، وشركة المقاولات هذه وعملية تطويرها وتنظيمها تأخذ كل وقتى ، خاصة بعدما اكتشفت بعد زيارات متعددة لمشروع فريق النصر ، أن هناك عمالا يقضون يومهم فى تركيب سيراميك حائط واحد فى حمام ، بينما رأيت فى تلوانة ، صنايعى واحد وصبى صغير ينهون حماما فى نصف يوم فقط ، لابد من إبلاغ الشيخ ووضع علامات إكس على بعض العمال كما قالت شانتى .. ما يحدث من عمال السيراميك يتم وبصورة أخرى مع عمال الدهانات ، بطء شديد فى العمل ، وإضاعة الوقت بكل الطرق وكأنهم يعملون فى المكاتب الحكومية فى مصر .

كشوف العمال وعليها ثماني علامات إكس قدمتها للشيخ يوسف الحرمى .. تناول الكشف .. مرره إلى شانتى ، نظرت إليه ، ظهر على ملامحها بعض علامات الامتعاض ، هى لا تعرف أيا من العمال ، إلا أن بعضهم هنود ، أسماؤهم هندية تدل عليهم ، بالإضافة إلى أنه أمام الاسم مدون الجنسية ومدة البقاء فى الدوحة ، أوضحت أنه من الصعب الاستغناء عن بعض العمالة ما لم نوفر البديل .. التقط الشيخ يوسف الحرمى الخيط موضحا أن لديه مائة وخمسين عاملا ربما يكون أكثر من نصفهم يتكاسل فى عمله وهذا يعنى أن المشروع الذى يجب تشطيبه فى شهر يحتاج إلى شهرين أو شهر ونصف والوقت يعنى مالا ، فلماذا لا نأتى بثلاثين عاملا دفعة واحدة مما يجعل باقى العمال يستشعرون الخطر ويجبرون على تأدية عملهم كما يرام .. مطلوب عمال دهانات وسيراميك وقيشانى على وجه السرعة ، ونظر الشيخ إلى .. العمال من مصر .. وكما تم فى مصنع الأخشاب .. خليط من الحنسيات ، لا غلبة لجنسية على أخرى وتسير الأمور على ما يرام .. رزق جديد يا عبده .. فتح جديد للشيخ على ماضى ، تأشيرات الاستقدام ستكون جاهزة خلال أسبوع وكلفنى الشيخ بالأمر ، تليفون إلى الشيخ على ماضى فى تلوانة ليعد العمال ، ويتفق معهم ويتقاضى عمولته وعمولتى محفوظة ! .

ارتديت أفخر ملابسى ، القميص الأبيض ورباط العنق الذى حضرت به افتتاح مصنع الأخشاب وإلى المطار اتجهت لأكون فى استقبال أم خميس وسويلم . الطائرة تهبط عصرا ، عمال وموظفون وأسر ، ظهرت أم خميس ، رأيتها من وراء الحاجز الزجاجى الفاصل بين الجوازات والسيور الناقلة للحقائب ، ختم لها المسئول جواز السفر ، تمسك خميس بيد وبالأخرى سويلم ، حتى الآن لا أعرفهم معرفة دقيقة ، من هو خميس ومن هو سويلم ، انتظرت الحقيبة ، ساعدها بعض القادمين فى التقاطها من السير النقال ، حقيبة ضخمة من حقائب عطية أخى ، خرجت .. احتضنتها هى والطفلين ولم أستطع رفع الحقيبة من الأرض ، ماذا بها ؟ .. الباب يفتح بطريقة ذاتية .. عندما لفحهم قيظ الدوحة ، هرعوا مذعورين مرة أخرى إلى صالة المطار المكيفة .. طلبت منهم الانتظار حتى آتى بسيارة أجرة .. إلى وادى السيل سيدا مباشرة .. يا هندزة ! .

لم نتحدث طوال الطريق ، فأنا أجلس بجوار السائق وهى والأولاد فى المقعد الخلفى ، أمام المنزل توقفت السيارة ونزلنا .. دخل الولدان إلى المنزل كأنهما يعرفانه .. لا خوف ولا رهبة .. الأطفال لا يعرفون الخوف .. أشرت لهم إلى حجرتهما ، سرير لكل منهما ، وضعت على كل سرير كمية من الشيكولاته ولعب الأطفال والملابس الجديدة ، أدرت لها زر المكيف .. إلى حجرتى دخلت فاطمة ، تجولت بعينيها فى أركان الحجرة ، حجرة فقيرة ، دولاب وسرير قديمان ، مروحة فى السقف ، كليم لونه كالح فى منتصف الحجرة ، قبل أن تفتح الحقيبة لاستخراج ملابسها احتضنتها بقوة وعنف .. لوعة الأيام والشهور أحاول أن أستخرجها كلها فى لحظة واحدة ، فاطمة الحلوة لا تنطق وكأنها تعلم ماذا فعلت بى ، وكيف تلاعبت بأعصابى وكيف حاولت أن تؤجل السفر إلى .. لا وقت للكلام أو الحديث ! .

على طعام العشاء تحدثنا .. تكلمت عن ظروف العمل وأننى أخرج من الصباح الباكر حتى بعد المغرب وأننا فى بلد غير تلوانة ، ويجب أن تحرص على الأطفال لا تتركهم يخرجون من المنزل أو يلعبون حتى أمام الدار ، فباحة الدار واسعة يلعبون فيها كما يشاءون أمام عيونها ويجب ألا تفتح الباب مهما كان الطارق ومهما كان السبب ، ألقيت عليها التعليمات دفعة واحدة وهى تستمع ولا تنطق إلا بكلمة « حاضر » ، وأهم تعليمة أننا جئنا هنا ليس للنزهة أو للشراء ، جئت لأعمل عدة سنوات أدخر فيهم ما أستطيع ادخاره ثم نعود مرة أخرى إلى تلوانة مسقط رأسنا منها نشترى وفيها نعيش ! .. استبدلت فاطمة كلمة ماشي بـ « حاضر » وكأنها مسلوبة الإرادة أو منومة مغناطيسيا .. استخرجت لها من الدولاب الملابس الجديدة التى اشتريتها لها وسلسلة ذهبية إيطالى بدلاية ، دفعت فيها ما لايقل عن ألف وثمانمائة ريال ، وأدرت مؤشر التليفزيون ودب فى البيت الخالى أوصال الحياة وحركة الأولاد .

تأشيرات الاستقدام أرسلتها إلى الشيخ على ماضى وتذاكر السفر يعرف من أين يستخرجها ، طلبت منه أن ينوع فى العمال ، لا يأتى بهم من بلدة أو مركز واحد ، المنوفية واسعة وعليه أن يختار أفضلهم ويخبرهم أن العمل فى الدوحة ليس نزهة .. عمل نار من السادسة صباحا إلى المغرب وأن يرسل لى خطابا على عنوان منزلى الجديد ، يحوى كل التفاصيل خلال مدة لا تزيد عن أسبوع وأن يرسل سلامى وتحياتى إلى أمى وأختى هناء وزوجها صديقى عبد الله ، وطلبت منه أن يتابع مخالفة البناء فوق الأرض الزراعية التى تم تحريرها ضدى ويعلم إلى أين وصلت .

فاطمة والشيخ يوسف الحرمى وشركة المقاولات والأولاد .. عالمى الجديد .. بعد انتهاء عملى ، أعرج على السوق المركزى ، أشترى كل احتياجات منزلى بسعر الجملة ، خضار وفاكهة وأرز ودواجن وخلافه ، الأسعار أرخص ، خاصة وأن هناك ثلاثة يأكلون الآن ، لا ينفع معهم كيس السمبوسة أو الأكل الجاهز .. فاطمة تعمل طوال اليوم فى البيت ، اقترحت اقتراحا خايبا وهو أن أبنى لها فرنا فى حوش المنزل وأن اشترى لها عددا من الفراخ والبط الحى ، حمدت الله أنها لم تطلب أن أحضر لها ترعة صغيرة أمام المنزل ، فهى ترغب فى نقل نموذج مصغر من تلوانة إلى الدوحة وربما تريد نبوية الداية أيضا بجوارها ، شعرت بسخافة طلبها ، اعتذرت إلا أنها بررت طلبها بأن هناك فائضا من الأطعمة من الممكن أن تلقى بها للدواجن .. طيبت خاطرها وأفهمتها أن تبقى تلوانة فى قلبها إلى أن نعود ! .

جاء الشيخ يوسف الحرمى وشانتى لزيارة شركة المقاولات .. زيارة مفاجئة .. لم يبلغانى بالرغم أننى كنت معهما .. حركة غير طبيعية فى الشركة .. الموظفون فى حالة هلع ، خاصة وأن زيارات الشيخ للشركة قليلة للغاية ، كما أن الزيارة تلك تزامنت مع إشاعة تفنيش عدد من الموظفين والعمال واستبعاد مدير عام الشركة الفلسطينى ومساعده .. الموظفون بمختلف جنسياتهم يظهرون احترامهم ، وتبجيلهم للشيخ يوسف وشانتى ،

تفقد المكاتب وسأل عن الموظفين غير المتواجدين على مكاتبهم ، ثم نزل وأنا بصحبته إلى المخزن .. أبدى إعجابه بالتنظيم الجديد وقرر صرف مائتى ريال مكافأة لأمين المخزن وطلب أن أصحبه إلى مشروع فريق النصر .. ما حدث فى الشركة تكرر فى الموقع ، سأل المسئول متى يتم تسليم المشروع وقبل أن يسمع موعد الانتهاء ، أعلن عن صرف مكافأة قدرها مائة وخمسين ريالا لكل عامل ، إذا انتهى المشروع قبل موعده بأسبوعين وصفق له العمال .. ردت لهم شانتى التحية .. ضمت كفيها وأحنت ركبتيها بعض الشىء .. ومن الموقع إلى مصنع الأخشاب فى المنطقة الصناعية .

سأل الشيخ يوسف متى سيصل العمال الجدد ، فهو يبغيهم قبل الانتهاء من مشروع فريق النصر ليقوم بتفنيش عشرين عاملا ، إذا أتموا المشروع قبل موعده بأسبوعين فهذا يعنى أنهم بالفعل يتباطؤون فى العمل ، كما أبلغنى بأنه قد تم تفنيش مدير عام الشركة ومساعده وسيحضران إلى مكتبيهما فى الغد لأخذ أغراضهما على أن أكون موجودا منذ الصباح الباكر ولا أسمح لهما بالتجول فى الشركة أو مقابلة أحد بعد أن يفرغا مكتبهما وأن أستلم أنا منهما المفاتيح وأودعهما حتى خارج باب الشركة ! .

وتحدث معى على أن أقوم أنا بشغل مكانهما ، فالشركة ليست فى حاجة إلى مدير عام ومساعد له ، وكل ما تحتاجه مسئول إدارى وسيقوم بتعيينى فى هذه الوظيفة ، وتدخلت شانتى فى الحديث .. راتب الوظيفة الجديدة سبعة آلاف ريال فى الشهر شاملة بدل السكن وبدل المواصلات .. ولا إجازات لمدة عامين كاملين ، مع تذاكر سفر وإجازة مدفوعة الأجر لمدة شهر كل عامين .. خبطة واحدة وفر فيها الشيخ يوسف الحرمى وشانتى ما لا يقل عن مائة ألف ريال فى العام .. المدير العام السابق كان يتقاضى كما سمعت من الفراش الهندى اثنى عشر ألف ريال فى الشهر وراتب مساعده سبعة آلاف .. سأقوم أنا بعملهما معا .. المهم مثل هذا الراتب لا يتقاضاه إلا كبار موظفى الدولة والأطباء والمهندسين فى الدوحة ! .

أضحكنى على ماضى وجعلنى أترحم على صلاح عجورة وولده ، فالرحمة تجوز على الحى والميت ، لقد سلمتنى فاطمة خطابه الذى وصل اليوم ، رفضت فتح الباب لرجل البريد كما أوصيتها ، فوضع الخطاب فى فرجة الباب وانصرف .. على ماضى يقول أن هناك ثلاثين عاملا فرز أول .. عيال نقاوة مطقطقه .. لم يأت بفرد منهم من المنوفية بأسرها ، بل ذهب إلى القاهرة ، إلى منطقة السيدة عائشة حيث يوجد أفضل صنايعية السيراميك والقيشانى وقد دفع كل منهم ألف جنيه وعند استلام التذكرة والتأشيرة سيحصل من كل فرد منهم على ستمائة جنيه أخرى .. ويحكى عن ظروف البلد ، وأن الناس على استعداد أن تبيع ما وراءها وما أمامها من أجل فرصة سفر ، موضحا أنه رغم المكاسب التى يحققها الصنايعية فى مصر ، إلا أن كل « الداخل خارج » حشيش .. وأفراح ونقطة .. وفى الخليج « الداخل ما يخرجش » ، إلا أنه عدل فى الاتفاقية الودية القديمة التى بيننا ، فهو سيحصل على النصف ويسلم النصف الآخر لمن أريد أو يضعه فى حسابى فى بنك الباجور ! .

أبلغت فاطمة بالوظيفة والعقد الجديد ، خاصة وأنه لن يسمح لنا بنزول تلوانة إلا بعد عامين ولم أبلغها بالراتب لكننى أفهمتها أنها وظيفة أفضل من التى أعمل فيها ، وعيبها الوحيد أننى سأنتقل من المكتب إلى مواقع العمل بصفة يومية ، فى جو شديد الحرارة والرطوبة وهى منذ أن جاءت لم تستطع أن تتنفس هى والأولاد دون جهاز التكييف .. دعت لى بالتوفيق وانصرفت إلى عمل المنزل وجاءنى كومار دون موعد ، يهنئنى بالوظيفة الجديدة .. شاهد الأولاد واحتضنهم ، وبدأوا فى تسلق أكتافه وكأنهما قردان ، أحاول أن أنهرهما إلا أنه طلب تركهما للعب معه وقد أحضر معه بعض الحلوى واللب والسودانى وخليط من الفستق والبندق .

سألنى ماذا سأفعل فى تجارة الصوانى وهل سأستمر فيها أو أتركها لـه بعـد وظيفتـى الجديـدة وراتبى الضخم .. طلبت منه أن تسير الأمور كما هـى دون تغييـر إن لم يكـن قـد أصـابه الطمـع والجشع اللذان كان يتحدث عنهما ويـتهم بهمـا أصـحاب الأعمـال ، لم يتـأثر ولم تظهـر عليـه علامات الغضب ، موضحا فقط أنه جاء ليهنئنى ويرى الأولاد ويسأل ليس أكثر أو أقل ، خاصة وأن وقتى قد لا يسمح بمتابعة الحصول على الصوانى وبيعها وطلب هو أن يقـوم بالمهمـة مـن الألف إلى الياء مع الاحتفاظ بنصيبى .. ماذا حدث للناس على ماضى يغير من الاتفاقية التى بيننا وكومار يحاول أن يخرجنى مرة أخرى من الشراكة التـى بيننـا ، إلا أن صـده ومخاطبتـه بتلـك اللهجة ، جعلته لا يفكر فى تغيير شروط الاتفاق الذى يربطنا .

جاءت فاطمة بالشاى وفى عينها نظرة تـوحى بأنهـا ترغـب فى البقـاء معنـا ومشـاهدة الهنـدى صديقى ، فهى لم تشاهد هنودا من قبل سوى فى بعض الأفـلام التـى كـان يعرضـها التليفزيـون المصرى . نهرت خميس وسويلم وطلبت منهما أن ينزلا من فوق أكتـاف الرجـل ، خاصـة وأن طفلا منهما يرشق أصابعه فى شعر كومار المبلل بالزيت ، قام كومار ليحييها ويسلم عليها ويضع إصبعيه الإبهامين بجوار بعضهما ويشير إلى ، ليفهمها أننا صديقان .. أخوان .. رحبت فاطمة بـه وعلى شفتها ابتسامة لم تغادر وجهها ، سألها من هو خميس ومن هو سـويلم وإذا كانـت تعرفهمـا من بعضهما ، أشارت له إلى خميس أولا ثم إلى سويلم وقضى كومار جزءا من ليلته معنا ، يداعب الطفلين ، ويهز رأسه احتراما لفاطمة ثم استأذن فى الانصراف .

27

ما لم أملأ مركزى الجديد فى الشركة ، فعلى الدنيا السلام ، كل شىء انضبط تقريبا ، إلا بعض الأمور التى كان يتطوع الفراش الهندى بإخبارى بها من حين لآخر والوشاية يبدو أنها جزء من طباعه ، لا يفرق إذا كانت الوشاية ستضر مصريا أو باكستانيا أو هنديا .. حكى أن هناك « فورمن » أسطى هندى ، يخرج صباحا بصحبة عشرة عمال ، يرسل منهم ستة فقط إلى موقع العمل والأربعة الآخرين يرسلهم إلى مكان آخر ، يعملون فيه لحسابه الشخصى وليس لحساب الشركة ، مضيفا أن مواد التشغيل أيضا من بويات وخلافه تخرج من المخزن ، كل الأسطوات تقريبا يمارسون نفس العمل ، فالمدة الطويلة التى قضوها فى قطر ، ساعدتهم على تكوين علاقات وأصبحوا مقاولين من وراء ظهر الشيخ يوسف الحرمى .

هنا لا يؤخذ الناس بالشبهات ولا أستطيع أن أمارس دورى ووظيفتى دون التأكد من وشايات الفراش الهندى وأعلم حقيقة الأمر .. خرج صبحية اليوم خمسة عشر عاملا على رأسهم أسطى مصرى إلى موقع ما فى الظهيرة ذهبت إلى الموقع لم أجد سوى ستة عمال فقط والباقى كما قال الفراش الهندى ، وضعت علامة إكس على اسم الأسطى .. « اضرب المربوط يخاف السايب » .. هكذا يقولون فى تلوانة وغيرها .. تحدثت مع الفورمن المصرى وأوضحت له أن هذا الأسلوب مرفوض ولن أسمح به طالما أشغل منصبى كمسئول إدارى بالشركة وأننى سأبلغ الشيخ بما يحدث .. حاول بكل الطرق أن ينفى التهمة ، موضحا أن العمال قد يكونون قد ذهبوا لشراء بعض الأغراض ، تركته وانصرفت وبعد ثلاث ساعات عدت إليه مرة أخرى ولم يحضر العمال ! .

فى مشروع فريق النصر أنهى العمال مهمتهم قبل أسبوعين عن الموعد المحدد ، صرف لهم الشيخ مائة وخمسين ريالا كما وعد وقام بتفنيش عشرين منهم بعد تأكده من وصول العمال الجدد صبحية اليوم التالى .. حاولت شانتى بكل ما أوتيت من قوة أن تثنيه عن قراره بتفنيش خمسة عمال هنود ، أصر على موقفه وامتثلت هى للأمر .. فى اليوم التالى ذهبت للمطار لاستقبال طلائع عمال على ماضى سبعة وعشرين عاملا وثلاثة سيأتون بعد يومين ، فهناك مشاكل بسيطة فى تصاريح العمل أو إذن الجيش .. أحدهم سألنى عن اسمى عندما تيقن أننى عبد الحميد فكة ، سلمنى خطابا من الشيخ على ماضى .

من المطار إلى الشركة .. إلى المخزن حيث تم إعداد جزء منه كاستراحة للعمال وجاء الشيخ يوسف الحرمى وشانتى لمعاينة العمال الجدد .. أوضح لهم الشيخ وكأنه يخطب فى سرية من الجنود أن أمامهم مهمة ليست سهلة فى الدوحة وأن الراتب المكتوب فى العقد قابل للزيادة كما أن العقد نفسه قابل للإلغاء فى حالة التراخى والتكاسل وفى حالة التفنيش سيتحمل ثمن تذكرة عودته إلى بلده .. كلام صارم ومحدد والتفت إلى الشيخ وطلب أن أحضر أحد الفراشين لتقديم واجب الضياقة للعمال الجدد من شاى أو مرطبات ، كما أمرنى بأن أسلم كلا منهم مائتى ريال سلفة تخصم من راتب أول شهر واصطحب شانتى وغادر الشركة .

على ماضى يقول فى خطابه أنه سلم عبد الله صديقى زوج أختى هناء أربعة وعشرين ألفا من الجنيهات وأخذ منه وصل أمانه ، نصف فيزيتا العمال الثلاثين وتأسف من كتابة الإيصال مبررا أنه أمر ربانى ، فكتابة العقود والإيصالات تضمن الحقوق وبقية الخطاب يسب فيه عمى ويتندر عليه .. يقول إنه كان يرغب فى تسليم المبلغ لعبد الله أمام عمى حتى يصاب بالسكتة القلبية عندما يشاهد مثل هذا المبلغ وكان يود أن يخبره أنه حصيلة عملية تسفير واحدة ، أو بمعنى أصح نصف قيمة العملية ، وطالب فى نهاية خطابه أن أتصل به تليفونيا فى منزله قبل صلاة المغرب مباشرة أو بعد صلاة العشاء .

العمال الجدد تسلموا عملهم فى اليوم التالى مباشرة وسط أخبار بتفنيش عشرين عاملا من جنسيات مختلفة بسبب تهاونهم فى العمل وتكاسلهم .. الخبر طار فى جميع أنحاء الشركة وساعد على الانضباط بشكل كبير وصارت أمور العمل مثل الساعة ، دقة وانضباطا وتقديرا للمسئولية ، وحمية فى الأداء ، أدخل موقع عمل لا أرى عاملا متكاسلا ، أو آخر يجلس ليدخن وفريق الشيخ على ماضى أشاع الغيرة فى العمال الأسيويين ، فما يؤديه العامل المصرى فى يوم ، يحتاج الهندى أو الباكستانى إلى يومين أو ثلاثة لينجزه ، وبدأ الشيخ يوسف الحرمى وشانتى التردد على مواقع العمل المختلفة لمتابعة العمال ، بالإضافة إلى متابعتى اليومية لهم ولموظفى الشركة .

ليس هناك ما يعكر صفو الحياة فى الدوحة ، خميس وسويلم يشتد عودهما وفاطمة تزداد نضارة إلا أنها تستيقظ ليلا ملهوفة على ولديها وتدخل الحجرة المجاورة للاطمئنان عليهما ، كنت أظن فى البداية أنه قلق طبيعى ، إلا أن تكرار الاستيقاظ فى الليل أكثر من مرة ، كان يصيبنى بالهلع ، ظننت أن بعدها المفاجئ عن أمها نبوية قد يكون السبب إلا أن المتابعة الدقيقة جعلتنى أكتشف مرضها النفسى أو العصبى ، بعد عودتى من العمل لا أخرج من المنزل ، وامتنعت عن الذهاب لمقهى الريان ، الوقت كله أقضيه معهم بالبيت ، حاولت أن « أدحلبها » فى الكلام .. أعرف سر قلقها المستمر ، المشكلة كما قالت إن الحمل تأخر .. وهل هذا سبب قلقها ؟ .. لقد رزقنا بولدين والحمد لله ، إلا أنها توسلت أن أصحبها للمستشفى المجاور لتوقيع الكشف عليها فهى ترغب فى بنت بجوار خميس وسويلم ، فالبنات أكثر حنية .

الحمل ليس سبب المشكلة ، فقد وقعت بلسانها عندما أخبرتنى أنها طوال عمرها ، منذ أن كانت فتاة صغيرة تستيقظ من النوم وهى تصرخ وأن السبب ربما يكون وظيفة أمها الداية ، فالناس لا تأتى لمنزلهم إلا فى أنصاف الليالى ، يدقون على الباب بعنف ، يطلبون أمها لمساعدة سيدة جاءتها آلام المخاض ، وأنها ذهبت ذات مرة بصحبة إمها إلى طبيب فى الباجور ، كتب لها بعض « البراشيم » . استمرت عليها فترة ثم توقفت وكان ذلك قبل زواجها بفترة طويلة ! . كيف استطاعت نبوية الداية أن تخفى مرض ابنتها طوال هذه الفترة عن القرية بأكملها .. أمى التى اختارت فاطمة لأنها لم تنزل ترعة ولم تضربها بلهارسيا ولم تذهب إلى الحقول لجمع لطع دودة القطن ولم « يفعّص » فيها خولى .. يبدو أن ما بها أكثر من البلهارسيا ! .

الوقت غير متاح للذهاب مع فاطمة إلى المستشفى إلا أن حالتها تتدهور ، تستيقظ فى الليل أكثر من ثلاث أو أربع مرات ، تصرخ على الأقل فى واحدة منها ، جئت بسريرى خميس وسويلم إلى حجرتنا ، إلا أن ذلك لم يمنعها من الاستيقاظ ليلا ، تركت سويلم وخميس نياما بجوارها وكنت أنام أنا على أحد السريرين الصغيرين ، إلا أن ذلك لم يخفف من وطأة مرضها ، لابد أن يراها طبيب ولابد أن تعود إلى تناول أقراص البرشام ، الذى كانت تتناوله ، ربما يكون مهدئا أو غير ذلك إلا أن الطبيب بعد الكشف سيقرر ما يراه مناسبا .

ظننت أن خطابات أخوات فاطمة قد تهدئ من روعها أو نفسيتها ، كانوا يرسلون لها خطابات باستمرار تحمل اسمى وتحتها تسلم ليد أم خميس ، تعودت هى ألا تفتح خطاباتى ولا أسألها أنا عن خطاباتها إلا عندما ترغب هى فى الإفصاح عنها وما جاء بها . أمها تفكر فى زيارتنا ثم زيارة بيت الله ، ففى تلوانة يقولون إن الحج من الخليج أرخص ، أوضحت لها أن تأشيرة الزيارة قد تستغرق شهورا مما يضيع عليها فرصة الحج ، فلماذا لا تحج هى من تلوانة ؟ .. ثم أتقدم لاستخراج التأشيرة لها وعندما تنتهى الإجراءات فأهلا بها وسهلا .. تقضى معنا شهرين أو ثلاثة لعل وعسى تهدأ فاطمة .

عندما تأتى الخطابات من تلوانة كأن « ماسورة مياه انفجرت » ، ثلاثة أربعة خطابات فى اليوم الواحد ، عبد الله صديقى وأختى هناء والشيخ على ماضى وأخوات فاطمة حتى عطية الذى كان يفضل الاتصال تليفونيا بدأ يمارس أيضا هواية كتابة الخطابات .. كل الخطابات سلامات وتحيات .. وأشواق لا تنضب ، وفيضانات من الحب ، باستثناء الشيخ على ماضى وصديقى عبد الله ، خطابات الشيخ نشرات أخبار ومتفرقات وأحيانا مباريات بين أهل تلوانة وبعدها يسأل عن طلبية جديدة من العمال فهو جاهز دائما ! .

. أما خطاب عبد الله هذه المرة فهو محمل بالغضب من الشيخ على ماضى الذى أعطاه المبلغ وطلب توقيعه على إيصال أمانة وهو ما لم يفعله من قبل .. المهم فقد تسلم المبلغ ولم يودعه بعد فى البنك ، ويفضل أن يستكمل الدورين الباقيين فى المنزل وما يتبقى من المبلغ يضعه فى حسابى حتى انتهى تماما من موضوع البناء .. الفكرة « ذكية » ، اتصلت به تليفونيا وطلبت منه التوكل على الله وإنهاء البناء والتشطيبات ، حتى يصبح لى منزل قريب الشبه بمنزل عبد النبى بتاع ميت شهالة وسألته إذا كان يرغب هو أو هناء فى شئ من الدوحة .

أما خطاب عطية أخى ورغم أنه من ورقتين أربع صفحات لا يحتوى إلا على فكرة واحدة .. مناورة من مناورات عطية أخى .. ينصحنى أو يحذرنى من فتح موضوع شراء أرض عمى حاليا ، فهو يرى أنه فى حالة فتح الموضوع الآن ، قد يستشعر عمى أن أولاد أخيه عطية وعبد الحميد سيدخلان مزادا لشراء الأرض والصفقة قد تكون من نصيب من يدفع أكثر ويبدو أن عطية يريد شراء الأرض لنفسه وأن يبعدنى عن الصفقة كما يطالبنى فى خطابه بأن أمنع وكيلى ـ الشيخ على ماضى ـ من الاقتراب من عمى ، خاصة وأن الشيخ قد أرسل « المراسيل » لعمى لانقطاع العلاقة بينهما ويرغب هو فى شراء الأرض ، بعدما « جرت الفلوس فى ايده » من جراء تسفير العمال ، الرد على هذا الخطاب سابق لأوانه فبعد أن أنتهى من بناء المنزل وبعد أن أدخر مبلغا محترما سنعاود النقاش فيه .

استقر العمل فى شركة المقاولات ، وعاد الشيخ يوسف الحرمى وشانتى إلى سابق عهدهما فى المتابعة عن طريق التليفونات لا الزيارات المفاجئة .. حدثتها عن رغبتى فى التأخر يوما للذهاب مع فاطمة زوجتى إلى المستشفى ، قالت إنه من الممكن أن تمر هى عليها وتأخذها إلى المستشفى دون الحاجة إلى تأخيرى عن العمل ، واتفقنا على اليوم والساعة ، وأبلغت فاطمة إلا أنها ترددت فى قبول العرض وسألت لماذا لا أذهب أنا معها إلى المستشفى ومن هى شانتى تلك ؟ .. وأنها إذا ذهبت ستعرض نفسها على طبيب أمراض نساء وتوليد فقط .. أما حكاية الاستيقاظ من النوم وغير ذلك فهى من الأسرار التى لا يجب أن يطلع عليها أحد وأمنتنى بالله ألا أبلغ بها حتى أمى أو أخوتى .

عندما عدت من العمل لم تحدثنى فاطمة عن شانتى من قريب أو من بعيد ولكنها تساءلت لماذا لا أشترى سيارة مثل سيارتها وبعد قليل سألت هل شانتى متزوجة أم لا.. جاءتها شانتى الساعة التاسعة صباحا واصطحبتها هى وخميس وسويلم إلى مستشفى حمد، اشترت للأولاد مياة غازية من فاترينة أمام المحل تضع فيها الريال وتضغط على صورة المشروب فتنزل علبة من فتحة فى أسفل الفاترينة أو الثلاجة ، بهرتها المستشفى .. مساحتها ضخمة مثل مدرسة المعلمين فى بى العرب ، إلا أن بداخلها شوارع وممرات ، بمجرد دخولهم استخرج لها موظف بطاقة علاجية عليها اسمها وفى قسم أمراض النساء استمعت لها طبيبة لا تعرف إذا كانت قطرية أو هندية وأجرت الكشف الظاهرى وطلبت إجراء بعض التحاليل وانتقلوا مباشرة إلى المعمل ، وفى أقل من نصف ساعة كانت النتيجة قد ظهرت ، لتدخل مرة أخرى إلى الطبيبة ، طمأنتها الدكتورة .. كل شىء تمام .. اضطراب بسيط فى الدورة الشهرية بسبب إحدى المبايض ، كتبت لها علاجا صرفته بالمجان أيضا من أجزخانة المستشفى ، لم تدفع درهما واحدا وخلال ساعة زمن أعادتها شانتى مرة أخرى إلى المنزل ، وأصرت فاطمة على استضافتها لتشرب كوبا من الشاى ، وجلست معها ما يقرب من الساعة .

ولم تهدأ فاطمة ليلا ، لابد من عرضها على طبيب أمراض نفسية أو عصبية ، ولكن لم يصل الأمر إلى حد الخطورة ، اعتدت على استيقاظها وتعودت على صراخها ، فى الحقيقة ، هى صرخة واحدة ، ولا أحد يسمعها سوانا فالمنازل فى وادى السيل بعيدة عن بعضها بمسافات كبيرة وغير متلاصقة مثل منازل تلوانة .. خميس وسويلم اقتربا من سن المدرسة ، يبلغان الآن من العمر ست سنوات إلا شهرين تقريبا ، صراخ أمهما ليلا أصبح يزعجهما وقد يؤثر عليهما .. احتضنتهما .. اهدئهما ، أبلغهما أن أمهما تشعر أحيانا بألم مفاجئ ، فهى لا تأكل جيدا ولا تغسل أسنانها بالفرشاة .. يصدقوننى وعندما تستيقظ أمهما ليلا ، يترجيانها أن تأكل جيدا .. وتقبلت فاطمة الفكرة ورحبت بها فهى تخشى أن يظناها مجنونة أو أظنها أنها كذلك .

المدارس على الأبواب ولابد أن يلتحق الولدان بالمدرسة ، سألنا عن أقرب المدارس وطرق التقديم .. أسهل من السهولة .. ست صور لكل طفل وشهادة الميلاد .. لا طوابع مهن تعليمية ولا إيصال كهرباء ، المطلوب تحديد مكان السكن بدقة حتى يأتى الأتوبيس لالتقاطهما صباحا والعودة بهما ظهرا ، سألت عن المصاريف وأجرة الأتوبيس .. لا مصاريف والأتوبيس تابع لوزارة التربية والتعليم .. ينقل التلاميذ مجانا .. خرجت لأول مرة مع فاطمة إلى شوارع الدوحة .. ومعى سويلم وخميس لأشترى لهما احتياجات المدرسة من ملابس وحقائب .. تنظر إلى المحلات يمينا ويسارا وتسأل ألا توجد هنا محلات صاغة وذهب ؟ .. أتجاهل السؤال .. فالموقع الذى ذهبت إليه هو أول سوق عرفته فى الدوحة .. سوق واقف .. اشترينا كل ما يلزمنا واشترينا بعض العطارة للمنزل وبعض المكسرات ورأت فاطمة باعة الأسرة والبطاطين والمراتب الإسفنجية .. عرجت إلى هناك .. أخذت تقلب فى أغطية الأسرة .. أعجبها « لحاف » .. طلبت منى أن أشتريه لها .. ألوانه جذابة إلا أن سعره ليس كذلك .. دفعت مائة وعشرين ريالا .. من سوق واقف إلى وادى السيل .. سألت فاطمة إلا يمكن الذهاب إلى هذا السوق مرة واحدة فى الأسبوع على الأقل وكأننى لم أسمع السؤال ! .

الأجندة الخضراء لم أعد أدون فيها ما أنفقه ، أدون فيها ما اكتسبته أو ما حولته إلى تلوانة أو حساباتى مع الشيخ على ماضى وعبد الله زوج أختى الذى يقوم بالإشراف على بناء منزلى .. المرتب بالكامل من شركة المقاولات لا أمسه ولا أقترب منه ، أتسلم راتبى .. أذهب به إلى البنك مباشرة وما ينفق على المنزل ، والأولاد وحتى مصاريفى الشخصية التى زادت بعض الشئ تأتى من عوائد كومار .. بيع الصوانى الألومنيوم وإيجار المنزل وإذا استمر الحال على ما هو عليه وأدعو الله أن يستمر ، أستطيع أن أدخر بنهاية عامى العقد مائة وثمان وستين ألف ريال ، أستطيع أن أشترى بها ثلاثة أو أربعة فدانين فى تلوانة فنحن جئنا هنا لندخر أما الشراء .. ففى مصر .

اليوم الأول للمدرسة ، خرجت مع خميس وسويلم فى انتظار الأتوبيس الذى سينقلهما إلى المدرسة .. وقفنا تحت يافطة وادى السيل ، وسهم يشير إلى المنازل وتذكرت محمد سعد فكة وأول يوم دراسى وعودتى باكيا ، ترحمت عليه وعلى أيامنا ، كل منهما يحمل حقيبته ، أعدت لهما أمهما السندوتشات وبعض الفطائر التى تعلمت صنعها من رضوى الفلسطينية زوجة أخى .. أوصتنى أن أعطى لكل منهما مصروفا .. ترحمت على أيامنا عندما كنا نسير أميالا فى الغيطان لنصل إلى المدرسة ، يرتدى كل منا مريلة من قماش أسموه « تيل نادية » ، ولا أعلم لماذا لم يكن « تيل فوزية » ، بالإضافة إلى حقيبة من ذات القماش .. لا أحد يحمل معه سندوتشات فلم نكن نعرف بعد الخبز الفينو أو الأفرنجى .. ولم نكن سمعنا عن اللانشن أو البيض بالبلوبيف ، ولم يتقاض أحد منا طوال المدرسة الإبتدائية مصروفا ، لن يمنحا مصروفا هذا اليوم .. وانتظر حتى عودتهما من المدرسة واسمع منهما ، وهل هناك مقصف يبيع أشياء للتلاميذ ، وهل يقف حول المدرسة باعة جائلون يبيعون الحلوى المكشوفة كما درسوا لنا فى المدرسة عن « فيروز ورقبة الكوز » .. فى كتاب المطالعة .. قالوا لنا إن رقبة الكوز امرأة عجوز تبيع الحلوى بجوار المدرسة .. سأستمع لهما وبعدها أقرر إذا كانا سيمنحان مصروفا يوميا أو يتم الاكتفاء بما تعده لهما أمهما من سندوتشات .

السيارة جاءت فى موعدها تماما كما ذكر لى سكرتير المدرسة ، الساعة السادسة والنصف تمر فى المنطقة ، يتجمع تلاميذ المدارس فى أماكن بعينها ، تم تحديدها من قبل وتصل بهم إلى المدرسة الساعة السابعة إلا خمس دقائق قبل موعد طابور الصباح .. السائق هندى أيضا وكأن الهنود اخوان الخليجيين .. الله بالخير .. صعد الأولا د إلى الأتوبيس وودعتهما .. الهندى أكد أن موعد العودة الساعة الثانية عشر والنصف تماما .. عدت إلى المنزل .. اصطحبت فاطمة إلى مكان توقف « الباص » .. أكدت عليها أن تنتظر الأولاد ظهرا ، والمكان لا يبعد كثيرا عن المنزل ، إلا أن أول يوم فى المدرسة تصبح ذكراه عالقة فى الذاكرة إلى الأبد وبعد التعليمات ذهبت إلى الشركة سيرا على الأقدام .. أحاول أن أستنشق أكبر كمية من هواء الصباح الندى .

حياة جديدة ليس لخميس وسويلم وحدهما بل لأمهما فاطمة أيضا ، تجلس معهما بعد عودتهما من المدرسة تذاكر معهما الدروس وتراجع الواجبات وأصبح لدى خميس وسويلم مجموعة من الأصدقاء والزملاء يأتون إليهما فى المنزل ويلعبون سويا فى الباحة .. أطفال هنود ومصريون وقطريون وبسرعة شديدة تعرفت فاطمة على أمهات الصبية .. بدأن فى زيارتها فى أوقات مختلفة .. طلبت منها أن تحدد لهن يوما فالعرف السائد هنا فى الدوحة ألا يدخل الرجل المنزل ، عندما تكون فى ضيافة امرأته نساء أخريات وتعلمت كما سمعت من مقهى الريان عندما أشاهد أحذية نسائية على عتبة البيت ، أعلم أن هناك ضيوفا من النساء وفى أحيان كثيرة عند عودتى ومشاهدة الأحذية أعود لمقهى الريان لأجلس بعض الوقت إلى أن تنتهى الزيارة .. الخوف كل الخوف من النساء الجارات أن يدللن فاطمة على الأسواق ومحلات الصاغة والذهب ، وما قد يجد من مشاكل ويرفع من سقف الطلبات التى زادت بالفعل .

طلبت فاطمة كنبة وكرسيين أو أكثر حتى تستطيع استقبال ضيوفها .. اتصلت بكومار على الفور أرسل المطلوب إلى المنزل وجعل الطلبية كنبة كبرى وأربعة كراسى فوتيه والحساب يجمع ، ورغم حياة فاطمة الجديدة وفرحتها بالعلاقات .. وإعجابها بالقطريات والهنديات ، إلا أن حالتها النفسية ازدادت تدهورا وبدلا من الاستيقاظ فقط فى الليل كانت تقوم فجأة وهى جالسة بيننا .. وتلطم على خديها وتسأل عن خميس وسويلم وهما يجلسان حولنا .. كنت لا أحاول أن أزيد آلامها ألما ، فهذا قدرى ونصيبى ولكن لكل داء دواء .. كانت تعتذر بعد أن تهدأ حالتها وكنت أتجاوب معها وأطمئنها بأنها ليس لها يد فيما يحدث والشافى هو الله .. استأذنتنى فى أن تصطحب إحدى جاراتها ويذهبا معا إلى مستشفى حمد للعرض على طبيب أمراض نفسية وعصبية .. لم أمانع .

عادت لتحكى لى أنه تم إجراء أشعة لها على المخ وطمأنها الطبيب وقرر صرف علاج من صيدلية المستشفى كل أسبوعين . . إلا أنه حذرها من الحمل أثناء تناول العقار الموصوف وأوصاها بأن تذهب إلى عيادة النساء لاختيار نوع يناسبها من وسائل منع الحمل ، مؤكدا عليها أن الحمل فى غاية الخطورة خلال فترة العلاج فقد تنجب طفلا مشوها ، وذكر أن العلاج قد يستمر مدة طويلة وإذا رغبت فى الحمل عليها وقف العقار قبل ستة شهور من إزالة وسيلة منع الحمل .. فاطمة بين نارين .. نار الإنجاب مرة أخرى ونار الشفاء .. إلا أنها قررت الاستجابة إلى تعليمات الطبيب واستمعت إلى نصائح جاراتها القطريات بأن العمر أمامها ومعها طفلان ومن الممكن أن تحمل وتنجب فى أى وقت .. إلا أن تأخير العلاج قد تكون عواقبه وخيمة .

كل شىء يسير على ما يرام .. الشركة .. أحكمت قبضتى عليها تماما ، لم يعد هناك عمال يخرجون لأداء مقاولات خاصة بهم ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، حتى المشرفين من الممكن أن « أطب » عليهم فى أى وقت ومن لا أجده فى موقعه يوقع عليه الجزاء بالخصم من راتبه كما أمر الشيخ يوسف الحرمى .. أما المخزن فلم يعد هناك مواد سواء كانت بويات أو معدات تخرج منه دون أذون مستندية ، كما أن العمالة المصرية الجديدة التى أرسلها الشيخ على ماضى ، ساعدت بطريقة أو أخرى فى تخفيض كميات الهالك وزادت أرباح الشركة هذا العام مقارنة بالعام الماضى بما يقرب من أربعة ملايين ريال ، كان نصيبى منهم ألف ريال ، صرفهم لى الشيخ يوسف الحرمى مكافأة له وليس لى بسبب نظرته الثاقبة ، حيث رأى من اليوم الأول للتعامل معى أنه استأجر بالفعل القوى الأمين .

حالة فاطمة فى تحسن ، تتناول قرص الدواء قبل النوم مباشرة ولا تصحو إلا صباحا ، لم يعد هناك صياح أو فزع مفاجئ ، أو غيره من الأعراض السابقة ، إلا أنها تفكرمن الحين للآخر فى تأجيل تناول العقار أملا فى حمل جديد ، فقد أصبحت تحلم دوما بالبنت التى تساعدها عندما تكبر ويتقدم بها العمر ، ويذهب كل من خميس وسويلم إلى عوالمهما الجديدة ، إلا إننى كنت أثنيها عن رغبتها تلك ، وأطلب منها تأجيل التفكير فى الحمل إلى أن يتم الشفاء .

سويلم وخميس انتقلا إلى الصف الثانى ، أصبح حديثهما مثل الأطفال القطريين تماما ، يعظمون نطق حرف الظاء ، وتداخلت المفردات القطرية والهندية وحتى الفارسية فى كلامهم ، ولا يمثل ذلك لى مشكلة على الإطلاق ، المشكلة أنهما طلبا من أمهما أن تطلب منى تخصيص مصروف يومى لهما وحدداه بريالين فى اليوم .. أجلستهما وتحدثت معهما وسألت ماذا يأخذان معهما إلى المدرسة وهل السندوتشات لا تكفى ، إلا أن اتفاقهما على المصروف وتحديده كان قرارا ، فهما يرغبان فى الريالين لشراء « جوتى » بارد ، أو علبة عصير ، جوتى يعنى علبة من علب المياه الغازية وتحدثا علن أن أغلب التلاميذ معهما يتقاضون مصروفا لا يقل عن خمسة ريالات وهما قد طلبا اثنين فقط ، أمهما لم تتدخل فى الحديث ، لا بالنهر ولا بالنظرات ، جلست لترى نتائج المواجهة والمناقشة ، وافقت على الريالين إلا أننى طلبت منهما الادخار ، وسأشترى لهما أنا « جوتى » البارد ، كنت أشترى أسبوعيا كرتونة بها أربعة وعشرين علبة بسعر الجملة ، ثمانى عشر ريالا ليأخذا منها صباحا علبتين يوميا ، والباقى يتم استخدامه فى المنزل أو تقديمه لضيوف أمهما .

فاطمة خصصت يوم الخميس لضيوفها ، ورجعت أنا إلى مقهى الريان كل خميس ، وكان كومار يأتى لى مرة على الأقل كل أسبوعين ، حيث فرقت بيننا السبل ، فهو يعمل فى مصنع الأخشاب بالمنطقة الصناعية وأنا أدير شركة المقاولات فى وسط البلد ، حيث أول مكان وقعت عينى عليه بالدوحة ، وأصبح عشقى الأول أحيانا أنزل من المكتب وخاصة فى أيام الشتاء لأسير بعض الوقت فى شوارع الدوحة القريبة من الشركة ، عرفت المحلات وأصحابها والعمال الهنود ، الذين يعملون بها وحتى المعروضات ، كنت أعرف الجديد منها وأصبحت أعرف الدوحة معرفتى لكف يدى كما يقولون فى بلدنا تلوانة ـ الباجور ـ منوفية .. كنت أعرج من وقت لآخر على غيث الكوارى كفيلى الأول فى الدوحة ، نتناول الشاى وبعض التمر ، ويبلغنى بآخر نكتة وصلته من مصر ، كان مغرما بالنكات المصرية .

عرف غيث الكوارى مكان عملى الجديد وإن لم أذهب إليه ، جاءنى هو ، أصبحنا صديقين ، فتح لى مساحة أكبر فى صدره ، حدثنى عن مشكلته مع الأستاذ عبد النبى وأخبرنى أنه بعد سنوات التعامل الطويلة معه ، لم يعد كما كان ، تغير كثيرا بالرغم من أن النعمة التى يرفل فيها ، من الله سبحانه وتعالى أولا ومن غيث الكوارى ثانيا ، فقد ورد خلال السنوات العشر الأخيرة إلى غيث وحده ما لايقل عن ألف عامل ، إلا أنه لم يعد كما كان ، أصبح عليه الكثير من المتأخرات ، لم يوردها إلى غيث وامتنع غيث أيضا عن طلب عمال منه .

باب رزق جديد وانفتح ، خاصة عندما أخبرنى ذات مرة أنه على وشك الذهاب إلى مصر خلال أسبوع .. أعطيته عنوان الشيخ على ماضى فى بلدتى وأرسلت إلى الشيخ على تلغرافا ، أطلب منه أن يكرم ضيفى غيث الكوارى كفيلى الأول فى قطر ، وأن طلبات غيث من العمالة المصرية لا تنتهى ، إلا أن أغلبها تأشيرات حرة ، وبعد التلغراف أرسلت للشيخ على ماضى خطابا مطولا ، أحكى له فيه عن مشكلة غيث الكوارى مع عبد النبى بتاع ميت شهالة ، وكيف أن الأخير « تملص » من تسديد باقى الأموال التى عليه لغيث ، مما دفع غيث للبحث عن مورد عمال آخر ، وتمنيت أن يقع اختياره على الشيخ على ماضى ، الذى أصبح مرخصا له بإلحاق العمالة المصرية للعمل بالخارج ، ولديه كافة المستندات التى تدل على ذلك ، وعليه تقديمها إلى غيث الكوارى بعد أول لقاء .

كل الأمور تسير على ما يرام ، إلا علاقتى بأخى عطية ، تتطور من سيئ إلى أسوأ ، عبد الله زوج أختى هناء أنهى بناء المنزل ، عمارة من أربعة أدوار متكررة ودور أرضى وشرفة تحيط بالدور الأرضى كله وأرسل لى كشف حساب وصورة للعمارة ، قمت بتكبيرها فى استوديو مجاور بوادى السيل واشتريت لها إطارا مذهبا وعلقتها فى حجرة خميس وسويلم .. عمارة تحيط بها الحقول والزرع والأشجار ، أخبرتهم أنها عمارتنا فى تلوانة ـ الباجور ـ منوفية .. سنعود إليها لنسكن فيها بعد أن ننهى أعمالنا هنا فى الدوحة .. سأل خميس وسويلم إذا كان هناك مدارس فى تلوانة وإذا كان هناك « باص » سينقلهما إليها ، سألا عن أشياء عديدة ، أخبرتهما أنه أجمل ما فى العمارة أنها بجوار جدتهما أم عطية وجدتهما أم فاطمة .

كنت أدخل حجرتهما من وقت لآخر أنظر إلى صورة العمارة وأنظر إليهما ، وأتمنى أن يظلا أخوين يحب كل منهما الآخر ، ولا يحدث معهما ما حدث مع أبى وعمى وما يحدث حاليا بينى وبين أخى عطية الذى أرسل لى خطابا شممت منه رائحة الغضب ولا أريد أن أقول الغيرة ، أبلغنى أن بناء منزلى قد اكتمل وأصبح لى ولفاطمة ليس دارا مستقلا ، بل عمارة كاملة ، وأنه سيقوم بإرسال المبالغ التى دفعتها من قبل فى بناء المنزل الملاصق لدارنا القديم وثمن الأرض التى دفعتها لعمى وعمتى إلى أن يصبح المنزل ملكا خالصا له .. وأرسلت إليه أكثر من خطاب إلا أنه لم يرد ، حاولت الاتصال به تليفونيا سواء فى منزله بالكويت ، أو فى مقر عمله ، لم أوفق فى مخاطبته ، إلا أننى لا أرغب فى مواجهته أو سؤاله عن سبب تحوله المفاجئ .

سلوك عطية الجديد جعلنى أكره تلوانة ، كنت أنا المحب لها وهو الكاره ، تحول الأمر ، الإجازة على الأبواب وهى تتزامن مع إجازته ، هل أنزل تلوانة وأبحث عمن يحكم بيننا أم أظل أنا بالدوحة وأرسل فاطمة والأولاد ؟ .. هل يمكننى أن أقنع فاطمة عامين آخرين وهى المتلهفة على رؤية أمها وأخواتها أو أفاتحها فى الأمر .. لا أرغب فى أن تعرف مشاكلى مع عطية .. أطرح عليها الأمر من ناحية أخرى .. ماذا لو قضيت الإجازة هنا فى الدوحة واشتريت لها بثمن تذاكر السفر بعض الحلى الذهبية ، قد تقبل وقد ترفض ، إلا أننى قررت ألا أنزل هذه الإجازة وأظل هنا ، إلى أن يحزم أخى عطية كل أموره وتتضح كل نواياه .

ضبطت فاطمة الحلوة فى حجرة الأولاد تمعن النظر فى صورة عمارتنا عندما دخلت عليها ، سألتنى إذا كانت صورة حقيقية أم مجرد رسم ، أخبرتها أنها الحقيقة ، وعلى بعد من العمارة ، يظهر فى الصورة بعض منازل القرية ، أشرت إليها إلى دار أمها ودارنا ، ضحكت كالأطفال وألقت بذراعيها حول عنقى طوقته ، وضحكت مرة أخرى وأوضحت أن سبب سؤالها .. لقد تشاجر سويلم وخميس مع أصدقائهما بسبب هذه الصورة المعلقة على جدار حجرتهما ، أخبرا أصدقاءهما أن الصورة لمنزلهما الجديد فى تلوانة ـ الباجور ـ منوفية ، اتهمها الأطفال بالكذب .. قالت أن سويلم أخذ يبكى عندما قال له زميله إنه « خراط » أى كاذب باللهجة القطرية .. ضحكت ونظرت نظرة أخيرة للصورة وحذرتنى ألا أكون أنا أيضا « خراط » !

لن أفاتح فاطمة فى موضوع الإجازة إلا قبل موعدها بشهر على الأقل حتى لا تتراجع فى قرار تتخذه .. تلوانة أصبحت مرة أخرى هى محور حياتى ، العمل فى الدوحة يسير على ما يرام ، الشيخ يوسف الحرمى راض عنى وعن أدائى كل الرضا ، علاقتى بشانتى المدير العام الفعلى لكل أملاك الشيخ فوق الوصف ، علاقة أخوية خالصة ومحبة واحترام ، عرفت طريق فاطمة الحلوة وكانت تداوم على زيارتها كل خميس وقد انتهت غيرة فاطمة منها تماما ، خميس وسويلم ينادونها بخالتى شانتى وهى لا تأتى إلا ومعها بعض الحلوى لهما ، تلوانة هى سبب شقائى هذه الأيام .. لا .. تلوانة سبب شقائى قبل تركها وقد تكون سبب « بلاوى » جديدة بعد العودة إليها ، تلوانة ـ الباجور ـ منوفية ، التى كنت أحبها ، بدأت كراهيتها تتسرب إلى شراييني بل أصبحت أمقتها وأخشى من العودة إليها .

خطابات على ماضى لم تعد خفيفة الدم ، كل خطاب يفتح جرحا جديدا ، فى خطابه الأخير أوضح الشيخ أن عطية غاضب لعدة أسباب أهمها أن عمى رفض أن يبيع له الأرض بالسعر الذى عرضه ، « ودق اسفين بين الأخوات » ، قال له إن عبده قدم سعرا أعلى ، رغم أن الشيخ يعلم أننى لم أعرض على عمى شراء الأرض على الإطلاق وأن ما تحدثت معه كان يدور حول قضية الفرز والتجنيب ، التى يؤجلها محامى عطية ، إلا أن عمى تحول إلى عجورة جديد ، يبث شائعاته فى تلوانة ، وهاهو عطية قد صدقه ، قررت أن أرسل إلى أمى خطابا ، لتوضح لعبد الله وهناء وعطية عندما يأتى حقيقة الأمر وأننى غير راغب على الإطلاق فى شراء أرض عمى ، فالأراضى كثيرة فى تلوانة وما حولها ، وأننى لا أرغب فى أن أخسر أخى عطية وأننى قد لا أنزل هذه الإجازة ، وقد لا أنزل تلوانة مرة أخرى ، إلى أن يهدأ أخى ويصدقنى أنا ، ولا يصدق عمه عجورة الجديد ! .

قررت ألا أنزل الإجازة وأفاتح فاطمة فى الأمر وأتحجج بأننى أحتاج لبعض الوقت لادخار المزيد من المال ، حتى نعود لمصر ولا نفكر فى الخروج منها أبدا ، سأرسلها إذا رغبت هى والأولاد إلى مصر ، وأقضى أنا إجازتى بالدوحة ، ولو قررت البقاء معى سأشترى لها بثمن تذاكر السفر أربع غوايش دهب ، الخطابات تصلها من أخواتها باستمرار ، ومن الممكن أن تطمئن عليهم بالتليفون .. بعد برهة صمت .. وافقت على البقاء بالدوحة مع استبدال« كردان » بالغوايش الأربعة مثل الذى يزين عنق رضوى الفلسطينية زوجة أخى عطية .. وافقت أنا على الفور وطلبت مهلة أسبوعين للنزول إلى سوق الذهب لشراء « الكردان » !

مر موعد الإجازة .. لم أنزل مصر .. وانتهت إجازة عطية فى تلوانة وعاد للكويت ولم أشتر لفاطمة « الكردان » الذى فضلت البقاء من أجله فى الدوحة ، وبدأت المطالبة والمطاردة والعويل ، عادت فاطمة مرة أخرى « تسوق العوج » . أعطيتها ألفى ريال وطلبت منها الانتظار بعض الوقت ، فالكردان لن يقل ثمنه عن ثلاثة آلاف ريال ، خاصة وأنها تصر على شراء كردان كبير « أربعة أدوار » مثل الذي يزين صدر رضوى ، نصحتها بأن تحتفظ بالنقود وتذهب إذا أرادت مع إحدى جاراتها لسوق الذهب .. تشاهد فقط ولا تشترى وتعرف الأسعار وتحدد المكان والكردان الذى تبغيه وعليها الانتظار بعض الوقت لأدبر لها ألف ريال أخرى على الأقل .. تسلمت المبلغ .. دسته فى الدولاب تحت الملابس وجففت دموعها وعادت تسأل عن امكانية شراء « جوز » من الغوايش أو حتى « فردة » واحدة بجانب الكردان ، تناولت فاطمة « برشامة » ما قبل النوم ، اطمأنت على الأولاد فى حجرتهم ونامت هى واستخرجت أنا الأجندة الخضراء ، أدون فيها المبلغ المدفوع ! .

كتبت خطابا مطولا إلى الشيخ على ماضى ، استفسر فيه عن زيارة غيث الكوارى وأوضح له أننى امتنعت عمدا عن نزولى الإجازة لعدم مواجهة أخى عطية فى المقام الأول وأفسح له المجال لإنهاء صفقته مع عمى ، وليعلم أننى لا أرغب على الإطلاق فى دخول مزايدة ضده ، وطلبت منه سرعة الرد ، على أن يبحث لى عن قطعة أرض واحدة فى زمام البلدة ، لشرائها ، وليعلم عطية أننى غير طامع على الإطلاق فى أرض عمى ، وأن يخبر عبد الله زوج أختى بذلك ، وان يخبر أمى أيضا لعل وعسى ، تستطيع أن تصلح الشرخ الذى حدث فى علاقتى مع أخى عطية .

الشيخ يوسف الحرمى بدأ يتردد بانتظام على شركة المقاولات ، له فيها مكتب إلا أنه مغلق بصفة دائمة ، قام العمال بدهانه وتركيب سيراميك جديد لأرضيته ووصلت مقاعد جديدة ومكتب خشبى فخم وطاولة اجتماعات كبيرة وقيل إن الشيخ سيجعل من هذا المكتب مقرا له ، يدير من خلاله مستودع الأخشاب والمصنع ، ويظل على مقربة من الشركة التى أدرك أنها من الممكن أن تدر ذهبا فى حالة متابعة العاملين فيها عن قرب ، عندما جاء الشيخ يوسف أصبح مكتبه هو المكان الوحيد الذى أقضى فيه أغلب وقتى ، أجلس معه نناقش أمورا عديدة ، يحكى لى عن مشروعات جديدة فى ذهنه ، أخشى أن أسأله عن عمره بالتحديد ، فقد علمت من شانتى أنه فى منتصف السبعينيات من العمر والمشروعات التى يحلم بها ويتحدث عنها تحتاج عشرات السنوات ! .

أقضى يومى كاملا مع الشيخ يوسف ، لا أترك المكتب إلا إذا كلفنى بشىء أؤديه أو أخرج فى زيارت ميدانية لمواقع العمل ، ثم أعود إليه يسأل عن سير الأعمال وأداء العمال ، وحالة المخزن والبضائع الجديدة التى وصلت والمواد التى صرفت ، وعندما أقدم له أوراقا أو مستندات يزيحها جانبا ويطلب منى أن أبلغه شفاهة ، ويتبسط أحيانا فى الحديث معلنا أنه لا يحب من الورق إلا أوراق البنكنوت ، يسألنى من وقت لآخر عن أحوال الأولاد ، ويسألنى متضاحكا عما أدخرت حتى الآن وكيف استثمر فلوسى .. ينصحنى بأن أعمل فى تجارة الأخشاب عندما أعود نهائيا إلى مصر .. ثم يعود ليضحك معلنا خوفه وخشيته أن أعمل فى هذا المجال هنا بالدوحة . . مع طول الملازمة والصحبة أصبحت أشعر أنه أخ أكبر أو والد حقيقى ، لم أسمع منه كلمة ضد منافسين فى السوق ولم أر على وجهه علامات غضب من أحد ، يثور أحيانا إلا أن الثورة سرعان ما تزول .

عدت ذات مساء لأجد فاطمة على غير عادتها ، ترتدى قميص نوم جديدا وتضع أحمر شفاه قانى اللون ، أخبرتنى أنها ذاكرت مع الأولاد دروسهم وهم الآن فى نوم عميق .. أحضرت العشاء وقبل أن أسألها عن سر هذا التحول المفاجئ ، فى المظهر والسلوك وعن سر العطر الجميل الذى يفوح من ملابسها وجسدها ، أخبرتنى أنها كانت فى السوق ، ذهبت بصحبة إحدى الجارات كما نصحتها ، شاهدت سوق الذهب وتجولت فى محلاته ورأت الأسعار ، وحددت الكردان الذى ترغب فى شرائه ، ورأت غوايش « أشكال وألوان » ، لم يعرف أهل تلوانة أو الباحور مثلها ، إلا أن الأسعار « نار » ، الكردان قيمته ثلاث آلاف وخمسمائة ، والغويشة لا يقل سعرها عن خمسمائة ريال ، فكرت أن تنتظر بعض الوقت حتى أستطيع أن أدخر لها بقية سعر الكردان ، وعرجت على محل اشترت منه قميصا جديدا للنوم ، وملابس داخلية كما أشترت زجاجة عطر وعلبة مكياج « خراب بيوت » .. لقد عرفت فاطمة بنت نبوية الداية طريق السوق ، صرفت مائتى ريال ، وحاولت فى تلك الليلة أن ترضينى بكل الطرق ، طلبت منها الاحتفاظ بباقى المبلغ ولا تذهب إلى السوق مرة أخرى ! .

عادت شانتى للتواجد فى شركة المقاولات بجوار الشيخ يوسف كما كانت تفعل فى المستودع ومصنع الأخشاب ، تحضر معه صباحا فى سيارته وتغادر مقر الشركة عصرا بسيارة أجرة ، بدأت تدور وتصول فى أوساط الموظفين فى المخزن أسفل العمارة ، إلى المحاسبين والمراجعين ، كانت تطلع بنفسها على أغلب الدفاتر ، أحسست أنها ترغب فى تهميش دورى فى الشركة ، وتزحف على تخصصى كمسؤول إدارى ، تحاسب الموظفين على تأخرهم وتطلب مكافأة لبعضهم والشيخ يوسف الحرمى لا يرد لها طلبا ، جاءت بموظف جديد ليعاون أمين المخزن وجاءت لى بمساعد هندى شاب يشبه كومار إلى حد ما إلا أنه لا يستخدم زيت الشعر ويتحدث اللغة العربية مثل أهل قطر ، عرفت فيما بعد أنه هجين ، أمه هندية وأبوه قطرى ، وممن تعلموا أيضا فى إنجلترا .. كان مع جابر وجبر أبناء الشيخ فى نفس المدرسة الإنجليزية .

لم أحاول أن أظهر قلقى ، فالمساعد الجديد يستجيب إلى كل التعليمات وخفف عنى العمل بطريقة أو أخرى ، كنت أرسله لمواقع العمل للمتابعة ، كان يأتينى بتقرير كامل عما أنجز ، كانت عيناه مثل عين الصقر يتابع كل كبيرة وصغيرة ... عرف العمال بأسمائهم ودائم الإشادة بالعمالة المصرية إلا أنه كان يعيب عليهم عدم التنظيم ، يرى أنهم من الممكن تحسين أدائهم اذا تم وضعهم داخل نظام عمل محكم ، لم يكن المساعد الجديد منافسا لى على الإطلاق ، كان متعاونا إلى أبعد الحدود .. فهل نحن المصريون كما قال لى كومار وشانتى ذات مرة أننا سيئو النية والقصد .. ربما .. لقد حلت فاطمة محل كومار .. كنت أحكى لها عن ظروف العمل وتسمعنى بلا تعليق .. وعندما تدخل تحت تأثير الدواء تسألنى فى الصباح لماذا لم أكمل لها الحكاية ! .

حكايتها هى حكاية .. طلبت مصروفا للمنزل لتشترى هى الاحتياجات وتوفر منه بعض الشىء لشراء ما ترغب هى فى شرائه ، وافقت .. حددنا المصروف .. إلا إننى طالبتها بالاقتصاد وأعدت على مسامعها مقولتى السابقة ، نحن لم نأت إلى هنا للشراء والانفاق ، فكل مليم له طعم آخر مختلف فى مصر .. حكيت لها عن شانتى والتى رفضت ابن الشيخ الكبير كزوج لها ، طلبت منى أن أتركها لتقنعها بقبوله ، تظن أنها فى تلوانة ، أخبرتها أنها رفضته لعدة أسباب فهو فظ غليظ متجهم وتزيده اللحية تجهما ولا يعرف الابتسامة كما أنه متزوج ولديه أبناء ليسوا صغارا وعندما طلب من أبيه أن يفاتحها فى موضوع الزواج تهرب منه الشيخ ونصحه بالتعامل معها مباشرة .. فى حالة الموافقة ، سيقول له مبروك وفى حالة الرفض يجب ألا يحاول مرة أخرى ، إلا أنها رفضت لأسباب واضحة ، وساءت العلاقة مجددا بين الشيخ وولده الملتحى .

الشيخ يوسف الحرمى له رأى فى ولده أخبرنى بـه ذات جلسـة ، فالولـد كمـا يقـول عنـه الشيخ يريد أن يرثه وهو على قيد الحياة ، يريد أن يضع يده على كل شىء فى الشـركات ، لا يريد أن يعمل ويكد ولكنه يريد العوائد على الجاهز ، وقد أعتقد أن زواجه مـن شـانتى قـد يسهل مهمته وقد تكون هذه أحد أسباب رفضه .. فاطمة تـرى الأمـور بمنظـور تلوانـة .. الشيخ فى رأيها رجل ثرى سواء فى حياته أو بعد مماته سيأخذ كـل حـى نصـيبه .. نصـيب الحى لن يكون بضعة قراريط لكنها ملايين ، والشيخ يدرك ذلك ، ويبدو أنـه قسـم الإرث إلا أن ابنه الأكبر يريد ابتلاع الجزء الأعظم وربما يكون ذلك سبب الخلافات الدائمة مـع والده .

سألنى الشيخ مرة عن سبب قضاء إجازتى فى الدوحة ، وعدم الذهاب لمصـر ، لم أشـأ أن أكذب عليه .. حكيت له عن خلافاتى مع أخـى وظنـه السـيئ بـى ، كـان يسـأل عـن أدق التفاصيل ويستمع باهتمام ، فى النهاية أقر أن ما فعلته صواب ، وأن أخى سيكتشـف آجـلا أو عاجلا حقيقة الأمر ، ووضع إصبعه على الجرح الحقيقى ، الظلم يولد سوء الظن ، ومـا يفعله أخى عطية فى نظره طبيعى فقد ظلمنا عمنا ويريد الوقيعة بيننا ونصحنى بأن أتواصـل مع أخى بالخطابات والتليفونات وكأن لم يحـدث شـىء عـلى الإطـلاق ، فهـو سـيدرك فى النهاية أنه مخطئ والأهم ألا أضمر فى صدرى شيئا تجاهه .

29

عملت بالنصيحة ، أرسلت خطابا لعطية ، اطمئن فيه عن أخباره وأخبار أبنائه وكيف قضى إجازته فى تلوانة واتصلت به تليفونيا وكأن لم يحدث شيء ، ولا أضمر له حقدا ، إلا أن « الواد المبيض » الذى رفض أن يكتب لأمى عند عودتها من الحج على الجدار « حج مبرور وذنب مغفور يا أم عطية » كان على حق .. لقد وصلنى خطاب من الشيخ على ماضى ، يحكى فيه أن أخى عطية أتم صفقة الشراء مع عمى وأصبح مالك الأرض ونقل الحيازة الزراعية باسمه ولم يبلغنى بذلك ، سواء فى التليفون أو فى الرسالة التى أرسلها لى .

زار عطية عمه قبل سفره بيومين وأبلغه أنه إذا كان يرغب فى بيع الأرض ، فلن يجد مشتر سواه سواء من داخل القرية أو خارجها وتحدث بلسانى وأننى صرفت نظر عن الموضوع وفتح حقيبة مليئة بالنقود فى حضرة الشيخ على ماضى والمحامى وتسلم عمى المبلغ ووقع على العقد ثم قاما بتسجيله قبل يوم واحد من عودته إلى الكويت. الشيخ على ماضى يحكى أن عمى عمل « قرد » لرفع السعر ، إلا أن عطية كان « قرداتى » يرخى له الحبل أحيانا ويشده على عنقه فى أحيان أخرى ، إلى أن وافق فى النهاية . خاصة عندما هدده بأن قضية الفرز والتجنيب التى ينتظر فيها الحكم قد تظل منظورة أمام المحاكم لعدة سنوات « فإذا بالقرد ينحنى للقرداتى ، ويوافق على كل شروطه » .

الشيخ على ماضى يرى أن شـراء الطـين الآن غيـر مجـد والنـاس الآن فى تلوانة وما حولها يتجهون إلى الباجور .. يشترون الأراضى خارج ما يعرف بكـــردون القـــرى .. يشـــترونها بالفـــدادين أو القـــراريط ويقســـمونها

ويبيعونها بالمتر ويكسبون آلافا وأنه شخصيا قام بشراء قيراطين فى مدخل البـاجور ، مـن الممكن أن يبحث لى عن قطعة مماثلة أو أكبر ، مصرا على أن هذا هو الاسـتثمار الحقيقـى وحكى لى عن زيارة غيث الكوارى إلى تلوانة والواجب الـذى قـام بـه معـه ، وأنـه قـد تـم الاتفاق بينهما على توريد عماله ، واختتم خطابه بالتحيات والأشواق والتنـدر عـلى عمـى الذى أصبح « شلط ملط » بعد أن باع أرضه لعطيـة ولـولا الملامـة لجمـع لـه عـددا مـن الأطفال ليزفوه فى القرية ويغنوا له أغنية « عواد باع أرضه ياأولاد .. شوفوا طوله وعرضـه ».. إلا أن « عشان خاطرك وخاطر عطية حاسيبه للزمن .. يعض أصابع الندم ! » .. عاد الشيخ على ماضى إلى خفة الدم ، بعدما أصبح من ملاك الأراضى فى الباجور نفسها ! .

سنوات زادتنى شحما وغرست شعيرات بيضاء فى جنبات رأسى وها نحن نستعد للإجازة الجديدة ، وفاطمة ادخرت من مصروف البيت مبلغا من المال ، قالـت إنهـا ستشـترى بـه بعض الأشياء لأمها ولأمى ولهناء .. سـعدت بقولهـا ونيتهـا ، فرحـت بصـفاء سـريرتها ، ودعوت الله أن يشفيها ، نزلنا السوق ، أول ما اشترت الكردان ، دفعت مبلغا إضافيا كبيرا ، ودخلت محلات الأقمشة كالمسعورة تطلب من هذا القماش خمسة أمتار ومـن ذاك سـبعة ومن آخر ستة ، عدنا إلى المنزل يحمل كل منا أكياسا كبيرة ، أنا وهـى وسـويلم وخمـيس ، جلسنا فى حجرة الأولاد ، أشرت إلى الصورة المعلقة على الجدران ، صورة منزلنا فى تلوانة ، هذا بيتكم .. كل واحد منكم عندما يكبر سيسكن فى شقة منفصلة على مساحة دور كامـل .. سويلم يرغب فى الدور الأول فهو لا يحب صعود السلالم بينما خميس لا يبـالى بـأى دور سيقيم .. هل يحدث بينهما ما حدث بينى وبين أخى عطية ؟ .. هل سيكون هناك نزاع على ميراث أو طمع ؟ .. أخشى أن يصـبح سـويلم مثـل الولـد الملتحـى ابـن الشـيخ يوسـف الحرمى ، أتمنى أن يصبحا مثل جابر وجبر اللذين تعلما فى إنجلتـرا وعـادا ليـديرا مصـنع الأخشاب باقتدار وعلم .

مرت الإجازة فى تلوانة كالريح ، لم يسافر عطية هذا العام .. ربما فعل مثلما فعلت ، تحجج أن هناك ظروفا منعته من قضاء إجازته فى تلوانة ، قضينا الليلة الأولى فى دارنا .. مع أمى وانتقلنا فى اليوم التانى إلى منزلنا الجديد ، جاءت هناء ونبوية ، تهنئ وتبارك وانتقلت معنا أمى لتبكى وتشتكى ، تطلب منى أن أعود نهائيا إلى مصر ، فالغربة تحب من يحبها وهى لا تريدنا أن أحب الغربة ، وإذا كنت مصرا على الاستمرار فى الدوحة ، علىَّ أن أترك خميس وسويلم على الأقل فى تلوانة ليعيشا معها ، حديثها هذا لمس وترا فى صدر فاطمة والتى « تزن » أمها على أذنيها بأن تبقى فى تلوانة وأحضر أنا هنا فى الإجازات ، القرار سابق لأوانه وأمامى التزامات ووصايا يجب تنفيذها بالفعل فى تلوانة .

استشعر أن إقامتى فى الدوحة لن تستمر طويلا ، هناك هاجس بأننى سأضطر إلى تركها فجأة دون سابق تخطيط أو إنذار ، هذا الهاجس لا أعلم مصدره .. إلا أننى فى أيامى الأخيرة كنت أشعر به من وقت لآخر ، شعرت به عندما أتت شانتى لى بمساعد هندى شاب ، إلا أننى طردت هذا الوسواس من رأسى .. قليل من المصريين الذين لديهم القدرة على اتخاذ القرار بترك الخليج طواعية ، بعضهم يتحجج بقضية الرزق « ورفس » النعمة التى حرمها الله ، والبعض الآخر يخشى من الفقر ويخشى من العودة إلى مصر رغم المدخرات التى أصبحت فى حوزتهم ، أنا للأمانة لست مع هذا الفريق أو ذاك ، لكننى أسأل نفسى ماذا كنت أفعل فى مصر قبل مغادرتها ؟ .. كنت مجرد كاتب فى إدارة تموين الباجور ، لا فرق بينى وبين من يحمل دبلوما أو الشهادة الاعدادية ، مجرد كاتب أكتب الأسماء على البطاقات التموينية الجديدة أو عندما تقرر الدولة إعادة النظر فى قضية الدعم فنلجأ إلى البطاقات مرة أخرى لتنقيتها من الموتى والمسافرين ، ولتعذبنا مرة أخرى بكتابة الأسماء نفسها.

الشيخ على ماضى يرى أنه من الممكن البقاء فى مصر والاستقالة من الحكومة والاكتفاء بفتح قنوات اتصال مع الأخوة العرب وتوريد العمالة المصرية لهم وهو ما فعله كثيرون ، قضوا سنوات قليلة فى الخليج وعادوا لامتهان هذه الحرفة .. توريد البشر أو تأجيرهم أو حتى بيعهم .. الاستاذ عبد النبى بتاع ميت شهالة ثروته كلها من هذه الحرفة وغيره الكثيرون انتشروا فى ربوع مصر وإذا كنت لا أرغب فى هذه المهنة حسب رأى الشيخ من الممكن أن أستثمر مدخراتى فى أشياء عديدة ، منها شراء الأراضى وتقسيمها ، فهى تدر أرباحا أعلى من أرباح بترول الخليج « ولا ضرائب ولا حجوزات » حسبما يقول .. الشراء والبيع بعقود ابتدائية ثم حكم محكمة لتأكيد صحة البيع .

نزل الشيخ على ماضى معى إلى الباجور ، شاهدنا سويا أكثر من قطعة معروضة للبيع.. حمى الشراء والبيع ضربت الباجور وكأن الناس تبيع ممتلكاتها وأراضيها لدواعى السفر .. الكل يريد أن يبيع ويقبض ويختفى .. اتفقنا على قطعة أرض مساحتها سبعة قراريط . دفعت ثمنها شيكا إلا أن البائع رفض استلامه ، فهو يريد المبلغ عدا ونقدا .. ذهبنا معه إلى البنك .. أستلم نقوده .. عدها ووقع على العقد .. سبعة قراريط أفضل من سبعة أفدنة فى رأى الشيخ وقد اقتنعت أنا بذلك .. الحسبة بسيطة القيراط بسبعة آلاف جنيه . دفعت تسعة وأربعين ألفا وإذا تم بيعها بالمتر وبسعر مائة جنيه للمتر الواحد سأحصل على مائة وعشرين ألفا ، مكسب صاف لا يقل عن مائة وخمسين فى المائة .

فدان المبانى فى شوارع وحوارى الباجور وصل سعره إلى ما يقرب من مائة وستين ألف جنيه بينما فدان الطين الزرع فى تلوانة لم يزد ثمنه عن سبعين ألفا .. الحركة فى أرض الزراعة بطيئة والأسعار لا تزيد كثيرا بينما أراضى البناء تتضاعف أسعارها كل عام تقريبا .. المشكلة أن هذه الأرض خارج تلوانة .. ضد وصايا محمد سعد فكة والذى كان يريد العزوة والأرض والمال داخل تلوانة وليس خارجها .. يافطة كبيرة الحجم قمت أنا وعلى ماضى بتعليقها على جذع شجرة فى الأرض المشتراة .. كل من يمر عليها يقرأ اسم تلوانة ويقرأ اسم محمد سعد فكة « الملك لله وحده » هذه الأرض ملك عبد الحميد محمد سعد فكة وأولاده ـ تلوانة ورقم التليفون .

أيام الإجازة تتسرب .. ويصحبنى الشيخ على ماضى من موقع لآخر ويوم بعد يوم .. فى آخر تلوانة على حدود بى العرب .. مساحة ثلاثة وعشرون قيراطا معروضة للبيع .. السبب خلافات الإرث والسعر المطروح أستطيع دفعه نقدا .. ستون ألف جنيها .. مشكلتها الوحيدة أن جزءا منها يتبع حيازة جمعية تلوانة الزراعية والجزء الآخر يدخل فى زمام بى العرب .. وتوكلت على الله واشتريت الأرض .. يجب أن يكون لى ملك خاص بى داخل تلوانة مثل أخى عطية .. أوصيت على ماضى بأن التركيز يجب أن يكون داخل تلوانة إذا عرض منزل للبيع عليه إخبارى بالتليفون على الفور وسأدفع له ثمن المكالمات .. ضحك وطلب ثمن المكالمات السابقة ، إلا أنه وعدنى بالتركيز على تلوانة .. وجدته أثناء عودتنا إلى البلدة يعرج بى إلى المقابر .. لم أتبين الطريق بسبب انشغالى بمتابعة أحاديثه ونوادره الشيقة .. وجدت نفسى أمام قبر والدى .. انتابتنى قشعريرة ، وجدت الدموع تنهمر من عيونى ساخنة .. أدفن وجهى بين كفى .. أقرأ لروحه الطاهرة الفاتحة .. لا أعلم سبب البكاء .. هل أبكيه مجددا أم أبكى الشرخ الذى حدث مع عطية أخى .. أو أبكى أيامى القادمة خوفا على خميس وسويلم بأن يحدث لهما ما حدث لنا ! .

دائما ما تتسارع الأحداث قبل نهايتها .. باقى من الإجازة أسبوع .. عادت أمي لبكائها وعادت فاطمة لأساليبها .. أمى ترغب فى ترك الأطفال وفاطمة تريد أن تبقى معهم .. أمى ترغب فى توديع الغربة وأعود لاقيم فى تلوانة ويعود للدار دفئه ومحبته ويعود أيضا عطية وأولاده .. القرار صعب .. قد أظل سنة أو سنتين على الأكثر فى الدوحة .. أتم سنواتى العشر بها .. ثم أعود نهائيا لتلوانة .. فاطمة والأولاد سيظلون فى تلوانة على أن تكون الإقامة مقسمة بين دارنا القديم ومنزلى الجديد . فرحت فاطمة بالقرار وسعدت أمى به . الأولاد سيعيشون وسط ناسهم فى تلوانة وسيعود لسانهم إلى حديث أهاليهم بدلا من المفردات الخليجية التى « سرحت » إليهم .. سيلتحقون بمدرسة القرية الابتدائية .. سأرسل لهم التحويلات من قطر بعد اعتمادها من السفارة المصرية .. لا مشاكل « نو بروبلم » على رأى كومار .. سأتصل بهم تليفونيا مرة فى الأسبوع وحان موعد السفر .. لا بكاء ولا عويل .. لم تعد أمى تنظر إلى صورة محمد سعد فكة المعلقة على جدار الحائط .. نظرت أنا إليها أتمعن نظراته وتخيلت أنه يبارك هذا القرار ! .

عندما هبطت الطائرة فى مطار الدوحة ومر بى سائق التاكسى أمام ميدان « براد الشـاى » أو « الدلة » ابتسمت وظلت الابتسامة معلقة على شفتى حتى وصلت منـزلى فى وادى السـيل .. هذا المنزل لم يعد لى حاجة له ، سأعود من جديد لأقيم مع كومـار .. سـأبدا مـن جديـد .. بعت أثاث المنزل لمغترب باكستانى جديد .. أما حجرة كومار فأصـبحت تليـق بمسـئول مالى فى شركة كبيرة .. أثاث جديد .. ثلاجة كبيرة .. تليفزيون ملون كبير .. جهاز فيـديو .. كرسى فوتيه محترم يغوص الجالس فيه .. صورة الممثلة الهندية أزالها مـن عـلى الحـائط وضع بدلا منها صورة لزوجته على جبهتها أيضا « بيندى » علامة ملونة .. استقبلنى كومـار بالأحضان .. عظام قفصـه الصـدرى كسـاها بعـض اللحـم .. فقـرات ظهـره التـى كنـت أتحسسها عند احتضانه غطاها أو نمت حولها بعـض العضـلات تخلـص مـن « الـوزار » وأصبح يرتدى بيجاما .. عندما علم أننى جئت لاسـتأذنه فى الإقامـة معـه ، لأننـى تركـت العيال وأمهم فى تلوانة ، كاد يرقص من الفرحة ونطق بالمصرى « فين أيام زمان » ! .

أخبرنى كومار بما كنت لا أرغب فى سماعه . الشيخ يوسف الحرمـى مـريض .. يرقـد فى مستشفى حمد ما يقرب من شهر .. حالته لا تتحسن ، إلا أن الأمور تسير فى شـركاته وكأنـه يتابعها .. أضيف إلى عملى مهمة جديدة .. أبدأ بالشركة ثم أزور مواقع العمل وعصرا أمـر على الشيخ يوسف الحرمى فى المستشفى .. حجرة غير مسموح بالدخول إليهـا .. واجهـة زجاجية عريضة أنظر إلى الشيخ منها . يرقد على سرير .. أجهزة من كـل نـوع وحجـم عـلى الحائط . خراطيم وأسلاك تربطه بالأجهزة والتى تسجل على شاشاتها دقات قلبه وحركات تنفسه ، تخيلته أول مرة محمد سعد فكة والمحاليل معلقة فى بطن ساعده .. كانت الدموع تفر من عينى فى كل زيارة وكانت زيارتى له يومية .

شانتى تذهب إليه أيضا بصفة دورية . ولداه جابر وجبر يمران عليه بانتظام من خلال جدول قاما بتنظيمه .. زوجته الهندية أخت شانتى رأيتها أول مرة . جاءت من الهند لتظل بجوار زوجها وبالقرب من ثروته .. شانتى تقول إن الأطباء يطمئنونها خيرا ويبدو أن كومار أصدق من كل الأطباء .. حالته لا تتحسن . ولده الملتحى يأتى ليلقى نظرة عليه لا تزيد عن دقيقة واحدة . يتحدث أيضا مع الأطباء ، يريدهم أن يحددوا له ساعة وفاته ولا يظهر إلا كل أسبوع أو عشرة أيام .. دقيقة واحدة فقط ويختفى لا يحيى أحدا ممن يلقاهم .. أنا يتجاهلنى وأخواه جابر وجبر ينظر إليهما شذرا ، أما شانتى فإنه يعاملها كزوجة أبيه .. الكراهية تغطى كل وجهه عندما يراها وشعيرات لحيته تكاد أن تنتصب من الغضب . لقد مر ما يقرب من عام على رقدة الشيخ تلك .. ولا تحسن يبدو فى الأفق .. كان الشيخ فى البداية يحرك عينيه ورأسه . لم يعد يحركهما وكأنه فى غيبوبة طويلة وابنه الملتحى يستعجل موته .. طلب رفع الأجهزة .. أجهزة التنفس وتنظيم دقات القلب وغيرها إلا أن إدارة المستشفى رفضت طلبه .

جاءت شانتى لزيارتى وزيارة كومار وعرض الوضع الصحى والعائلى للشيخ يوسف الحرمى .. حالته الصحية لن تتحسن وقد يستمر على هذا الوضع شهورا أو سنوات . هكذا أبلغها الأطباء وابنه الكبير عندما اكتشف أن الأمر قد يطول ، طالب شانتى بأن تقوم بتسليمه رسميا شركات أبيه لإدارتها . أوضحت له شانتى أنه فى حالة وفاة الشيخ ، هناك ورثة ، هو مجرد واحد منهم ولا يحق له أن يطالبها بتسليم الشركات . مستودع الأخشاب والمصنع ملكية خاصة ومسجلة لجابر وجبر ، ولا حق له فيهما على الإطلاق ويجب ألا يقترب من المصنع أو المستودع . أسمعته ذلك وهددته بإبلاغ الشرطة فى حالة محاولته أن يمس أملاك ولدى أختها . بل قامت بتوبيخه على جرأته تلك واستعجال موت أبيه . سمعت أنه بدأ التردد على إدارة المستشفى لاستصدار شهادة بوفاة أبيه إكلينكيا ، إلا أن الادارة رفضت طلبه ! .

« يلعن أبو الفلوس » لم يهدأ الملتحى ولم يعتبر ، لجأ إلى المحكمة الشرعية رفع دعوى قضائية بالحجر على أبيه المريض غير القادر على ادارة شئونه ويخشى على ضياع ممتلكاته ، خاصة وأنه متزوج من امراة هندية . تأجلت الجلسة أكثر من مرة لسماع رأى الأطباء وجميع الورثة على ألا تسلم الشركات له إلا بعد حصوله على توكيل خاص من جميع الورثة .. أخواته البنات رفضن المثول أمام المحكمة وجبر وجابر أوضحا للقاضى الشرعى أن أغلب ممتلكات الشيخ يوسف الحرمى شركات قائمة ثابتة ، سمعتها جيدة فى السوق القطرى وخارجه وأن هناك من يدير هذه الشركات ، اختارهم الشيخ يوسف لكفاءتهم وأمانتهم والقضية ما زالت منظورة .

انشغلت عن تلوانة بمرض الشيخ وحرب ابنه وخوف شانتى من انهيار مؤسسات الشيخ بعد وفاته . وصلنى خطاب غبى من إدارة التموين بالباجور يبلغنى بفصلى من العمل إن لم أحضر خلال خمسة عشر يوما . الخطاب لهجته غريبة ركيكة كتبها واحد من الحاقدين على العاملين بالخليج .. يهدد ويتوعد ويشير إلى مواد فى قانون العاملين بالدولة ويذكر أرقام المواد وكأنه يظن أن هناك من يرغب فى « التمرغ فى تراب الميرى ».. لن أرد عليهم وإذا رغبت فى العودة إلى العمل سأعود بحكم قضائى ، أضعه فى عين العفريت ، خاصة وأن إجازتى السنوية تجدد فى موعدها وأدفع ما على من تأمينات وخلافه ورسوم تصريح عمل وضريبة العاملين فى الخارج .

عندما اتصلت تليفونيا بتلوانة ، صرخت أمى طالبة أن أعود على الفور إلى العمل حتى لا أفصل . هونت عليها الأمر .. أبلغتها أن خطابا مماثلا وصلنى ويجب أن تهدأ . هذه الخطابات ترسل بصورة دورية للعاملين فى الخارج . الغرض منها ابتزازهم ، بل هناك من يفصل بالفعل على الورق . يدفع الرشوة المطلوبة ثم يعيدونه إلى عمله . لم أتوقف لحظة واحدة للتفكير فى خطاب الفصل لكن خبر حمل فاطمة وقع على رأسى وكأنه جدار ثقيل لم أستطع أن أستمر فى مكالمة أمى ، فهى تبارك لى على الحمل ولا تعرف المصيبة .

كيف حملت فاطمة ومتى أزالت وسيلة منع الحمل دون أن تبلغنى .. أمها نبوية الداية وراء هذه الكارثة . لقد حذرها الأطباء من الحمل خاصة وأنها تتناول عقاقير قد تؤثر على الجنين وقد يولد مشوها .. وقد يولد عبيطا .. لعنة الله على نبوية الداية . كان أبى يفتخر أن بلدتنا ليس فيها عبيط واحد ويبدو أننى سأصبح والد العبيط المنتظر ! .. هل أرسل خطابا إلى فاطمة أذكرها بما حذره منها الأطباء وأطلب منها أن تجرى عملية إجهاض للتخلص من الجنين .. الآن تصعب العملية ، فعمر الجنين لا يقل عن أربعة خمسة شهور .. ماذا أفعل فى هذه المصيبة ؟ .. هل أنزل لمصر وأعرضها على أحد الأطباء ؟ .. هل هناك أجهزة تكشف صحة الأجنة وإذا كانوا أصحاء أو مرضى ؟ .

أرسلت لفاطمة خطابا غاضبا ، ثم طلبت منها أن تذهب إلى طبيب كبير ، تعرض عليه الأمر وتحكى له عن تاريخها المرضي والعقاقير التى كانت تتناولها وتاريخ توقفها عن تناولها وتاريخ الحمل وفى نفس الخطاب سألتها عن حالتها الصحية وهل ما زالت تقوم فزعة من جلستها أو نومها وطلبت منها ألا تخبر أمى أو هناء أختى بحالتها ، إلى أن أعود.. خطاب آخر لعلى ماضى أصارحه باستشعار خطر ما لا أعرف كنهه .. ويبدو أننى سأعود لمصر قريبا وأطلب منه أن يراعى خميس وسويلم ويحفظهما بعض آيات القرآن إذا كان لديه حنين لمهنته القديمة وأن يداوم المراسلة كسابق عهده .

« هوجة خطابات » .. أهرب من ظروف الدوحة فى كتاباتها . أحاول أن أنتشل نفسى من نفسى وألا أغرق فى مشاكلى الحالية . الخطابات لا تعنى اللحظة .. الخطابات مستقبل .. ترسلها وتنتظر ردا .. قد يقصر الانتظار أو يطول إلا أن انتظار أشياء تعرفها ينقذك من انتظار وقوع أحداث لا تعرفها .. أرسلت إلى عطية خطابا ، نصفه تحيات وأشواق ، إلا أننى اكتشفت أثناء الكتابة أن أغلبها غير حقيقى ، فالعلاقة بيننا افتقدت الحميمية على الأقل من ناحيته هو . فى النصف الثانى من الخطاب ، سألته عن مشروعه والذى كان يخطط لإقامته فى قطعة الأرض المجاورة لمنزلى والذى قال إن حماه أبو عودة يريد مشاركتنا فيه ، خاصة وأن قطعة الأرض قد تمت إقامة سور حولها وأصبحت جاهزة .. جاء رد عطية سريعا .. فى مكالمة تليفونية مختصرة ، طلب منى نسيان هذا المشروع ! .

30

أمام الحاجز الزجاجى الذى يفصل الشيخ يوسف عن الدنيا ومشاكلها ، تقابلت أنا وشانتى .. لم نتبادل تحية ، صمت غريب أطبق علينا ونظراتنا تتجه إلى الشيخ الراقد بلا حراك . الشيخ الذى تحرك فى الدنيا كلها ، شرقها وغربها . تجارته وأمواله عابرة للقارات وحساباته فى البنوك تعلو ولا تنخفض .. يرقد الشيخ .. لا يستطيع أن يتنفس دون مساعدة .. فوق رأسه تومض لمبات خضراء وحمراء وأعلى السرير وبطوله عدة شاشات صغيرة ومتوسطة الحجم ، تتحرك فيها خطوط أشبه بالرسوم البيانية . نظرت إلى شانتى بأسى وعادت عيونها مرة أخرى إلى الجسد المسجى .. الأطباء أخبروها أن الحالة مستقرة بعض الشئ ، إلا أنه غير مسموح له بالسفر للخارج .

كان ولداه جابر وجبر قد أجريا مساع لنقله إلى إحدى مستشفيات لندن لاستكمال العلاج . أرسلوا التقارير الطبية والاشعات ، وافقت إدارة المستشفى البريطانى وأبدوا استعدادا لإرسال طائرة مجهزة لحمله ، فهم يرحبون عادة بالمرضى أصحاب الثروات ، إلا أن إدارة مستشفى حمد رفضت السماح بنقله ولو حتى على مسئولية ولديه . زمت شانتى شفتيها وانسابت من عينها دمعة تبدو متحجرة متجمدة ظلت لثوان معلقة برموشها . قالت إن رفض نقله يعنى أن لا أمل فى شفائه. سألتنى عن حالى .. حالى ليس أحسن من حال الشيخ . نعم أتحرك وأمشى وأعمل وأكل وأشرب ، إلا أن تفكيرى قد أصيب بالشلل ولا أعلم ماذا أفعل فى المصيبة التى انتظرها .

حكيت لها عن قصة حمل فاطمة زوجتى وقصة مرضها وعلاجها

والتحذيرات التى أطلقها الأطباء وكيف أزالت وسيلة منع الحمل دون علمى وأن الأطباء أكدوا بما لا يحمل لبسا أن الحمل أثناء تناول العقار الموصوف لها سيخلف طفلا مشوها .. طفلا عبيطا وتصبح قريتنا مضغة فى الأفواه .. وقريتنا لا ترحم .. ربتت شانتى على كتفى . أمسكت بيدى وألقينا نظرة وداع على الشيخ .. ظلت ممسكة بيدى .. أخشى أن يشاهدنا أحد بهذا الوضع .. هبطنا سلالم المستشفى . سألت عن طبيب هندى تعرفه .. أدخلونا له .. حدثته عن مصيبتى . كلام كثير لم أفهم منه كلمة واحدة . خليط من الإنجليزية والهندية لم أتبين منه سوى جملة كومار الشهيرة « نو بروبلم » كتب على ورقة عناوين مرقمة . تناولت منه شانتى الورقة وسلمتنى إياها .. هذه مجموعة من التحليلات والاشعات يجب أن تجريها فاطمة فى مصر .. نتائج التحليلات كما قال الطبيب ليست مائة فى المائة إلا أنها قد تكشف بعض العيوب والتى من الممكن علاجها أثناء الحمل . فاطمة يجب أن يتابع حالتها طبيب جيد فى مصر ! .

هذا الكلام لابد من إرساله فى خطاب إلى هناء أختى وأرسل معه ورقة الطبيب الهندى وأطلب منها أن تلازم فاطمة عند إجراء هذه التحليلات والاشعات وأن ترسل لى أخبارها باستمرار مع التنبيه عليها بألا تخبر أحدا بحالتها .. كتبت الخطاب على عجل ، خرجت لألقى به فى أقرب صندوق بريد واتصلت تليفونيا بهناء أبلغها بفحوى الرسالة التى ستصلها وأرجوها متابعة الأمر بدقة . خشيت أن أقول لها إن الخطورة كلها فى الجنين .. فى الوليد المنتظر وليست فى فاطمة ومن الممكن أن يكون الحمل فى طفل متخلف عقليا أو مشوه وأن الاسرة فى انتظار عبيط .

التواصل بينى وبين كومار فى المنزل يكاد يكون مقطوعا .. كومار يحترم صمتى ولا يقطع تفكيرى ولا يحاول أن يثير اهتمامى بأى شئ .. يتركنى وشأنى لساعات طويلة . يستأذن فقط إذا كان يرغب فى إعداد كوب شاى لى . رأسى مشغول بهمومى فى تلوانة وهمومى فى الدوحة .. مشغول بما فى بطن فاطمة وبما فى رأس أخى عطية وبما فى قلب ابن الشيخ الملتحى .. وماذا يحدث بعد وفاة الشيخ وكيف سيتعامل ولده معى ؟ .. هل اتخذ قرارى وأعود إلى مصر سريعا قبل أن يتأزم الموقف ؟ .. هل يليق أن أترك الرجل ، الذى وضع كل ثقته فى وهو فى هذه الحالة ؟ .. كلماته ترن فى أذنى ، خاصة الآية القرآنية التى يفتح بها الحديث معى عندما يقرر أن يلقى على بمسئولية جديدة « خير من استأجرت القوى الأمين » .

الأمانة موجودة إلا أن القوة خارت والرأس أصابها العطب من كثرة التفكير . الوقت غير مناسب على الإطلاق لمغادرة الدوحة فى ظل هذه الظروف . شانتى الأنثى تحارب بشراسة للمحافظة على شركات الشيخ واسمه . قد تكون وقفتها تلك نابعة من حرصها على حماية ممتلكات ابنى أختها جبر وجابر ، إلا أن حبها واحترامها للشيخ من دوافع استبسالها فى هذه المعركة .. حبها للشيخ واحترامها له لا أستطيع أن أقلل من شأنه أو حتى الشك فيه ولو لحظة واحدة .

سوء حظى أوقعنى مرة أخرى فى وجه ابن الشيخ الملتحى أمام الحاجز الزجاجى . طلب منى بعجرفة شديدة أن أعد له نسخة من ميزانية شركة المقاولات فى العام المنصرم وأن أسلمها له فى فترة لا تتجاوز الأسبوع . اعتذرت بأدب ، متعللا أننى لا أستطيع أن أخرج ورقة من مكاتب الشركة دون أمر كتابى من المدير العام شانتى ، ومن الممكن أن يطلب هو منها ما يريد . انفعل وعلا صوته . أثار فضول عامل النظافة الواقف فى الردهة المقابلة للحاجز الزجاجى والذى توقف عن العمل ليرى مشهدا غريبا على المستشفى الذى لا تسمع فيه صوتا .. علا صوت ابن الشيخ الملتحى واقترب منى إلى حد الالتحام ورفع سبابته إلى عينى يكاد يخرقها ويحذرنى أنه لن يبقينى يوما واحدا فى الشركة ولا فى الدوحة عندما تؤول الشركة له . خرجت من المستشفى لا أرى شيئا حولى أو أمامى . أسأل نفسى ماذا فعلت لهذا الرجل ليعاملنى بتلك الطريقة . اتصلت بشانتى تليفونيا أبلغتها بما حدث ودفنت رأسى بين كفى وكرسى المكتب يدور بى .

رنين التليفون أخرجنى من حالتى .. قد تكون شانتى لا .. ليست هى .. أنـه صـوت عـلى ماضى من تلوانة .. البركة فيك والبقاء لله .. لم أستطع الرد .. من الـذى مـات فى تلوانـة .. أمى .. أختى .. فاطمة .. عبد الله .. إذا كان المتوفى عمى ما كـان الشـيخ عـلى ماضـى قـد كلف نفسه عناء الاتصال .. زادت حركة دوران الحجرة بى .. حماتك تعيش أنت ولا داعى للنزول لمصر .. سأرسل لك خطابا تفصيليا .. والسلام .. نبوية الداية ماتت .. كيف ماتت وكنت قد تركتها فى أتم صحة وعافية ؟! .. هل المـوت يختطـف المرضـى وحـدهم دون الأصحاء ؟.. ماتت نبوية سبب البلاوى والتـى أقنعـت ابنتهـا بعـدم الانصـياع لأوامـرى وتعليمات الأطباء وأزالت وسيلة منع الحمل دون علمى ودون إبلاغـى ؟، ماتـت وكأنهـا قررت أن تهدينا بمصيبة نذكرها بها طوال حياتنا !.. نزلت من المكتـب عـلى عجـل .. إلى مشيرب مركز الاتصالات « كيوتل » .. اتصلت بالشيخ على ماضـى ، أسـاله كيـف ماتـت نبوية وهل أصيبت فى حادث أو أنها مرضت بعد أن غادرت الدوحة ومـاذا فعلـت فاطمـة وما هى حالتها النفسية الآن ؟ .. ومتى ماتت نبوية على وجه الدقة ؟ .

نبوية ماتت مقتولة .. دخل دارها لص .. سرق كل محتويات المنزل .. لم يترك حتى أنبوبة البوتاجاز.. قيدها من يديها وقدميها فى السرير وذبحها ذبـح شـاة .. يـا مصـيبتك يـا عبـد الحميد يا سعد يا فكة .. خرجت من تلوانة تسعى لتجمـع مـالا وتصـنع عـزوة .. عملـت بنصائح سعد الكبير .. تزوجت من البلد وزوجتك مريضـة اسـتطاعت نبويـة المقتولـة أن تخفى مرضها طوال تلك السنوات .. لم يعرف أحد فى القرية أن فاطمة تقوم لـيلا فزعـة .. تصرخ وتلطم خديها .. نبوية استطاعت إخفاء ذلك عن القرية كلها والتى يعلم أهلهـا كـم مرة فى الأسبوع يضاجع الرجل زوجته .. نجحت فى إخفاء ذلك .. وأحـاول أن أسـتمر فى هذه العملية ، إلا أن نبوية نفسها تم فضحها .. قتلها فضيحة .. لو عرف أهل القرية بمرض فاطمة وقصة نبوية لدمروا حياة خميس وسويلم سيقولون لهمـا أمكمـا مجنونـة وجـدتكم مقتولة ولو وضعت فاطمة طفلا مشوها ، لقالوا لهما وأخوكما عبيط .. ستظل قصة مقتـل نبوية تتناقلها الألسن .. الجدة مقتولة والأم مجنونة والأخ عبيط ! .

كل هذه البلاوى من نصيبى أنا دون غيرى من سائر البشر فى قريتنا . هـذه القريـة الهادئـة التى لم تشهد طوال تاريخها جريمة قتل واحدة . تلك القرية التى لا تتعـدى فيهـا المعـارك الحناجر ولم يستخدم فيها شومة واحدة ولم تشج فيها رأس .. هذه القرية الهادئة تغيـرت .. تحولت .. ماذا حدث فى تلوانة وماذا قد يحدث فيها مستقبلا ؟ .. لم يعد لى رغبـة حتـى فى مخالطة البشر هنا فى الدوحة .. لم أعد أستطيع أن أنظر إلى نفسى طويلا فى المـرآة . عنـدما أنظر إليها .. أشاهد تلوانة كلها .. نبوية المقتولة وابنى العبـيط والصـبية يتجمعـون حولـه يقذفونه بالطوب .. يبدو أن فاطمة ليست المريضة وحدها .. لو استمر بـى الحـال هكـذا سأصبح مثلها . كومار .. كومار . أحتـاج لمـن أفـتح لـه قلبـى وأن أشـكو لـه حـالى .. أن يسمعنى .. أحتاج أن أصرخ بصوت عال .. عادت لحيتى تنمو من الإهمال و« سد النفس » لا أرغب فى أن أرى شيئا حتى الأجندة الخضراء التى كنت أتلقفها بحنان بالغ وحب شديد وكانت تسليتى وسلوتى فى الأزمات .. أقلب فى صفحاتها .. أراجع ما بها من أرقام .. أفكر فيما يمكن شراؤه من تلوانة .. ما حدث لا أجد له تفسيرا ومن فى قدرته أن يفسـر أسـباب الموت والحياة ! .

أخى عطية من الكويت أرسل لى تلغرافا مثل الغرباء .. لا تزيد قيمته عـن مائـة فلـس ولا تزيد كلماته عن أربع « للفقيدة الرحمـة ولكـم العـزاء » لم يفكـر أن يكلـف خـاطره ويرفـع سماعة التليفون ليطمئن على أو يتصل بتلوانة ليعرف ماذا حدث .. كل ما فعلـه أنـه أرسـل تلغرافا وكأنه يبرىء ذمته أو أنه يفعل الواجب المطلـوب منـه فى مثـل هـذه المناسـبات .. أرسال برقية عزاء وكفى . وماذا عن تلوانة ..؟ ماذا عن فاطمة والأولاد .. مـا هـى حالتهـا النفسية وهل زادت سوءا .. اتصلت بتلوانة .. لم تستطع فاطمـة الحـديث ، فهـى فى حالـة انهيار نفسى تام .. فهى التى اكتشـفت مقتـل أمهـا .. شـاهدتها مقتولـة ومقيـدة فى السـرير والدماء تغطى أرضية الحجرة وجزءا من الحائط . الله يصبرها فاطمة .

الخطابات بدأت تنهمر من تلوانة ومن الباجور ، من هناء وعبد الله زوجها والشيخ على ماضى يتحدثون عن فظاعة الحادث وكيف اكتشفت فاطمة مقتل أمها وخروجها من الدار مكشوفة الرأس تصرخ وتهيل التراب على رأسها وأنهم أدخلوها دارنا ولم تخرج إلا عندما جاءت النيابة لمعاينة الحادث وأنها منذ الحادث لم تغادر الدار ، إلا إنها أصبحت الآن أحسن حالا . خميس وسويلم لم يستوعبا الحادث ولم يشاهدا جدتهما أو جثتها . جلست معهما هناء ولم يذهبا إلى المقابر . الشرطة ما زالت تبحث عن الجانى وهناك من يقول إنهم شاهدوا محمود ابن صلاح عجورة زيرو 48 فى البلدة قبل الحادث بيومين وأن كل من قال أنه شاهد عجورة حققت معه المباحث وظل لمدة ليلتين فى الحجز مما جعل من جزم بمشاهدته ينفى رؤيته منذ خروجه الأول من القرية بعد قضية المخدرات .

كل ما فى دار نبوية الداية سرق ، أموال وذهب وتليفزيون ملون وكاسيت وحتى أنبوبة البوتاجاز . البعض يقول ربما الجانى أكثر من واحد والشرطة جاءت لترفع البصمات إلا أنها لم تعثر على بصمة واحدة وكأن الجانى أو الجناة كانوا يرتدون قفازات فى أيديهم .. الحواديت فى القرية لم تنقطع ولن تنقطع حول هذا الحادث . البعض يقول إن المقصود كانتا نبوية الداية وفاطمة زوجتى خاصة بعد أن عادت للقرية فى الإجازة وعلى صدرها الكردان الذهب والذى توهم البعض أنه يزن نصف كيلو على الأقل .. المشكلة فى خيال عمى المريض الذى ورث وساخة عجورة .. عمى يشيع بين الناس أن القاتل اغتصب نبوية قبل سرقتها ويدلل على صدق قوله بتقييدها فى السرير .. يا فضيحتك يا عبد الحميد يا سعد يا فكة . مهما اشتريت من أراض وأطيان لن تستطيع دفن فضيحتك وفضيحة أولادك من بعدك .. مهما جمعت من مال وصنعت من عزوة لن تستطيع أن تخرس الألسن .

حاول كومار قدر استطاعته أن يخرجنى من أزمتى تلك .. اصطحبنى إلى مقهى الريان .. رواد المقهى عرفوا بوفاة حماتى .. وفاتها لا مقتلها .. قدموا التعازى وعادوا إلى أحاديثهم اليومية المتكررة حول مشاكل العمل والإقامة ، تأشيرات السفر ، استقدام الأسر ، سعر الدولار وارتفاع الأسعار فى مصر .. تخيلت صاحب البيجاما الكستور وكأنه يدخل المقهى ، هممت للانصراف . أمسك كومار بيدى ليجلسنى مرة أخرى . بدأ حديثه عن المستقبل وتساءل عن استمرار شركات الشيخ بعد وفاته .. يتحدث عن الشيخ يوسف الحرمى بحيادية شديدة .. مؤكدا أن وفاته مسألة وقت ولن تستطيع شانتى وجبر وجابر الوقوف فى وجه ابنه الملتحى .. الابن سيضع يده على الشركات ويديرها كما يريد .. كومار يفكر فى نقل كفالته إلى شخص آخر أو شركة أخرى حتى لا يجد نفسه « مفروما » فى معركة لا تخصه .. يسألنى ماذا سأفعل ؟ .. وهل فكرت فيما يفكر هو فيه ؟ .. تفكيرى محصور فى مصائب تلوانة .. الفضيحة وفاطمة وحملها ومرضها .. أفكر ـ فى الحقيقة ـ فى الهروب من تلوانة كلها .. من تاريخى ومن حياتى .

حصل ابن الشيخ الملتحى على حكم من المحكمة بوصفه حارسا على أملاك وشركات والده .. جاءنى بمقر الشركة .. سلمنى صورة من الحكم وطلب منى تسليم جواز سفرى إذا كان فى حوزتى وأمهلنى أسبوعا لمغادرة الدوحة نهائيا . لم أهتز .. لم أكترث ابتسمت فى وجهه ببلاهة .. أعلم أننى عائد إلى بلدى .. عائد . هناك من ظلوا طويلا فى الدوحة، بعضهم عاد برغبته على قدميه والبعض الآخر عاد فى صندوق خشبى ، ارفقوا معه صورة من شهادة الوفاة وأسباب الوفاة . عادوا فى بطن الطائرة . عادوا مع العفش والحقائب . لا أحتاج من الدوحة شيئا . لن أتجول فى الأسواق كما يفعل العائدون . حقيبة يد بها بعض الملابس والأجندة الخضراء . سأسحب كل مدخراتى من البنك . سأقوم بتسوية حساباتى مع كومار .. شيك واحد سأضعه فى جيبى .. كل ما أحتاجه من الدوحة أن أجلس مع نفسى بعض الوقت وأودع شانتى وكومار وصبى مقهى الريان .

أصرت شانتى أن يكون حفل الوداع شخصيا ورسميا وقررت إقامة حفل صغير فى فندق ، دعت إليه حوالى ثلاثين موظفا من العاملين فى شركات الشيخ وبعض العمال المصريين والهنود . نفس الفندق الذى دخلته أول مرة بصحبة الشيخ يوسف الحرمى وتناولت معه طعام الإفطار .. لم أخش هذه المرة أن أسير على السجادة الحمراء فى بهو الفندق أو السجاجيد الآخرى المؤدية إلى مكان الحفل .. هنود سيخ بعمامات وهنود مكشوفو الرأس .. عمال مصريون وآخرون هنود وباكستانيون .. الدعوة وراءها رأس وعقل شانتى .. تمثيل نسبى للجنسيات المختلفة التى تعمل فى شركات الشيخ .

على المائدة الرئيسية تجلس شانتى بين جابر وجبر .. تحدثت وأعربت عن أمانيها بشفاء الشيخ يوسف الحرمى الذى كانت تتمنى أن يكون بيننا .. قالت بلغة عربية ما كان يقوله الشيخ « خير من استاجرت القوى الأمين » مدحت فى أمانتى خلال فترة عملى وجاملتنى بأن سفرى بناء على رغبتى وأن كل العاملين كانوا يتمنون استمرارى معهم ، إلا أن هناك ظروفا تمنعنى من الاستمرار فى الدوحة . استدعت كومار للحديث وقف يتكلم بالمصرى عن علاقتى به الممتدة منذ أن عملنا سويا لدى الحاج « ايش اسمه » عبد المتجلى .. ضحك العمال المصريون .. قدمت لى شانتى هدية .. فتحت العلبة .. ساعة ذهب حقيقية لو رآها الشيخ على ماضى لجحظت عيناه وقدم لى كومار سجادة صلاة من الحرير الهندى الخالص وصندوقين ثقيلين .. تناول الحضور العشاء وانصرفنا .

فى المنزل فتحت الصندوقين .. تماثيل الأفيال التى يمسك الفيل الأصغر بذيل الفيل الأكبر والصندوق الثانى به تماثيل القرود الثلاثة .. وبطاقة تحمل اسم كومار . أول مرة اعرف اسمه كاملا « كومار بى ريريره » مدير مالى . صبحية اليوم التالى جاءت شانتى بصحبة كومار فى سيارتها وبعد قليل جاء المساعد الهندى الشاب .. قالوا جاءوا ليصحبوننى إلى المطار .. فى الطريق مروا بميدان « براد الشاى » .. طلب كومار من شانتى أن تلف الميدان أكثر من مرة ، متندرا بأننى كنت أرغب فى شراء دلة كبيرة وحملها إلى قريتى .. من نافذة الطائرة ألقيت نظرة أخيرة على الدوحة .. نظرة وداع محملة بالشجن ومسكونة بعواطف لا يمكن وصفها .. المدن مثل الأشخاص . هناك ما تعشقه منها وما تمقته . فى القاهرة هبطت الطائرة ومنها بسيارة أجرة إلى تلوانة .

نزلت عند اليافطة .. تلوانة .. ما زالت هواية أطفال القرية إلقاء كرات الطين عليها . لم يلمحنى أحد من أهل القرية .. عرجت إلى المقابر . قرأت الفاتحة على روح أبى و اتجهت مباشرة إلى الدار . فوجىء الجميع بوصولى .. أمى وفاطمة والأولاد . بكت فاطمة بحرقة .. تهتز بطنها بشدة من البكاء . لم أقدر على النظر إليها .. أخشى الفضيحة الجديدة .. بكت أمى واستفسرت .. ألم يحن الوقت للعودة النهائية إلى حضن تلوانة ؟ .. إنها نهائية .. انتقلنا لمنزلى الجديد .. نمت ليلة هادئة ، لم تستيقظ فيها فاطمة مرة واحدة .. فى الصباح يخرج سويلم وخميس إلى المدرسة وأخرج أنا كرسى خيرزان عليه وسادة .. أجلس عليه طوال اليوم أمام العمارة التى بنيتها .. أمامى الغيطان والمقابر والترعة وتحت الوسادة الأجندة الخضراء .. أنظر إليها من وقت لآخر .. لا أراجع حسابات لكننى أنظر إلى الأرقام .. جاءنى الشيخ على ماضى يهنئ بسلامة العودة والوصول .. أخفيت الأجندة تحت الوسادة .. لم يتغير الشيخ على ماضى .. نظر بعين الصقر إلى ساعتى الذهبية واستمر فى أحاديثه عن المشاريع .. أبلغنى أن متر الأرض فى الباجور وصل مائة وخمسين جنيها نقدا ومائتى تقسيط .. القراريط السبعة أصبح سعرها الآن يساوى سبعة أفدنة .. كلام لم أعد أكترث به وأحلام لم تعد تشغلنى . انصرف الشيخ علي ماضى وأخرجت الأجندة الخضراء مرة أخرى .

نظرت إلى الأرقام التى بها والتواريخ .. ابتسمت .. الأجندة بها كل مليم اكتسبته وكل مبلغ حولته إلى مصر .. الأجندة بها كل حياتى الرقمية . عاد سويلم وخميس من المدرسة يمسكان بعضهما وحقيبة كل منهما على ظهره . كنت أعود من المدرسة أنا وأخى عطية مثلهما تماما كنت وما زلت أحب عطية .. أخشى أن يتكرر ما حدث مع الأعمام .. دخلا المنزل يتصايحان وبقيت على مقعدى انتظر المصيبة .

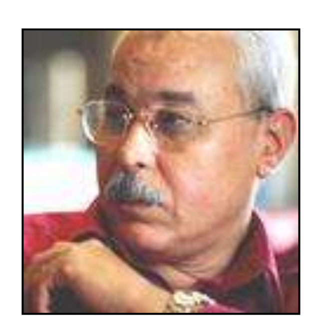
أمى وهناء أختى مع فاطمة داخل المنزل فهى على وشك أن تضع مولودها فى أى وقت ، تقول أمى إن الوضع تأخر ، فقد كان من المفروض أن يتم الأسبوع الأسبق .. حياتى هى الكرسى الخيرزان والأجندة الخضراء .. أنظر إلى الطريق الصاعد من القرية إلى الطريق السريع .. توقفت سيارة ميكروباص أمام المنزل .. نزلت منها امرأة متشحة بالسواد .. ألقت التحية .. دخلت إلى المنزل دون استئذان .. وجهها أعرفه .. لقد رأيتها من قبل .. ربما من سنوات .. إنها .. إنها أم شاهين داية بير شمس التى أرسلت تحياتها معى منذ سنوات إلى نبوية الداية ! .

تمت بحمد الله

المعادى القاهرة

نوفمبر 2006

السيرة الذاتية



محمد غزلان

- مواليد القاهرة 1953

- المؤهل :ليسانس أداب أنجليزي و تربية – جامعة عين شمس - عام 1975.

- صحفي وروائي.

- نائب أول رئيس تحرير جريدة المساء القاهرية.

- عمل بجريدة الإجيبشان جازيت .

- عمل محررا بالقسم الخارجي ثم محرراً دبلوماسياً بجريدة المساء ثم مساعد رئيس تحرير جريدة المساء والمشرف العام على قسم الخارجي بها.

- عمل في مجالات التدريس والترجمة والتحرير والأفلام التسجيلية .

- نشر في أغلب الجرائد والمجلات الخليجية.

- وعمل في دولة قطر ومملكة البحرين له أفلام تسجيلية منها :

1. عشاق ثومة .

(عن جماهير كوكب الشرق أم كلثوم (.

2. طلعة رجب وأعياد الموتى (عن زيارات المقابر في مصر) .

3. نقابة الصحفيين (مبنى وتاريخ (.

صدر له خمس روايات

1-الخروج من بغداد (دليل التائه). طبعة أولى ديسمبر 2004 على نفقة المؤلف

طبعة ثانية 2008 الهيئة العامة للكتاب

2-أول القصيدة بسيطة. طبعة أولى 2008 (دار الكتب للنشر)

طبعة ثانية 2010 (الهيئة العامة للكتب)

3-حاول.طبعة أولى 2009 (دار الكتب للنشر)

4-الواطى.طبعة أولى 2008 (دار الكتب للنشر)

5-المعادى حدوته(ثلاثية)الجزء الأول. طبعة أولى سبتمبر 2011 (كتاب الجمهورية)

له تحت الطبع

- الجزء الثانى والثالث من (المعادى حدوته).

facebook: محمد غزلان mohamed ghozlan

blog:ghozlan.wordpress.com